خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

وفيها مجمل آرائه وافكاره ومرئياه في اهل الشرق والغرب
اخلاقاً وسياسة واجتماعاً

تأليف

محمد باشا المخزومي

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر
بيروت سنة ١٩٣١

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

القاهرة

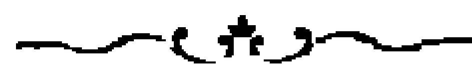
خاطرات

جمال الدين الأفغاني الحسيني

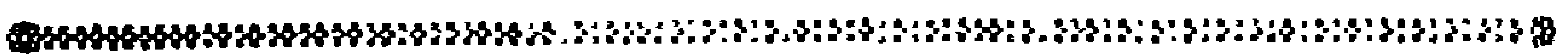
وفيها مجمل آرائه وافكاره ومرتآه في اهل الشرق والغرب
اخلاقاً وسياسةً واجتماعاً

تأليف

محمد باشا المخزومي



حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف



طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر
بيروت سنة ١٩٣١



رسم السيد جمال الدين الافغاني سنة ١٣١٢ ه‍ ١٨٩٥ م



رسم المؤلف محمد باشا المخزومي

حول اهداء الكتاب

اهداء المؤلفات ، والكتب للملوك ، والامراء ، واعاظم الرجال ، عادة جرى عليها المتأخرون من العلماء والادباء — وقد قلدوا في ذلك المتقدمين مثل الفيروز آبادي ، والعلامة الحكيم ابن خلدون — اذ اهدى الاول قاموسه الى الملك الاشرف اسماعيل صاحب اليمن — والثاني تاريخه الى امير المؤمنين ابي عبد الله المريني — وغيرهما من جهابذة العلماء ممن نحا نحوهما ، ونالوا من الجوائز ، والاموال ما يضارع تقدير اولئك الملوك لجهود العلماء ، وما يلاقونه من المشاق ، والمتاعب في سبيل مؤلفاتهم ، وليس من غرضنا استقصاء ذلك ، او التبسط فيه — بل قصدنا ان نذكر ما حام حول هذا الكتاب « الخاطرات » من الآراء في سبيل اهدائه — فالملوك في الشرق والحمد لله مشرقة بهم ممالكهم — وآثارهم في تنشيط العلم واهله — بارزة موفورة ، مشكورة — وهكذا الامراء والعظماء — وما منهم إلاّ من يليق ان يهدى لمقامه كل جليل ، ونفيس — ولكن لما كان صاحب « الخاطرات » الحكيم الشرقي السيد جمال الدين الافغاني « رحمه الله » من ارسخ اركان النهضة الشرقية — بل هو واضع اساسها ، وحجر زاويتها — نعم هو ممن انبتته ارض الافغان ، ولكن كما سيراه المطالع — كان يهمه الشرق ، ويهمه اهله على السواء — وكانت نفسه تذهب حسرات عند

كل نازلة تنزل في بلاد الشرق ، او ملمة تلمّ باهله — لا فرق عنده في ذلك بين بلاده ، ومسقط رأسه الافغـان — وبين كنانة الله مصر ، ولا بين الاقطار الهندية — وبلاد فارس « ايران » على حد قول الشاعر :

نصحت ونحن مختلفون داراً　　ولكن كلنا في الهمّ شرق

لذلك فقد اجمع الرأي على اهداء هـذا الكتاب « الى الشرقيين » — على تعدد اقطارهم ، وامصارهم ، غير ملتفتين الى ما قطعته ايدي السياسة من اوصال هذا الشرق ، ولا لما فعلته ايدي الاغراض — من فصل حدود متصلة ، وتخوم متجاورة — فقلوب الشرقيين موحدة — واجزاء الشرق المبعثرة بحكم الضغط ملتحمة — نسأل الله جمع الشتات وتفريج الازمات انه سميع مجيب الدعوات .

بيروت في ٢٧ شوال سنة ١٣٤٩ و١٢ اذار سنة ١٩٣١　　المؤلف

محمد المخزومي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث في كل امة نذيراً ، وارسل خاتم النبيين محمداً سراجاً منيراً ، وانزل عليه ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً — والصلاة والسلام على سائر الانبياء والمرسلين هداة الخلق الى الحق وعلى آلهم وصحبهم اجمعين .

تمهيد

ان هذا الكتاب (خاطرات جمال الدين الافغاني) قد كتبت مواضيعه في دور السلطان عبد الحميد ما بين سنة — ١٣١٠ هـ — ١٨٩٢ م — الى سنة ١٣١٤ هـ — ١٨٩٧ م — على كمال الاحتراز — بل الخوف من شدة المراقبة ، ووفرة الجواسيس ، وكثرة الافتراء في ذلك الزمن على الابرياء خصوصاً على السيد جمال الدين ، وعلى من كان يكثر الاجتماع عليه ، او يدخل بيته .

فالمطالع له الآن ربما لا يرى فيه كبير اهمية — ولكن اذا ارجع النظر الى ما قبل اكثر من ثلث عصر — والى ان مواضيعه تحررت في الاستانة — وان تلك الافكار ، والاقوال لم تحور ، ولم يطرأ عليها ادنى تغيير — يعلم خطر امرها — كذلك لا بد للمطالع ان يرى مواضيع الكتاب غير متسلسلة

والسبب في ذلك انها لم تكن في موضوع ، او مطلب واحد بل هي احاديث بعضها بني على الحوادث ، وبعضها اتى على سبيل السوءآل والاستفهام ، والبعض الآخر على سبيل الجدل مع آخر ، ومنها ما هو عفواً وبغير مقدمة — فاثبتنا الجميع على علاتها و كيفية صدورها ·

على اثر اعلان الدستور العثماني توهم كثير من اصدقائي الذين يعلمون بوجود (خاطرات جمال الدين) ان الزمان قد حان ، وآن اوان نشر الكتاب بعد ذلك الطي والخفاء ·

واتتني عدة رسائل من اخواني في مصر ، وممن لا معرفة بيني وبينهم من انحاء الهند يستحثونني على سرعة طبع الكتاب — فما كدت ان اباشر الطبع الا ورأيت في مقال جمال الدين تحت عنوان «الاحزاب في الشرق» ما ينطبق على حال رجال جمعية الاتحاد والترقي من اثرة ، وانانية ، وكذب الاماني التي منوا الامة بها وذهبت هباء منثوراً ·

فرأى لفيف من الاصحاب خطراً على الكتاب ان يعدم ، وعلى المنتظر ان يحرم — فرأينا التأجيل للوقت الانسب اولى ، وللسلامة ادعى ·

مرت سنون ونحن على طبع الكتاب بين اقدام واحجام حتى كانت سنة (١٣٢٩ ﻫ — ١٩١٢ م) اذ اعادت الاصدقاء الكرة في مقدمتهم بعض ارباب الصحف الافاضل يطلبون نشر الكتاب ·

فنشطنا لتلبية الطلب ونشرنا فهرست الكتاب مطبوعاً — وما فرغنا من اذاعته الا وجو السياسة اخذ يتعكر صفاوءه ، ومخاوف بعض كبار موظفي الاتحاديين اخذت تبدو من مواضيع كتابٍ يعلمون حقيقةً انه لم

يقصد به تقريع اشخاص او تقبيح اعمال هيئاآت ، او قلب حكومة ما — ثم اعقب ذلك شبوب الحرب الكونية — فاحتلال الحلفاء البلاد ، ثم تقطيعها الى دويلات . . الخ — فاضطررنا ايضاً بحكم تلك العوامل ان نرجىء النشر ولكن ليس الى يوم النشر .

ولكي يكون المطالع على بينة من صدق القول نذكر هنا الفهرست المطبوع قبل تسع عشرة سنة في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩١٢ . وهاك هو بالحرف :

كتاب خاطرات جمال الدين الافغاني

❋ بقلم محمد باشا المخزومي ❋

لقد كثر طلب الاخوان والاصدقاء والمعارف من جميع الارجاء والانحاء لطبع خاطرات الحكيم الشرقي الكبير جمال الدين الافغاني حتى لم يبق مجال إلا باجابة السؤال ، وتلبية النداء معما فيه من المشاق .

واليك ما جاء في الرأي العام الأغر عدد ٤٩٢ تاريخ ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٢٩ .

❋ آثار الافغاني ❋

لم يبق في بلادنا وفي اعظم البلاد الشرقيـة احد من الافاضل وحملة الاقلام الا ويقـدر الحكيم الشرقي المرحوم السيد جمال الدين الافغاني قدره ويعظم منزلته من الحكمة والاخذ باسباب نهضة الشرق وما تكبده في ذلك من احتمال المكاره — وقد سمعنا من قبـل ان المرحوم جمال الدين في

مقدمه الاخير للاستانة سنة ١٣١٠ ﻫ الذي انتهى فيه ارتحاله الى دار البقاء سنة ١٣١٤ ﻫ — كان في تلك المدة يبوح بافكاره وآرائه وما يخالج صدره من التصورات الى وطنينا ومن نوابغ افاضلنا وكتـابنا في سوريا محمد باشا المخزومي وقد جمع كل افكار السيد جمال الدين ودبجها بكتاب لا نرتاب انه جليل مفيد ·

وانتهى الينا ان كثيراً من السراة والعلماء في القطر المصري والهند رغبوا الى الباشا المشار اليـه عقب اعلان الدستور العثماني ان يسرع بنشر الكتاب وألاّ يتعلل في التأخير وقد اظهروا له كل استعداد في سبيل تذليل الصعاب لظهور الكتاب لعالم النشر ولا ندري ما هو الحامل لحضرته على التقاعد عن اجابة الطلب والامة باشد الحاجة لاقوال حكيم مثل جمال الدين ومحمد باشا كان لآخر نسمة من حياة السيد جمال الدين ساعده الايمن في الاستانة وموضع اسراره فنؤمل من وطنينا الا يتهاون في نشر ذلك الكتاب وان يتحف الصحافة فيما يراه من المواضيع الاجتماعية الهامة منه واملنا بوطنيته وغيرته ألا يضن باجابة هذا الطلب وهو الذي تعرف له الصحافة في الاستانة ومصر حق القدم وسابق الخدم وكذلك بلادنا السورية ·

وهاك ما جاء في لسان الحال الاغر عدد ٦٨٤٦ تاريخ ١١ كانون الثاني ش سنة ١٣٢٧

﴿ آثار السيد جمال الدين الافغاني ﴾

يعلم القاصي والداني من الشرقيين ان المرحوم السيد جمال الدين

الافغاني كان من ارسخ اركان النهضة الفكرية في الشرق وكان رأيه بعيد المرمى يتسلسل منه معين الحكمة فيرده كل ظامئ من مريديه الذين تعشقوا مذهبه وضربوا على قالبه واعجبوا بسمو مداركه ولسنا الآن في مقام يسمح لنا بسرد مناقب ذلك الحكيم وما عاناه من حكومة ايران وحكومة الاستانة في العهد الحميدي فان ذلك امر معروف عند اغلب الخاصة ولكننا نريد بهذا التمهيد ان السيد جمال الدين على بعد شهرته في الحكمة والسياسة وفلسفة الاجتماع لم تجمع اقواله في كتاب خاص ولا اودعت تلك الآثار الحية في سفر يطالعه رواد الادب وطلاب السياسة ·

رأى حضرة وطنينا محمد باشا المخزومي احد نوابغ الافاضل هذه الثلمة فسمت به همته الى سدها فعمد الى جمع تلك الاقوال في كتاب خاص سيعرضه للاشتراك ويضرب لذلك اجلاً خاصاً يعين فيه قيمة الاشتراك على ما سنذكره في فرصة اخرى نأتي فيها على بعض مواضيع الكتاب ·

ولا يخفى ان حضرة محمد باشا كان من اصفى الاصدقاء للسيد جمال الدين وقد لزمه في الاستانة وكان السيد يفضي اليه باسراره ويودع في اذنيه ابلغ اقواله فالكتاب سيجمع ما لم تدونه الصحف من الاقوال والشذرات التي امتاز بها جمال الدين ولا نشك في ان الادباء والالباء سيقبلون على الكتاب اقبال الظامئ على الزلال ويصيغون عقود الثناء لجامعه جزاء حرصه على ذلك الاثر النفيس ولا عجب فان الفضل يعرفه ذووه ·

وجاء في المفيد الاغر ٨٩٩ تاريخ ٢٢ كانون الثاني سنة ١٣٢٧ ش

﴿ السيد جمال الدين الافغاني وآثاره ﴾

كل من ألمّ بتاريخ السيد جمال الدين الافغاني وسمع بارائه ووقف على سياسته يود ان يطلع على آثار هذا الفيلسوف الذي يرجع اليه الفضل في هذه الحركة الفكرية الشرقية ولقد سرنا ان قام بيننا من يدون اقوال واراء هذا الاستاذ في سفر خاص ليسهل على الناشئين الاطلاع على تلك الآثار الحية والحكم النفيسة ·

رأي حضرة وطنينا الفاضل محمد باشا المخزومي ان يدون هذا الكتاب وسيعرضه للاشتراك فيضرب له اجلاً خاصاً يعين فيه قيمة الكتاب ولا شك ان معرفة الباشا بالاستاذ وملازمته له في الاستانة تسهل عليه جمع الفصول والمقالات التي امتاز بها الاستاذ جمال الدين ·

ولا نشك بان الاقبال سيكون عظيماً على هذا الاثر النفيس فجدير بنا ان نثني على همة جامعه لحرصه على هذا الاثر ·

وهذه هي اهم مواضيع الكتاب : (المذكورة في الفهرست المطبوع سنة ١٩١٢ م) (١) تمهيد ويليه مقدمة من المؤلف مزدانة برسم السيد جمال الدين وحاوية ترجمة حياته حتى مقدمه الاخير للاستانة ، ووفاته فيها · وتشتمل على صفاته ، واخلاقه ، وتصرفه مع جلسائه ، واوضاعه ، وخروجه من بلاد الافغان بعد ان استوزره الامير محمد اعظم خان ، وهبوطه لمصر اول مرة ومجيئه للاستانة ونفيه منها ، وسبب النفي ، وهبوطه لمصر للمرة

الثانية وما جرى له فيها من حفاوة ونفي ، وما احدثه وجوده فيها . (٢) رأيه في الاسرار والاعلان ، وردّه على من اخذ عليه بانه جهري لا يكتم سراً . (٣) سبب تألمه من الشاه وغلظته في مخاطبة الملوك والامراء . (٤) ما خاطب به السلطان عبد الحميد في شأن ناصر الدين شاه العجم ، وكيفية طلبه الرجوع عن بيعته للسلطان ، ورأيه في السلطان عبد الحميد من حيث الدهاء والذكاء وما جرى له معه من الاحاديث الهامة في شؤون السلطنة عامة والاخذ على السلطان عبد الحميد في سيرته الخاصة » وما لاقاه في بلاد ايران الى ان نفي ، وصورة نفيه الفظيعة ، وذهابه الى اوروبا ، وشخوصه الى لندن بطلب من اللورد ساليسبوري واللورد تشرشل واستقدامه من هناك الى الاستانة وهو مقدمه الاخير الذى انتهت فيه حياته رحمه الله . (٥) غرض جمال الدين الاسمى في حياته وما كان يتوخاه من ضربه في مشارق الارض ومغاربها . (٦) رأيه في الاحزاب السياسية في الشرق خصوصاً . (٧) رده على من زعم ان جمال الدين حكمته في لسانه اكثر مما هي من قلبه . (٨) رأيه في مصر والمصريين وبيانه صورة الحكم الذي يجب ان تحكم فيه مصر خصوصاً والشرق عموماً . (٩) رأيه في الوطن وفلسفته فيه بالنسبة الى النوع الانساني واعتقاده ان التفرد بالسلطة وسوق الامم على هوى الفرد سيزول من العالم مع بيانه للاسباب . (١٠) في تأثير فضائل الوفود والفاتحين ، والمستعمرين وضربه المثل في العرب في فتوحاتهم وانتشار لسانهم . (١١) تفسيره لما اشكل على المؤرخ والشاعر التركي المرحوم ضيا باشا من عدم ترك الاتراك اثراً بعد ان توغلوا في اوروبا ولم يكن لهم ما كان للعرب في

فتوحاتهم وحجج السيد في ذلك مع اسهاب في الاسباب · (١٢) في تأثير آداب اللسان · (١٣) استنتاجه ان ترك الاثر مع التفريط في صون الملك وعدم حفظه ادعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر · (١٤) في ما اشتهر عن جمال الدين من مزية الاقناع في حالتي السلب والايجاب والسبب في ذلك · (١٥) مثال في تأثير كلام السيد في مخاطبه وكيف انه كان يحمل حتى الخامل على العظائم والجبان على الجسارة · (١٦) في تكليف السلطان عبد الحميد للسيد جمال الدين ان يزوجه من احدى جواري قصره وما جرى له في هذا البحث من اخذ ورد وكيف انه ابى القبول ، وكلامه في الحكمة الزوجية (وقد تناول هذا البحث رأي السيد في امر مساواة المرأة بالرجل وضجة المستشرقين والمتفرنجين في اعادة حقوق المرأة المهضومة) (١٧) مقابلة جمال الدين لسمو الخديوي (عباس حلمي) واختلاق الجواسيس فرية مسئلة الدولة العباسية ، واهتمام السلطان عبد الحميد بذلك ، وما احتمله هذا الامر الذي اقام واقعد ، وما جرى اخيراً من مقابلة السيد للسلطان وما دار بينهما من الحديث في هذا الشأن · (١٨) دعابة المرحوم عبدالله نديم للسيد في بحث الدولة العباسية ، وتعريضه فيمن اختلقها في ذلك الحين · (١٩) اجلال السيد واعظامه لمقام الخلافة · (٢٠) رأيه في الانكليز ووصفه للانكليزي والعربي ، وفلسفته في الحجر الشرعي على الفرد السفيه ، وكيف ان الغربيين ساعون بتلك المطامع نحو الشرق · (٢١) رأيه في كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق واهله من الحجر ، وخطر ما يلزم ذلك الامر من الحكمة والتدبير ، وبيان وعورة المطلب ، وكيفية ترنية

الطفل الذي سيكون رجل المستقبل ، ويتكون من تكونه امة صالحة تحكم نفسها وتخلص من حجر الغرب ٠(٢٢) قوله في الصبر والثبات ٠(٢٣) انكار جمال الدين ما نراه من المدنية ،ومغالطته باستبداله لفظـة الفناء في التنازع عوضاً عن البقاء ،وان العلم الصحيح اذا وصل اليه العالم فاعظم اثر له انمـا يكون بمنع الحروب ، التي هي من اكبر الادلة واسطعها على توحش الانسان وله في ذلك براهين وافاضة ٠ (٢٤) قوله في دعوة الاسلام وكيفية انتشاره وان الدين لا ينبغي ولا يصح ان يخالف الحقـائق العلمية ولزوم الرجوع الى التأويل ٠ (٢٥) فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك واصول الحكومة الشوروية ووظائف الملوك الخ ٠ والاشارات الى مقدمات العلوم والفنون الحديثة ٠ (٢٦) فيما سبق اليه العرب من العلوم والفنون ٠ (٢٧) أدلة جمال الدين على ان الكيمياء تتم بالصناعة وانها ثمرة الحكمة ويقتضي لها تحقيق ورسوخ في عمادات تلك الصناعة وتفنيده لادلة بن خلدون ٠ (٢٨) إنكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهـاد ٠ (٢٩) نفور السيد من قول سني وشيعي وان لا موجب لهـذه التفرقة التي احدثتها مطامع الملوك وجهل الامة ٠ (٣٠) رأيه في مذهب النشوء والارتقاء وان العرب سبقوا فحققوا هذا المذهب وقالوا فيه صراحة وذكره (درون) والدكتور شميل استطراداً في هذا البحث ٠ (٣١) رأيه في الاشتراكية (سوسياليست) وانها لا تخالف الدين بل الاديان تقول بهـا ٠ (٣٢) قوله حقائق الاشياء ثابتة والاحاطة بها لفرد متعذر والعلم باسبابها متوزع ٠ (٣٣) قوله ان الحق لا يكون مع الاكثرية على الغالب وادلتـه على ذلك ٠

(٣٤) رأيه في الاديان الثلاثة وانها متفقة في المقصد والغاية ٠(٣٥) رده على من اخذ عليه قوله ان اصول الاديان واحدة وانها من المتناقضات في مباحثه (٣٦) بحث تصوفي ٠(٣٧) رأيه في المسئلة الشرقية واختصاره امرها وتبجيله لفكرة السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربي لساناً رسمياً والاخذ بتعميمه وبراهينه على استحالة مطلب تتريك العرب خصوصاً وان شواهد التاريخ من الادلة القاطعة اذ تبرهن ان كثيراً من الاعاجم استعربوا ولم يسمع ان عربياً استعجم وبالاجمال نتيجة مرتئاه في حل المسئلة الشرقية على توسع في الموضوع وتناوله حالات العناصر في المملكة العثمانية من حيث روحها وذكره الاسس الثابتة للاقوام من مدنية ولسان وتاريخ ، وما لذلك من التأثير وفيه افاضة ٠ (٣٨) ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب باجراء العدل والاخذ به وبين ما يأتي من ذلك عن غرور وعزة واتيان العدل اذ ذاك عرضاً ٠(٣٩ — ٤٠) رأيه في الدول الاسلامية ومحاكمته لما اتوه من الخطأ والصواب واسباب ما نراه في الاشياع والاتباع من التقهقر والانحطاط ٠(٤١) حديثه عن الهند ومستقبلها وشيء عن سيرة السلطان محمود الغزنوي بفتحه تلك الاقطار ٠ (٤٢) استغرابه ميل الشرقيين في هذا العصر الى حب التطويل في المقال والتسويف والمماطلة في الافعال على عكس ما كان عليه السلف وامثلته على ذلك ٠ (٤٣) رأيه في المستعمرات والمستعمرين وان الاستعمار لأي دولة مهما تعاظمت قوة واقتداراً فمستعمراتها ان هي الا ثوب عارية قابل للاسترداد وادلته على ذلك (٤٤) قوله في ان المسلم سواء فيه العربي والاعجمي انما يعجب بماضيه وهو في

اشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف انه يجب ان يكون مع ما هو عليه من دواعي ومستلزمات التقهقر مثل سلفه الساهر اليقظ والصالح المصلح والحاكم العادل · (٤٥) قوله في الناشئة الشرقية استحساناً واستهجانا · (٤٦) امثلته في التقليد النافع وضربه المثل دليلاً بدولة اليابان الشرقية (٤٧) قوله ان اضعف ما في هذا العصر حق ضعيف لا قوة له واقوى شيء باطل مبطل قوي يعطل الحق بقوته · (٤٨) نظرته العامة في الاسلام والمسلمين واسباب ما الم بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من النهوض واسباب الرقي على عكس من نهض من الامم وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه من اخذ العدة واسباب النهضة المشهودة فيهم وفلسفته في ذلك (٤٩) · رأيه في القضاء والقدر والجبر وافاضته في ذلك · (٥٠) جمل مختصرة وامثال حكمية ·

هـذه هي اهم مواضيع كتاب خاطرات جمال الدين التي سبق نشر فهرستها المتقدم ذكره والتي سبق القول انها كتبت قبل اكثر من ثلث عصر والسبب الذي حمل على تدوينها هو ان المرحوم السيد جمال الدين بعد مقدمه الاخير للاستانه او استقدامه اليها من عاصمة الانكليز اوائل عام ١٣١٠ هـ · ومكثه فيها الى ان توفاه الله لم يكن له من الاثار مطبوعاً او غير مطبوع[1] يجمع ما كان يجول في نفسه من تلك المخدرات من معاني الحكمة التي نزلت عليها آية الحجاب في تلك الديار وما لاقاه مع شدة عارضته ، وقوة عزمه ، وعدم مبالاته في القهر ، ومناهضته المتغلبة من الحكام ، وتحمل

(١) نعم ترك رسالة في « نفي مذهب الدهريين » كتبها في الهند وقد ادرجناها برمتها في آخر هذا الكتاب

الجور منهم في سبيل نهضة الشرق ، وما كان يرمي اليـه من سامي الغرض في طلب الحرية الحقيقية واعطاء العدل حقه بالتوزيع بين طبقـات النوع الانسـاني ·

فكنت من يوم وفد على القسطنطينية الزم له من الظل في عزلته — سهل ذلك علي ميله رحمة الله عليه ، وقرب الدار والجوار (في محلة نيشانطاش) فكاشفته بلزوم تدوين ما عمله ، وما تكنه سرائره من الحكمة ، ونافذ النظر وثاقب الرأي لنفع النوع ·

فكانت تلك الرغبة مني في بداية الامر لا يبالي بها كثيراً ، ولا يتلقاها لقاءً حسناً ، ولكن في الاخير رأى في طلبي حقاً ، ولمح منه للشرق واهلـه نفعاً فقبل ان يؤخذ عنه واجاز بقوله : سل ما تريد يا شيخ بني مخزوم واكتب ما تسمع واحفظ ما تراه — وقبل كل شيء الفت نظرك لامر ربما انت ملاقيه فخذ له من الحذر عدة ، ومن التحمل درعاً — اذا سلمت في كتابة خاطراتي من خطر الطاغية[1] وطواغيته — يعني جواسيس السلطان عبد الحميد — فستصادف من اهل الجمود عنتاً وتخرصاً ، وقلباً للحقائق فلا تبال بهم — فما خلا الكون منهم يوماً ليخلو زمنك ، ولا نجا منهم مخلص لتنجو انت — ولسوف تعثر باناس ديدنهم التنقيد لا حباً بتمحيص الحقيقة واستجلائها وانما دأبهم وما يرمون اليه ان يقال قام فقال — وانتقد واعترض فمثل هولاء ربما يخدمون الحق ، وينشرون الفضيلة من حيث لا يريدون ولا يشعرون · — فاعرض عنهم وقل لهم سلاما · انتهى قوله بالحرف ·

---

(١) وهو لقب ملك الروم

مقدمة المولف

قبل الدخول في ترجمة حياة جمال الدين المدونة في متفرق المطبوعات اقول ما اختبرته بالذات : انه رحمة الله عليه كان غير مغرور بنفسه — كثير الاستخفاف بكل من كان يخاطبه — بدولتكم ، او سماحتكم ، او كان يطريه بالفلسفة ، والتبريز بالحكمة ، والتفرد بالخطابة واحتقار الموت وغير ذلك مما هو متصف به حقيقة من المزايا والصفات العالية ، وكان يقول:— يهمني ان اصل من كل هذه الصفات للطمأنانية القلبية فقط انني استطعت في حياتي ان قلت الحق ولم اكتمه لا رغبة ولا رهبة بل جاهرت به ، واني بلغت من الشجاعة مرتبة فعلت معها بعض ما اقول ·

وقد ذكرت له يوماً ان بعض اصدقائي[1] من محبيه على البعد يرغبون في الحصول على ترجمة حاله ليزينوا — على اصطلاح ارباب الصحف اعمدة جرائدهم بها ·

فابتسم السيد وقال:

ان العيان لا يحتاج الى ترجمان · قل لهم ما قاله فلان عني (وكان داء

---

(١) وهو المأسوف عليه صديقنا جرجي زيدان صاحب مجلة الهلال وكان طلبه هذا على خلاف ما اعتادته مجلته اذ كانت لا تنشر الا تراجم مشاهير الرجال بعد وفاتهم ، وهكذا جرى وقد بعثت له بترجمة جمال الدين بعد وفاته كما سيأتي ذلك اذ لم يتيسر لي ارسالها وهو حي اما الهلال فلم ينشر الترجمة كما بعثتها بل نشر قسما واغفل قسما وقد اتينا على السيرة بتمامها

الحسد من المعاصرين قد تفشى ، خصوصاً بعد اقبال جلالة السلطان عبدالحميد عليه ، واحتفاءه به ، فاحبوا ان يضعوا من قدر جمال الدين فقالوا عنه انه « سرسري » يعني متشرد — (تائه في الارض) . — وهذا ما يعنيه بالقول عنه .

فقلت لا ينبغي للاستاذ الحكيم ان يضن على اهل عصره بما ينفعهم ولا يضره . — قال :

واي نفع لمن يذكر انني ولدت سنة ١٢٥٤ هـ ، وعمرت اكثر من نصف عصر ، واضطررت لترك بلادي « الافغان » مضطربة تتلاعب بها الاهواء والاغراض ، واكرهت على مبارحة الهند ، واجبرت على الابتعاد عن مصر — او ان شئت قل نفيت منها ، ومن الاستانة ، ومن اكثر عواصم الارض — كل هذه الاحوال — خاطرات[1] — لا تسرني وليس فيها ادنى فائدة للقوم .

---

(١) كنت سميت هذا الكتاب بعد ان اخذت بتحريره — (جمال الدين الافغاني في البلاط السلطاني) — فلما سمع مني هذا وانه عنوان للكتاب نفر قائلاً : ان هذا العنوان ليس لهذا المقال بطبيق . — قل خاطرات — ولا تزد . فاجبت اني افعل . ولكن نبهني الى كلمة (خاطرات) احد الاصدقاء — وهو من المنهمكين في قواميس اللغة — اذ قال لا يصح ان تجعل عنوان ذلك الاثر المفيد مما تنتقده اهل اللغة لان خاطرات لم ترد بالمعنى الذي تريده من جمع ، وكتابة آراء ، وافكار جمال الدين والإقرب للصواب ان تقول (خواطر) ولا ان تقول (خطرات) لانها تفيد الوساوس . فلما كاشفت جمال الدين بذلك تبسم وقال — رحم الله الفيروز آبادي حيث قال (خذوا لغتكم من اعجمي) . — ورحم الله الفرزدق ، وجرير ، والحطيئة حيث قالوا : للمتهوسين بالمتعامل المشهور ، القائم مقام ضوابط ، وقواعد اللغة ، وآلاتها من صرفه

اما القول بانها لا تسرني — لا بمعنى اني نفيت من البلاد ، او سجنت كلاّ — لأني اعتقد ان السجن بطلب الحق من الظالمين العتاة « رياضة » — والنفي في ذلك السبيل « سياحة » — والقتل — « شهـادة » وهي اسمى المراتب .

فانا عن نفسي غير راضٍ ذلك لان الخمول قد قعد بي فلم يوصلني الى اسمى مرتبة وهي « مرتبة الشهداء » — وحطني في مصاف المنفيين من ارض الى ارض والمسجونين فيهـا — فما ابعدني في كل هذا عن اولي الهمم ، ومن قام بالاعمال الخطيرة «او المطلب الجلل » اه

مع ان جمال الدين رحمة الله عليه لم يترك عملاً من الاعمال الخطيرة لخير النوع الانسـاني عموما ، والشرقيين خصوصاً ، الا واقتحمه ، ببسالة كادت ان تخرجه عن الهيئة المتوسطة ، وتتجاوز به فضيلة الشجاعة الى نقيصة التهور ، وكان على علاته حكيماً خطيباً ، قوي الذاكرة — وكان في

ونحو اليوم — (علينا ان نقول وعليكم ان تتقولوا) . قال : و يعجبني احدهم اذ مضى بانشاد قصيدته على مسمع من معارضه ، ومهاجيه — فاورد ذكر الجمل مكان الناقة فقال معارضه « استنوق الجمـل » ثم ذهب مهرولاً . ذلك شأن اساطين اللغة في ابان شبابها ، وزهوها ، ونضارة بلاغتها . — فقل (خاطرات) ولا تبالي بمن فسد لسانهم ولا يصلحون الا الى الاجوف ، والمهموز . ولا يحسنون جملة تنقر حبة القلب او تطرب السمع . انتهى — فعملنا بقوله رحمه الله وعنونا الكتاب كما ترى «بخاطرات»

وقد عرف جمال الدين بكثرة اخذه بالقيامي ونفوره من التقيد بالسماعي وسيأتي في غير هذا الموضع « قوله يوماً : سياسة بقروتية في مملكة فرعونية » ولما قيل له في ذلك قال : كيف صح قولهم ملكوت وجبروت هكذا يصح عندي « بقروت » والسلام

ذاكرته — سريع الحفظ ، سريع الذكر ، بطيء النسيان — وانه ليذكر خطاباً القاه ارتجالاً ، او مقالاً املاه ، او كتبه من سنين بالحرف الواحد ، وكأنما يتلوه من كتاب — شديد البعد عن التعصب ، نفوراً منه . — وان ذكر المسلمين في اكثر مقاله —

ذلك لانهم العنصر الغالب باكثريته في الشرق ، والملة المسلوبة ممالكها ومقاطعاتها . — ولهذا اكثر من ايقاظهم ، وتنبيههم وتقريعهم — والا فهو اكثر الفلاسفة توسعاً بمعنى المساواة ، وميلاً للعمل بهـا فعلاً بين نوع الانسان ، خصوصاً في الحقوق العمومية التي لا يصح لها معنىً الا بالحرية المعقولة . — يهمه الشرق والشرقيين على السواء ، وبدون استثناء ، مهاباً اكثر مما هو محبوب لاول نظرة ، شجاعاً ، جريئاً ، كريمـاً لحد الاسراف ، متواضعـاً مع الوسط ومن دونهم لدرجة الذل ، متكبراً على الملوك والعظماء لحد التجبر ، حاد الذهن ، قوي الحجة ، نافذ النظر ، يجذب مخاطبه اليه ، ويرضخه لبرهانه — ولو لم يكن ساطعاً — له اسلوب خاص في المقدمات تأتي نتائجها بطبعها ، عظيم النفس ، كبير الهمة ، محب لخير البشر ، يحمل كل من خاطبه على العظائم ، ويذلل لديه المصاعب — صحيح العقيدة ، مؤمنـاً بالالوهية ، شديد التمسك بحكمة الدين ، نفوراً من التقليد في المذهب ، « مجتهداً » وله في اجتهاده بعض الغرابة لمخالفته المألوف ، من وجهة التفسير — يقدم حيث يحجم الناس ، ويتكلم حيث يسكتون رغبة او رهبة متسرعاً ببادرات ذهنه ، واكثر ارائه ، يتعذر غالباً اقناعه جدلاً ، لاسلوبه الخاص في بطال الحجة عليه او التخلص منها — غير مكابر بالاجمال ، وكثيراً ما اعطى

خصمه الحق ، بعد ان يفحمه ، وينبهه ويدله على ما اغفله من الحجج اثناء الجدل ، ولكن كان لا يخلو من الحدة لمزاجه العصبي

﴿ سيرة جمال الدين ﴾



ولد سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٩ م وتوفي سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٧ م

هذا هو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينمى نسبه الى السيد علي الترمزي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه . وآل هذا البيت عشيرة

وافرة العدد تقيم في خطة (كنر) من اعمال كابل تبعد عنهـا مسيرة ثلاثة ايام ، ولهذه العشيرة منزلة عليـة في قلوب الافغانيين ، يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية ، تستقل في الحكم فيـه ، وانما سلب الامارة من ايديها ، دوست محمد خان ، وامر بنقل ابي السيد جمال الدين وبعض اعمامه الى مدينة كابل .

امـا ترجمـة حياته ، فاصدق من احاط بها ، عن طول خـبرة وحسن صحبة — فهو الاستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده وسنذكر ما قاله ونضيف اليه ما علمناه واغفله هو وغيره من المترجمين . امـا رعاية للزمن ، او لحكم السياسة :

فما قاله :

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في امره ، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله ، وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره حتى كأنه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه ، او قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله — والرجل فى صفاء جوهره ، وذكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسسه حزر الخراصين .

ولد السيد جمال الدين في قرية (اسعد آباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ ه ١٨٣٩ م ، وانتقل بانتقال ابيه الى مدينة كابل ، وفي السنة الثامنة من عمره اجلس للتعليم وعني والده بتربيته ، فايد العناية به ، قوة في فطرته ، واشراق في قريحته ، وذكاء فى مداركه ، — فاخذ من بدايات العـلوم ولم يقف دون نهاياتها .

تلقى علوماً جمة برع في جميعها ، فمنها : العلوم العربية من نحو وصرف ومعان ، وبيان ، وكتابة ، وتاريخ عام وخاص ، ومنها علوم الشريعة من تفسير ، وحديث ، وفقه ، واصول فقه ، وكلام ، وتصوف — ومنها علوم عقلية — من منطق وحكمة عملية سياسية ، ومنزلية ، وتهذيبية ، وحكمة نظرية طبيعية والهية — ومنها علوم رياضية ، من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك — ومنها نظريات الطب والتشريح ·

اخذ جميع تلك الفنون عن اساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد ، وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة ، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من عمره ·

ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة اشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة · واتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لاداء فريضة الحج ، وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ ه فوقف على كثير من عادات الامم التي مرّ بها في سياحته ، واكتنه اخلاقهم واصاب من ذلك فوائد غزيرة ، ثم رجع بعد اداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان المتقدم ذكره

ولما زحف هذا الامير الى (هراة) ليفتحها ويملكها على سلطان احمد شاه صهره وابن عمه — سار السيد جمال الدين معه في جيشه ، ولازمه مدة الحصار ، الى ان توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمناً

طويلا . وتقلد الامارة ولي عهده شير علي خان سنة (١٢٨٠ هـ ١٨٦٤ م) واشار عليه وزيره محمد رفيق خان ان يقبض على اخوته ، خصوصاً من هو اكبر سناً منهم ويعتقلهم ، فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة ، وألبوهم للفساد طلباً للاستبداد بالامارة . = وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة ، محمد اعظم ، ومحمد اسلم ، ومحمد امين ، فانتصر السيد جمال الدين لمحمد اعظم فلما احسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير اسرعوا الى الفرار ، وتفرقوا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يليها من قبل ابيه ليعتصم بمنعته فيها ، وطاشت بهم الفتن ، واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجادلات عنيفة ، عظم امر محمد اعظم وابن اخيه الامير عبد الرحمن وتغلب على عاصمة المملكة ، وانقذا محمد افضل والد عبد الرحمن من سجن (قزنة) وسمياه على افغانستان ، ثم ادركه الموت بعد سنة ، وقام على الامارة بعده شقيقه محمد اعظم خان ، وارتفعت منزلة السيد جمال الدين عنده فاحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به ، فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها (على خلاف ما تعوده امراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكوماتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد اعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير ، بالاغلب من ذوي قرابته ، ذلك ما حمله على تفويض مهمات من الاعمال الى ابنائه الاحداث وهم خلو من التجربة ، عراة من الحنكة ، فساق الطيش احدهم ، وكان حاكماً في (قندهار) على منازلة عمه شير علي في هراة ، ولم يكن له من الملك سواها = فظن الفتى انه يظفر ، فينال عند ابيه حظوة فيرفعه على

سائر اخوته ، فلما تلاقى مع جيش عمه ، دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي ، واخترق بها صفوف اعدائه ، فاوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون ، لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الغر المتهور منقطعاً عن جيشه ، فكر عليه واخذه اسيراً ، فتشتت جند قندهار ، وقوي جند شير علي ، فحمل على قندهار واستولى عليها ، وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي ، وبذلوا له قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد اعظم = فبيعت امانات ونقضت عهود ، وجددت خيانات = وبعد حروب هائلة تغلب شير علي ، وانهزم محمد اعظم وابن اخيه عبد الرحمن ، فذهب عبد الرحمن الى بخارى ، وذهب محمد اعظم الى بلاد ايران ، ومات بعد اشهر في مدينة (نيسابور) وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الامير بسوء ، احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه ، حمية لآل البيت النبوي = الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به ، والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيراً له ان يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج ، فاذن له على شرط ان لا يمر ببلاد ايران كيلا لا يلتقي فيها بمحمد اعظم ، وكان لم يمت — فارتحل على طريق الهند سنة (١٢٨٥ هـ ١٨٦٩ م) بعد هزيمة محمد اعظم بثلاثة اشهر ، وكان شديد الرغبة في الاقامة في الهند بغير ظهور ، فراسل احد اصحابه من تجار الافغان هناك ان يكون ضيفه على ابسط حالات الضيف والمضيف.

ولكن شدة تيقظ رجال الانكليز ، لكل حادثة تحدث خصوصاً في

الافغان اذ ذاك ، حالت دون رغبة جمال الدين في ان ياتي الى الهند على ما يرومه من شكل البساطة ، ومخالطة طبقات الهنود — لذلك كان اندهاش جمال الدين عظيما ، اذ رأى ان الحكومة الهندية تستقبله على الحدود ، استقبالا فخماً رسمياً = وليس عليه ادنى صبغة تستلزم ذلك المظهر الرسمي = خصوصاً وانه لم يرَ بين ذلك الجمهور احداً من معارفه ، ولا من استضافه وهو ذلك التاجر البسيط الافغاني ، فقابل تلك الحفاوة بقوله : « مأرب لا حفاوة من كريم » .

ولم يسع جمال الدين في ذلك الموقف الا ان يشكر رجال الحكومة الهندية على احتفائهم به وطلب ان يذهب الى بيت صديقه التاجر فاجابوه : « ان الحكومة قد اعدت له نزلاً لا يمكن ان يتخلف عنه لسواه » فرضخ الى ذلك اللطف اذ علم ان العنف لا يجدي نفعاً مع الضعف

واول سؤال التي على جمال الدين من الحكومة = ما هو الزمن الذي يريد ان يقيم فيه في الهند ؟ = قال لا اكثر من شهرين = فقبلت ذلك الحكومة ،ووضعت من موظفيها اشخاصاً يسئلون كل زائر عن غرض زيارته وما يريد ان يقوله .

فجاء في اليوم الاول عشرات تمكن المراقبون من ان يسمعوا ما قالوه وما اجاب به جمال الدين ، وفي اليوم الثاني ، اصبحت العشرات مئات ، = وفي الثالث والرابع وفدوا جماهير = وما اتم الاسبوع حتى ارتجت اقطار الهند ، وهرعت اكابر علماؤها ، وراجاتها ، وغصت الساحات بالوفود ، وبينهم من ليس باستطاعة الحكومة الهندية ان تمنعه من الاجتماع

مع جمال الدين = ولا يمكنها بذات الوقت ان ترصد مئات من المراقبين يحضرون ويسمعون ما يدور بين الزائر والمزور ·

ولما ضاقت الحكومة الهندية بذلك ذرعاً ، جاء عظيم من مأموريها الى جمال الدين ،وعنده اكابر من الراجات والعلماء ،فخاطب جمال الدين قائلاً :

ان الحكومة الهندية كانت تساهلت معكم للاقامة نحو الشهرين ولكنها ارتأت ان تتقدم اليكم اليوم بان حالة البلاد لا تساعد على بقائكم اكثر مما مكثتم ·

فاراد الحاضرون ان يحتجوا على هذا الانذار ، وعلت وجوههم اسارير الغضب ، فاومأ جمال الدين بيده اليهم ،طالباً سكوتهم وحال بينهم وبين رجل الحكومة قائلا :

انني ما اتيت الى الهند لأخيف حكومة بريطانيا العظمى ، ولا انا على استعداد اليوم لاحدث شغباً عليها ، ولا لأنتقد شيئاً من اعمالها = ولكن تخوفها من زائر اعزل مثلي ، ومصادرتها لزائرين هم اضعف مني يسجل على حكومة بريطانيا وهن عزيمتها ، وضعف شوكتها ،وقلة عدلها ،وعدم أمنها من حكمها ، وانها في حقيقة حكمها لهذه الاقطار الشاسعة الواسعة اضعف بكثير من شعوبها ·

ثم التفت الى زائريه وقال : يا اهل الهند وعزة الحق ،وسر العدل ، لو كنتم وانتم تعدون بمئات من الملايين «ذباباً» مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من ابنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم ، واستنفاد

ثروتكم = وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الالوف = لو كنتم انتم مئات الملايين كما قلت ذبابا !! لكان طنينكم يصم اذان بريطانيا العظمى ، ويجعل في آذان كبيرهم المستر (غلادستون) وقراً ٠

ولو كنتم انتم مئات الملايين من الهنود » وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفة (سلحفاة) وخضتم البحر ، واحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى ، لجررتموها الى القعر وعدتم الى هندكم احرارا ٠

فما اتم جمال الدين كلامه حتى اذرف الحاضرون الدموع = فقال اذ ذاك بصوت عالٍ : اعلموا ان البكاء للنساء ، والسلطان محمود الغزنوي ما اتى الى الهند باكياً ، بل اتى شاكاً للسلاح — ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بثغر باسم ٠

ونهض مسرعاً مع رجل الحكومة ، لكي يذهب معه حيث شاء فقال له : مهلاً الان فموعد السفر غداً ٠

قال جمال الدين : الى اين تريدون ان اذهب = قال : الى حيث تشاء بعد ان تبارح الهند ٠

وفي الصباح سيرته من هناك في احد مراكبها ، على نفقتها الى السويس ، فجاء الى مصر واقام بها نحو اربعين يوماً ، تردد فيها على الجامع الازهر وخالطه كثيرٌ من طلبة العلم السوريين ، ومالوا اليه كل الميل كما مال اليهم وسألوه ان يقرأ لهم شرح الاظهار ، فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ، ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة ٠

وصل الاستانة وبعد ايام من وصوله امكنته ملاقاة الصدر الاعظم

عالي باشا ، فنزل منه منزل الكرامة ، وعرف له الصدر فضله واقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغاني — قباءً ، و كساءً ، وعمامة عجراء —



رسم جمال الدين سنة ١٢٨٧ ه‍ ١٨٧١ م

وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ، ودينه وادبه وهو غريب عن ازيائهم ،ولغتهم، وعاداتهم ٠

وبعد ستة اشهر سمي عضواً في مجلس المعارف ، فادى حق الاستقامة في ارائه، واشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه ومنها ما احفظ عليه قلب شيخ الاسـلام لتلك الاوقات ، « حسن فهمي

افندي » لانهــا كانت تمس شيئاً من رزقه — فارصد له العنت حتى كان رمضان سنة (١٢٨٧ هـ — ١٨٧١ م) فرغب اليه مدير دار الفنون «تحسين افندى» ان يلقي فيها خطاباً ، للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية ، فالح عليه ، فانشأ خطاباً طويلا كتبه قبل القائه ، وعرضه على وزير المعــارف صفوت باشا ، وعلى مشير الضابطة « شرواني زاده » وعلى « منيف باشا » وكان من اركان الدولة وعضواً في مجلس المعارف — فاستحسنه كل منهم واطنب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب ، تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة ، واعيان اهل العلم ، وارباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء

فصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة ، والقى ما كان اعده ببلاغة سحرت عقول السامعين فارسل حسن فهمى افندي «شيخ الاسلام» اشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة تمكنه من التمثيل به وما كان يجدها لو طلب حقاً ، ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حي ، وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن ، تأتي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن

فشبه الملك مثلاً بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة — والحدادة بالعضد — والزراعة بالكبد — والملاحة بالرجلين ومضى في سائر الصناعات والاعضاء حتى اتى على جميعها ببيان ضاف وافٍ

ثم قال : هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية — ولا حياة لجسم

الا بروح — وروح هذا الجسم — «اما النبوة» واما «الحكمة» ولكن يفرق بينهما بان النبوة منحة الهيه لا تنالها يد الكاسب بل يختص الله بهـا من يشاء من عباده والله اعلم حيث يجعل رسالاته

اما الحكمة فمما يكتسب بالفكر ، والنظر بالمعلومات — وبان النبي معصوم من الخطأ — والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . — وان احكام النبوات آتية على ما في علم الله ، لا يأتيها الباطل من بين ايديها ولا من خلفها فالاخذ بها من فروض الايمان .

اما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعهـا ، الا من باب ما هو الاولى والافضل على شرط ان لا يخالف الشرع الالهي .

هذا ما ذكره متعلقاً بالنبوة ، وهو منطبق على ما اجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية ، الاّ ان حسن فهمي افنـدي ، اقام من الحق باطلاً ، ليصيب غرضه من الانتقام — فاشاع ان السيد جمال الدين زعم ان النبوة «صنعة» واحتج لتثبيت الاشاعة بانه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) — ثم اوعز الى الوعاظ في المساجد ان يذكروا ذلك محفوفاً بالتفنيد ، والتنديد .

فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات برائته مما رمي به — ورأى ان ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك؟!) واشتد في طلب المحاكمة ، واخذت منه الحدة مبلغها ، واكثرت الجرائد من القول في المسئلة — فمنها نصراء للسيد جمال الدين — ومنهـا اعوان لشيخ الاسلام — فاشار بعض اصحاب السيد عليه ، ان يلزم السكون ، ويغضي

على الكريهة — وان طول الزمن ، يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف اثرها — فلم يقبل ، والح في طلب المخاصمة ، فعظم الامر لدرجة خشي معها الصدر الاعظم على حياته وحياة جمال الدين معاً فاصدر امره اليه «مكرها» بالجلاء عن الاستانة بضعة اشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ، ثم يعود ان شاء — معترفاً عالي باشا له بفضله ، آسفاً على انحطاط اهل الجمود عن فهم الحقائق ، عالماً ان حركة حسن فهمي افندي في مقاومة جمال الدين ان هي الا مقاومة لعالي باشا الذي نظر لجمال الدين نظرة كان يرجو معها ان يحله محل شيخ الاسلام لو سمح استعداد المحيط ، وقابلية القوم اذ ذاك — ولكن دهاء حسن فهمي افندي احبط مسعى عالي باشا ، فاهاج رأي «السفطاء» طلبة العلم واستهوى العوام من اهل الجمود — حتى اكره الصدر الاعظم على اصدار امر جلاء جمال الدين عن الاستانة كما سبق .

اما السيد ففي آخر يوم اضطر فيه ان يبارح الاستانة منفياً ، اتاه عدة افراد من العلماء المتنورين يعلنون له اسفهم ، وعدم رضاهم عن خطة شيخ الاسلام — حتى ان احدهم وهو من كبار المدرسين اشتط في خطابه ، وتجاوز في الطعن على حسن فهمي افندي واعوانه الى ما مس كرامة الدين . فوقف عند ذلك جمال الدين غضبان وقال [١] :

ليس من خطأ أراه اكبر من مس كرامة دين لمجرد عمل يأتيه فرد من تابعي ذلك الدين — واعتقد ان الهيئة البشرية لا يمكنها ان تستغني عن

---

(١) هذه الشذرة من هذا الكتاب «خاطرات جمال الدين» نشرت في جريدة لسان الحال تحت عنوان «جمال الدين واهل الدين» وتناقلتها بقية الصحف .

سلطتين — زمنية ، وروحية .

كلتا السلطتين ترمي الى غاية واحدة في الجوهر ، والاصل . نعم يمكن ان يطرأ على احداهما خلل ليس في اصل الوضع — فهذا الخلل يجب العمل على اصلاحه ، والوقوف بوجه من اخل ، وارغامه على الرجوع الى الاصل ثم قال :

السلطة الزمنية بمليكها او سلطانها انما استمدت قوتها من الامة لاجل قمع اهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الامن ، وتوزيع العدالة المطلقة — الى آخر ما في الوازع والسلطان من المنافع العامة .

اما اذا اودعت هذه السلطة بيد رجل غر ، جاهل ، عاتٍ اكتنفه قوم من فاسدي الاخلاق ، مجهولي الاعراق ، يلعبون بالمسلط كيف يشاؤون ، ثم يحتجون على الشعب بقولهم :

« مشيئة الملك قانون المملكة ! ! »

هذا القول على تلك الحالة مما يجب على الامة وقوفها تجاهه ، وان تقاومه بكل ما لديها من قوة .

لان الحق في هذا — ان ارادة الشعب الغير المكره ، والغير المسلوب حريته — قولاً وعملاً ، هي قانون ذلك الشعب المتبع ، والقانون الذي يجب على كل حاكم ان يكون خادماً له ، اميناً على تنفيذه .

وكل شعب تلعب به الاهواء ، ويتفرق شيعاً وطوائف ، وتستحكم من افراده محبة الذات ، والانانية — فيتجرون باسم الامة تجاه الفرد

المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع ارضاء له لينالوا بلغةً من عيش .

فمثل هذا الشعب يكون كالانعام السائمة ، او اضل سبيلا — ومثل هذا الشعب يصدق عليه قاعدة جور اوجدها المستبدون وهي القول السابق .

« مشيئة الملك قانون المملكة »

ثم قال :

كذلك القول في السلطة الروحية — واعني بها ما لكل دين من النفوذ المعنوي ، على من يدينون به — وهي في بعض مواقفها ، انفذ من قوة السلاطين ، ويقظة الشرطة ، وعدل الحاكم على منصة قضائه ، وافعل مما ينفذه في بعض الاحيان من القصاص على بينات قد تكون اخطأت مجرماً ، واصابت بريئاً .

اذا تمكن الدين بحقيقته من نفس ، وخلت عن مراقبة السلطان الزمني — فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه احد — وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمني ان يقتص منه .

هذه بعض منافع الروح الدينية ـ ولا ترى في الاديان الثلاثة ما يخالف نفع المجموع البشري ، بل بالعكس تحضه على ان يعمل الخير المطلق مع اخيه وقريبه ، وتحظر عليه عمل الشر مع اي كان .

اما واذا انحرفت — وتحرفت هذه السلطة المعنوية عن مواضعها ، واختل جوهر وضعها الاصلي ، وجب عندئذٍ الوقوف تجاهها ، والعمل بكل قوة لارجاعها لأصلها .

ثم قال : — اذا سار الدين في غايته الشريفة » حمدته السلطة الزمنية

بلا شك — واذا سارت السلطة الزمنية في الغاية المقصودة منها وهي «العدل المطلق» فالسلطة الروحية حمدتها وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان الا اذا خرجتا عن المحور اللازم لها والموضوعة لاجله .

هذه اخر كلمات قالها جمال الدين وفارق على اثرها الاستانة فحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر ، فجاء اليها في اول محرم سنة (١٢٨٨هـ — ٢٢ مارس ١٨٧١ م)

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا ، فاستمالته مساعيه الى المقام ، واجرت عليه الحكومة راتباً مقداره الف قرش مصري كل شهر ، نزلاً اكرمته به ، لا في مقابلة عمل — واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم ، واستوروا زنده فاورى ، واستفاضوا بحره ففاض دراً ، وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العلمية في فنون الكلام الاعلى ، والحكمة النظرية ، طبيعية وعقلية ، وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصرف ، وعلم اصول الفقه الاسلامي — وكانت مدرسته بيته ، من اول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم — ولم يذهب الى الازهر مدرساً ولا يوماً واحداً — نعم كان يذهب اليه زائراً واغلب ما كان يزوره يوم الجمعه .

عظم امر الرجل في نفوس طلاب العلوم ، واستجزلوا فوائد الاخذ عنه ، واعجبوا بدينه وادبه ، وانطلقت الالسن بالثناء عليه ، وانتشر صيته في الديار المصرية — ثم وجه عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول ، فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل في

الكتابة ، وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية ، فاشتغلوا على نظره وبرعوا ، وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه ، وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل ٠

فنبغ في القطر المصري من تلامذته ، كتبة لا يشق غبارهم ، ولا يوطأ مضمارهم ، واغلبهم احداث في السن شيوخ في الصناعة = وما منهم الا من اخذ عنه ، او عن احد تلامذته او تلد المتصلين به — ومنكر ذلك مكابر ، وللحق مدابر ٠

هذا ما حسده عليه اقوام واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية اخذاً بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها ، على ان القائلين بهذا القول لم يطلقوه - بل قيدوه بضعفاء العقول ، قصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ ٠

اما الثابتون في ايمانهم فلهم النظر في علوم الاولين والاخرين ، من موافقين لمذهبهم او مخالفين ، فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم ، وقوة في يقينهم — ولنا في ائمة الملة الاسلامية الف حجة تقوم على ما نقول ٠

ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما اودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل ، واذاعو ذلك بين العامة ، ثم ايده اخلاط من الناس ، من مذاهب مختلفة — كانوا يطرقون مجلسه ، فيسمعون ما لا يفهمون ، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون — غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ٠

ولم يزل شأنه في ارتفاع ، والقلوب عليه في اجتماع ، الى ان تولى

خديوية مصر المرحوم (توفيق باشا) وكان السيد من المؤيدين لمقاصده ، الناشرين لمحامده ، والساعين لتأليف القلوب عليه ·

ولما كان جمال الدين ميالاً بفطرته الى السياسة ، عالماً في دقائقها فقد نظر الى حال مصر نظر الحكيم المدقق ، ورأى ما آلت اليه من تدخل الاجنبي وتفاقم امره يوماً فيوم — فعلم ان لا بد من تغير احوالها ، وكان قد انتظم في سلك الجمعية الماسونية ، وتبني في المحفل الاسكتلندي

اما انخراط جمال الدين في الماسونية ، وما احدثه وجوده فيها ، اذ كان عاملاً في بدء امره – وقبل ان يصير من الرؤساء — فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة الماسونية – وان كان جمال الدين لا يرى في التكتم فضيلة ، بل يرى فيه معرة ، ونقصاً في الهمم ·

اول انتقاد انتقده جمال الدين في المحفل ، رده على قول احد الاخوان القائل « ان الماسونية لا دخل لها في السياسة — وانا لنخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها » فنهض جمال الدين وقال :

كنت انتظر ان اسمع وارى في مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل ان الجبن يمكنه ان يدخل من بين اسطوانتي المحافل الماسونية ·

اذا لم تدخل الماسونية في سياسة الكون — وفيها كل بناء حر ، واذا الآت البناء التي بيدها ، لم تستعمل لهدم القديم ، ولتشييد معالم حرية صحيحة واخاء ، ومساواة ، وتدك صروح الظلم ، والعتو والجور ، فلا حملت يد الاحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة ·

ثم قال في بحث اجمالي عن الماسونية في ذلك المحفل اي الاسكتلندي

ما يأتي :

لا نتم الصورة في الذهن الا بعد التعريف والوصف، فالانسان حيوان ناطق ، ولكي يتم له التعريف المطلوب، المانع له من اشتراك بعض العجماوات الناطقه — عرفوه بصفات اخرى — فقالوا مميز ، ضحاك بالطبع الخ فتسنى من التعريفات والصفات ما جعل له صورة مخصوصة في الذهن يعرف بها انه « انسان » .

اما نحن معشر الماسون ، فيؤلمني انني للآن ما عرفت لنفسي بصفتي ماسونياً ـ ولا لمطلق الماسونية تعريفاً يجعل لها صورة في الذهن ، او وصفاً ينطبق على من ينخرط في تلك العشيرة .

اول ما شوقني للعمل في بناية الاحرار ، عنوان كبير خطير ـ حرية ، مساواة ، اخاء ـ غرض « منفعة الانسان ، سعى وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق» فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية ـ وهو ، همة للعمل ، وعزة نفس وشمم ، واحتقار الحياة في سبيل مقاومة من ظلم .

ثم قال: ـ هذا ما رضيته من الوصف للماسونية ، وارتضيته لها ، ولكن مع الاسف ارى ان جراثيم الاثرة ، والانانية ، وحب الرياسة ، والعمل من جماعات بمقتضى اهواءهم ، وخضوعاً لشرق عن بعد سحيق ، يعتوره تهديد ووعيد وغير ذلك من الامور التي ما تأسست الماسونية الحرة الا لملاشاتها ، واعتبرت من يصدع ويعمل بها من جبابرة الملوك ، والحكام انهم من « الخوارج » — وما يجرون من الاحكام الكيفية « خارجة » وان اولئك الخوارج فيما يتخبطون فيه من تلك الاعمال هم في الظلمات ، وباشد الحاجه

الى النور .

ثم ذكر اشياء تتعلق في المحفل الاسكتلندي ، جاءت حسب اهواء معارضي جمال الدين فلا حاجة الى ذكرها هنا . ومما قاله مخاطباً ومودعاً من ترك في المحفل الاسكتلندي : اعتقدوا ايها الاخوان ، ان جمال الدين ينكر على نفسه حب الرياسة ، ويقول ، ان الماسونية اشرف وارفع من ان تعمل على ايجاد سلطة لرئيس تخدم له بها غاية شخصية ، او منفعة مادية كانت ام ادبية .

دعوني اكون عاملاً ماسونياً نزيها ، متجنباً للرذائل — اذ لم يكن حرصاً على شرف شخصيتي — نخوفاً من ان تعاب الماسونية بي ، فيتخذني الاغيار سهماً للطعن بها وهي براء منه — وما ذنب الماسونية ، الا انها قبلتني بين افرادها دون اختبار صحيح ، وابقت علي من غير تبصر .

ومن كلمات جمال الدين في ذلك المحفل — ان احد الاخوان قال في خطاب القاه عبارة على طريق المباهاة « ان الماسونية تفاخر بقدم عهدها وثباتها اعصراً على شكلها وتقاليدها » فرد عليه جمال الدين قائلاً :

« لا ارى ابعد عن الحق من هذا القول ، فالماسونيـة على شكلها هذا وتقاليدها ، ليست فقط قديمة العهد بل هي لم تزل في المهد — ولسوف اذا اصرت ، واصر ابناؤها على الوقوف عند حد رموز اكثرنا لا يفقه مغزاها ، ولا المراد من وضعها ، انها ستختنق في المهد ولا تدرج منه » ماسونيتكم ايها الاخوان اليوم لا تتجاوز « كيس اعمال ، وقبول اخ » يتلى عليه من اساطير الاولين ما يمل ويخل في عقيدة الداخل ، ويسقط مكانة الماسونية من عينيه

انتم اليوم بين رئيس ومرؤوس ، تابع ومتبوع — شرف يأمر ومستشرق يرضخ — مال يجمع ، وجزية للشرق تؤدى — وليس من عمل يدل على ادنى اثر من الحياة للماسونية في الشرق ٠

ومما استغربه الاخوان الماسون من اقول جمال الدين ، انه طلب في المحفل اسعاف لاحد الاخوان فقال : هل الاخ مريض؟ قالوا لا ٠ قال هل هو صحيح البنية ؟ قالوا نعم ولكنه فقير معوز ٠

قال صحة البدن وذل السؤآل ، لا يصح ان يجتمعا بانسان٠ الماسونية تسعف اخاها اذا سقط في العلل ، او اعترى بعض اعضاءه شلل ، وتقدمه على من سواه من الاخوان في البشرية — فتربي ابناءه اذا مات فقيراً ، وتحسن العناية في تربيتهم ٠

وفيما عدا ذلك يجب ان ترى ان في الاحسان اساءة ، لمن يحب ان يكون في الحقيقة انساناً ٠

هذا بعض ما كان ينتقده ، ويقوله جمال الدين في المحفل الاسكتلندي وقد ضاق بارائه ، وافكاره ذرعاً ٠

وعلم جمال الدين انه لا يمكنه العمل مع اولئك الاخوان وهم على ذلك الخمول ، والتخوف او الجبن ، فانشأ محفلاً وطنياً ، تابعاً للشرق الفرنساوي ، وفي برهة وجيزة بلغ عدد اعضائه العاملين اكثر من ثلاثماية من نخبة المفكرين ، والناهضين من المصريين من مريدي جمال الدين من العلماء والوجهاء ، وتكرس محترماً له ، واول عمل عمله ، ان صير من الاخوان العاملين في المحفل شعباً — شعبة اناط بها انذار ناظر « الجهادية » كي ينظر

بعين العدل والانصاف الى الضباط الوطنيين الذين تمادى زمان مكثهم في السودان اكثر مما تستوجبه القوانين المسنونة للضباط (وكان القانون العسكري اذ ذاك ان تتناوب الخدمة صنوف الضباط وطنيين — وشراكسة متمصرين) فكان اكثر الضباط المصريين الذين يقتضي استبدالهم بعد سنتين مثلاً في السودان ، بآخرين من الضباط الشراكسة « نسباً » كانوا يقضون اربع سنوات فاكثر ولا يستبدلون، وان استبدلوا فانما يرسل مكانهم مصريين ممن لا عضد لهم او مجير من امير او وزير .

وشعبة اخرى لانذار ناظر الحقانية. واخرى للمالية. فنظارة الاشغال وبقية النظارات والمصالح الاميرية ، تلفتهم الى احقاق الحق وعمل العدل والانصاف مع مستخدميهم من الوطنين (اذ كان الموظف المصري في وظيفة ما اذا تناول خمس جنيهات راتباً شهرياً — كان غيره من غير المصريين بمثل ذاك العمل والوظيفه ، يتناول خمسة عشر او عشرين جنيهاً) .

ذهبت كل شعبة للوجهة التي عينت لها وادت للنظار ما امرت به من المحفل بلهجة ، واسلوب ، استهجنها ، واستغربهما السامعون — فحصل من جراء ذلك هزة في الاندية ، والدواوين ، انتهت تموجاتها الى سراي عابدين والخديوي اذ ذاك المرحوم توفيق باشا ، فهاله الامر ، وكان قليل المبالاة بالماسونية ، حتى انه استنكر تكليفه ان يكون استاذاً اعظم للمحافل الماسونية المصرية الوطنية = وتردد في قبول جمال الدين زائراً ، ولكن بعد تلك الحركة اسرع في استزارة جمال الدين ، فذهب بعد مماطلة ايام ، وتمثل لدى الحضرة الخديوية وبعد تلطيف وتجمل من الخديوي قال لجمال الدين ما

معناه « انني احب كل خير للمصريين ، و يسرني ان ارى بلادي وابناءها في اعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن مع الاسف ان اكثر الشعب خامل ، جاهل ، لا يصلح ان يلقى عليـه ما تلقونه من الدروس والاقوال المهيجة ، فيلقون انفسهم والبلاد في تهلكة ٠

قال جمال الدين مجاوباً « ليسمح لي سمو امير البلاد ان اقول بحرية ، واخلاص ، ان الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده ، ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذي تنظرون به الى الشعب المصري وافراده ينظرون به لسموكم وان قبلتم نصح هذا المخلص واسرعتم في اشراك الامة في حكم البلاد على طريق الشورى ، فتأمرون باجراء انتخاب نواب عن الامة تسن القوانين ، وتنفذ باسمكم وبارادتكم ، يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم » هذا اهم ما جرى في هذه المقابلة التي كان فيها سمو الخديوي غير راضٍ واسر في نفسه البطش في جمال الدين ولكن لم يظهر له شيئاً من ذلك ٠

خرج جمال الدين من مجلس سمو الخديوي ومضى الى تنفيذ خطته في المحفل الماسوني واخذ يخطب خطباً تستفز الخامل وتوقظ الغـافل وتصير الجبان شجاعاً ، والرعديد اسداً ضارياً ، واشار على تلامذته ومريديه بنشر الفصول الناطقة بالحقوق المهضومة لأهل البلاد من المصريين = وكان في مقدمة من كتب الادباء السوريين وفي مقدمتهم (المأسوف عليه اديب بك اسحق [1]) ٠

---

(١) كان جمال الدين لاخر نسمة من حياته عند ذكر اديب بك اسحق يسترجع

وعلى اثر ذلك بدأت الحركة الفكرية الوطنيــة في الظهور ، واخذت الحكومة تحتــاط لتلك الحركة ، وتجامل الوطنيين ، وتتقرب من الشعب بالمواعيد الحسنة ، وحسن النية ، من انالتهم مجلساً نيابياً = اذا هم حافظوا على السكينة ولم يفرطوا في المطالب الوطنية ·

فطلب الاحرار من جمال الدين ان يضع خطة للمجلس النيابي المصري العتيد ، وبياناً واضحاً للشعب كي يسير بمقتضاه نحو انتخاب نوابه فقال :

ايها الاخوان : ان القوة النيابية لأي امة كانت لا يمكن ان تحوز المعنى الحقيقي الا اذا كانت من نفس الامة = واي مجلس نيــابي يأمر بتشكيله ملك او امير او قوة اجنبية محركة لها فاعلموا ان حياة تلك القوة ، النيابية ، الموهومة ، موقوفة على ارادة من احدثها ·

فعزة الملك ينغصها ، نهضة الشعب المملوك ، خصوصاً اذا هو صادم ارادة مالكه او اميره = والتاريخ لم ينقل لنا ان ملكاً ، او اميراً ، او دخيلاً بقوته على شعب يرضى عن طيب خاطر ان يبقى مالكاً اسماً ، وامته هي المالكة فعلاً ، لادارة شؤونهــا ، وذمام امورها على مطلق المعنى = واعظم اماني الشعوب المملوكة ، التملص من ربقة الاجنبي وتحكمه ·

ثم قال : سترون عما قريب اذا تشكل المجلس النيابي المصري ، سيكون ولا شك بهيكله الظاهري مشابهاً للمجالس النيابية الاوروبية ، بمعنى ان اقل ما سيوجد فيه من الاحزاب = حزب للشمال وحزب لليمين = ولسوف

ويقول : كان طراز العرب وزهرة الادب — قضى نحبه في شرخ الشبوبية وعنفوان الفتوة وترك لنا قلوباً آسفة وشجوناً فائضة انا لله وانا اليه راجعون ·

ترون اذا تشكل مجلسكم ، ان حزب الشمال لا اثر له في ذلك المجلس ، لان اقل مبادئه ان يكون معارضاً للحكومة = وحزب اليمين ان يكون من اعوانها ·

قال: تستغربون قولي هذا اليوم ، لان ما نبحث فيه هو امر تصوري لم يخرج لحيز العمل بعد ، ولكن متى رأيتم المجلس النيابي الموهوم تشكل ، ورأيتم كل عضو يفر من ان يكون في حزب الشمال (الناهض والمعارض للحكومة) فراره من الاسد الى حزب اليمين « اذ ذاك تقولون صدق جمال الدين » ·

نعم اكون صدقت ، ولكن ليس لي في هذه الفراسة ، وفي صدق التصور التصديقي ادنى فضيلة ، اذا رجعتم ، وعلمتم ، ان المقدمات الصحيحة هي التي تنتج النتائج الصادقة ·

فمقدمات مجلس نيابي قوته المحدثة له ، خارجة عن محيط الامة = والمحدث له ، قوة خارجة عن الامة ومجلسها ، يعارضها ، منافع متضادة ، وهدفان مختلفان = فمثل هذا المجلس لا قيمة له ، وكما انه لا يعيش طويلاً كذلك لا يغني عن الامة فتيلاً ·

ثم قال ضاحكاً ضحكة متألم : سترون ان الذي سيكون نائباً عن شعب لا اعدد مصائبه ، ولا انواع رزاياه ، لفقدان حريته بكل معناها = هو الذي كان آلة صماء ، بيد تلك القوة التي عملت على وصول وطنه ومواطنيه ، الى ما وصلوا اليه ·

تعرفونه اذا شئتم ان تتفكروا قليلاً = وان شئتم وصفه فانا اقول لكم : نائبكم سيكون على مقتضي ما مر من مهيئات مصركم في زمانكم هو

ذلك الوجيه الذي امتص مال الفلاح بكل مساعيه ، ذلك الجبـان البعيد عن مناهضة الحكام الذين هم اسقط منه همة ، ذلك الرجل الذي لا يعرف لايراد الحجة ، تجاه الحاكم الظالم معنىً ولو كانت من الحجج الساطعة ، ذلك الرجل الذي يرى في ارادة القوة الجائرة (كل خير وحكمة !) ويرى في كل دفاع عن وطنـه ، ومناقشةٍ للحساب = قلة ادب ، وسوء تدبير !! وعدم حنكة !؟ وتهور !؟ وبالتالي يرى ، ان كل صفات العزة النفسية ، والمقومات الاهلية القومية ، مآلها الويل والثبور ٠

وكل ما يدعو الى الذل ، واحتقار القوميـة ، وسحق ما تنمو به حرية الامة — هو من مجالي حكمته العصرية !! ٠

هذا مع الاسف الذي اراه سيتكون منه مجلسكم النيابي الموهوم (اذا صحت الاحلام) والذي سيخالف قاعدة كلية ، لقواعد فلسفة ، اقرت على ان الوجود خير من العدم = فعدم مثل هذا المجلس خير من وجوده ٠

ثم اخذت الافكار تتنبـه من الوطنيين من تلك الاقوال ، والخطب ، والفصول التي يبثها جمال الدين ومريديه ، وفي كلها ما يدل على نفرة جمال الدين من سياسة بريطانيا العظمى ، وانتقاده لها وقد ترجمت وارسلت الى جرائد انكلترا ، واهتموا بهـا كثيراً حتى تولى المستر غلادستون نفسه امر الجدال في موضوعها فلما بلغ محفل جمال الدين الى هذه الدرجة من الاهمية والتأثير داخل الخوف ، المستر (فافيـاني) قنصل انكلترا الجنرال ، اذ ذاك وجمع بواسطة ما بثه من الرقباء في المحفل ، والجواسيس ما اخاف به الحكومة ، وارهب الخديوي ، وكان في نفسه اشياء تحذره من وجود جمال الدين في

مصر كما سبق في محادثته له ·

فاصدر امره باخراج السيد من القطر المصري مع تابعه عارف افندي ابي تراب ، ففارق مصر سنة ١٢٩٦ ه‍ ١٨٧٩ م قاصداً البلاد الهندية ، ولما وصل الى السويس اتاه بعض مريديه ، وقنصل ايران ، وبعض التجار ، وكل منهم يحمل مقداراً من المال ، عرضوه على السيد جمال الدين والحوا عليه ان يقبله قرضاً · فاجابهم : «انتم الى هذا المال احوج ، والليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب» · ثم ابحر الى البلاد الهندية واقام بحيدر آباد الدكن ، وفيها كتب رسالته في ابطال ونفي مذهب الدهريين (وستأتي الرسالة برمتها في آخر هذا الكتاب) ·

ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر «الحوادث العرابية» دعي من حيدر آباد الى «كلكتا» والزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى امر مصر ، وخمدت الحرب الانكليزية — ثم ابيح له الذهاب الى اي بلد شاء ، فاختار الذهاب الى اوروبا ، واول مدينة صعد اليها مدينة لندرا ، اقام بها اياماً قلائل ، ثم انتقل الى باريز ، واقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات ، طلب فوافاه في اثنائها ، صديقه الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده ، وكانت في مصر جمعية وطنية تألفت من خيار القوم ، اسمها «جمعية العروة الوثقى» فكلفته ان ينشىء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة الاسلامية تحت لواء الخلافة العظمى ، وكلف صديقه الاستاذ المشار اليه ، ان يقوم على تحريرها ففعل ، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً وقد اخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ، ولا تنبيه منبه =

ذلك لخلوص النية في تحريرها ، وصحة المقصد من مدير سياستها في تحبيرها ثم قامت الموانع دون الاستمرار في اصدارها ، حيث اقفلت ابواب الهند عنها ، واشتدت الحكومة الانكليزية في أعنات ، وأذية من تصل اليهم حتى في مصر فانها اصدرت امراً وزارياً « نو باريا » وهو مسطور في العروة الوثقى ونصه :

« انعقد مجلس النظار المصري في القاهرة ، واهتم في البحث في شأن «العروة الوثقي» ثم اصدر قراره الى نظارة الداخليـة المصرية قاضياً عليها بان تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الاقطار المصرية وتراقب جولانها في تلك الديار ، فصدر امر الداخلية الى ادارة عموم البوسطة ، يلزمها بالدقة في ذلك ، وبلغنا ان الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الاوامر اعلنت ، ان كل من توجد عنده «العروة الوثقى» يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيهاً = «وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها ، عسر المالية المصرية ، ببركة تصرف الانكليز في مصر» .

« اما نحن فلا نظن احداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار = بل لا نتوهم في المستوي ، والجالس على كرسي الخديوية ميلاً الى مثل هذا الحكم ، ولا يختلج في صدرنا ان مصرياً من اي مشرب كان سواء فيه المسلم وغير المسلم ، بل ولا شرقياً ، ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه مسحة من العدل «هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولها سعي بل كل السعي لخيبة آمال اعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح في عمر فان المقصد اعلى وارفع من هذا ، وانما عملها ، سكب

مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد .

« تلتمس من ابناء الامم الشرقية ، ان يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم واسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت افواهها لالتهامهم — ومن رأيها ان الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الامن من طروق الناهب

« هذا منهاج العروة الوثقى ، علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها — فكيف يخطر ببال عاقل ، ان شرقياً ، مسلماً كان او غير مسلم ، يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم ان حركات الآمرين في القطر المصري هذه الايام قهرية ، لا يخالطها شيء من الاختيار — والمدير لرحى القهر عليهم « هم عمال الانكليز » .

« ولا نريد ان نقول للانكليز انهم ظلموا في هذا الحكم ، فان الجريدة لم يوجد فيها ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية ، والاجنبية من كشف مساتيرهم ، وبيان الرزايا التي اصيبت بها الديار المصرية من حلولهم — لانهم «الانكليز» وهم الذين اذا احسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار ، اسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة « الضبطية » وعند وصوله اليها ، يفتح له الضابط مصحف قرآن ، او كتاب حديث من الكتب المشهورة ، ثم يشير الى آية من آيات الجهاد ، او حديث مما يدعو اليه — ويسأله : هل انت معتقد بهذه الآية او الحديث؟ فاذا قال نعم قال له : فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا — فاذا اجابه بانني درويش ملازم العزلة عن الناس ، وليس اعتقادي بهذا الا لأنه كتاب ديني — ضرب

له الضابط اجل اربعة ايام او اقل ، يبين فيهـا رأيه في الآية او الحديث ، فان مضى الاجل ولم يحرف العالم دينه ، ولم يبدل عقيدته ، ولم يبادر بارسال تحريفه وتبديله ، وخروجه عن دينه ، الى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر — بعثت به الحكومة الى جزيرة « اندومان » نفياً موءبداً .

« ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة ، بامثال هوءلاء المظلومين — فدولة الانكليز الـتي تحاسب رعاياها المسلمين ، على خطرات قلوبهم ، وما يمكن ان يهجس في حديث نفوسهم — لا ريب انها تعد وجود لفظ «الاسلام» في جريدة كافياً لمنعها عن الدخول الى بلاد لها فيها قدم ثابت ، او تسعى في تثبيته — بل تحسب ، ان من ألد أعدائها شخصاً عاق عليه هذا الاسم من اي جنس كان .

« فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها غير اننا نعلن لها ، ان همم الرجال لا تقعدها امثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا ادخال العروة الوثقى في كل بقعة تحوطها السلطة الانكليزية الظالمة وذلك بعزائم اولي العزم ، والاباء والنهضة . »

ثم ظهرت حادثة المهدي السوداني محمد احمد واخذ امره في الاستفحال واتسع منه لانكلترا مجال المداخلة في شوءون مصر ، بحجة قمع ثورة المهدي السوداني .

فكتب جمال الدين في العروة مقالات يحذر بهـا الانكليز ، ويلفت نظر كبير وزرائهم اذ ذاك (المستر غلادستون) الى سوء مصير الجنرال غوردون ، واستحالة نجاح مقصد الانكليز بتلك الوسيلة وامثالهـا ، واثبت

ذلك بحجج قاطعة وبراهين ساطعة . وسيأتي ذكر ذلك تحت عنوان «عبرة وذكرى».

وقد ثابر جمال الدين على الكتابة في مسألة السودان معدداً خطيئات بريطانيا، ووزرائها مفنداً لاقوال اللورد (غرانفيل) وحجج المستر غلادستون ومبيناً مسيء المصير، من انتهاج تلك السياسة في مصر والسودان، كاشفاً مساتير السياسة — مما اقام اكابر رجال السياسة في العالم واقعدهم، واضطربت لها اندية لندرا خاصة .

فاضطر اللورد (ساليسبوري) و (شرشل) ان يستدعيا جمال الدين، ليسألاه رأيه في المهدي وظهوره اذ ذاك، فشخص الى لندن واجتمع بهما وهناك افاض بتوضيح الغوامض واطلعهما على مواقع الخطاء في سياسة انكلترا خصوصاً نحو دول الاسلام في الشرق وما تتبعه في مصر — كل ذلك بحجج قاطعة، ولهجة شديدة ملؤها الاخلاص .

وبعد اخذ ورد، اختصر اللورد ساليسبوري الحديث، ورام تقريبه البعيد، فقال لجمال الدين :

«ان بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره ونحب ان نسير مع حكومات الاسلام، بودة وولاء، على قدر ما تسمح لنا به الظروف والاحوال، لذلك تصورنا ان نرسلك الى السودان بصفة سلطان عليه، فتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لاصلاحات بريطانيا فيه الخ .»

فقال جمال الدين : — تكليف غريب، وسفه في السياسة ما بعده، سمح لي يا حضرة اللورد ان اسألك « هل تملكون السودان، حتى تريدون

ان تبعثوا اليه بسلطان ؟

«مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها ، وصاحب الحق ، الخليفة الاعظم جلالة السلطان حي يرزق ، ولديه من الجيش المادي والمعنوي ، ما يتذلل معهما كل صعب وفتنة في الكون الاسلامي واجزاء ممالكه !»

«ان الاصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق ادخاله وما تبحث له من الوسائل ، فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، الفت نظرها ، ونظر كبير رجالها حضرة اللورد الى — ايرلندا — وما تعانيه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الاصلاح الحقيقي لبلادهم ، فلماذا لا تجيبون سؤلهم ، وتصلحون امرهم ، وهم اقرب اليكم من حبل الوريد ، وبينكم وبينهم من الجامعات ما هو معدوم لكم في مصر ، والسودان ، وغيرهما من ممالك الشرق الخ» .

فبهت عند ذلك اللورد ساليسبوري ، بهتة رجل فوجئ بصدمة لم تكن في حسبانه ، ولم يحر جواباً ، اذ كان ينتظر من جمال الدين سجود الشكر لسلطان اتاه بدون تعب ، ومنصب انتصب له بلا نصب — فقال للسيد كلمات : معناها سننظر في الامر ، وودعه بقوله — مصحوب بالسلامة .

خرج جمال الدين من تلك الملاقاة ، واكبر رجال وزارة انكلترا — ساليسبوري — على غاية النفرة من سياسته — اما الجرائد الانكليزية فاكثرها اهتم لنظرية جمال الدين ومباحثه ، خصوصاً من كان موالياً ، لقضية الارلنديين ، من الانكليز الاحرار وبالاجمال ما خرج من لندرا إلاّ وأنديتها السياسية في شيء من الهرج .

ثم عاد الى فرنسا وكانت العقبات التي اقامتها الحكومة الانكليزية ضد العروة الوثقى ، قد بلغت مبلغهـا من الشدة فسدّت في وجهها الابواب ، واشتدت في عقاب من يذكرها ، وبالاجمال فقد ظفرت بريطانيا العظمى بعد ان صرفت كل همها ، وهممها في تعطيلها ، ان انحجبت «العروة الوثقى» عن الظهور ، ولكنها حفظت في الصدور – وما غرسته في الاذهان ، اخذ ينمو على مهل ، في معظم بلاد الشرق ، وتبدو ثماره ، على التدريج .

كانت مدة اقامة جمال الدين في باريز ، ثلاث سنوات ونيّف ، منها ما قضاه في نشر العروة الوثقى ، ومنها ما نشر فيها تلك المقالات الرائعة في امهات جرائدها باحثة عن سياسة روسيا ، وانكلترا ، والدولة العلية ومصر .

ومن ابحاثه تلك الابحاث الفلسفية واهمها ، ما جرى له من المباحث مع الفيلسوف الفرنساوي – رينان – «في العلم والاسلام وحقيقة القرآن والعمران» (وستأتي براهين تلك المباحث في اقوال جمال الدين الاتية) — اما رينان فقد شهد له بصحة العلم وقوة الحجة ، ورجع عن كثير من آرائه في ان الاسلام والقرآن ، مانعان للحضارة والعمران – وان ما يرى في المسلمين من الانحطاط ، والتقهقر ، ان هو الا من سوء فهم اهل الجمود من رؤساء اهل الدين لحكمته .

كانت مدة اقامة جمال الدين في فرنسا محفوفة بالتجلة والاعظام ، من اكثر علمائها ، وفلاسفتها ، وقد احلوه ، من مقام العلم والحكمة مكاناً علياً .

﴾ كيفية استقدام جمال الدين الى طهران وتألمه من الشاه ناصر الدين ﴿ وغلظته في مخاطبة الملوك والعظماء

بعد ان علم جمال الدين ان لا مقام له في باريز مع كثرة الحفاوة والاحتفاء ، عزم على السياحة في البلاد العربية من نجد ، فالحجاز ، فالعراق وبينما هو على هذه الاهبة ، استقدمه ناصر الدين شاه الفرس على لسان البرق فسار قاصداً طهران ، تاركاً سياحته — وفي اصفهان التقى بالامير ظل السلطان ، فأجلّ جمال الدين ، واعظم قدره ، وكان هذا الامير على جانب عظيم من الذكاء والدهاء ، فرأى في السيد خير مرشد ، للشاه ولمملكة الفرس — حتى اذا وصل الى طهران ، استقبله الشاه ، بصدر رحب واحتفاء كبير مع ثناء واطراء على فضله ونبله ، وفوض اليه في الحال نظارة الحربية رسمياً مع صفة مستشار خاص للشاه ، اذ كان لا يقطع امراً في المملكة ، الا برأي جمال الدين ، فقام باعباء الارشاد ، والنظارة خير قيام ، وفي نفس الوقت كانت لهجته ، شديدة وصريحة بلزوم تغيير كل قديم بالٍ ، من ادارة الحكومة الفارسية ، وبضرورة الاخذ بانهاض الامة ، ومشاركتها في حكم ذاتها .

فالتفّت امراء الفرس ، وعلماؤها ، حول جمال الدين ، واقسموا له انهم يصدعون بما يأمر به ، فاشار بعدم التسرع ، ولزوم الاخذ بسنن التدريج ، غير ان الشاه لما رأى ما ناله جمال الدين ، من علو المنزلة ، ونفوذ الكلمة في مملكته ، وما سخره من قلوب الامراء والعلماء — اوجس خيفةً ، وداخله

ريب عظيم واضطرب متخوفاً على سلطانه ، فتنكر لجمال الدين ، وتغير سير الشاه معه ، فادرك السيد ما في نفسه فاستأذنه في السفر ، لتبديل الهواء فأذن له ، فسار الى روسيا ، وزار عواصمها ، من موسكو ، فبطرسبرج ، فلاقاه اهلها بالتجلة والاكرام لما سبق الى مسامعهم ، من شهرته ، واجتمع في بطرسبرج باعاظم رجالها ، من العلماء والسياسيين ، وهم يعلمون منزلة جمال الدين ، اذ كان وزيراً اولاً لحكومة الافغان في عهد الامير محمد اعظم خان — ونشر في جرائدها مقالات ضافية في سياسة الافغان ، والفرس ، والدولة العلية ، والروسية ، والانكليزية ، كان لها دوي شديد في جو السياسة — اما نفرة السيد من سياسة الانكليز ، وتنقيده لها بالبراهين القاطعة فقد اوسع له في المملكة الروسية مجالاً ، فأولوه غاية الاجلال والتكريم والاصغاء لأحاديثه ، والانتصار لسياسته ، حتى ان القيصر ، دعاه لقصره ، وتحادث معه طويلاً ، وكان كثير الحفاوة به ، معظماً له ، مصغياً لما يقوله .

بعد تلك الاحاديث الطويلة ، سأل القيصر جمال الدين ، عن سبب اختلافه مع الشاه ، فذكر له رأيه في الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها ، وان الشاه ينفر من ذلك ، ولا يحب ان يقرّ به .

قال القيصر : «اني ارى الحق في جانب الشاه اذ كيف يرضى ملك من الملوك ان يحكم به فلاحو مملكته» .

فاجاب جمال الدين بجرأة وفصاحة : اعتقد ياجلالة القيصر ان عرش الملك ، اذا كانت الملايين من الرعية ، اصدقاء له ، خيراً من ان تكون اعداء يترقبون الفرص ، ويكمنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام —

فعَلَت عند ذلك ، وجه القيصر علامة غضب ، فقطب حاجبيه ، ولم يطل الحديث بعد ذلك مع جمال الدين ، بل قام من مجلسه ، وودع جمال الدين بغير الشكل الذي استقبله به ، اذ كان وداعاً بارداً ، ثم اوعز القيصر ، الى اكبر رجال بلاطه ، ان يسرعوا متلطفين باخراجه من روسيا ٠

ترك جمال الدين روسيا ، واخذ يجول في اوروبا ، واقام في لندرا اياماً ، تلقته رجال السياسة فيها ، كما تلقوه في غيرها من العواصم ، بالاكرام والاجلال ، ودعوه الى مجتمعاتهم السياسية ، وانديتهم العلمية ، ليروه ويسمعوا حديثه ، وكان اكبر همه واكثر كلامه ، في بيان سوء تصرف الشاه في المملكة ، واستبداده ، وما آلت اليه حالها في عهده ، يريد في كل ذلك تمهيد السبيل ، لاحرار ايران ، وعدم معارضة الانكليز لهم اذا هم نهضوا لقلب حكومة الاستبداد بحكومة دستورية ٠

صادف وجود جمال الدين متجولاً في اوروبا فتح معرض باريز سنة ١٨٨٩ م فشخص اليها ، والتقى بالشاه في (منيخ) عاصمة (باواريا) عائداً من باريز ، فاستزاره واعتذر له عما فرط ، وعتب عليه بعدم عودته الى طهران ، واخيراً دعاه الى مرافقتــه ، فاجاب جمال الدين الدعوة وسار مع الشاه الى بلادفارس ، فلم يصل الى طهران ، حتى عاد الناس ، وفي مقدمتهم الامراء والعلماء الى الاجتماع به ، والانتفاع بعلمه ، والشاه لا يرتاب من امره واول ما كلفه به ، ان يسن ما يراه موافقاً لروح العصر من القوانين (ربما كان ذلك من الشاه بتأثير سياحته في اوروبا) فعمل جمال الدين ، بهمته المعهودة فسن القانون الاساسي ، لمملكة فارس ، لتكون حكومة ، ملكية ، شوروية ، فما اتم

قواعد الدستور الـكلية ، ومواده ، واطلع عليه الشاه ناصر الدين، الا واعظم الامر ، اذ رأى ان حكمــه سيكون مقيداً — وان اهل فارس ، سيكونون اوسع سلطة من الشاه ، بمجلسهم النيابي .

فقال لجمال الدين :

«أيصح ان اكون ياحضرة السيد ، وانا ملك ملوك الفرس (شهنشاه) كاحد افراد الفلاحين ؟

فقال جمال الدين :

« اعلم يا حضرة الشاه ، ان تاجك ، وعظمة سلطانك ، وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري اعظم ، وانفذ ، واثبت مما هم الآن .

«والفلاح ، والعامل ، والصانع في المملكة ياحضرة الشاه انفع من عظمتك ، ومن امرائك — واسمح لاخلاصي ان اؤديه ، صريحاً قبل فوات وقته .

« لا شك يا عظمة الشاه انك رأيت ، وقرأت عن امة استطاعت ان تعيش بدون ان يكون على رأسها ملك — ولكن هـل رأيت ملكاً ، عاش بدون امة ورعية ؟»

هذا الحديث الصريح من جمال الدين للشاه ناصر الدين جاء مصدقاً لما وشى به الصدر الاعظم ، وخوف الشاه منه بقوله «ان ما يسنه جمال الدين من القوانين لا يفيد البلاد شيئاً ، ولكنه ينزع سلطان الشاه منه ، ويعطيه الى السوقة والفلاحين — وغير ذلك من الوشايات .

فنفر الشاه نفوراً بيناً من جمال الدين ، واعرض عنــه ، فاحس بهذا

التغيير والنفور ، فاستأذن بالذهاب الى بلدة شاه عبد العظيم على بعد عشرين كيلو متراً من طهران ، فأذن له ، فسار اليهـا وتبعه جم غفير من العظماء ، والعلماء ، والوجهاء ، الذين ، كان يخطب فيهم ، و يستحثهم على اصلاح حكومتهم ، وما منهم الا وقد انفعـل بخطب جمال الدين الحماسية ، وقبلت نفوسهم نزعة الاستقلال ، وسرت تلك الروح في البـلاد طولاً وعرضاً ، وذاع فيها عزم جمال الدين على اصلاح ايران ، فخاف ناصر الدين شاه عاقبة ذلك ، فانفذ الى بلدة شاه عبد العظيم ، خمسماية فارس ، قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه على برذون ، وساقوه بصورة فظيعـة وعليه دور من الحمى ، درجة حرارتها اربعـين ، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق ، حتى اوصلوه الى حدود المملكة العثمانية في ولاية البصرة .

فما شاع خبر نفي جمال الدين على تلك الصورة في ايران حتى قامت قيامة محبيه ومريديه ، وثاروا في وجه حكومة الشاه حتى كادت الدماء تجري انهاراً ، والثورة تثور ، ولكنها خمدت تحت الرماد ، لشدة ما خامر الشاه من الخوف على حياته ، واتخذه من الحيطة (كل ذلك لم يغن عن الشاه فتيلاً ، لانه بعد مدة قتل بيد رجل من الفرس قال عند طعنه للشاه — يا لثارات جمال الدين) .

اما جمال الدين ، فمكث في البصرة ، حتى عادت اليه صحته ، فشخص منها الى لندرا ، وبينما هو مع كبار رجال الانكليز ، في حجاج ولجاج ، في احوال مملكة الفرس ، وسوء تصرف الشاه ناصر الدين ، وانذار الانكليز ، بسوء عقبى امدادهم الشاه واعانته على عسفه في المملكة الفـارسية — ورد

عليه كتاب من المابين الهمايوني ، بواسطة السفير الكبير رستم باشا في لنـدرا اذ ذاك ، ان يقدم الى الاستانة ، فاعتذر بانه في شاغل وقتي لاصلاح بلاده ولم ينجح رستم باشا بكل ما بذله مع جمال الدين ، ليـذهب الى الاستانة ، وبعد ايام ورد كتابان ، الواحد الى السفير رستم باشا، والآخر لجمال الدين وفيهما من الثناء والتحريض ، ما جعل جمال الدين ان يترك الرفض ويجيب الدعوة .

اما الكتاب الى رستم باشا فكان ، فيه من الشدة والالحاح من جلالة السلطان عبد الحميد ، هذه العبارة «لا يقبل جلالته لكم عذراً اذا ما اقنعتم جمال الدين بالمجيء الى الاستانة ، ليقابله ثم يعود اذا شاء ، منتظرين اشعاركم تلغرافياً» .

فترك اندرا وقدم الاستانة سنة ١٣١٠ هـ واواخر عام ١٨٩٢ م .

وصل جمال الدين الى الاستانة ، وكان في انتظاره ، الياور السلطاني ، الذي كان اوفد من المابين لاستقباله ، فسأله اين الصناديق يا حضرة السيد؟ فقال ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب — قال الياور حسناً دلني اذا امرت على مكانهم ، فاشار السيد قائلاً ، صناديق الكتب هنا (واومأ بيده الى صدره) وصناديق الثياب هذه (وأشار الى جبته) .

وقد قال لنا اكثر من مرة « كنت اول عهـدي بالنفي استصحب جبة ثانية ، وسراويل . ولكن لما توالى النفي صرت استثقل الجبة الثانية فاترك التي علي الى ان تخلق ، فاستبدلها بغيرها» .

﴿ ما خاطب به السلطان عبد الحميد بشأن الشاه ناصر الدين ﴾

ذهب جمال الدين توا الى المابين وحظي بمقابلة جلالة السلطان عبد الحميد فاستقبله احسن استقبال ، واكثر من الاحتفاء والاحتفال به ، وادناه منه ، واجلسه بقربه وكان قد امر باعداد ، وتهيئة قصر له في محلة نيشانطاش وسيره اليه بعربة خاصة .

اما جمال الدين فكان كما سبق ذكره على غاية من الغيظ من ناصر الدين شاه ، ناقماً عليه ، وعلى حكومته الاستبدادية يشغل كل مجلس حلّ فيه ، بالطعن الشديد ، واقبح التنديد ، فتقدم سفير ايران برسالة خاصة الى السلطان عبد الحميد ، ليردع جمال الدين عن ذلك الطعن ، وفي ذات يوم وجمال الدين في حضرة السلطان رغب اليه بلزوم كف لسانه عن الشاه ، وان يتناسى ما مضى « بعبارة غاية في اللطف وكمال الدعة » = وكان في يد جمال الدين سبحة ، فجمعها لكفه وقال بصوت جهوزي :

«امتثالاً لاشارة امير المؤمنين ، فاني من الان قد عفوت عن الشاه ناصر الدين »

فاعظم الحاضرون هذا القول ، في هذه اللهجة ، ولكن جمال الدين لم يبال باعظامهم ، ولا بما تقولوه ، لاعتقاده انه يحق له ان يعفو ، وانه قد عفا عن الشاه

خرج جمال الدين على عادته ، من حضرة السلطان الى حجرة رئيس القرناء ، فقال له بلطف : يا حضرة السيد ، ان اجلال السلطان لحضرتك لم

يسبق له مثيل ، واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة ، وانت تلعب في السبحة في حضرته

فقال جمال الدين : «سبحان الله ، ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الامة على هواه ، وليس من يعترضه منهم = افلا يكون لجمال الدين حق ان يلعب في سبحته كيف يشاء» اما رئيس القرناء فترك حجرته مهرولاً خائفاً يترقب من هذا الكلام بهذه اللهجة، ان يوشى به الى السلطان .

اما الاكرام لجمال الدين والاحتفاء به، والاقبال عليه، من قبل جلالة السلطان عبد الحميد فكان عظيماً ، وقد اكثر من الاجتماع به اثر وصوله ساعات في كل يوم وليلة ، = فلخص تلك الاجتماعات ، وما دار فيها من الاحاديث بقوله : « ان السلطان عبد الحميد ، لو وزن مع اربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاءً ،ودهاءً، وسياسة=خصوصاً في تسخير جليسه .

«ولا عجب اذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب ويخرج المناوىء له، من حضرته راضياً عنه ، وعن سيرته ، وسيره ، مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك، الملك، والامير، والوزير، والسفير، ولكن ياللأسف ان عيب الكبير كبير ، والجبن من اكبر عيوب الملوك» .

ثم قال : « رأيت من السلطان ارتياحاً لقبول كلما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري ، وان الاسلام ، اول من عمل به في سلطانه (اي الحكم الشوروي وذلك عملاً بحكم النص — وامرهم شورى . . .) » .

قال : «ورأيته يعلم دقائق الامور السياسية ، ومرامي الدول الغربية ، وهو مُعد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجاً وسلماً .

«واعظم ما ادهشني — ما اعده من خفي الوسائل ،وامضى العوامل ، كي لا تتفق اوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية ، ويريها عياناً محسوساً — ان تجزأة السلطنة العثمانية ، لا يمكن الا بخراب يعم الممالك الاوروبية بأمرها» .

وهكذا كانت يقظته لدول البلقان الصغيرة التي احدثتها اوروبا ، أحبولة لتضعضع بها السلطنة العثمانية ، وتتذرع بها للتدخل في الشؤون لتقتطع من اجزاء المملكة ، جزءاً بعد آخر ، وكلما حاولت اوروبا ان تجمع كلمة دول البلقان ، للخروج على الدولة بحرب ، كان السلطان يسارع ، بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه ، وتفريق ما جمعوه من كلمة وكيد .

فالبلغار مع شدة شكيمتهم ،ودهاء اميرهم البرنس فردناند ، رضخ طائعاً لأمر عبد الحميد ، ولبس الشعار العثماني (الطربوش) وافتخر برتبة المشيرية ، وانتظم مع مشيري الدولة في حفلة صلاة الجمعة «السلاملك»

اما امير جبل الاسود نقولا ، فكان امره مع السلطان عبد الحميد كولد لا يرى الفرج الا من ابيه

كان كلما شكا قلة ذات اليد ،وطلب كفالة على استقراض زهيد ، يرسله له دون عوض ولا سند .

اكثر جهاز ابنته التي زفها على ولي عهد ايطاليا ، (الملك الحالي الآن) كان من جيب السلطان عبد الحميد — وهكذا بقية دول البلقان مع ذلك السلطان العظيم الشان .

ضاقت اوروبا ذرعاً بسياسة السلطان عبد الحميد، وحيطته ، ويئست

من اكثر دول البلقان ، فحولت كيدها بدس الدسائس ، وصرفت همتها بالاستغواء الى أخف الدويلات حلوماً واكثرهم غروراً وطيشاً ، وهي دولة «اليونان» فقد بدأت تتحرش بالدولة العثمانية ، لتتدهور بالحرب مع السلطان عبد الحميد[1] .

---

(١) بعد ان نظر جمال الدين بعين البصيرة ، ووقف على جريان السياسة وماهنالك من الدسائس ، جزم بوقوع الحرب اليونانية العثمانية ، وقد حصل ذلك ، وجمال الدين على فراش المرض ، وحصلت النتيجة التي كان ينتظرها من تلك الحرب وان اوروبا وما تعمله من المكايد مع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية ستكون نتيجته — رد الكيد في النحر — هذا ما كان من اليونان وما امدتها به اوروبا من المدد وما اسعفوها به من المال والعدد ، فقد ذهب سدى ، اذ لم يمض على الحرب الا شهران او اكثر حتى اكتسحت جنود السلطان عبد الحميد سهول ، ووهاد ، وجبال ، ومعاقل «تساليا» «ولاريسا» وفرت طيور اووز اليونان من عقبان الجيش العثماني · فاستجار اليونان بالقيصر اذ ذاك ، ان ينقذ آتينا بتوقيف الحرب فاستحقوا خطاب الشاعر لهم

فما الحرب بالامر الذي تحسبونه ... هويناً اذا استهوت عقولكم الخمر

ولقد اجاد السيد توفيق البكري ، اذ هنأ السلطان عبد الحميد بظفره هذا حيث قال : «وهي اول قصيدة جاءت للاستانة تهنئةً بالنصر»

اما ويمين الله حلفة مقسم ... لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم
ولولاك بعد الله امست دياره ... بأيدي الاعادي مثل نهبٍ مقسم
لقد سر هذا النصر قبراً بطيبة ... وبيتاً ثوى بين الحطيم وزمزم

ومنها

امال «بلاريسا» عروش عداته ... واشرق من فرسالة الارض بالدم
يسودِ جنيٍّ كالأكام دوافع ... بجمرٍ كاشباه الصواعق رجّم

قال جمال الدين

« اما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره، واعداده العدة اللازمة لابطال مكايد اوروبا — وحسن نواياه، واستعداده للنهوض بالدولة (الذي فيه نهضة المسلمين عموماً) فقد دفعني الى مد يدي له، فبايعته بالخلافة والملك عالماً علم اليقين، ان الممالك الاسلامية في الشرق لا تسلم من شراك اوروبا، ولا من السعي وراء اضعافها وتجزأتها، وفي الاخير ازدرادها، واحدة بعد اخرى — الا بيقظة وانتباه عمومي، وانضواء تحت راية الخليفة الاعظم.

بقي السلطان مستمراً على اقباله واكرامه لجمال الدين — والدسائس والمفاسد لا تؤثر شيئاً، حتى خف جمال الدين يوماً وطلب من السلطان لأحد الأخوان المصريين الموجودين في الاستانة (ممن كان يتردد على السيد) رتبة وزيادة راتب، فوعده السلطان بامضاء ذلك فاتى جمال الدين وبشر الرجل بحصول مطلبه.

مضت ايام ولم تصدر الارادة السنية بما طلبه، فكتب للسلطان يذكره و يستنجزه وعده.

ولكن عبثاً انتظر، فاحتدم جمال الدين غيظا واكبر الأمر، وطلب خطًا ان يؤذن له بالمثول (هذه اول مرة طلب بها الاذن للمقابلة) اذ كان السلطان هو الذي يدعو جمال الدين اليه.

فما وصل الطلب بالاستئذان حتى اسرع الحاجب (القرنا) يدعو السيد للحضور، فسار وهو يكاد يتميز من الغيظ، وخشينا سوء العاقبة، من تهور

جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه ·

دخل على السلطان فاستقبله حسب عادته ، بوجه طلق بشوش ، وجمال الدين بوجه عبوس قمطريرا ·

فاستجوبه السلطان قائلاً «خيراً انشاالله ! ماذا حدث مع حضرة السيد ؟ »

قال : « لا شيء أنما اتيت لأستميح جلالتك ان تقيلني من بيعتي لك لاني رجعت عنها »

فانتفض السلطان واهتز لهذا النبأ وقال : « يا سيد ! هل افتكرته بما تقول ؟ » ·

قال : «نعم بايعتك بالخلافة · والخليفة لا يصلح ان يكون غير صادق الوعد بيد جلالتك الحل والعقد ، و بأمكانك ان لا تعد ، واذا وعدت وجب عليك الوفاء ، وقد رجوتك بالامر الفلاني ووعدت بانك تمضيه ولم تفعل» :

عند ذلك سكن غيظ السلطان ، وبهت برهةً مطرقاً يهز برأسه ، يميناً وشمالا ، ثم قال : سبحان الله يا حضرة السيد ، ان امراً طفيفاً مثل هـذا يحملك ان تهجم على نقض بيعتي لاجله — اما كان يحسن بفضلك ، ان تلتمس لي عذراً بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرني قبـل نقض البيعة — سامحك الله واحسن جزائك » ·

ثم اصدر ارادته حالاً بما طلب جمال الدين وآنسه كثيراً وباسطه ·

قال جمال الدين : «الحق يقال انني شعرت بتسرعي ، وعرفت خطائي كما انني عرفت للرجل كبير فضله وسعة صدره :

وعند خروجه تقدم الحاجب من جمال الدين ، وناوله كيساً من المخمل الاحمر ، فيه دنانير ، فتردد جمال الدين وقال : « يا حضرة البيك ، ان نعم السلطان من قصرٍ وفرش ، وخدم وحشم ، ومركبة لم تترك مجالاً لمثل هذا المال » .

قال القرين « يا حضرة السيد ، عطاء السلطان لا يرده انسان » .

فاتانا جمال الدين وبيده الكيس وقص علينا ما جرى وقال « عد هذه الدنانير يا شيخ بني مخزوم » فاذا هي خمسماية ذهب عثماني ، قال ماذا نصنع بها ؟ قلت جبتان ، والباقي ترصده للسيغار .

قال - لما ذكرت راتباً شهريا ، ولا ينبغي ان نهتم بالامر كثيراً ، سوف يظهر الاكفاء لهذه الدنانير فتوزع عليهم . وفي الحقيقة لم يمض شهر حتى وزع المال على اهل الفضل والادب المعوزين

هكذا دام اقبال السلطان عبد الحميد على جمال الدين ، وهو لا يدخر نصحاً وتنويهاً بالخائنين ، والسلطان يعلم من خيانتهم اكثر منه ، طالما شكا له اعمالهم ، حتى قال يوماً : يا جلالة السلطان ، مللت من تعاطينا الشكاية — ومن غيرك صاحب الامر ؟»

خذ بحزم جدك محمود ، واقص الخائنين من خاصتك (الذين يبعدون عن بلاطك ، حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة) خفف الحجاب عنك ، واظهر للملأ ظهوراً ، يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد ان نعم الحارس الاجل (فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا هم يستقدمون الآيه . .)

قال : «عند ذلك تنفس السلطان الصعداء وقال : « ذكرتني في عهد جدي محمود — وما ابعد الفرق بين محيطي ومحيطه ، بين حالة اوروبا في زمانه ، وحالتها اليوم ،بين رعيته والرعية اليوم

« كان الفساد في عصره ،منحصراً في فيئة العساكر (الانكشارية) (يكي چري) فطهرها بالسيف واستبدلها بخير منها ، وكان المجموع صالحاً ، بعكس ما انا فيه يا جمال الدين

«ما استبدلت وزيراً باخر الآ ورأيت من مساوي الخلف، ما أسفت معه على السلف — كلما دخلت امة لعنت أختها — ولا مناص من الصبر ، وسأفعل انشاءالله على التدريج (وكان امر الله مفعولا)

«كلفتك يا حضرة السيد ،ان تقبل مشيخة الاسلام فتصلحها،فأبيت واعتذرت ، اذ طلبت ان تعمل عملاً اساسياً ،فتغير معه الشكل الحاضر ، وهذا مما لا يسمح به الزمن مع غوائله . فعذرتك بعدم القبول،فاعذرني اذا لم اقدم على التغيير بسرعة ، لا تتناسب مع الزمان والمكان .

ولا بد من كارثة تحدث فتشغل اوروبا عنا ، ونغتنم بها فرصة نصلح فيها امرنا ، ونلم شعثنا انشاءالله .

في الحقيقة ان جمال الدين ، لم يقبل ما كلفه جلالة السلطان به من الوظائف والرتب والنياشين ،معتذراً بقوله :

« ان وظيفة العالم ليست بمنصب ذا راتب بل بصحيح الارشادوالتعليم « ورتبته ما يحسن من العلوم ، مع حسن العمل بالعلم » .

اما ما دار من الاحاديث المهمة بين جلالة السلطان وجمال الدين

فستأتي في فصول هذا الكتاب ·

مكث جمال الدين في الاستانة ، زهاء اربعة اعوام ، لم تمر منها دقيقة ، الا وافاد فيها وارشد ، ووعظ ، وحذر ، وانذر ، وأدى الامانة حقها ، حتى داهمه داء السرطان في فكه الاسفل ، وعملت له ثلاث عمليات جراحية ، بيد اشهر الاطباء ولم تنجح ، فمات رحمه الله في ٧ شوال سنة ١٣١٤ ه و٩ مارس ١٨٩٧ م ·



رسم السيد جمال الدين في مرضه الاخير سنة ١٣١٤ ه ١٨٩٧ م

نعم كان لفقد جمال الدين في الاستانة رنة حزن واسف في قلب كل فاضل ، وقد مشى في جنازته العلماء ، والوزراء ، والأكابر ، والأفاضل ، ودفن في مقبرة في محلة ماشقه [1] .

وقد رثاه شقيقي المرحوم مصطفى المخزومي بهذه الابيات ارتجالاً :

جمال الدين اردته المنون　　فعم الخطب فالدنيا أنين
امام بالعلوم ولا خلاف　　وفي شرع الامين هو الامين
هو العلم الذي عمرت بذكرى　　فضائله المحافل والحصون
حفيد محمد وكفاه فخراً　　وهل بعد الكتاب يراد دين
على خير الخلائق من أله　　تحيات يطيب بها الحزين
وآل البيت ما نظمت مراثٍ　　وما حرقت مآقيها العيون
تحيط ضريح من احيا المعالي　　ومن في جنة المولى مكين

﴿ صفات جمال الدين — ومذهبه — وآماله، ومقاصده ﴾

ومناقبه — واخلاقه — ومنزلته من العلم

«اما صفاته الشخصية » — فهو يمثل لناظره عربياً محضاً ، من اهالي

---

(١) ومحلة « ماشقه » هذه هي في آخر نشانطاش. وفيها قشلاقها المشهور (قشله) وفي اول المنحدر لمحلة « بشكطاش » وقد بلغني اخيراً ان الفاضل الاميركي الشهير المستر كراين قد عمر الضريح ودفع اكلاف القبر البالغة على ما يقال عشرة الاف دولار — هكذا تكون الهمم وعلى نسبتها يكون الالم لفقدها منا نحن اهل الشرق اذ لسنا للأحياء من عمائنا، وحكمائنا — ولا للأموات منهم

الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين ، من سكنة الحجاز ، ربعة في طوله . وسط في بنيته . قمحي في لونه . عصبي دموي في مزاجه عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب . واسع العينين . عظيم الاحداق . ضخم الوجنات . رحب الصدر جليل في النظر . هش بش عند اللقاء قد وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه . نافذ اللحظ جذاب النظر .. مع قصر فيه فاذا قرأ ادنى الكتاب من عينيه ، ولكنه لم يستعمل النظارات . خفيف العارضين . مسترسل الشعر يتسرول جبة سوداء تنطبق على الكاحلين . وعمامة صغيرة بيضاء .

اما مذهبه فحنيفي — حنفي المذهب ، وهو وان لم يكن في عقيدته مقلداً كما سبق القول لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل الى مذهب السادة الصوفية . شديد الحرص والمثابرة على اداء الفرائض في مذهبه ، محافظاً على أصوله وفروعه . اما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها احد ، يكاد يلتهب غيرة على حكمة الدين ووقاية القائمين بها بحق والاخذ بناصرهم .

« اما آماله ومقاصده » — فيصح القول بانها انحصرت في مطلب رئيسي ، واليه وجه كليته ، وصرف افكاره ، واخذ على نفسه السعي مدة حياته ، ولا نغالي اذا قلنا ان كل ما أصابه من البلاء انما اصابه في سبيله وهو (انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الامة بالامم الراقية والدولة بالدول القوية وحل العقول من قيود الاوهام ، وتوحيد وجهة الشرقيين فيعود لهم مجدهم ، وله حملات هائلة على سياسة بريطانيا العظمى في الاقطار الشرقية — وفي هذا المطلب والمسعى من قصد وآمال ، قد انقطع

جمال الدين عن المألوف في العالم ، فلم يتخذ زوجة ، ولا التمس كسباً.

نعم انه لم يتوفق الى كل ما اراده ، ولكنه بث في نفوس الاصدقاء والمريدين روحاً حية ، وبذر بذوراً طيبة ، انتفع منها الشرق في عاجل ثمراتها ، ولسوف ينتفع بالآجل من الغرس انشاء الله

«مناقبه» — كانت مجالسه لا تخلو من الفوائد العلمية اياً كانت ، بعيدة من اللغو ، منزهة عن اللهو ، كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ، ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ، ولا يستنكف من زيارة اصغرهم على امتناعه من زيارة اكبرهم اذا ظن في زيارته تزلفاً . وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم الا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية ، واذا آنس من سامعه التباساً بسط مراده بعبارة اوضح ، فاذا كان السامع عامياً تنازل الى مخاطبته باللغة العامة ، خطيباً مصقعاً لم يقم في الشرق اخطب منه ، قليل المزاح ، رزيناً ، كتوما لمن استكتمه . كان قانتا ، قليل الطعام لا يتناوله الا مرة في النهار ، و يعتاض عما يفوته من ذلك بالشاي فيشرب منه مراراً في اليوم . يدخن نوعاً من السيكار الافرنجي الجيد . ولشدة ولعه في التدخين وعنايته في انتقاء نوع السيغار لم يكن يركن الى احد من خدمه في ابتياعه ، فيبتاعه هو بنفسه (قال طبيبه الخاص : ان شدة ولع جمال الدين بالسيغار الافرنجي وكثرة شربه للشاي وتناوله الطعام مالحاً ، كان من مسببات السرطان ، ولا ادري مبلغ هذا القول من الصحة)

«اخلاقه» — اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته . حر الضمير ، صادق اللهجة عفيف النفس ، رقيق الجانب ، وديع مع حلم عظيم يسع ما

شاء الله ان يسع، الى ان يدنوا منه احد ليمس شرفه او دينه ، فينقلب الحلم الى غضب تنقض منه الشهب — فبينما هو حليم أواب ، اذا هو اسد وثاب كريم يبذل ما يسده ، قوي الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر . عظيم الامانة . سهل لمن لاينه . صعب على من خاشنه . طموح الى مقصده السياسي الذي سبق ذكره — اذا لاحت له بارقة منه ، تعجل السير بالوصول اليه (وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان) قليل الحرص على الدنيا . بعيد عن الغرور بزخارفها . ولوع بعظائم الامور معرض عن صغارها . ثابت الجأش . شجاع ، مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه . قد يساق الى القتل فيسير اليه سير الشجاع الى الظفر .

الا انه حديد المزاج وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة ، ولكنه في آخر سني حياته صار في رسوخ الاطواد

فخور بنسبه الى سيد المرسلين (صلعم) لا يعدلنفسه مزية أرفع ولا عزاً أمنع ، من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر — وبالجملة ففضله كعلمه ، والكمال لله وحده .

«علومه» — اما منزلته من العلم وغزارة المعارف ، فليس يحدها بليغ ، الا بنوع من الاشارة اليها . لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة على حل ما يعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها — كل موضوع يلقى اليه ويدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتي على اطرافه ويحيط بجميع اكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه . اذا

تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب التصور والخيال قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والابداع، له لسن في الجـدل، وحذق في صناعة الحجة، لا يلحقه فيها احد الا ان يكون في الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهداً على ذلك انه ما خاصم احداً الا خصمه، ولا جادله عالم الا ألزمه، وقد اعترف له الاوروبيون بذلك، بعد ما اقرّ له الشرقيون — وبالجملة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن، وسعة العقل، ونفوذ البصيرة هو اقصى ما قدر لغير الانبياء، لكنت غير مبالغ — ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما قوة ذاكرته، فلا أدل عليها، من تعلمه اللغة الفرنساوية، في اقل من ثلاثة اشهر، حفظ في خلالها شيئاً كثيراً من مفرداتها، وصار قادراً على الترجمة منها، وافادة مراده بها، بلا استاذ، الا من علمه حروف هجائها بيومين ٠

واسع الاطلاع في العلوم العقلية، والنقلية، وخصوصاً الفلسفة القديمة فلسفة تاريخ الاسلام، والتمدن الاسلامي، وسائر احوال الاسلام والمسلمين، كان يعرف اللغات الافغانية، والفارسية، والعربية، والتركية، والفرنساوية جيداً، مع المام باللغتين الانكليزية والروسية ٠ كثير المطالعة، لم يفته كتاب كتب في آداب الامم وفلسفة اخلاقهم إلا طالعه ٠

نعم لم يتوفق الى كل ما اراد، وقضى ولم يدون الا رسالة في ابطال مذهب الدهريين، (سنأتي على ذكرها كما ذكرنا) ٠ ولكنه بث في النفوس روحاً حيةً، انتفع الشرق واهله ببعضها وسوف ينتفع باجمعها ٠

وقبل ان نختتم سيرة جمال الدين، نأتي على ما ذكره ادباء العصر ممن عاصره (في مقدمتهم فقيد الادب اديب بك اسحق) ونقلته مجلة الهلال مع تصرف حيث قال :

قد تمر القرون وتتوالى الاجيال ، والناس على ما ساقتهم اليه الحاجة ، من شؤون معائشهم ، لا يفقهون غثها من سمينها ، ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها ، حتى تتمخض الطبيعة ، فتلد من ابنائها افراداً يميطون عن اسرارها اللثام ، فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين — اولئك هم اقطاب العلم وانوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون ، الذين مزقوا استار الجهل ، وكشفوا غوامض الطبيعة ، فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف . ومنهم الفلاسفة العقليون ، الذين استطلعوا اسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس ، وبينوا ما اودعه الخالق في خليقته ، من المواهب العقلية ، والمكتسبات الادبية ، ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من اولئك الافراد ، الا كل بضعة اعصر ، فيسير الناس على خطواته اجيالاً ، حتى اذا كادوا يرجعون الى غيهم ، جادت عليهم بآخر ، ينفث فيهم روحاً حية ، فيهبون من رقادهم ، ويعودون الى رشدهم ، ريثما يأتيهم ثالث .

هكذا كان شأن العالم ، من بدء عمرانه ، ومن اولئك الفلاسفة ، سوقراط وافلاطون وغيرهما من فلاسفة الفرس والعرب من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضيء بنبراسهم .

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول ، فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد ، توفرت فيهم قوى الفلاسفة ، ومواهب رجال الاعمال ،

فتحيط بهم آفات تحول دون نمو ما يغرسون، فيكمن في الارض مدفوناً الى الوقت المرهون .

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض ، جهل الناس حق قدرهم ، كما هو الشأن بفيلسوف الشرق وخطيبه ، السيد جمال الدين الافغـاني ، اذ نشأ قطباً من اقطاب الفلسفة ، وعاش ركناً من اركان السياسة ، ولكنه لم يتم عملاً ، ولا ألف كتـاباً غير تلك الرسالة . على ان ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا اعظم الفلاسفة ، (سقراط) مات ولم يدون شيئاً من كلامه ولكن تلامذته ، حفظوا فلسفته ودونوها ، فتوارثتهـا الاجيال خلفاً عن سلف ، فعسى ان لا نحرم ، من مريدي الاستاذ جمال الدين ، وتلامذته ، من يفعل مثل ذلك انتهى .

بقي علينا ، ان نؤدي الانصاف حقه بالاتيـان على كل مناقب السيد جمال الدين ، فنرى له وصفاً ، لو سـكتنا عنه ، سئلنا عن اغفاله ، وهو انه كان في اكثر الامصار ، والعواصم يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المنتزهات العامة ، والاماكن المعدة لراحة المسافرين ، ونفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان السيد حيثما حل من تلك المجالس والاماكن ، يتحول ذلك الموضع الى حلقة علم ، ومذاكرة ادب ، وحلقـة درس ، يستفيد كل من يسرع اليها ، من طلاب الفوائد العلمية ، والمقدرين لمنزلة السيد .

هذا الوصف الوحيد الذي ربما عده عليه بعض حاسديه ، نقصاً للكمال

واحبوا انتقاص قدره ، من هذا الباب ، وقد جهلوا ان الله يحب ان توءتى رخصه ، كما يحب ان توءتى عزائمه ·

واي غضاضة على المؤمن في ان يفرج بعض همه بما اباح الله له ·

هذا مجمل ما قيـــل ، وما علمناه من سيرة واحوال السيد جمال الدين الافغاني ، أتينا به ، دفعاً لما افتراه عليه ، الجاهلون لحقيقته ، المتخرصون تارةً بمروقه من الدين ، واخرى بضعف اليقين · وهذا يكفي على معتقدنا لذوي اللب ان تقوم منه لهم حجة على صفـــاء جوهر جمال الدين ولا تترك للشائنين ادنى مجال يجولون به على فضله وما الفضل الا من عند الله والله ذو الفضل العظيم اه ·

❋ رأيه في الاسرار والاعلان ❋

يرى المتأمل في اخلاق وصفات جمال الدين ، شيئاً من التناقض — فيراه مثلاً كريماً لحد الاسراف ، وفي بعض الاحيان بخيلاً لدرجة التقطير متواضعاً مع الوسط ومن دونهم من الخلق لدرجة الذل · متكبراً على العظماء لحد التجبر كما ذكر · — كتوماً لمن استكتمه قياماً بالامانة · جهرياً بآرائه وافكاره الخاصة ، حتى تحيرنا في امر هذه السجية وفي امر تأويلها ·

لان من لوازم الحكيم والحكمة «الكتمان» على مذهب الجمهور فلما كوشف في هذا الشأن قال :

«لا ارى في هذا الكون من القول او الفعل ما يكون كتمانه لازماً ، الا ما كان في علانيته شيناً ، ومعرةً ·

«ولا يكون الكمال النسبي في البشر الا متى كثر اعلانهم وقل كتمانهم

« فدوله تكتم عن امتها كل امورها — لا خير فيها ، ولا هي بالدولة الامينة من امانتها ، وحسن تصرفها

«ورجل يرى كل شيء يقال له ، او يجب ان يقوله — سراً مكتوماً — لا يرجى الا نفاقه ، وما هو بالرجل الرجل ، ولا بشبه رجل (ومن احب فليعلن)

«والمحبة هنا على مطلق المعنى ، لكل شيء حق ، ومستحسن بالفطرة من اقوالٍ وافعالٍ وصفاتٍ ، وذات .

«فمن احب الصدق من القول لا يتكتم به ، ولا يخشى بأساً من اعلانه

«وبالعكس اذا احب الكذب والكاذب ، فخليق به ، ان لا يعلن ذلك

«ومن احب فاعل الخير ، لا يرى حرجاً في اعلان حبه له الخ . .

« اما القبيح من كل شيء ، والخوض فيه ، فلا يسعه الا التستر والكتمان .

ثم قال :

« واحسن ما سمعت في وصف المروءة قولهم (ان لا تعمل في السر ما تستحي منه في العلانية)

« وبعد هذا — فمن شاء فليكتم ومن شاء فليعلن ».

قلنا اذاً ايها الاستاذ الحكيم : من الاشياء ما ليس بالقبيح ولكنه يجب كتمانه بدليل قوله « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

ثم مسألة الحروب ، وتدبير امورها وضرورة كتمان الراي فيها ، امر ظاهر لزومه.

قال : « اما الحاجة من حيث هي حاجة فهي « ذل » والذل قبيح من « حيث هو وأقل الناس حوائج اكثرهم جهراً ، واكثرهم حوائج اكثرهم « كتماناً . دونكم وقوف اسكندر الكبير على « ديوجينوس » وهو في « برميله »وحصر مطلبه ، ان لا يحول بينه وبين شمسه .

«اما القول في الحروب فهي عندي من أقبح ما عمله ،ويعمله الانسان في الارض — وهي وحدها أحق الاعمال بالكتمان لفظاعتها ، واجدرها ان لا تظهر لعالم الفعل»

❋ غرض جمال الدين الاسمى في حياته ❋

قال : « اول نظرة نظرتها في الكون وفشلت بها ، انني وضعت الكرة الارضية بين يدي ،وقستها ببعض الاجرام ، فرأيت منها ما يكبر الارض، بمئات الملايين من المرات ، ثم تمعنت فيما حوته من الحيوان الناطق (الانسان) فوجدته لا يتجاوز الالف وخمسماية مليون تقريباً ، وهو مقدار زهيد بالنسبة لسطح الارض .

« ثم افترضت ذلك الجرم الذي يكبر عن الارض بمائتي مليون مرة ، وان الرجل هناك يعيش الف سنة — وان ذلك الرجل صاحب اراض واسعة فيه ، فتخيل لي انه يملك من الاراضي ما مساحتها مساحة الكرة الارضية — وان اولاد واحفاد احفاده ، من الممكن ان يبلغ عددهم ، اذا ازدوج بمئات من النساء مع طول العمر — عدد أهل الارض هذه، او ما يزيد . فاذا صح مع هذا الخيال ، ان تكون الارض برمتها ملكاً لرجل،

في قرية من جرم المريخ مثلاً — ونسله عدد اهل الارض ، هل يكون بين اهل تلك القرية الذين هم ابنـــاء رجل واحد — مثل ما هم عليه اهل هذه الكرة من الاختلافات ؟!!

اجابني الخيال « كلاّ » بل يكون كل اهل القرية آمنون مطمئنون، لا تحاسد بينهم ولا هم يحزنون ، يغرسون ويزرعون ، ويجنون فيأ كلون ، لا يعرفون للحرب معنى ،اذ لا ملك عليهم وليس بينهم اولي مطامع . ملك شاسع واسع ، وخيرات مما يشتهون يعبدون مع ابيهم ،صاحب القرية الهًا واحداً ، خالق الكل ومبدع الكائنات »

قال : ثم رجعت لأ هل جرم الارض ، وبحثت في اهم ما فيه يختلفون فوجدته (الدين) فاخذت الأ ديان الثلاثة ، وبحثت فيها بحثاً دقيقاً مجرداً عن كل تقليد ، منصرفاً عن كل تقيد ، مطلقاً للعقل سراحه .

فوجدت بعد كل بحث وتنقيب وامعان ،ان الاديان الثلاثة ،الموسوية والعيسوية ،والمحمدية ، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية

واذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق، استكملته الثانية

واذا تقادم العهد على الخلق ،وتمادوا في الطغيان ،او ساءت الكهـــان فهم الناموس ، او انقصوا من جوهره — أتاهم رسول بأرفاد وتأ ييد ،فاكمل لهم ما انقصوه ، واتم بذاته ما أهملوه »

« وعلى هذا لاح لي بارق امل كبير ، ان تتحد اهل الاديان الثلاثة مثل ما اتحدت الأ ديان في جوهرها واصلها وغايتها ، وان بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطى نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة .

قال : واخذت اضع لنظريتي هذه خططاً ، وأخط اسطراً ، وأحبر رسائل للدعوة — كل ذلك وانا لم اخالط اهل الاديان كلهم عن قرب وكثب — ولا تعمقت في اسباب اختلاف حتى أهل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً ، وشيعاً وطوائف .

ولكن لما علمت ان دون اتحاد اهل الاديان ، تلك الهوات العميقة ، واولئك المرازبة الذين جعلوا كل فرقة بمنزلة «حانوت» وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة ، وراس مال تلك التجارات ، ما أحدثوه من الاختلافات الدينية ، والطائفية ، والمذهبية على حد قول الشاعر :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره ... وقد فتحت لك الحانوت في الدين
صيّرت دينك شاهيناً تصيد به ... وليس تفلح أصحاب الشواهين

« علمت ان أي رجل يجسر على مقاومة التفرقة ، ونبذ الاختلاف ، وانارة افكار الخلق ، بلزوم الائتلاف ، رجوعاً الى اصول الدين الحقة — فذلك الرجل — هو هو يكون عندهم قاطع ارزاق المتجرين في الدين ، وهو هو في عرفهم ، الكافر ، الجاحد ، المارق ، المخردق ، المهرتق ، المفرق الخ

ولما انتهى بي العلم الى ذلك الحد ، انقلبت افراحي بالخيال اتراحاً ، ورجعت عن نظريتي ، والفشل ملء اهابي وجبتي .

« ثم جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت الى الشرق واهله ، فاستوقفتني الافغان ، وهي اول ارض مس جسمي ترابها — ثم الهند وفيها تثقف عقلي — فايران بحكم الجوار ، والروابط والتي كنت صرفت بعض همتي — فجزيرة العرب ، من حجاز مهبط الوحي ،

ومشرق انوار الحضارة — ومن يمن وتبابعتها ، واقيال حمير فيها — ونجد — وعراق ، وبغداد وهارونها ، ومأمونها — والشام ودهات الامويين فيها والاندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام في الشرق وما آل اليه امرهم فيه اليوم .

« فالشرق ! الشرق ! وقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه ، فوجدت اقتل ادوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه — داء انقسام اهليه وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فقد اتفقوا على ان لا يتفقوا ، ولا تقوم على هذا لقوم قائمة » .

نعم عرف جمال الدين بغرضه ، وسعيه الحثيث ، لجمع شتات اهل الشرق ، وايقاظ الهمم من اهله ، والاشراف بهم على الخطر الغربي ، المحدق بكيانهم ، والآخذ بخناقهم ، ليعملوا على جمع كلمتهم ، ويأخذ كل ملك ، او امير في الشرق على ترقية شعبه وتحسين ملكه ، وتحصينه بالحكم الشوري الدستوري ، وتمكينه بما يربط الاقرب فالأقرب ، ويقويه بالتحالف والاتحاد حتى يرجع الكل ، الى الانضواء تحت راية الخلافة العظمى .

هذا مختصر مرتآه ، وكان لا يقنط من الوصول اليه ، بدليل سعيه المتواصل ، وتحمله انواع المكاره ، والمصائب ، والنوائب ، في سبيل ذلك المطلب .

نعم كان يراه بعيداً ، ولكن ما كان ليراه مستحيلاً ، بل رأيناه يستبشر بكل ضغط ، وعسف ، وجور ، يحصل على الممالك الشرقية من الدول الغربية ، ويقول :

« بالضغط والتضييق تلتحم الاجزاء المبعثرة ، والأزمة تلد الهمة» — وسيأتي تفصيل ذلك في بحثه عن الانكليز ومصر .

✻ رأيه في الاحزاب — السياسة في الشرق[1] ✻

قال :

« الاحزاب السياسية في الشرق نعم الدواء ، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب الى بئس الداء .

نحسن نحن الشرقيون تأليف الأحزاب السياسية ، لطلب الحرية والاستقلال ، وكل العالم لنا اصدقاء ، ونضطر لتركها والكل لنا اعداء .

والسبب العامل في ذلك عدم التكافؤ في القوى بين الأمة واحزابها السياسية .

يقوم الحزب السياسي ، بعنصر ضعيف ، او بأفراد قلائل يدنهم اللسن والحنك ، ويعلنون تفانيهم بخدمة الامة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد ، ويسرون خدمة انفسهم .

فتتألف على اهل الحزب القلوب ، وتجتمع حولهم الكلمة ، بسوق الضرورة ، وداعي الحاجة ، ويستحسن عملهم الغريب ، ويهوسهم الدخيل شأن الحوادث المستجدة ، في انقلاب الأمم من طور الى طور .

فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة ، ورفاهاً ، وحريةً ، واستقلالاً ، ومساواةً ، على اوسع شكل ، قد لا يمكن حصوله في البعيد

---

(١) نشرت هذه المقالة في جرائد بيروت

الآجل ، فضلاً عن القريب العاجل .

فيوازرون الحزب بكل معاني الطاعة، والانقياد، والنصرة ، والتضحية الخ

« فاذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة ، واستحكم له الامر — ظهرت هنالك في رؤساء الاحزاب ، الأثرة والأنانية ، ومد حب الذات عنقه ، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد ، وتحصل بالنتيجة النفرة العامة .

« فنضطر عندئذٍ لترك الحزب ، وينفرط بالطبيعة عقده ، والكل له اعداء » .

وضرب لنا عدة امثلة ، منها ما حصل في الافغان وغيرها وما حصل في حوادث عرابي وحزبه في مصر الخ . .

ثم قال :« لا ينبغي ان يؤخذ من قولي هذا ان لا فائدة من الاحزاب على مطلق الرأي والمعنى ، فان الشرق بعد ان اخنى عليه الدهر بكلكله ، ومرت عليه زلازل العسف والجور ، واشكال الاستعباد ، حتى تأصل في نفوس ابنائه بزور الذل والاستكانة لكل قوي اكتسح بلاده — ان هذا الشرق ، وهذا الشرقي لا يلبث طويلاً حتى يهب يوماً من رقاده ، ويمزق ما تقنع ، وتسربل به هو وابناؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ في اعداد عدة الامم الطالبة لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها .

«على هذا الأساس الاجتماعي التدريجي ، لا مانع يمنع الشرقي من الانخراط في الحزب بعد الحزب ، ويقبل من المواعيد ، ما يصدق وما لا يصدق ، حتى يظهر في الشرق ما ظهر في الغرب من افراد يرون الموت في

حياة وطنهم مغنماً ، والحياة في موت وطنهم مغرماً .

حينئذٍ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذي هو نعم الدواء من داء استعباده، فيجمع شتات ابنائه الذين كانوا أذلةً ، ويصيرهم بنعمة الاخاء ، والاتحاد ، والتعاون اعزةً — بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الامناء ، يعملون متضامنين على صالح مجموعهم ، ونصرة مظلومهم — يأخذون ما لهم من حق ، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون .

❋ رده على من زعم ان حكمته باسانه ❋
اكثر مما هي من قلبه

خالف جمال الدين اهل عصره ، بكثير من الصفات ، ولو جاراهم وحاكاهم في كل ما هم فيه من المزايا ، لما كان له تلك الميزة ، ولا نوه بذكره وحسب من اكبر حكماء هذا العصر .

كان كما ذكرنا ، جهرياً ، متسرعاً ببادرات ذهنه ، وآرائه يجهر بها ، ولو كان بها كل خطر وضرر .

فزعم الكثيرون من مريديه ان حكمته بلسانه ، اكثر مما هي من قلبه وكاشفه بعضهم بقوله (لا احد ينكر أن الاستاذ لم يقم نظيره في عصرنا حكيماً اجتماعياً ، جاب البلاد ، وتحمل جفاء العباد ، لمطلبه الشريف ، وغرضه الاسمى ، ولكن نراه يقول من الحكمة ما لا تنفع قائلها ، وتضر في الغالب من قيلت له ، فيحمل سامعه على العظائم ، ويقتحمها مغرراً بنفسه من غير جدوى ، ذلك مما دلنا ، على ان حكمته بلسانه اكثر مما هي من قلبه .

فلم يرق لجمال الدين هذا القول ، وظهرت على وجهه علامات الغيظ وعدم الرضى فقال :

«لا ينفع في الشرق لسان ، ولا قلب ، طالما خلق المالك والمملوك ، الامير والصعلوك ، العالم والجاهل ، سواء في العالم الصوري .

«يرون في الحقيقة مرارة ، وفي الوهم حلاوة ، وفي الذل الهناء ، وفي طلب العلى والعز ، الشقاء والعناء .

« كل مسلم مريض ودواءوه في القرآن وما على طالب الحكمة الآ أن يتدبر معانيه ، ويعمل باحكامه .

« فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاءهم به محمد (صلعم) أو مقتدون به كما اقتدى به الاصحاب او التابعون .

« ام تقولون ان محمداً لم يكن حكيما حكمته من قلبه — تلك الحجة الواهية لمرضاء القلوب ، وساقطي الهمم ، ومتكأ أهل الذل .

« يا قوم ان محمداً جاء نبياً مرسلا ، وقبل النبوة كان امينًا صادقا » لم يقنع باسود بيته ، مثل عمه حمزة ، وابن عمه علي ابن ابي طالب وابطال قريش ، والانصار . ان يخوضوا وحدهم غمرات الموت في الحروب لمن تحداهم وناهضهم من كفار قريش ، بل هو هو ، بذاته الكريمة ، وقد افرغ عليه الدروع ، وتقلد الصارم البتار ، واقتحم الوغى ، فتكسرت ثناياه وتخضب وجهه بالدم ، انتصاراً للحق ومقاومة للباطل . علمكم بنفسه وارشدكم بقوله وفعله . .

اين المسلمون اليوم ، من شيء من هذا الاقدام وتلك الهمم

« وآسفاه !! بئس الخلف نحن ، ونعم السلف من قد سلف . ترتعد

غرائصكم اذا سمعتم ذكر ما انتم فيــه من غريب الذل ، خوفــاً من ان تدعوا لنزع نيره عنــكم ، فترجعون الى بارد القول ، وسفيه الرأي ، فتطلبون حكمة من قلب لا حكمة من لسان ، قتل من كان على هذه الشاكلة من انسان .

« فندم من تحرش بالسيد وعلم ان قوله الحق »

✻ رأيه في مصر والمصريين وصورة الحكم الذي يجب ان تحكم فيه مصر خصوصاً والشرق عموماً ✻

كان جمال الدين محباً لمصر وللمصريين ، شديد الارتباط بهم ، كثير البحث في القضية المصرية ، وما آل الامر من سقوطها بين براثن بريطانيا — ويذكر خطيئات للدولة العثمانية — كان بالامكان اذ ذاك تجنبها .

ويعد عدم ارسال الدولة جيشاً لتسكين فتنة عرابي من اكبر المفوات ومن اعظم الادلة على سفه السياسة والتفريط .

وكان يقول :

« كأن القوة الفرعونية اخذت على الدهر عهداً ان لا تبرح وادي النيل ، فكلما قضى فرعون تقمص بآخر ، وكلما انقرضت عائلة فرعونية — ادعت ارثها عائلة ، وجاءت ولو من وراء البحار والتصقت بالنسب الفرعوني ولو باقل مشابهة من خلق الغطرسة ، والتأله على الناس — وكثيراً ما كان يردد « استخف قومه فاطاعوه » . . . ويقول :

« عجيب هو نصيب المتمصر لمصر وللمصريين ، اذا مكث بين ظهرانيهم فموسى خرج منها خائفاً يترقب ، متهما موشىً به من مظلوم نصره على ظالمه .

— وفرعون معبود فيها — ويوسف الصديق زُجَّ في السجن متهماً وهو لم يأتِ الفاحشة ·

«نعم في النتيجة حصحص الحق وزهق الباطل ·

ولسوف تخلص مصر لأَهلها اذا هم عملوا بالحزم ، وهيئوا ما يلزم من العزم ،وما يتطلبه حكم الذات من القوى ·

ولسوف يفعلون ذلك بعوامل الضغط ، والمسك بالخناق — واذا ما فعلوا واجتمعت الكلمة ،وتوحدت الأَهواء نحو الغاية — حصل البأس — ·

واذا لم يضعوا هذا البأس بينهم بسوق التحاسد ، او بفعل الدسائس ، قل تم الامر ، وفاز القوم ودخلوا في دور الحياة الصحيحة ·

لا تحيى مصر ، ولا يحيى الشرق بدوله واماراته ، الا اذا أُتاح الله لكل منهم رجلاً قوياً عادلاً [1] يحكمه باهله على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان

« لان بالقوة المطلقة الاستبداد ، ولا عدل الا مع القوة المقيدة ·

« وحكم مصر باهلها ، انما اعني به ، الاشتراك الأَهلي بالحكم الدستوري الصحيح · ثم قال :

« اذا صح ان من الاشياء ما ليس يوهب ، فاهم هذه الاشياء (الحرية) و (الاستقلال) ·

---

(١) قلنا ان المتداول بين الناس عن لسانك « يحتاج الشرق الى مستبد عادل » قال هذا من قبيل جمع الاضداد و كيف يجتمع العدل والاستبداد · وخير صفات الحاكم « القوة والعدل » ولا خير بالضعيف العادل كما أنه لا خير في القوي الظالم

« لان الحرية الحقيقية لا يهبها الملك ، والمسيطر ، للأُمة عن طيب خاطر — والاستقلال كذلك .

« بل هاتان النعمتان ، انما حصلت وتحصل عليها الأُمم ، أخذاً بقوة واقتدار — يجبل التراب منهـا ، بدماء ابناء الامة الأُمناء ، اولي النفوس الابية ، والهمم العالية .

« اما تغيير شكل الحكم المطلق ، بالشكل النيابي الشوري ، فهو ايسر مطلباً ، واقرب منالاً ، اذ يكفي فيه احياناً ، ارشاد الملك ونصحه من عقلاء مقربيه — فيفعله — ويشرك معـه امته ، ورعيته ، ويرى بعد التجربة راحةً ، وتضامناً على سلامة ملكه ، وعزةً بالتفـاف طبقات الرعية حول عرشه ، بقلوب خالصة مخلصة ، وحب صميمي — فيكون للملك الدستوري عظمة الملك .

وعلى نواب الأمة اعباء نوائب المملكة ، ودرأُ المفاسد عنهـا ، والذود عن سلامتها ، بالاموال والأَرواح .

ولكم رأينا من عقلاء الملوك من حكم عقله فارشده الى استبدال مطلق الملك ، بالملك الشوري ، فاستراح واراح .

« وهذا هو الشكل من الحكم الذي يصلح لمصر ، ولدول ، وامارات الاسلام في الشرق .

« وبتوضيح وافصاح :

لا يسلم على الغالب ، الشكل الدستوري الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان ، ويعظم عليه الامر ، كلما صادمـه مجلس الامة بارادته ،

او غلبه على هواه ·

لذلك قلت (اذا اتاح الله رجلاً قوياً عادلاً لمصر وللشرق ، يحكمه باهله) ·

« ذلك الرجل اما ان يكون موجوداً او تأتي به الامة ، فتملكه على شرط الامانة ، والخضوع لقانونها الاساسي ، وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه ه يبقى التاج على رأسه ، ما بقي هو محافظاً ، اميناً على صون الدستور — وانه اذا حنث بقسمه وخان دستور الامة · — اما ان يبقى رأسه بلا تاج — او تاجه بلا رأس — ·

« هذا ما يحسن بالامة فعله اذا هي خشيت من امرائها ، وملوكها عدم الاخلاص لقانونها الاساسي ، او عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستوري قلباً وقالباً ·

« والا فالأمير الصالح القريب ، اولى من البعيد الغريب ·

« اما الحكم الجمهوري فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله (وسيأتي بيان ذلك) ·

❋ رأيه في الوطن وفلسفته فيه بالنسبة الى النوع الانساني ❋
واعتقاده ان التفرد بالسلطة وسوق الامم على هوى الفرد سيزول من العالم

من رأي جمال الدين ان العالم الانساني ، من خصائص هيئته الاجتماعية ، ان لا يتيسر للاقليم متى تمصر ، وتحضر ، ان يحكم برجل من

اهله بغير قهر ·

وله على ذلك ادلة ومقدمات نأتي على مجملها ·

لما سألناه — لِمَ قال الاستاذ اذا اتيح للشرق من يحكمه باهله ؟ ولمْ يقلْ ، اذا اتيحَ للشرق او لمصر رجلاً منه ، يحكمه باهله على غير طريقة التفرد بالحكم المطلق ؟ —قال :

« خليق بالانسان كما انه نوع واحد ان لا يكون له غير هــذه الكرة الارضية الصغيرة وطناً — بمعنى ان وحدة النوع ، تقتضي وحدة المكان ·

فالانسان طالما لا يمكنه ان يعيش في الماء ، فموطنه اذاً « اليابسة » ونتيجة هــذه المقدمة ان لا يختص ببقعة منها ، دون الأُخرى لولا ان الحكمة قضت ، ان تكون الحواس البشرية ، المعروفة خمساً ، وان يكون للأُقليم خواص خمس — بها تميزت الشعوب ، والقبائل التي خلقها الله من نفس واحدة — وتقسم المعمور الى ما يسمونه ممالك واوطاناً ·

امـــا الخواص فاربع منها تستمد من طبيعة الأُقليمْ ، والخامسة تطرأ فتؤثر وهي « الدين » ويليهـــا « اللسان » و « الاخلاق » و « العوائد » و « الاقليم » وتأثيره على المجموع ·

وتحت هذه المؤثرات تحصل للاقوام ميزة ، وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم ، والذود عنه ، واعتبار من خالفه انه ليس منهم — بل هو غيرهم بمعنى الغيرية المطلقة ·

فمتى تم لقوم من سكان الأرض ، او لأهل اقليم ، او مصر تلك الجوامع ، او الخواص الخمس المميزة ، وحصلت المساواة بهـــا ، بين العموم ،

منهم ، وتأثروا بموء ثراتها ، اصبحت دعوى الكفاءة بينهم ميسورة — وامر التميز ، أو تعين الافضلية غير ميسور . فاذا اضفنا الى ذلك — الغرور ، ورضاء كل انسان عن نفسه ، وتعاميه عن نقص ذاته — وبالاجمال — التاله الموجود في البشر كما قال ابن خلدون .

علمنا مقدار ما يعانيه الفرد من قوم قد ساوت بينه وبينهم الطبيعة ، ان يظفر بالميزة عليهم ، و يرضخهم للاعتراف بها بدون توسط القهر والغلب ، او بدون التذرع بالدعوة الدينية للوصول الى ذلك الغرض .

فاذا امتنع القهر ، فلا بد من الوفود على القوم (فرداً كان او جماعةً) بشيء غير ما تعودوا عليه من خواصهم الاقليمية ، على شرط ان يكون خيراً مما أُلفوه ، ليكون الأَخذ به اسرع وللبقاء ادعى .

ثم قال لزيادة الايضاح :

« انظروا الى العالم الغربي ترونه على تقسيماته الحاضرة ، واستقلال عناصره بميزاتهم القومية ، لما تساووا على الوجه النسبي بالفضيلة (واهمها العلم بالواجبات سواء كانت لهم ومعرفة وجوه المطالبة بها او عليهم والمسارعة لادائها) انتفى من بين ظهرانيهم امر التفرد بالسلطة ، وسوق الامة على هوى السلطان .

وسينتفي ما بقي في العالم البشري من هذا النوع من الحكم المطلق على سنن التدريج ، ومقتضيات الفطرة .

اصبح الاوربيون اليوم ، والكل في وقت واحد ، حاكماً لنفسه ، محكوماً منها بعامل الحكم الشوري ، وصارت كل امة من تلك الامم في

حامن من ان ترضخها القوى او المميزات في مجاوريها ، فتستهويها للانقياد لها ، بالاعتقاد انها من طبقة فوق طبقتها ، لا بفعل الغلب ، ولا بالتشبه والتقليد الاعمى — لان الفرق من حيث الفضائل ، واسباب الرقي نذر يسير ، والعمل بما يستحسنه البعض من الآخر غير عسير .

ومختصر القول ان الحكم للعقل والعلم .

ومتى صادفت هاتان القوتان ، حمقاً وجهلاً ، تغلبتا عليهما .

وهكذا القول في حكم الفرد المطلق ، فانه يكون ويدوم ما دامت الأمة تتخبط في دياجي الجهل .

ومتى فشى العلم في الامة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم ، وتعمل على التخلص منه . سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

✻ قوله في تأثير فضائل الوفود والفاتحين وضربه المثل في ✻
العرب في فتوحاتهم وانتشار لسانهم

قال :

« لبيان تأثير الوفود على قوم باحسن مما الفوه ، وانه افعل الوسائل بعد القهر للحكم فيهم ، ولترك الأثر بينهم ، فيكفي لذلك النظر في ظهور الاسلام وفتوحاته حرباً كان ام صلحاً ، وانتشاره في اقل من عصر في اعظم المعمور من الارض ، فقد عم جزيرة العرب ، فالشام ، فمصر ، فالعراقين ، فالهند فاقصى الشرق ، حتى فروق الاستانة ، وها هو قبر خالد ابي ايوب الانصاري وجامع القعرية المشهور «بجامع العرب» في محلة غلطه منا اكبر الشواهد .

نعم ان زحف العرب ووفودهم على البلاد انما كان لتعميم الدعوة الدينية اولاً — والاّ فأداء الجزية للدخول مع القوم في حقيقة المساواة ، وللقيام في حفظ كيان المجموع .

« وكان من يقبل الاسلام لا اكراه عليه في قبول العادات وتعليم اللسان .

« كذلك من أدى الجزية فلا اكراه عليه في دينه ، وباقي مميزاته — بل يبقى على مألوفه ، وموءثرات اقليمه ، وخواصه ، ولا خطر على قلب فاتح اسلامي ان يعمم آداب قومه ولسانهم أو انه يتخذ لذلك اقل الوسائل .

« ومع ذلك نرى ان كل من دان بالاسلام ، او رضي بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر ، وارتياح عظيم للتعرب .

« والسبب في ذلك ، ان وفود العرب حملت معها اخلاقاً فاضلة ظهرت افضليتها باجلى المظاهر مثل الأنفة من الكذب ، والوفاء بالعهد ، ومطلق العدل ، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة ، واغاثة الملهوف والكرم ، والشجاعة وباقي الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة

« وامر طبيعي ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الادبية على من لم يتخلق بها .

« لان الانسان انما ينفعل بروحه وشعوره — والانتخاب الطبيعي فطري في الحيوان ، واشده ظهوراً ووضوحاً في الانسان .

« لذلك انعطفت قلوب الأمم ، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم ، سواء فيه البلاد التي فتحت عنوة ، ووضعت فيها الحرب أوزارها او صلحاً .

«واول مقدمات العادة – الاستحسان – ثم المزاولة حتى ترسخ ملكة
«والاعجاب بآداب قوم ، باعث على حب التقرب منهم ، واعظم وسائل التقرب – التفاهم – فيتبارون في تعلم اللسان .

«هكذا تم للعرب ورسخ لهم في معظم ما فتحوه من الامصار والبلدان والممالك ، آثار ادبية فضلاً عن الاثار العمرانية ، من لسان وعادة ، واخلاق ما امكن استئصالها ، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئات الحكومات المختلفة .

«فمصر بينما هي هرقلية رومانية ، ومقوقوسها عامل له فيها ، اصبحت في قليل من الزمن اسلامية في الاغلبية ، عربية بالصورة المطلقة ، في كافة مميزات العرب .

«وهكذا القول في سوريا والعراق ، وغيرهما بدون ان يبذل في سبيل ذلك التغيير ادنى مسعى ، أو يستعمل له اقل الوسائل كما ذكرنا .

«نعم ان اكبر حامل ، وافعل عامل ، على تعرب اولئك الاقوام هو الفضائل الاخلاقية ، والصفات العالية ، التي كانت تأتي بها العرب مع بأسهم وشجاعة ابطالهم .

﴿ تفسيره لما أشكل على المؤرخ والشاعر التركي المرحوم ضيا باشا ، ﴾
من عدم ترك الاتراك اثراً بعد ان توغلوا في اوربا ولم يكن لهم
ما كان للعرب في فتوحاتهم وحجج جمال الدين على ذلك

قال : « جاءني يوماً اديب كبير من ادباء الاتراك وبيده كتيب

صغير فيه مفكرات ضيا باشا بخطه ، فقرأت ما ترجمته بالحرف :

(توغلنا في الفتوحات حتى توسطنا كبد اوروبا ، ودخلنا « ڤينا » واضطررنا للتخلي عنها ، وليس لنا ثمة ادنى اثر ادبي او مادي وهكذا بالاستدلال ، سيكون حالنا في بقية تركية اوروبا مثل بلغاريا ، والفلاخ والبغدان ، والصرب ، والجبل الاسود ، وغيره من البلدان ·

(انه ليحزن المؤرخ كلما تكرر قول الشاعر العربي :

ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

(اما العرب ففي كلما فتحوه من البلاد ، حرباً كان ام صلحاً قد تركوا من الآثار الادبية والمادية ، ما لا يقوى على ملاشاته الادهار — فالمسلم ، او المسيحي ، واليهودي ، في مصر ، والشام ، والعراق ، يحافظ كل منهم قبل كل شيء ، على نسبته العربيــة ، فيقول « عربي » ثم يذكر جامعته الدينية ·

وآثارهم المادية في الاندلس ، لا تقلّ عن آثارهم المدنية في باقي الأمصار فهي تنطق بافصح بيان على ممر الدهور انها حكمت من تلك الأمة ·

والأغرب ان التركي ، والچركسي ، والأرناؤوطي وغيرهم من العناصر يستعرب متى وجد او سكن في بلاد العرب بأقرب الاوقات ويمتزج في المجموع حتى تخال انه « عربي قح » ·

(واما في حكمنا فلم نستطع ان نسترك ادنى فيئة ممن حكمناهم من الامم بكمال العدل الاسلامي ، والسماح التركي ، ولين الجانب) اه·

قال جمال الدين :

« لو كان ضيا باشا حياً لأزلت له ريبه من حالة قومه الاتراك » .

قلنا وكيف ذلك ؟ قال:

« ان المرحوم ضيا باشا اشكل عليه الأمر، لما اعتقد ان الاتراك قد شابهوا العرب تماماً ، بمعنى انهم دخلوا في دين الاسلام ، وجروا على سنتهم بالفتوحات ، من حيث العدل ولين الجانب .

« ولكن فاته ، ان لكل دين لساناً ، ولسان دين الاسلام (العربي) .

« ولكل لسان آداب ، ومن هذه الآداب ، تحصل ملكة الاخلاق وعلى حفظها تتكون العصبية .

« فالاتراك اهملوا امراً عظيماً ، وحكمةً نافعةً قالها السلطان محمد الفاتح رحمة الله عليه ، واحب ان يعمل بها السلطان سليم — وهي قبول اللسان العربي ، لسان الدولة ، وتعميمه بين من دان بالاسلام من الاعاجم ليفقهوا احكامه ، ويمشوا على سنن الارتقاء ، بعلومه ، وآدابه ، ومكارم اخلاقه ، ومحاسن عوائد اهله .

« فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم ، بشكل الدين الظاهري فقط ، بل بفهم احكامه ، والعمل بآدابه — وذلك ما تم ولا يتم الا باللسان وهو اهم الاركان .

« قامت السلاطين العظام من آل عثمان ، بفتوحات جليلة ، وعملت خيرات ومبرات جزيلة ، وقربوا اليهم من كان في عصرهم من فحول العلماء من المسلمين — وقد تفردوا اذ ذاك بمعرفة اللسان العربي ، وبعض علومه — وعرف اولئك الفحول قدر اللسان العربي ، وغالوا في التقدير حتى انهم

كانوا (على ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية الا لمن يحفظ القاموس العربي، الفيروز آبادي (وهذا لو صح ، غلو غير معقول) وليس هو من الفائدة في شيء .

« بقيت الاتراك في فتوحاتهم على تلك الصورة وفي مجموعهم بداوة صرفة ، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة ، ولم ينقلوا سواها للبلاد .

« نعم انهم تدينوا بالاسلام على ابسط حالاته واشكاله بكمال التعبد ، ولكن على بعد سحيق من فهم معاني القرآن ، وآداب اللسان .

« والعرب لو كانوا مثلهم ، لما استطاعوا ان يكونوا احسن اثراً منهم — ولما كان لهم حضارة ولا مدنية ، ولبقوا بداوة محضة ، همهم فتح البلاد للاستغلال ، وجمع الاموال للرفاه والترف ، أو للبذخ والسرف .

الأمر الذي قضى على الدول التي خلت قبل الاسلام وبعده ، والتي ما كان ليقضي عليها بسواه .

« فالانغماس في السفه والترف ، والبذخ والسرف من العوامل الاساسية في حالتي الاضمحلال والانقراض ، واقل نتائجه صرف الهمم عن معالي الامور ، وعدم الاكتراث بما يحتاجه الملك من التعهد باسباب دوام العمران .

« وأشد ما فيه من المخاطر — احتقار مطالب الجمهور التي كلما تمادى الملك المحجب وعونته المترفين المسرفين في اهمالها والضغط على طالبيها » تحتشد الاحقاد في الصدور وتستحكم منهم النفرة ، ولا يلبث كل ذلك طويلاً حتى يظهر في حين لا يرقبه الملك المستبد ولا اعوانه الذين غصبوا حق

الامة وهضموا حقوقهم العامة بصفتهم « خاصة » .

فالأتراك قد اتفقوا شكلا مع العرب ، والنتيجة من حيث هي نتيجة مؤلمة فواحدة للقومين وللأمتين .

« اما فضل العرب بترك الاثار العمرانية والادبية ، فليس له كبير اهمية بالنظر الى نتائج الامور ومصيرها كما سيأتي بيانه .

استنتاجه ان ترك الأثر مع التفريط في صون الملك وعدم حفظه ادعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر

قال: « ان عدم ترك الاتراك اثراً بعد ان توغلوا في فتحهم لأوروبا ، ودخولهم « لڤينا » وتخليهم عن تلك الامصار بدون آثار ادبية او عمرانية — لا يعد حطة — كما ان بقاء اثار العرب في الاندلس لا يحسب لهم شرفاً ، بعد ان استؤصل ظلهم ، وزال ملكهم ، وانقرضت دولتهم ، بل في معتقدي انه من اقدس واجبات من استطاع ان يأتي بتلك الاثار ، وتجشم لابرازها وابداعها تلك المهالك والاخطار والاموال — ان يعد لحفظها في حوزته ، وتحت سلطانه ما استطاع من قوة لا أن تبقى اثراً بعد عين .

« والأثر في مثل هذه الحال أدعى للحزن لانه افصح من كل بلاغة على التفريط ، وانطق على السفه وعدم الكفاءة من كل حجة وبرهان .

« بل أرى ان عدم ترك الاثر على هذا النمط اولى من تركه — لعدم التأثر — (وان خالف هذا القياس بعض الاوروبيين)

« فالافرنسيس مثلاً ألف مهرة كتبتهم « شناعات الحرب السبعينية

سنة ١٨٧٠ ، وصوروا ضعفهم تجاه الالمان، وعدم تدبرهم للأمور ، وهفوات قوادهم ، واسباب خذلانهم ، وما اتاه عدوهم من الجرائم ، والتمثيل بصورة افظع من ان يصورها العدو الالماني ، فهم يذكرون ذلك ليثأرون ولكن على اهتمام متواصل ، لترقي الامة ، واعداد ما يستطيعون من قوة .

« وأما العرب والترك ففي كل فتوحاتهم ، سواء فيه من ترك آثاراً او لم يترك ، فقد تركوا من بعدهم خلفاً من الابناء يذكرون مجد الفتح ويفتخرون باعمال آبائهم واجدادهم — وعن اعداد القوة هم غافلون وعن واجباتهم لاهون وان ذكرتهم لا يذكرون ، وان ايقظتهم لا يفيقون — بل هم في غفلتهم راقدون ، وعلى القدر كل شيء يحيلون .

« ولو عملوا بالقانون الالهي ، وبقوله : « وان ليس للانسان الا ما سعى » لكان اوفر خيراً للامة و(السعي) ادل السبل على النجاح ، واحسن ما تربى عليه الناشئة .

﴿ قوله في تأثير اداب اللسان ﴾

قـال :

« اما انتشار اللسان العربي فيما عدا بلادهم ، فليس للفاتحين ادنى دخل فيه ، ولا اتخذوا له اسباباً ، ووسائل — بل ان ما وجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة ، والحكم والأمثال والمواعظ ، ذلك هو الذي احله من الانتشار هذا المحل .

« حتى ان العرب قبل الاسلام وهم في تلك الحالة الجاهلية ، والبداوة

المحضة ، وبعدهم عن كل حضارة ، كانوا يحلون باداب لسانهم من اعظم الملوك مثل كسرى انوشروان — محلاً رفيعاً — ويأخذون الجوائز ، ويثرون بتجارتهم مع الاعاجم ، بآداب لسانهم ، وما يجري على السنتهم من الحكمة التي تأخذ بمجامع القلوب

« هكذا كان الذكاء العربي ، الفطري ، المتوقد ، يناسبه سلاسة اللسان وادبه .

« فكان اذا ظهر بين العرب ، حكيم طبيب مثل الحرث بن كلدة مثلاً — استطاع بآداب اللسان ، وفرط الذكاء ان يقارع ، ويضارع ، اكبر حكيم من الفرس مع حضارته ومدنيته .

« وكذلك الشاعر في قبيلته اذا نبغ ولو كان وضيع النسب أجلّته القبيلة ، واعتبرته حامي ذمارها بأدبه وشعره ، واغنته بالمال والماشية .

« وأما في الحضارة الاسلامية ، وفي دولها ، فكثير ممن برع بالادب فأوصله الى مرتبة الوزارة ، فالامارة — وأما من اثرى بأخذ جوائز الخلفاء ، والملوك من الادباء فلا يعدون كثرةً .

« هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادي ، وأما التأثير المعنوي فيكفي انه من اكبر الجوامع التي تجمع الشتات ، وتنزل من الامة منزلة اكبر المفاخر .

« فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر فردّت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها اليها ، والعامل في ذلك انما هو اللسان ، قبل كل ما سواه — ولو

فقدوا لسانهم ، لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا في الاستعباد ما شاء الله ٠

﴿ فيما عرف عن جمال الدين من مزية الاقناع في حالتي السلب والايجاب والسبب في ذلك ﴾

كان جمال الدين من اكابر علماء الكلام ، واماماً في المنطق يحب الجدل والحجاج وقد احاط بضروب السفسطة ، ليسلم في جدله من شراكها ، قوي الحجة كما ذكرنا ، أُوتي قوة الاقناع لدرجة يخال الانسان انه قادر على الاقناع في حالتي السلب والايجاب ٠

والسبب في ذلك — هو ان جمال الدين مع حكمته ، وسرعة خاطره وتوقد ذكائه ، وسعة اختباره للأَخلاق البشرية ، وكثرة مخالطته الامم في مختلف الاقاليم ، وحصول الملكة له في وجوه المباحث التي كان يطرقها ٠

فقد احاط على وجه اجمالي باخلاق العرب ، والترك ، والفرس والاوروبيين وعلم اشياء كثيرة عن مرامي القوم وحالاتهم الروحية ، واعظم ما كان يحرص عليه في تتبعاته ان يراقب حسنات كل قوم (ولو لم يحبهم) ويحفظها في ذاكرته ، كما يحفظ سيئاتهم وخطيئاتهم ٠

وهكذا شأنه مع الافراد حتى مع خادمه ، فكان يرقب حركاته واعماله في كل يوم — فاذا أخذ يذكر حسناته اعتقد السامع انه الرجل الكامل — ثم اذا أتي على ذكر سيئاته جعله أَسفل وألئم خلق الله ٠

وقد كثر ورود امثال ذلك في محاضرات جمال الدين ، ومحادثته واقناعه مخاطبه في حالتي الاستحسان والاستهجان للشخص الواحد والشيء الواحد

حتى توهم البعض انها من المواهب الخاصة لجمال الدين ٠

ولما ذكر له ذلك قال :

« ليس في الامر شيء من المواهب ، اذ لكل خطٍ طرفان ، ولكل انسان وجه وقفا — وفيه صفات قبيحة ومزايا طيبة

« والحكم على الاشخاص والاشياء انما يختلف باختلاف الزمان والمكان والموقف ، ورغبة القائل

« امر النبي «ص٠ع» ان يُربط ابو سفيان في خُطم الجبل لتمرَّ عليه جيوش الله — فاستحق هذا الاذلال في ذلك الموقف ٠

« ثم في موضعه من قريش وانه من كبارهم قال بحقه (ان كل الصيد في جوف الفرا)

« ثم لما برز ابو دجانة لقتال كفار قريش ، واخذ يتبختر قال «ص٠ع» (مشية يكرهها الله الاّ في مثل هذا الموضع) ٠

« وهكذا قال : (نعم الأُدمُ الخَل) ٠ تطييباً لقلب ذلك الصحابي الفقير ٠ الذي لا يملك سوى الخل ، فقدمه طعاماً في دعوة رسول الله ٠ — وقال (بئس الأُدمُ الخَل) اذ قدمه ذلك الصحابي الموسر ٠

« فكان اختلاف الحكم على الشيء الواحد ، لاختلاف الوضع والواضع

« وهكذا يكون الحكم على ما يماثل ما ذكرنا من الاشخاص والأَشياء ٠

ومن صفات جمال الدين انه كان لا يغالي في المدح ولا يسترسل في الذم والقدح وله اسلوب كاد ان يكون خاصاً به ٠

« مثال ذلك انه ذكر في مجلسه رجل من ارباب الصحف المشهورة

في مصر ، فأوسعه الحاضرون استحساناً واستهجاناً حتى انتهى الامر لقول جمال الدين ليكون الفصل ، فما زاد على ان قال :(هو مثل الهر) ثم سكت فرضي بهذا القول المستحسن والمستهجن ، والمادح والقادح .

ثم مـا مضى وقت طويل حتى افضى الحديث ايضاً الى ذكر ذلك الرجل — فأثنى جمـال الدين على عصاميته ، واقدامه ، وتمنى لو يكون بين المصريين والشرقيين عدة افراد مثله .

فما وسع من كان حاضراً في مجلس تمثيله في الهر الا ان قال : يا استاذ في الامس هجوت الرجل واليوم اخذت في مدحه .

فقال بماذا هجوته ؟ — فذكر عبارة الهر .

قال : نعم قلت ذلك وليس في هذا التشبيه شيء من الهجو ، بل يجب ان نكرم الهرة والهر — فالرجل يطوف كالهر ليلتقط الحوادث من منابعها، فيكاشف بها الامة . — ونعم ما اتصف به وما يفعله —.

ولقد جرى لجمـال الدين بحث وجدل مع كبير من العلماء في قول (ليس في الامكان أبدع مما كان) فاخذ السيد الوجه السلبي وقال (نعم في الامكان أبدع مما كان — ها نحن اليوم نعجز بالعين المجردة عن رؤيـة الإشبـاح والأجرام البعيدة، ونستعين بالمجاهر والنظـارات ، فلو كانت عدسات اعيننا اقوى ، والانعكاسات النورانية اشد — لكان ذلك ابدع مما نحن فيه من ضعف البصر وعدم رؤية البعيد

فوقف الشيخ وظهر عليه العجز ،ولم يستطع لبرهان جمال الدين رداً .

فلما انفضّ المجلس قال السيد لجلسائه= أخذ الشيخ بالسفسطة وغلب

بها = وكان الغلب له لو قال ان النظارات انما فائدتها لرؤية البعيد فقط ،
وأما اذا استخدمت للقريب فلا يمكن ان يُقرأ سطر ولا ان يُرى قريب ·

وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق (ليس في الامكان ابدع مما كان ·

❋ في تأثير كلامه في مخاطبه وكيف كان يحمل الخامل على ❋ العظائم والجبان على الجسارة

اتى رجل من اعاظم ادباء الاتراك وموظفي سفارات الدولة العثمانية الي منزل جمال الدين ، وشكى له حاله ،وعدم صرف رواتبه وكثرة التضييق عليه ومؤاخذته بآثاره الادبية الى غير ذلك

فقال له مشجعاً على عادته مع امثاله :

« اعلم ان الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل ، ومعشر الشرقيين في الفقر خوف الفقر ، وفي الموت خوف الموت ·

« فاقرع باب السلطان ، بمطرقة الاستغناء ، وتردى برداء الهمة ، وارفع صوتك ، واجعل لقدمك موطئاً في بساط الغاصبين من خاصة جلالته — تنل ما ترغب على شرط المواظبة على ذلك (لأن المواظبة والالحاح اولى الأمور بالنجاح)·

فخرج الرجل من مجلس جمال الدين ، وكله حماسة وانفعال بحديثه شأن كل من حادثه السيد ، ونفخ فيه من امثال تلك الروح ·

وبالفعل فقد ذهب الرجل للمابين الهمايوني ، وكتب ما لا يكتب

بلهجة غاية في الشدة - لا يصدق من عرف حقيقة اخلاقه انها تصدر منه — فعرف جلالة السلطان من نهج الكتابة ، ومن الجواسيس التي كانت تأتيه باسماء كل من زار جمال الدين وتكلم معه،ان تلك الكتابة ليست من كيس الكاتب ، بل هي من نفثات جمال الدين — فدعاه للحضور فذهب ، وطال مثوله لديه ، وذكر له عرضاً وعلى سبيل الشكاية من بعض الذين يحبهم ، ويعدهم للمناصب العالية، كيف يتذمرون و يشتكون ولا يصبرون، — وذكر اسم صاحبنا مثالاً .

ففهم جمال الدين ان السلطان انما يريد ان يقول انك انت الذي دفعته لمثل ما كتب ، وفي الاخير قال :— ان الرجل يزورك على ما اظن ، اجاب السيد نعم في بعض الأحيان . قال : « اذا رأيته افهمه انني زدت في راتبه، وامرت بصرف ما تراكم له ، وانصحه بلزوم الصبر .

فلما خرج من حضرة السلطان لحجرة رئيس القرناء ، وجد ذلك الرجل هناك ، فبشره بالالتفات السلطاني وقال : اسمع مني هذا المثل :

« اتى رجل لعند آخر فشكى له قلة ذات اليد ، وحب الاثراء ، وحط رحال امله عنده ، كي ينيله مبتغاه او يرشده الى السبيل .

فقال له الرجل : ان في المكان الفلاني كنزاً — فخذ قوساً وارم سهماً وحيثما وقع السهم ، فاحفر تجد الكنز .

فذهب الرجل وأوصى على قوس قوية ، غــاية في الصلابة ، وسهماً كذلك، وشد الوتر لدرجة كاد ان ينقطع معها ،ورمى السهم فذهب بالطبع بعيداً، وفات المرمى اذ حفر ولم يجد شيئاً ، فاتى باللائمة على من هداه واتهمه

انه غرر به . فقال : وانت ياصاحبي لقد شددت الوتر اكثر مما يلزم ولو ارسلت سهماً بسيطاً بشدة معتدلة ، لوقع على ما طلبت .

اما الرجل الاديب فقد اجاب بلطف واختصار : يا حضرة السيد لا اريد من الكنوز اكثر مما وقع سهمي فوقه .

❊ في تكليف السلطان عبد الحميد للسيد ان يزوجه من احدى جواري قصره وما جرى في هذا البحث من اخذ ورد و كلامه في الحكمة الزوجية — واستطراداً في — المرأة والرجل وهل يتساويان ❊

عاش جمال الدين عزباً لم يقترن في حياته بامرأة .

وكان كلما شكى له احد ، كثرة العيال ، وقلت ذات اليد ، يعينه على قدر استطاعته ، ويقول له قل (وأثقلت ظهري بالذي خف من ظهري) .

في يوم أرسل السلطان من اعلم جمال الدين انه سيرسل له جارية حسناء من قصر « يلديز » ليتأهل بها ، فامتنع السيد من ذلك وأبى رافضاً ذلك التكليف بقول غريب (سيأتي بيانه)

فقيل له انك اذاً تحب تأييد مذهب ابي العلاء حيث يقول :

هذا جناه ابي عليّ وما جنيت على احد

قال كلا — ولا اعتقد ان مثل هذا القول يصح ان يعزى الى حكيم مثل ابي العلاء ، لانه ينافي الحكمة . ولا أن يتخذ حجة ، أو قدوة اذ كيف يصح لعاقل ان يعتبر التأهل ، والازدواج جناية — وان قيل انها جناية معنوية ، في بعض نتائجها ، كيف يصح لولد صار حكيماً مثل

المعري (ولولا علة وجوده وهو ازدواج ابيه لما برز من العدم) ان يلصق الجناية بابيه خلافاً لكل عقل ونقل ·

ومن ينكر ان بقاء النوع ، واستكمال حكمة العمران ، ما كان ولن يكون الا بالتناسل ، والتزاوج ·

اما حكمة الزواج وشرطه فقد جاء في القرآن على اوضح وجه وأصرح بيان ، اذ قيد من خاف ان لا يعدل ــ بالامرأة الواحدة — وترك للمستدل ، ولمن يخشى ان لا يعدل حتى مع الواحدة «عدم الزواج» وهذا ما يستنتجه العقل ما دام يحمله العاقل ، ويقول به الحق ، والعدل ·

« اما انا فمعرفتي بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل ، وعجزي عن القيام بامره ، دفعني ان اتقي عدم العدل ببقائي عزباً من ان اتأهل واكون ظالماً»

فقال له طبيب موسوي كان من خاصته : — فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز ان يخالف الانسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له :

«ان الطبيعة احكم منك فهي تدبر نفسها ومن ترك شيئاً عاش بدونه»

عند ذلك قلنا لجمال الدين — تقبل من جلالة السلطان عطاءه من المال فلِمَ لم تقبل عطاءه من الجواري الحسان ؟ قال :

« أما المال الذي يعطينيه فاني اجد له على اجتهادي أكفاء يقومون باداء الواجب نحوه ·

وأما الزواج بالجارية الحسناء فما انا بالكفوء لها ، ولست بوليها لأتحرى لها كفواً ·

ثم قال للواسطة في هذا الشأن

«اذا أصر جلالة السلطان ، او أحب ان يكرهني على هذا الأمر . فلا نظن الا انه يحب ان يراني في عداد الخصيان فيرتاح اذ ذاك من هذا الفضول في الاحسان — فاخبروه اني سأقطع آلة التناسل اذا هو أصر.

ولما لم يأخذ الوسيط (وهو من كبار الاغوات) من جمال الدين غير هذا الجواب ذهب مستغرباً مدهوشاً من شكل هذا الرد وصورة الرفض .

وعلى ما نظن ان جمال الدين لم يخطئ في رده ورفضه قبول الزواج الذي انما كان من السلطان عبد الحميد لمأرب لا حفاوة ، اذ كان جل قصده تقييد جمال الدين بغائلة العائلة ليس الاً .

وبعد ان سكنت الضوضاء التي احدثها تكليف السلطان عبد الحميد لجمال الدين ان يزوجه . ورفضه على تلك الصورة التي ذكرناها — قيل للسيد: لو فرضنا انك قبلت تكليف السلطان ، واقترنت بامرأة ، فما هي الخطة التي كنت ترسمها لقرينتك ، وما رأيك في مساواة المرأة بالرجل ؟

قال :

« انه ليسرني اذ صار فرضكم بأمر زواجي « نفلاً » — او في حقيقته « لغواً » وتخلصت من الخطة والخطط والخطوط .

أما امر مساواة المرأة بالرجل ، والحجاب وهتكه ، وحقوق المرأة الخ — فقد قرع اذاني مراراً ، وقرأت في هذا الموضوع مقالات ورسائل — ولكن لا اكتمكم انني لم اعثر في كل ذلك على مقال صريح ، أو تحديد لمطلب المساواة ، أو على بيان الغاية من هتك الحجاب ، او الفائدة التي تترتب عليه ،

او تأتي من ورائه . وعندي لا مانع من السفور اذا لم يتخذ مطية للفجور

ولا اظن ان ضجيج بعض الناشئة في الشرق ، والمتفرنجين منهم يقصدون بطلبهم — مساواة المرأة مع الرجل — « في التكوين » ذلك لانه ممتنع بل مستحيل .

فاذا صح هذا الامتناع من هذه الوجهة فلا مناص من أن تبقى المرأة كما هي مرأة تكويناً والرجل رجلا .

واما اذا قصدوا المساواة من حيث المواهب الفطرية فهذا أثر الاكتساب فيه ضعيف — فالشاعر والشاعرة اذا كان في فطرتهما حسن التصور ، وسعة الخيال مع صفاء في السليقة — برعا في الشعر .

وان لم يكونا كذلك وانصرفا الى اوزان الخليل تعلما واكتساباً من فاعلات فاعلات ، وفاعل وفعول — فلا يخرجا الا وازناً ووازنة .

اما ما بقي من العلوم التي تحصل للانسان بالتعلم على نسب مختلفة بحسب القابلية الفطرية ، من طب وهندسة وفلاحة وصناعة الخ ففي انهماك المرأة ، ودخولها معترك هذه الصناعات نظر .

فالمجتمع الانساني انما قام على دعامتين ، او يقوم بالمجتمع عاملان — المرأة والرجل — .

فلنأخذ الرجل ونبحث في تكوينه ، وخلقه وتركيبه ، فنرى في اعضائه ووجوده ما ليس في الامرأة ولا حاجة للتفصيل ، والرجوع الى علم التشريح وكذلك في المرأة وتكوينها ما ليس في الرجل .

وفي كلا التكوينين من ناقص وزائد لا يعد بالنظر الى الفطرة لا

نقصاً ولا كمالا

لان الطبيعة أحكمت صنعها في ذلك ، واجادت في تكوينها «فتبارك الله أحسن الخالقين».

يرشدنا ذلك التباين في تكوين العاملين إلى وجوب أختلاف عملهما بما لديهما من معدات وآلات التكوين ، ليتم من ورائهما عمل صحيح بالنتيجة ، وبناء مستجمع لوازمه .

قال : — ثم اذا أخذنا ما يحترفه الأنسان من الصنائع ، وما يتوخاه من ورائها ، فلا نراه يخرج في كل ما يتحمله من مضض التعلم ، ومزاولة العمل عن كسب القوت له ولعياله — ولا يقال عائلة الا أذا تشكلت من رجل ، وزوجة ، واولاد .

وبديهي أن أبسط أنواع القوت وهو الخبز ، يحتاج ليصير خبزاً عشرات العمال ، منهم من يعالج الأرض بالحراثة ، لتصلح لبذر القمح ، وأبقار ، وسائس ، ومساس (ويلزم له الحداد ، والحداد يلزمه اعوان) ومطحنة ، وطاحن و. و. و. الخ حتى يصير دقيقاً ، فتعجنه المرأة وتخبزه في التنور او يخبزه الفران ، فاذا شاركت الإمرأة الرجل في الصناعات (وهي لا تكون الا خارج البيت) فمن يدير أو يدبر مملكة البيت ؟ ومن يربي الطفل ؟ ومن يخط في لوحه الصقيل ، رسوم الشجاعة ، والفضيلة والأقدام غير المرأة ، ومن يربي أقيال الملوك في اخلاقهم ، غير تلك الملكة وهي المرأة . — اللهم إذا ارادت ان تبقى ملكة ، لا ان تبقى ملكة وملكاً في آن واحد .

ليس من يحط من قدر المرأة ، ويمتهن خلقها ، ويدهورها لدركات الابتذال الاّ ذلك الطائش المغرور — الذي يغريها على ترك مملكتها «بيتها» — وان تزاحم الرجل في شقائه بجلب العيش الذي لو فرضنا أنها افادت بعض الفائدة المادية فيه ، وعاونت به — لا شك أن الخساره تكون من وراء تركها المنزل ، وتدبيره ، والطفل وتربيته ، أعظم بكثير من تلك المنفعة التي لا تبقي على الأخلاق ، ولا تفسد الاّ الانسال والأعراق

أما رفع الحجاب فما رأيت لمن قال بلزومه ، وخطب فيه او كتب انه ذكر أقل نفع له ، او فائدة تأتي من ذاته او من ورائه ، والذي أراه ان الحجاب ستار اذا رفع طفرة ، وفجأة ، انما يظهر على الغالب من تحته شناعات الخلاعة ، والتبرج ، واستهوان الفجور ، وعدم المبالاة بالرقابة العامة . ولو اقتصر النساء على الاكتفاء بالسفور ولم يتخذ كما قلنا مطية للفجور لما كان في الامر ما يحتاج لأخذ ورد . ولكن اذا رأين للسفور متممات لاتتم الا في خارج البيت فهناك الطامة وفواجع الطفرة واختلال التوازن في اعمال الشريكين .

ثم قال : — رحم الله ابا الطيب المتنبي فأنه لو وجد في زماننا ورأى ما نراه من المتبرجات — من شرقيات مقلدات للغربيات — وغربيات بائحات ، وشرقيات ورائهن سائحات ، وبتسفلهن عاملات ، وبشططهن واسرافهن آمرات فاعلات ، ومن الأخلاق الطاهرة (اخلاق البداوة السالمة الصحيحة) عاريات مارقات — أظنه انما كان يرى في اخلاق نسوة (نسل الانكلوسكسون) بجمل اخلاق البداوة ، ومحاسنها ، وصفاء عيش من

يعمل بها — ولرأى في اكثر نسوة من سواهم ، تلك الحضارة السافلة .

ولا أدري ماذا كان يسمح له الخيال الشعري ان يزيد على قوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب
افدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلةً   اوراكهن ثقيلات العراقيب

قيل لجمال الدين ، ان الذين يطلبون مساواة المرأة بالرجل ، ودخولها في معترك الحياة من كل وجهة ، انما يحملهم عليه ما يقراؤنه في سيرة نساء المسلمين في الصدر الأول — وان السيدة عائشة ركبت الجمل ، وشجعت في الحرب ، وبرزت ، وخطبت الخ . كذلك نساء الصحابة كن يرافقن الجيش ، ويخضن المعامع ، ويخدمن الجرحى والخ .

قال : — « غريب ما يقولون وما يدعون — أن ركوب السيدة عائشة الجمل ، ومرافقة نساء الاصحاب الجيش ، كل ذلك حالات استثنائية لا يصح ان تتخذ قاعدةً ، تجري عليها النساء في كل حين .

اما ركوب السيدة عائشة الجمل ، فقد تنبأ عنه المصطفى «صلعم» وذكر ذلك المركب الخشن ، وانها ستنبحها كلاب حوشب «الحديث» وليس فيه ادنى فخر لتتشبه به بقية النساء .

بقي علينا ذهاب نساء الاصحاب لساحات الحروب ، وخدمتهن الجيش وهو امر مستحسن ، للتي لم يكن لها زوج مقعد ، أو والد ، ووالدة ، وأطفال لأن الجهاد وهو فرض ، فقد استثني منه المعيل ، واشترط فيه إجازة الوالدين ، وأن خدمتهما ، أولى من الذهاب للجهاد اذا هما لم يأذنا (كما ورد

في الحديث ، وسيرة الأئمة) .

هذا شأن الرجل فما بالك بالامرأة .

نعم اذا لم يكن للمرأة مانع من الموانع ، أو كان زوجها ، أو ابنها ، أو أقاربها اللآح في الجيش ، وذهبت للخدمة ، بنية صالحة ، وذيل طاهر ، عدّ لها ذلك فضيلة وحسنة .

وبالإختصار — كما سبق القول — ان تلك حالات استثنائية ، لا يصح ان يؤخذ منها ، مساغاً أو جوازاً للمرأة ان تبارح بيتها لتتشبه بالرجل في خوض المهالك والمكاره — وفطرة الله قد اغنتها عنها ، وكفتها شرّها .

وما أسقمه رأياً ، وأبعده عن الصواب ، ان تبرز المرأة لتقتل أو تقتل والشاعر قد قسم لها قسمها :

فقال : كتبَ القتل والقتالُ علينا

وعلى الغانيات جرّ الذيول

كان السيد جمال الدين ، هشاً ، بشاً ، طلقاً ، يتدفق كالسيل في كل ما كان يلقيه من محاضرات ، ويخوض فيه من المواضيع المختلفة ، إلاّ في موضوع « مساواة المرأة بالرجل » — فقد رأيناه نكداً ، كارهاً للخوض فيه ، عصبياً ، نفوراً منه .

ولكن لما علم أن لفيف مريديه مصممون على استطلاع رأيه ، وان تجنبه لهذا البحث لا يرجعهم عن متابعة الاستطلاع ، عند ذلك تربع وقال :

« ما عندكم في هذا الموضوع من الغوامض ، التي تحبون استجلاءها ؟

قيل : — قال الاستاذ (للهيئة الاجتماعية دعامتان ، أو يقوم بالمجتمع

عاملان المرأة والرجل) ·

والمفهوم الظاهر أن هذين العاملين هما بمنزلة الشريكين في الحياة فاذا ارتقى احدهما وجب ان يرتقي الآخر ، او على الأقل أن لا يقف الواحد في سبيل الثاني ·

فالرجل تدرّج في أدوار ، وارتقى من طور الى طور حتى وصل الى ما وصل اليه من مدنيــة ، وحضارة ، وعلوم ، وفنون ، — والمرأة وقفت جامدة ، خاملة ، يعمل في تمادي جمودها ، وخمولها ، وعدم نهوضها الرجل — ويقيدها — الرجل ، ويقتل مواهبها — الرجل ، تارةً بدعوى الدين ، وأخرى في عدم كفاءتهـا من حيث التكوين · مع ان دعوى التكوين ، والمواهب من قوة جسم وصحة عقل ، ما كانت على نسبة واحدة ، في الرجال كافةً ، ليصح ان يحكم على تجرُّد النساء منها — فكم رجل يُعد بألف ، وكم الوف تمرّ بلا عداد ·

وما جاز وجوده في الرجال من هذا القبيل ، لا يستحيل وجوده في النساء بل هو من الممكنات — خصوصاً وقد اتى على المرأة حين من الدهر كانت فيه مع الرجل في مستوى واحد — وأما التكوين في امره الرئيسي ، من رأس ، ودماغ ، وإرادة ، وتمييز — ليس فيــه تباين ، او تغــاير ، أو تعدد — بمعنى ان الرجل ليس له رأسان ، وللمرأة رأس ونصف ، او نصف رأس ، أو في الاول اربعــة آذان وفي الثاني أقل من ذلك — والذي نراه من التفاوت ، ان هو الاَّ من حيث التربية وشكلها ، وإطلاقــ السراح للرجل وتقييد المرأة في عدم البراح من الخدر ، وحصر مواهبها في ذلك

المضيق . ثم انقطع الكلام وساد السكوت ، فقال جمال الدين :

هل لكم ما تقولون غير هذا ؟ . قلنا لا — غير إلفات نظر الاستاذ الى حالة المرأة في الغرب خصوصاً في الأُمة «السكسونية» التي يعجب السيد بتربيتها ، ويمتدح ادب المرأة فيها وحشمتها .

قال : « دخلتم في هذا الموضوع على السفسطة من باب واسع ، والتوى عليكم القصد ، بل عكستم القضية (ربما من حيث لا تريدون) ذلك لانكم تطلبون للمرأة امراً من المساواة بالرجل ، ولا تفقهون لفائدتها معنى ، ولا للمقصود حصراً ، ونتيجةً — واليكم البيان :

قلتم ان الرجل ، تدرج ، وتطور ، وارتقى حتى وصل الى ما وصل اليه اليوم — وان الرجل والمرأة كانا في زمن من الازمان في مستوى واحد — وانه ليس في تكوينهما ما يمتاز به الواحد عن الآخر .

فان سلمنا لكم في هذا وجب أن ننظر الى عوامل ارتقاء الرجل ، والمؤثر فيه . — فان قلتم ان الرجل قام بنفسه بدون مساعدة آخر — ولا تأثير للتربية عليه — سألتكم ما الذي منع المرأة ان تجري مع الرجل حيثما جرى ، وتأخذ من التدرج ، والتطور ، والارتقاء ، ما أخذ به الرجل ، وكلاهما في مستوىً واحد ، وتكوين واحد ؟ — والقوة التي تزعمونها في الرجل ، وانه قيد المرأة بها ، لم توجد فيه دفعة واحدة ، بل أتت بالطبع على سبيل التدريج وسننه . ثم رأيت غيركم من المطالبين بحقوق المرأة المهضومة على وهمهم ، والآخذين بناصرها ، لتتساوى مع الرجل — يهيمون في مجاهيل التاريخ ، ويبحثون عن المرأة في زمن الرومان ، ومن قبلهم ، أو

بعدهم ، ويعيدون ذكرى عصر «شيوع المرأة» — وان الولد ما كان ليعرف اباه ، بل كان يرجع الى امـه في نسبه قهراً ، وضرورةً ، بالنسبة الى ذلك الشيوع — القبيح —

اقول « قبيحاً » ولعل المتحمسين للمرأة يرون ذلك الشيوع « حسناً » ويرومونه ، ويسعون من طرق خفية للعودة اليه ، ولكنهم لا يستطيعون به جهراً ، أو يخجلهم الحق الذي لا يجدون له ستراً ، ولا لنوره اطفاءً

نعم يذكرون عصر الشيوع ، وكأني بهم يريدون ان يستنتجوامنه — ان المرأة كان لها منه مقاماً ، ولكنه «غير كريم» إذ كان الولد يرجع بنسبه لأمه ، والمسيطر عليه وعليها خاله (بئس ما يستنتجون ، وساء ما يقولون) .

ارشدنا العقل ، أن الانسان في تطوره ، انما كان يترك ما يضره ، ويقبل ما ينفعه ، ويأخذ بالانسب ، والأصلح — صناعة ، واخلاقاً ، واجتماعاً

انتقل الانسان من العصر « الظرري » — العصر الصواني — الى العصر الحديدي ، لمنفعة رآه فيه .

فهل يعقل اليوم ان يترك الانسان الحديد ، ويرجع القهقرى الى الصوان يتخذ منه سلاحاً ، وآلات على ضعف اثره ، ومحدودية نفعه ؟

— كلاً — .

وعلى هذا يصح القياس والقول ، بعدم نفع الرجوع الى حالات تلك الأعصر ، التي ما تركها الانسان الاً لأنه رأى خيراً منها — ومن ذلك — شيوع النساء ، وعدم طهارة الزواج ، ولوث الزناء ، والسفاح ، وما يجره من ويلات العلل والأمراض الجسدية والروحية . يخطىء ويضل الصراط

السوي ، من قال أو يقول — ان الرجل قام ، أو يقوم بنفسه ، لا في عصر الهمجية ، ولا في عصر الحضارة والمدنية ، بل ان الذي ساعده ، في كل ادوار الحياة ، و يساعده ، و يخط في لوحه الصقيل ، منذ طفولبته ، خطوط الفضيلة ، أو الرزيلة — ان هي الاّ « المرأة » .

فالرجل في آثاره ، وجراثيم غذائه ، وبالخطوط الأولى التي ترسم فيه ، هو صنع الأُم « المرأة » مدين للأم «المرأة» تلميذ الأُم « المرأة » صالحاً نشأ أم طالحاً .

فاذا علمنا ان للمرأة ذلك التأثير ، وان عليها القيام بذلك الواجب ، وتحمل اثقال ذلك العبء — الذي لا يمكن ان يقوم به غيرها — كيف يصح أن يسلب منها ذلك الحق ، أو أن تدعى لتركه أو أن تساق الى ما لا يعنيها و يضر بالهيئة الاجتماعية ، ويقلبها رأساً على عقب .

اني لا أرى في الذين يقولون بمساواة المرأة في الرجل واشغالها بما خلق له ، هو ، ولم تتكلف به الأُم « المرأة » - إلاّ انهم يحاولون نقض حكمة الوجود ، الذي انما ، صار وجوداً ، و كوناً ، وهيئة — بوجود العاملين « المرأة والرجل » .

يريدون ان يرجعوا ، ويدغموا الاثنين بواحد ، — وبصريح القول — ينتهون بنتيجة ما يطلبون ، الى ان لا يكون في الكون إلاّ رجلاً ، أو امرأة — هذا اذا حصلت المساواة بين الاثنين ، وتجاريا في العمل . — يعني ان يصير كل منهما طبيباً ، صيدلياً ، مهندساً ، فلاّحاً ، خياطاً ، نجاراً ، حاكماً مبعوثاً ، قائداً ، الخ .

ومتى وصل المجتمع الانساني الى هذا الحد ، فمن اين نأتي بالأُم «المرأة» مربية الرجال ، ومرضعة الفضيلة لهم ، وهي في ذلك الشغل الشاغل الذي يستغرق كل وقت الرجال ، ولم يجدوا في اقل صنعة يحترفونهـا متسعاً لهم ، اكثر من جلب القوت ، وسوقه للبيت لتعالجه المرأة ، فتغذي به رجلها ، وطفلها — .

اما عمل المرأة ، وواجباتها في بيتها ، ونحو زوجها وأولادها ، فأهم بكثير من صناعات الرجل مهما دقت ، وعظمت ، وجلّ نفعها . وان اكبر فاضلة من النساء ، اذا هي قامت ببعض واجبات المنزل ، وتدبيره ، وحسن تربية الطفل ، تكون قد رجحت على اكبر الرجال علماً وعملاً

لانه كما سبق القول (ليس غير المرأة من يهيئ المجتمع رجالاً) وهذه المرتبة السامية للمرأة لم يكن ليهيئها الرجل للمرأة ، لانها اسمى منه — بل هيئتها لها الطبيعة ، وحرمت الرجال من ان تنالها .

تلك المرتبة هي اسمى من كل ما تتوهمها المرأة في الرجل من المهن والصنائع ، ولا تنحط المرأة إلاّ اذا هي تساوت مع الرجل بها .

ومختصر القول « ان قوة المرأة في ضعفها ، وفضل الرجل في قوته وان يكون تجاه المرأة ضعيفاً — وفي مذهبي ان تبادل النوعين بالمزيتين خروج عن حكمة الفطرة ، ومغالبة للطبيعة » اه .

﴿ مقابلة جمال الدين لسمو الخديوي عباس حلمي واختلاق الجواسيس مسألة الدولة العباسية ، واهتمام السلطان عبد الحميد ، وما احتمل هذا الامر ﴾

وفد على الاستانة سمو الخديوي عباس حلمي الثاني — وشهرة جمال الدين في مصر بالغة مبلغاً عظيماً ، وزادها خطابه على اخواننا المصريين (الذين جاءوا معه) وقد دعاهم جلالة السلطان لحديقة بيلديز فوقف جمال الدين خطيباً واستهل خطابه بقوله ٠



رسم السيد جمال الدين الافغاني في موقف الخطابة

«أحسنتم صنعاً اذ اتيتم لزيارة خليفتكم جامع شتات الممالك الاسلامية»

منقذ تراث الشرقيين ، من اغتيال المغتالين ، وشره الطامعين الخ » .

وكله حث على الارتباط بمقـام الخلافة ، وتحريض على النهضة ، وتعريض بالمخاطر الحائمة حول الممالك الاسلامية — ببلاغته المعروفة ، وتلك الطلاقة الخاصة به .

فرغب الخديوي في مقابلة جمال الدين وطلبها — ولما كان هذا الأمر يحتاج الى اذن من السلطان ، وصدور ارادة سنية فيه . استوذن — فابى — بل الح بالواسطة على جمال الدين ان لا يفعل — وتخوف كثيراً ، من هذه المقابلة واراد ان لا تتم .

اما جمال الدين فقال لواسطة الخديوي في حجرة رئيس القرناء جهراً ، وعلى مسمع من الملاٍ الموجود :

« كضيف فانني اسير المضيف جلالة السلطان في منزله ولكن لي مسرح كل يوم في (الكاغدخانه ، وهو محل نزهة مشهور) كان يتنابه السيد في اكثر الايام ، ويكرر الرحمة على ابي الطيب المتنبي وينشد بيتاً له :

ومـا في طبـه اني جواد — اضر بجسمه طول الجمـام

وبينما جمال الدين يوماً في ذلك المحل ، على ربوة منفرداً ، اذ قدم الخديوي عباس ، وسار نحو السيد راجلاً ، فرداً ، تاركاً عربته ، ومهمنداره بعيداً — ولما تقابل افتتح الخديوي الكلام بالتحية قائلاً « السلام عليكم » وبعد المبادلة بها قال السيد : من اخاطب — فاجابه : «محبكم عباس حلمي»

وذكر ما له من المحبة والحرمة عنـد سموه ، أذ انه ولا شك من اكبر حكماء الشرق في العصر ، ويفتخر الشرقيون بمثله — وهكذا عبارات ثناء ،

وتودد ، وتلطيف لجمال الدين ٠

واختتم الحديث بان سموه يحب ان يراه زائراً مصر في ايامه ، مكرراً ذكر ما له في القلوب من المحبة العظيمة ٠

ولم يدر بينهما شيء لا ضمناً ، ولا صراحة مما يكون له ادنى تماس مع السياسة ٠

ولكنها فرصة للجواسيس ، ربما يبخل الدهر ان يأتي بمثلها (سمو الخديوي عباس حلمي — وجمال الدين الافغاني — منفردان على ربوة يتحادثان !!) ٠

فانهالت محررات الجواسيس « الژورنالات » على السلطان — وأهمها وهو الذي اقامه واقعده — « ان جمال الدين قد تعاهد ، وتحالف مع الخديوي على ان يؤسس له دولة عباسية !! وانه قد طلب تأميناً من الخديوي بعد ان يتمم له الامر ، ان لا تكون عاقبته ، كما كانت عاقبة ابي مسلم الخراساني مع العباسيين — وان سوريا الجغرافية لمن حكم مصر بمنزلة اللازم والملزوم ، وهي مفتاح العراق » — وهكذا اختلاقات ، وتخرصات ، وترهات كانت خير ذريعة ، لتناول الاموال من سراي يلديز ، وباب رزق جديد لمن عيشهم موقوف على الافتراء ، والوشاية بالابرياء — اذ كان بالتهويل على السلطان — ولو برجل سائح بسيط ، يجسمون امره ويصورون من وجوده مضرات ، ومصائب ، تأتي للدولة منه ، وتتناول في نتيجتها شخص السلطان وعرشه — فيأخذ لذلك من الحيطة ، ويبذل في سبيله من الاموال — ما يحير العقول ؟ ٠

واخذت تتوالى الوفود من المابين على منزل جمال الدين بنغمات مختلفة — منها لوم بشكل توبيخ مع عتب — ومنها اسناد خيانة بما عمله ، ومنها ان تحالفه هذا مع الخديوي ، يعد نقضاً لبيعته للسلطان الخ .

والغرابة ان كلما كان يقال في هذا الشأن ، يذكر بصورة ثبوت صحة الخبر عند السلطان ، وانه لا ريب في حصوله = وانها وقعت الواقعة ليس لوقعتها دافعة = وجمال الدين في كل تلك الاوقات ، كان رابط الجأش ، اكثر مما رأيناه في سائر الاحوال = يضحك ولا يجاوب حتى يؤدي الرسول بلاغه = ولا يزيد على القول له : «هل لك ما تقول غير هذا ؟ فان قال ، لا = ترجم له بالتركية ما قاله هارون الرشيد « هنيئاً لمن ما عرفناه ، لان من عرفناه وقربناه أطرنا نومه ، وأطلنا يومه » ويقول له « أطار نومكم وأطال يومكم » ويزودهم بعبارة «انني سأتحادث انشاء الله مع السلطان بامر هذه المختلقات » .

وبينما خلق المابين ، وكبار المقربين ، والجواسيس في هرج ومرج ، واخبار غضب السلطان على جمال الدين ، تلوكه الالسنة ، باشكال غريبة ، وصور عجيبة = صدرت الارادة بحضور جمال الدين للقصر السلطاني ، فللمثول .

والسلطان عبد الحميد كما انه كان من اقدر ملوك زمانه سياسة = على ما مر بيانه ، وأحدهم ذهناً ، واوفرهم ذكاءً ، ودهاءً = فهو الينهم عريكة ، واكثرهم تواضعاً ، وأقدرهم على خلب لب المخاطب ، باللطف ، والمجاملة ، وكظم الغيظ = فهو ولاشك لو صرف كل مواهبه لخير المملكة = وطرح

الجبن جانباً = لفاق سائر ملوك عصره، ولأَوصل الملك لأعلى ذرى المجد.

فلما اجتمع به اقبل جلالته عليه ، باكثر من العادة ، وهش له وبش، وأَدناه ، وحادثه طويلاً ، بامور كثيرة = لا تخرج عن كونها تؤول ، لذاته اذ كل مهم في الملك لا يكون بالنتيجة عائداً لحفظ حياته ، وتقديس ارادته = فليس هو من الاهمية في شيء ·

حتى اذا انتهى الحديث من كل ما اراده السلطان ظاهراً ، وأوهم انه سيبارح المكان قال : هيه ! اجتمعت مع حضرة الخديوي في الكاغدخانه؟

اجاب نعم تلاقينا هناك قال : « قد الح الخديوي كثيراً بطلب هذه المقابلة = وما فهمت لهذا الالحاح سبباً ، أو معنى = فاي علاقة بينكما ؟ وقد ازعجوني بكثرة الژورنالات = واكثرها من الصادقين المجربين عندي الذين يتحرون لي ، صحيح الاخبار ، وصادقها = لذلك تأسفت جداً حتى كدت لا اصدق انك تأتي بمثل هذه الاعمال ·

قال جمال الدين : وأي الاعمال انكرها مولانا السلطان عليّ ؟

فتناول السلطان من بين يديه ، ومن جيبه عدة ظروف بمظروفاتها وقال: « هذه كلها على اتفاق بانكما قد انفردتما ، لوحدكما ، وتحادثتما بالمسطور فيها — ودفع الى جمال الدين تلك الظروف ·

قال — فتناولتها تأدباً ولم اقرأها استخفافاً لعلمي بما حوته ، وتضمنته من الاراجيف ، والاكاذيب ·

فكرر السلطان عليه بقوله :

« تفضل بمطالعتها وبعده نتحادث »

قال له : — لا حاجة لمطالعتها ، فالأمر ينجلي ، وينتهي اذا اقتنعتم وصدقتم ، بانني كنت مع الخديوي في ذلك المحل بمعزل عن الخلق ، وعلى انفراد — ليس معنا ثالث ٠

قال : نعم ٠

قال جمال الدين : هل كان مع الخديوي غير مهمنداره ؟ اجاب — لا

قال: هل سمع احد منهم ما دار بيني وبين الخديوي ، وكتب لجلالتكم؟ ام الكاتبون غير من كانوا موجودين ؟ ! ٠

فعند ذلك ، اطرق السلطان برهة ثم بحث عن مظروف ، فوجده وقرأه وقال : « ان حسني باشا (وهو مهمندار الخديوي) يذكر فقط انكما انفردتما بعيداً عنه ولم يفهم ما دار بينكما ٠

قال جمال الدين عند ذلك : « فهل برهان أسطع ، وحجة اقوى من هذا على بطلان هذه الارجوفة ، ودحض هذه الفرية « مع اني اقسم لك بعزة الحق انه لم يدر بيني وبين عباس حلمي خديوي مصر شيء من هذا اصلاً ٠

عندئذٍ قال جلالته « صدقتَ » وآمنتُ — وما هذه إلاّ اختلاقات، وفساد ، ودسائس (فلان[1]) قهره الله وقبحه — واطال بسوء الدعاء عليه

---

(١) كان السلطان عبد الحميد يرتاح الى القاء التفرقة بين مقربيه ، ووزرائه و يعمل على ايغار صدور بعضهم على بعض كي لا يتفقوا ، فيناله من السوء ما نال عمه المرحوم السلطان عبد العزيز — ولو انتفع ملك من الحذر لكان السلطان عبد الحميد اولى الملوك بالانتفاع من ذلك ولكن « ما منع حذر من قدر »

اجاب جمال الدين : « كل هـذا حسن في بابه ، ولكن لماذا انزعج السلطان وازعج لهذه الاكاذيب .

وما كان اغنى جلالتكم عن الحالين ، وقد علمتم مصادرها ومواردها :

قال : — « ما كنت بالمصدق لولا هذه الكتابة — فانها جعلت في نفسي اشياء ، ودفعتني للاهتمام — وان كان الآن قد سرى عني بعض ما وجدت لاعتقادي صحة ما قلت » .

وناولني رقعة فيها بيتان من الشعر — (في معنى ارجـوفة الدولة العباسية) وهما :

شاد الخلافة في بني العباس　　عباس لكن نعته السفاح

ولأنت خير مملك ستشيدها　　بالبشر يا عبـاس يا صفاح

فقال جمال الدين ، لا حول ولا قوة إلاّ بالله « تخرصوا » وتقولوا ، واستنبطوا من الانفراد انواعاً من البهتان تحتمل الصدق والكذب ، وشيئاً ربما ان يقال = وهو من الممكنات .

ولكن امر النظم فانني ما نظمت في حياتي شعراً عربيـاً قط — لا عن ترفع — ولكن لعدم وجود السليقة الشعرية بي ، وعدم مقدرتي عليه

قال : — فآمن جلالته ايضاً ان الحديث مفترى ، وانه على كمال الامنية منه ، وان الخديوي من اعظم المخلصين له ، وانهما بعيـدان عن كل تلك المختلقات .

قال السيد : ما وسعني لغيظ لم اكظمه = من اهتمام السلطان بشـل هذا البهتان ، وهذه الاختلاقات ، والاراجيف ، المضرة في حيثية الخلافة ،

وعظيم خطرها ، ورفعة شأنها ـ مع معرفتي دناءة مختلقيها ومرتبيها ـ وهو يدعو عليهم بشر الدعاء كالعجوز الدرديس البتراء

« ليسمح لي جلالة السلطان ان اذكر مثلاً حضرني الآن . قال ـ قل :

فقال : « ان احد الامراء استزار رجلاً في قصره فلما جاء الرجل وجد على باب القصر كلباً هائلاً ، عقوراً ـ يجرأ على الاسود وربما افترسها فهرّ عليه ، ونبح ، وتحفذ للوثوب فخاف الزائر واحجم عن الدخول = في اثناء ذلك أشرف الامير من نافذة القصر ، وأهّل بالزائر ، وسهل ، واستعجله بالصعود اليه .

« قال ايها الامير كيف الوصول اليك ؟ = وهذا الكلب العقور المدهش باسط ذراعيه ، فاغرٌ فاهه . انهره ، او آمر من يمنعه عني .

قال الامير : = انا من هذا الكلب اخوف منك ! = وهكذا اظن حالنا يا صاحب الشوكة اه .

قلنا لجمال الدين ماذا اجاب جلالته على هذا المثل ؟

قال : تبسم عن غير رضى ، وكان وقت الانصراف قد حان ـ فنهض وودع على ان اعود اليه في الغد من كل بد .

❋ دعابة السيد عبدالله نديم في بحث الدولة العباسية ❋
وتعريضه فيمن اختلقها في ذلك الحين

في اثناء هذا القصص ، كان المرحوم السيد عبدالله نديم حاضراً في الخلوة ـ التي كان جمال الدين يسميها «الجلوه» ـ فقال : « ليتك عندما صرح السلطان بان هذا الفساد صنع فلان ذكرت له دسائسه ، واستكتابه

الاغرار ، وتغنيه بهذين البيتين :

هي الخلافة أرجوها وترجوني　　　فقد تربع فيها من هو دوني

يا غوث ياجد قد آن الاوان لنا　　　فاين وعدكم في خان شيخوني .

فغضب عند ذلك جمال الدين ، وانتهر القائل وقال « اعوذ بالله ان اكون من المنافقين ، أو ان افعل ما انكره على الغير ، او ان اكون همازاً مشاءً بنميم

« ما هذا الهزيان في هذا الزمان ؟ وفي اي مقام جليل ، خطير — هم يتلاعبون ؟

« خلافة عظمى ، وامامة كبرى !

لقد هزلت حتى بدا من هزالها　　　كلاها وحتى سامها كل مفلس

« الخلافة ! — كفالة لله في خلقه — فاين احلام اولئك العجزة من مقام الأمامة ، والخلافة ، وما تتطلبه من الشروط ، والصفات اين ؟؟!

« الخديوي بظروفه ، وما أحاق ، وأحاط بمصره ، هو عندي اعجز من السلطان عن تصريف امور الخلافة ، والقيام باعبائها على ما يلزمها من مزايا ، وشروط اهمها الاستقلال .

نعم لو تخلصت مصر من براثن بريطانيا وتسنى لعباس — مع ذكاءه وتطلعه — ان يكون له همة محمد علي الكبير ، ومضاء ابراهيم ، وسخاء اسماعيل لوقع من الخلافة على ما يرجوه . ولكن اين الولاية الخاصة ، لأمير المؤمنين اليوم في ممالك الاسلام ؟ واين المؤمنون ، الملتفون حول خليفة الرسول المصطفى صلعم ؟ واين الحرية المطلقة للخليفة في تصريفها على وجه الشريعة ، او السير

على سيرة الراشدين ؟ وأين القوة التي يدفع بهـا اذلال ، أو استعمار ، أو استعباد المسلمين في بلادهم ، وممالكهم ، وديارهم ؟ — واين ؟! واين ؟! — فلا حول ولا . قال : اما الرجل ويعني به « السيد ابو الهـدى الصيادي» فهو خير عربي صحب السلطان ، وقد درأ شراً ، واستدر ما استطاع من الخير لقومه . وفي الرجل هزة هاشمية ، وخلق كريم ، وهمم وشمم — لا ينبغي ان يناله طعن الطاعنين ، ولا أدل على فضل الرجل من قياسه مع غيره من العرب الذين انسلوا الى السلطان ودخلوا في خدمته « وبضدها تتميز الاشياء » « رحم الله الجميع » .

❋ رأيه في الأنكليز ووصفه للانكليزي والعربي — وفلسفته ❋
في الحجر الشرعي على الفرد السفيه وشكل تطبيقه اليوم
على اهل الشرق ، من الغربيين

قال ابتدىء بوصف الانكليزي على أقصر الطرق — « فهو قليل الذكاء ، عظيم الثبات ، كثير الطمع ، والجشع ، عنود ، صبور ، متكبر .
« والعربي أو الشرقي — كثير الذكاء ، عديم الثبات ، قنوع ، جزوع قليل الصبر ، متواضع .

« يثبت الانكليزي حتى على الخطأ اذا تسرع وقاله أو باشره .

« والشرقي لا يثبت على الصواب ، ولا على طلب حقه .

« فيفوز الاول في خير النتائج ، بفضيلة (الثبات) .

« ويخسر الثاني كل حق برذيلة (التلون وعدم الصبر) .

« ولذلك فأكثر ما ورد في القرآن — ذكر الصبر ولزومـه — مثل قوله تعالى « فاصبروا ، وصابروا ... الآية »

« والذين صبروا .. » — « ولو انهم صبروا .. » — « وبشر الصابرين الآية » — الخ ..

« كل هذا يدل صراحة على ان الامـة العربية خصوصاً ، والمسلمين عموماً احوج الى الصبر ، والثبات من كل ما في الاخلاق المؤدية للسعادة البشرية . —

فتراهم يستهويهم الوعد الكاذب عن علم ، ويرضون به ، اذا كان الموعد قريباً .

« ولا يصبرون على الوعد الصادق اذا كان امده بعيداً .

« فيخسرون في الحالين ، ولا يستثمرون غير الفشل .

« اما المصريون ، والشرقيون عموماً — سواء كان لقاء الانكليز ، او غيرهم من دول الغرب فمثلهم — مثل رجل مثرٍ ترك من الاموال ، والاملاك ما هو معلوم بعضه ومجهول اكثره — وخلف ورثة على غاية السرف والتبذير

« وبمثل تلك الحالة من مورث ووارث نرى الشريعة قضت بوضـع الحجر على الوارث السفيه ، المبذر ، واعتبرته قاصراً ، غير مختار ، ولا حر للتصرف بملك ، ومتروكات مورثه .

« نعم وقع الشرقيون بما ترك لهم من الميراث تحت حـكم المبذرين ، والمسرفين ، والسفهاء — وقضى على الشرق واهله (تداول الايام) ان يكون الحاكم ، وواضع الحجر عليهم — هو الغرب — .

ان الفرق ظاهر بين وضع الحجر على الوارث المسرف من الحاكم الشرعي ، = وبين حكم الغرب بوضع حجره على الشرق واهله ٠

« لأن الحجر الشرعي يمكن رفعه باثبات صلاح سيرة الوارث » وتبين حقه بارجاع حرية تصرفه بمال مورثه ٠

« اما حجر الغرب فهو مما لا تؤثر فيه بينات على الرشد ، ولا تعمل فيه عوامل قولية ، وحجج منطقية = ليرفع حجره ٠

« والسبب ان الغرب في الحقيقة ليس من مصلحته اصلاح سير ، ولا اصلاح سيرة المسرف المبذر ، لترجع اليه حقوقه = بل من اقصى امانيه ان يتمادى الشرقي في غيّه ، واسرافه لكي يطول عهد الحجر = ومع تمادي الزمن = ان يتم بعد الاستعمار ، التملك ، والاستعباد ٠

« فما لبث الشرقيون في السفه ، والسرف = ونتيجتها عدم الكفاءة لتولي حكم انفسهم ـ يلبث حكم تلك الوصاية ٠

« ما من دولة غربية ، تطرق باب مملكة شرقية إلاّ وتكون حجتها = « اما حفظ حقوق السلطان ، أو إخماد فتنة قامت على الامير ، أو انفاذ نصوص الفرامين = او غير ذلك من البهتان ، والختل ، والخداع ، وواهي الحجج ٠

« فاذا لم تكف تلك الاضاليل للبقاء ، تذرعت ــ أما بحجة : « حماية المسيحيين ، أو حماية الأقليات ، أو حقوق الاجانب ، وامتيازاتهم ، « أو حرية الشعب ، أو تعليمه اصول الاستقلال ، أو اعطاء الشعب حقه تدريجاً من الحكم الذاتي ، أو اغناء الشعب الفقير بالاشراف على موارد ثروته والخ

« فالشعب الشرقي الخامل يرى في هذه المواعيد الخلاّبة ، ما قاله الشاعر :

ما زال يغدق آلآءً ويشفعها   بما يفوق اماني النفس بالعظم

« فيرتاح الى تلك المواعيد ، ويرضخ الى حجر الغربي — ويقدم في كل يوم نوعاً من الطاعة ، وشكلاً من الاكرام ، ورضوخاً لاوامر فيها انواع الضرائب ، يتسابقون متهافتينَ على التعبد له (ولا تهافت الفراش على لهيب النار) ·

« يفعلون ما يأمر به الغربي ، ويؤدون كلما يطلب في بادئ الامر على مضض يكتمونه — ويغالطون انفسهم — (انها حالات وقتية ، أو سحابة صيف عن قريب تقشع) ·

« ويرجعون معللين انفسهم ، — ان الغربيين سيفون لهم بوعدهم ، وينالون تلك الاماني ، اذ يتركونهم بعد اسداء نعمة التعليم لهم — « شعباً حراً ، مستقلاً بادارة شؤونه ، مختاراً بوضع ضرائبه ، عالماً بايراده ، ومصرفه منتقياً من ابنائه حكاماً ، من انزههم نفساً ، واحسنهم سيرة وسيراً ، واصدعهم بالحق قولاً وفعلاً ·

هذا ما يتعلل به الشرقي · — واما ما يفعله الغربي فهو :

برنامج يحمله من بلاده في محفظته — ثم ينقله الى ذاكرته ، وحافظته مسطور فيه :

« شعب خامل ، جاهل ، متعصب ، — اراض خصبة ، معادن كثيرة ، مشاريع كبيرة ، هواء معتدل ، نحن اولى بالتمتع بكل هذا ·

وللوصول الى الاستيلاء الممتع — يضع خطة — وهي اولاً :

« اقصاء كل وطني حرٍ يمكنه الجهر بمطالبٍ وطنية ٠

ثانياً : « تقريب الأَسقط همة ، والاَّ بعد عن المناقشة ، والمطالبة بالحق

ثالثاً : الدخول على البلاد بتفريقها طوائف ، وشيعاً ــ فتؤثرُ طائفة على الأُخرى (ولو بامور طفيفة تافهة) حتى تستحكم النفرة من بعضهم فيضعون بأسهم بينهم ٠

وهكذا من باب الوظائف ليس فقط يجعلون الطائفة الواحدة تنازع اختها من الطوائف ــ بل يجعلون ابناء بيت واحد ينازع بعضهم بعضاً ٠

كل هذه حالات تزيد الوصي جرأة ، وتمادياً في الحكم الكيفي ، وغل أَيدي الشعب ، ورجاله المخلصين عن النهوض بالوطن ، والتخلص من ربقة الاستعباد ، وفك اغلال الحجر ٠

وهذا المطالب ــ من فك حجر ، واستقلال لا تتم إِلاَّ بالأَخذ بافعل العوامل ــ مثل ترقية الهيأة بالعلم الصُحيح ، والوقوف على مواضع الضعف ومعرفة الواجبات لهم وعليهم ، و كيفية الوصول للمطلوب ، والدخول من الابواب لأَخذ حق الضعيف من القوي ٠

واهم من جميع ما ذكر ــ اتفاق الكلمة ، وجمع الاهواء المختلفة »

قلنا يا استاذ :

مثال الحجر ، والفلسفة فيه ، ووجه الشبه والمشبه به ــ وما حواه من الحكمة ــ كلها اقوال جليلة ، وآراء خطيرة حسنة الرواء ٠ ولكن وصف الدواء بتلك الصيغ التي يصفها طلبة المدارس ، لا نظنها توصل للمكان المقصود ولا تفي بالغرض المطلوب ــ خصوصاً ومعظم الشرقيين في ظلمات الجهل ،

وانهم قد غلبوا على امرهم (على نتيجة اجتهادكم) وكثر بين ظهرانيهم القوّال وندر الفعّال ـ وعزّ العثور على قول يمكن العمل به ٠

والآن لو قلنا ان الملايين من الخلق لو تعلموا ، وتهذبوا ، وتفقهوا ، وعلموا الواجبات ، وكانوا على اتحاد حقيقي — (لغلبوا الالوف !) — هذا امر بالبداهة معروف ٠

وأنما السر كل السر ، والأرشاد كل الارشاد — (بالافصاح عن سُبل الوصول الى الغاية عملياً ، وامكان تطبيق النظريات فعلاً) ٠

قال : « تطلبون الدواء ، والداء دفين في جسم الشرق وابنائه ، مستحكم منهم ، يعزّ ، ويتعذر على الحكيم النطاسي ، ان يصف الدواء الناجع ، او الشافي ، والواقي ، لاعتقاده ان المريض لا يتناوله بل ربما يعمل بعكس ما يشير به الطبيب اليوم ـ ولو علم ذلك المريض ان في الامتناع من الدواء (الموت الزؤام) وهذه حالة الشرقيين في مختلف الاقاليم ٠

لدى اهل الشرق دواء سريع التأثير في الشفاء ـ لكنه عظيم الخطر ، مفزع للجبناء منهم ـ وقد وصفه حكماء الشعر من العرب بقولهم :

عش عزيزاً او مت وانت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

* * *

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

هذا النوع من الدواء توارثه الغربيون ، وعملوا بكل معانيه ـ فتسنى لهم به من العظمة ، والاستطالة ، والحكم بالشرقيين ما نراه محسوساً ، مشهوراً ، وبين أيدينا ، ومن خلفنا ٠

اما الشرقيون وقد وجدوا في هذا الدواء الشافي ، والواقي ـ مرارة ، ومشقة وقتية ، وعناء ـ فاطَّرحوه ، ونبذوه جانباً ـ ورضوا من مجد باذخ وملك مسبطر (بعيرٍ ، ووتد !) ـ قد لا يملكونهما اليوم تمام الملك . فحق عليهم قول الشاعر :

ولا يقيم على ذلٍ يراد به   الا الأذلان عير الحيّ والوتد

قال : « ان هذه الانواع من المعالجات في الشرق اذا كنت ارى مناطا اليوم بعيداً ـ ذلك لسقوط الهمم ، وخور العزائم ، وتفرق الكلمة ، والاستسلام للخمول ، وبعد النفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية ، وحرمانهم من لذة ما تنبسط به الروح عند نوال المنعة القومية ، والحرية الحقيقية ـ وما في عزة الحاكم الفرد من الحول ، والطول بقوة مجموعه (ولو كان صعلوكاً) على الجمهور المحكوم ـ ذلك الجمهور الشرقي اليوم المستكين للمهانة ، والخاضع للقوة الموهومة التي يتخيلها هولاً هائلاً ، او غولاً آكلاً .

ثم قال : — « الناس في الموت خوف الموت وفي الذل خوف الذل »

اما وانتم تطلبون دواء يسهل على الشرقيين تجرعه = فأقول :

بلى = نحتاج الى عمل جديد ، نربي به جيلاً جديداً ، بعلم صحيح ، وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الاول ، على الاجساد والارواح وهو « الدين » وجمع ما تشتت من الكلمة من اهل الاديان ، وتوطيد العزم على قبول الموت في سبيل حياة الوطن .

« يقوم بذلك جمعيات يتولى امرها أُناس يأخذون على انفسهم الأبية

عهداً « ان لا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثني عزمهم الوعيد ، ولا يغرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب — بل قوم يرون في المتاعب ، والمكاره بنجاة الوطن من الاستعباد ـ غاية المغنم ـ وفي عكسه ـ المغرم ·

قلنا : نعم ما وصف الاستاذ = اذا قيد الله ، ويسر للامة افراداً يقومون بتلك الغـايات الشريفة ، ويكون في نفوسهم ذلك الاباء = فلا يقرعون معه باباً لسلطان (ولو استقرعهم) ولا يهرعون لمنصب ·

وأن هم فعلوا فلا يغفلون عن الوفاء بالعهد ، ولا ينقضون الميثاق ·

ولكن اين هم ؟ ؟ ·

اجاب : « يقولون الحاجـة أُم الاختراع — وقال المصطفى ــ صلعم « اشتدي ازمة تنفرجي » ·

« فالازمة تلد الهمة ــ ولا رجاء من المستضعف إلاَّ إذا يئس ـ ولا يتسع الأَمر إلاَّ إذا ضاق ــ ولا يظهر فضل الفجر إلاَّ بعد الظلام الحالك

« وعلى ما أَرى قد اوشك فجر الشرق أن ينبثق ـ فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلاَّ الفرج · سنة الله في خلقه :

ومهما ادلهمَّ الخطب لا بد ينجلي واظلمت الدنيا فلا بد من فجر

نعم ــ لا بدَّ لذلك النسيم الذي حمـل معه اجزاء فردية الحياة ، والنشاط ، والنهضة ــ ومرَّ على أعرق الامم في الجهـل ــ ولما استنشقته هبّت من رقادها ، ودوَّخت ممالك الارض ، واستفتحتها ، وملأَتها عدلاً ـ ذلك النسيم الذي جعل في العراق هاروناً ، ومأموناً وفي الشام ، والاندلس

وسائر المشرق دولاً ، ودهاقين ، ودهاة ــ ومن فحول العلماء جهابذة ، واساطين .

« اكرر واقول « نعم » لا بد لذلك النسيم بعد ان سرى عن تلك الممالك ، والبقاع فهبطت في مهاوي الذل ، واصبح نشاطها خمولاً ، وعلمها جهلاً ، وملكها أثراً بعد عين ــ لا بد وان يعيد الكرة ويمر على الشرق مرة أخرى فتنشط له العقول ، وتقوى به العزائم ، وينفتح لاستعادة المجد المجال وتظهر من زوايا الخمول فحول الرجال ان شاء الله .

ثم استطرد وقال :

« كما علمنا ان معدات المرض ، وجراثيمه في الشرق ، قد اتت من مطامع الغرب ، (ودخلت اليه من باب خمول الشرقيين) تنحصر في أمور رئيسية سبق التنويه بذكر بعضها ـ مثل اقصاء اصحاب العارضة ، والاحرار الحقيقيين والخ .

كذلك يجب ان نعلم ان عواملاً غريبة مهلكة تبدو في اول مظهرها ــ خفيفة الوطأة ، سهلة المأخذ ، لا ضرر من التسامح بها ــ وهي :

« اسلوب عجيب لأضعاف لغة القوم ، والتدرج بقتل التعليم القومي ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بان ليس في لسانهم العربي ، أو الفارسي ، أو الاوردو الهندي والخ ـ آداباً تؤثر ولا في تاريخهم مجداً يذكر .

وان المجد كل المجد لذلك الشرقي الخامل ان ينفر من سماع لغته ، وان يتباهى بانه لا يحسن التعبير بها .

وان ما تعلمه من الرطانة الاعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول اليه من

المدركات البشرية ؟!

قال : — « ولقد شاهدت ، وسمعت من مثل هذه المضحكات ، المبكيات عدة اشخاص من زعانف الشرقيين — وقد وقفوا على منابر الخطابة ، يتذلفون الى طالبي الرزق في بلادهم من الغربيين — فانكروا على قومهم ولسانهم كل فضيلة — وتغنوا بجمل غربية ، ورطانة اعجمية ، جشوها المدائح التي ربما تكون اوصلتهم الى بلغةٍ من عيش عند ذلك المكتسح لبلادهم — ولسوف ينبذ من كان مثلهم مكاناً قصياً — فلا الاجنبي يحميه ، ولا الوطن يحويه .

لا جامعة لقوم لا اسان لهم — ولا لسان لقومٍ لا آداب لهم — ولا عز لقومٍ لا تاريخ لهم — ولا تاريخ لقومٍ إذا لم يقمْ منهم اساطين تحمي ، وتحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم ، وتنسج على منوالهم .

وهذا كله يتوقف على تعليم وطني يكون بدايته « الوطن » ووسطه « الوطن » وغايته « الوطن » ! .

« ويجب ان يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية — اثنان فاثنان = يعملان اربعة . — فلا تستطيع المذاهب ، أو الطوائف ان تدعيها خاصة — ولا ان تحاول نقضها .

هذا هو الوطن ، وهكذا يجب ان يكون التعليم الوطني .

❋ رأيه في كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق ❋ واهله من الحجر وخطورة ما يلزم ذلك الامر من الحكمة والتدبير وبيــان وعورة المطلب

قال : « لا يفوتنكم ان نهوض الامة المحجور عليهــا ، لفك حجرها — باثبات كفاءتها ، وترقية مجموعها بالعلم الصحيح ، والأخذ باسباب المهيئات لحكم ذاتهــا — ليس كما تظنونه بالأمر السهل = فهو سيصادف عقبات كؤود ، ينبغي التفكر بها ملياً ، واعداد قوة عظيمة من الحكمة ، والدهاء والسعي الحثيث لتذليلها .

فالعالم ولو كان «اعزلاً» فهو بعلمه « كَمِيٌّ مخش » = والجــاهل وان كان مخشاً فهو بجهله « اعزل» .

وهكذا القول في الأمةــ خصوصاً في زماننا هذا ــ زمن الاستعمار .

« أو كما قلت يا شيخ بني مخزوم في رياضك المصرية ــ زمن « تحرير الارقاء وإسارة الاحرار» .

« اقول للشرقيين تأملوا كيف تحافظ الدول ثغور مستعمراتها من ادخال الأسلحة ، والأجزاء النارية اليها ، وكيف يشددون النكير ، وينزلون أصرم العقوبات على من فعل ذلك .

«والحكمة في هذا ظاهرة وهيــ تخوف المستعمرين من استعمال تلك القوى ضدهم .

« ولو أمنوا من عدلهم فيمن يحكمون من الاهلين ، او فيما استولوا عليه

من الامصار لما تخوفوا كل هذا التخوف ، ولا أخذوا من التحوط كل هذا الاحتياط ، وسنّوا له أصرم القوانين .

« والعلم لقوم ، او لأمة قد سهل الحجر عليها ـ محض جهلها ـ ليس باقل هولاً ، أو أخف دهشة ، وتأثيراً من ادخال السلاح لمستعمرات المستعمرين ـ أو الأوصياء على ثروة الشرقيين وبلادهم (لسرفهم وجهلهم)

فالغربيون ولا ريب يمانعون (بطرق خفية) ترقية الشرقيين لأنفسهم على طريقة وطنية خاصة بهم ـ ويعرقلون مساعيهم (باشكال نصح غريبة) ولا يسهلون وسائل تهذيب اخلاق مجموعهم ـ بل يعملون على العكس ـ وبالاجمال لا يمكنونهم من التوسل فيما يؤول لوصولهم للحكم الذاتي ـ باساليب غاية في المكر ، والمغالطة ، والسفسطة ، والاستعانة ببعض اهل البلاد على ذلك (وهم الأسقط همة) .

فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح ـ موت لحكم الغرب فيهم ، وفك الحجر عنهم ـ والعكس بالعكس .

«اذاً فلا بد من تمام اليقظة ، والعمل بكمال الحكمة من الشرقيين للوصول الى الغاية بدأب متواصل ، وهمم لا تفتر ، وعزائم لا تكل .

«اما الرجال ، والكهول ، ومن شب منهم عن دور التعلم ـ واستقام على عوج فيما تلقفه ـ هؤلاء تقومونهم بالمحاضرات ، وفتح نوادٍ وطنية ، للاجتماع ، واختلاط ابناء الطوائف مع بعضهم ، واراءة طرق العمل للنهوض بالوطن ، على طريق الخطب ، والمثال الحسن ، والتذكير والتحذير .

﴿ رأيه في كيفية تربية الطفل الذي سيكون رجل المستقبل ﴾

قال : «اما الاطفال والصبيان ـ فاحسنوا للاول تربية المرأة ـ واما الثاني (وهم الصبيان) فاغلقوا في وجوههم مدارس الحكومة ـ وافتحوا لهم ابواب المكاتب الاهلية ·

لانه لو سلم برنامج دروس مدارس الحكومة من سموم تدس في السم للوطن ـ لا تسلم من ضرر ما تشحنه فيها من علوم قد لا يحتاجها المتعلم في عمله ، وفنون لا فائدة متحققة لمن تلقاها ـ ولكنها بلا ريب تترك التلميذ عليل الجسم ، فيخرج عليل العقل ، أليفاً للنظر في الكتب ، خيالياً ، وهاماً ، نفوراً من العمل ، جامداً فيما تعلم ، بليداً في كل ما يحاوله من العمل ·

« اما الوطنية » او «حب الوطن» ـ فهو الداء الذي تخشاه المدارس الاميرية او من كان تحت سلطة الاوصياء «الاجانب» منها ـ فتحرم ذكر ما يؤول للوطن كيلا تصاب الطلبة بالعدوى منه ـ وتعم بالنتيجة البلوى عليهم ·

« اما الطفل ، فيجب ان تتعهده الام رضيعاً ، فطفلاً بكمال الاعتناء الصحي ، ليكون صحيح الجسم صحيح العقل ، ثم ترضعه حب الوطن مع تدريجه بالعلوم اللازمة ، وعدم اطفاء نوره الفطري ، بتعليمه الكذب ، وتحبيب العمل اليه ، وتمرينه عليه مع رعاية سنه ·

وبالاختصار تجعلون المدارس الاهلية الوطنية ـ دور علم وعمل ، ولتكن تلك المدارس بعيدة من مزدحم الخلق ، وفاسد الهواء ، فسيحة

الارجاء ، متنسقة تقسيم البناء — فكما يكون فيها غرف لتلقين العلوم ، هكذا يكون فيها اماكن لمزاولة العمل ٠

وكلما دخل دماغ التلميذ شيء من العلم ، أُجبر ان يعمل باعضاء جسده شيئاً من العمل — فيعمل بالحدادة مثلاً ، والنجارة ، وبالبناء في المدرسة مع رفاقه ، ويعاني تربية الحيوانات فيها ، فيحتلب الابقار ، ويصطنع الجبن ، ويستخلص السمن والزبدة وغير ذلك مما ينفعه جسدياً واذا خرج من المدرسة افاده مادياً ٠

ويكفي اذا خرج على ما ذكرنا انه يخرج رجل علم وعمل ، لا رجل غطرسة ، وعجرفة وكسل — كلٌّ على أهله ، يكثر به وبامثاله العدد ، ولا ينتفع بهم احد ٠

اما الدين فعلى قسمين — قسم عبادات — وقسم معاملات ٠

فالعبادات يؤديها الانسان لربه بمعزلٍ عن كل احدٍ ، فلا يعارض غيره بها ، ولا غيره يعارضه — إذ لكل وجهة هو مولاّها ، والله رب العالمين لا رب اليهود فقط ، ولا النصارى فقط ، ولا المسلمين فقط — وهو الذي خلقكم من نفس واحدة ٠

واما المعاملات — فهي شرع بين العموم ، يعملون ابناء الطوائف على خير وطنهم متكاتفين ، متعاونين — يشتغلون في المدرسة اخداناً ، ويخرجون منها اخواناً ، — يحملون بين افئدتهم شعور الولاء والاخلاص — لا يحل ما ارتبطوا به ، من روابط المحبة الوطنية قرب ولا بعد ، ولا ينسون عهد الصبا وذكراه — بل يكونون في جسم الوطن كاعضاء الجسد الواحد اذا

اشتكى منه عضو تألم له المجموع من الجوارح ـ كيفما ساروا ، واينما حلوا، فلا يرون إلاّ وحدة من سماء ، وارض ، وماء ، وحب لوطن واحد ـ لا تبلبل السنتهم مختلف اللغات ، ولا تشتت كلمتهم تباين النزعات ، ولا تفعل فيهم اهواء اولي الغايات من ارباب تلك المدارس والمعاهد ـ أو ان شئت قل تلك المصايد وان كان منها بعض النفع ·

❋ قوله في الصبر والثبات ❋

قلنا ـ ان الاستاذ قال في مقدمة هذا البحث ان الانكليزي يثبت حتى على الخطأ إذا تسرع به وقاله ، أو باشره ، وبفضيلة ثباته يظفر ، ويصل لغايته بنتيجة الثبات ·

مع ان ثباته لو فرضناه ، أو كما فرضه الاستاذ كان على الخطأ ـ فما معنى ظفره ، وفضيلته بالثبات على غير الصواب ؟ وهل في ربحه بالقوة المجردة غير الخسران · ؟

قال : ـ ان الفضائل التي نجلها ومنها الصدق ، والكرم ، والشجاعة ، وباقي الهيئات المتوسطة لم تكن لتحصل للفرد ، أو للأفراد إلاّ بمزية الثبات عليها ·

فلا يمتاز الرجل بصفته « صادقاً » اذا لم يثابر على الصدق ويعرف به في سائر تقلبات الظروف والاحوال ـ وإلاّ فصدقه مرة أو مرتين لا يؤهله للاتصاف بالمعنى المطلق لفضيلة « الصدق = والصادق » :

« وهكذا القول في الكرم ِ والشجاعة وباقي الفضائل ـ فلا يتسنى

للمرء الاتصاف بها إلاّ بالثبات عليها ·

فالثبات إذاً عقد الواسطة للهيآت المتوسطة من كل فضيلة، أو رذيلة — ولا يمكن الاتصاف باحدهما إلاّ بالثبات ·

وهذا زُهير بن ابي سلمى يقول :

من يأتِ يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خلقا

قال : — وقد سمعت حكاية يعزونها للجنيد وهي : —

« ان رجلاً كان ديدنه السرقة وقد قطعت يده في الأُولى — ثم قطعت الثانية في السرقة الثانية — فثابر على فعل السرقة برجله فقطعت — فثابر فقطعت رجله الثانية ، فسرق بلسانه فقطع — الى ان استحق القتل — فصلب — فمر عليه الجنيد فقبل جسده — فقيل له « تقبل جسد لص مصلوب ؟ — قال انما افعل ذلك « لثباته ! » ·

فسواء صحت هذه الحكاية ، أو الاسطوزة — أو لم تصح ، ففيها ما يدل على معقول « فضيلة الثبات » من حيث هي ·

وما اعلاه قدراً ، وأجلّه فضلاً إذا كان الثبات على ما يحسبه البشر — فضيلة — وكان في الحقيقة من الأَنواع النافعة للانسانية التي يحصل بها تخفيف الآلام الكثيرة في هذه الحياة القصيرة — بالمعاونة ، والمساواة ، والاخاء الطيني — الذي سترجع اليه كل هذه الهيا كل البشرية عوداً كما بدأها خالقها « انا خلقناه من طين لازب » = « أو لم يروا كيف يبدئ الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » ·

ثم قال : — لو اخذنا ذلك اللص (الذي افضى به الثبات على السرقة

الى القتل بعد قطع اهم اعضائه واوصاله) طفلاً ، وتعاهدناه على ما سبق بيانه وهذبنا حيوانيته بالعلم الصحيح ، والوسط الصالح ، والمثال الحسن — وفيه ما فيه من ذلك الاستعداد الفطري للثبات — فأي عظيم من رجال الفضيلة كان يضارعه أو يفوقه .

« مثلاً لو تعلّم الفنون الحربية مع فطرة ذلك الثبات ، أفما كان يكون عند اصحاب التيجان من اكبر قواد الكتائب ، وافرس الفرسان ؟

« نعم — ولكان من اكبر القتلة المبجلين المحترمين ! — لانه لا ينقص عند اهل النظر من يعرف فن الحرب قولاً إلاّ الثبات في موطنه .

فالهزيمة — والغلبة لا تتم إلاّ بفرار الجبان من فرد أو جيش — أو بالثبات منهما لبضع دقائق .

اما القول في الشرقي انه لا يصبر ، ولا يثبت اليوم تجاه اقل مقاومة ، ولا يتحمل ادنى صعوبة — فهذا لا يحتاج الى برهان ، إذ حالة الشرق واهله وما نراه في ممالكهم من الرزايا ، والنوائب اعظم دليل قام بنفسه عليهم في معترك هذه الحياة ، والتنازع فيه على الفناء !

❋ انكار جمال الدين ما نراه من المدنية ومغالطته باستبداله لفظة الفناء في التنازع عوضاً عن البقاء وان العلم الصحيح إذا وصل اليه العالم فاعظم اثر له انما يكون في منع الحروب التي هي من اكبر الادلة واسطعها على توحش الانسان ❋

قال جمال الدين اكثر من مرة « تنازع الفناء » .

فقيل له ــ انما يريد الاستاذ ان يقول « تنازع البقاء » ·

قال ــ كلا ــ بل تنازع الفناء ــ·

لان البقاء الذي لا يعتريه فناء ، ليس فيه تنازع ، ولا نزاع ·

وكل ما نراه من حيوان ، أو نبات ، أو جماد فهم يسيرون في كل ثانية نحو الفناء ، ولو بتبدل الشكل ، وفنائه بالتحول

والتنازع الذي نراه قائماً بين الحيوان والنبات ، انما هو على اشياء تفنى في النتيجة ·

وطالما المنتزع ، والمنازع ، والمنزوع منه سواء في المصير إلى الفناء ، فكان الأصح ان يقال « تنازع الفناء »

قلنا ــ وهل اصطلاح العالم المتمدن على هذا التعبير خطأ لهذه الدرجة حتى يستبدل ، ويضع لفظة « البقاء » مكان « الفناء » ؟

قال : ما تعنون بالتمدن ، أو العالم المتمدن ؟ ·

قلنا : ــ الرقي النسبي بالمكتسبات العلمية ، والمادية ·

فأمة الانكليز مثلاً ، والفرنسيس ، والالمان ، والاميركان ، ومن ماثلهم من الأمم ، هم مدنيون ، متمدنون بافرادهم ومجموعهم ·

قال : ــ« لا يُقَدَّر الفرد ، ولا تُقَدَّر الامة ، ولا تُقَدَّر الاشياء ، ولا تُقَدَّر المكتسبات العلمية ــ إلاّ بنسبة ما يترتب على ذلك من الفائدة « فلنأخذ من ذكرتم من الامم المتمدنة ، ومكتسباتهم العلمية ، وما صنعوه ، وعملوه ، وكسبوه ، وربحوه ، وما ترتب على ذلك ــ وما حصل من المنافع ، والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات ، والمدنية ، والثروة ــ ثم

نعدد ما رأينا ·

هل رأينا غير مدن كبيرة ، وابنية شامخة ، وقصور مزخرفة ، ومعامل ينسج ، ويصنع فيها القطن والحرير ، بأصباغ كيماوية مختلفة الوانها ، ومعادن ، ومناجم ، واحتكار تجارات أتت لهم بثروات ، وكنوز ؟ ؟!؟

ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة ، والمدمرات ، والقذائف ، وباقي المخربات القاتلات للانسان — تتبارى تلك الامم الراقية ، المتمدنة اليوم ؟ ؟ ·

ثم لو جمعنا كل ما في ذلك من المكتسبات العلمية ، وما في مدنية تلك الامم من خير ، وضاعفناه ، اضعافاً مضاعفة ، ووضعناه في كفة ميزان — ووضعنا في الاخرى الحروب وويلاتها ·

لا شك ان كفة المكتسبات العلمية ، والمدنية ، والتمدن — هي التي تنحط ، وتغور ·

وكفة الحروب وويلاتها — هي التي تعلو ، وتفور ·

فالرقي ، والعلم ، والتمدن على ذلك النحو وفي تلك النتيجة ان هو إلا جهل محض ، وهمجية صرفة ، وغاية التوحش !؟!

قال : — « وعندي ان الانسان اليوم هو احط درجة من انسان الجاهلية حتى ومن الحيوان الناهق ·

لانه ربما يكون للانسان في دوره الأول — في حروبه الوحشية وعوامل الجاهلية — معذرة — في طلب الحاجيات للحياة بسهم ، وقوس وسيف ، وسمهري ،

وقلما تفعل تلك المعدات في قتل النفوس ، اذا قيست بما لدينـا اليوم من المدمرات ، والاسباب المهلكات ، وباقي المعدات ·

نعم لدينا كل ذلك نُعده ونستعمله ليس للحاجيات بل لأدنى صور الكماليات ·

أما كون الانسان أحط من الحيوان الناهق (لعدم استفادته من حقيقة العلم ، أو العلم الحقيقي) فاعظم ادلته « الحروب ! ! ! » ·

خذ ادهش الحيوانات المفترسة ، واسمّ الحشرات القتّالة ، فلا ترى بين تلك الانواع ما تشاهده من حين لآخر ، ما بين « الانسان ! » ·

هل رأيت ، أو سمعت ان ثلاثمائة الف افعى ، وقفت تجاهها مثلها ، وتقلبت بينهم الانياب واقتتلوا ، أو قتلوا بعضهم بعضاً ؟ أو العقارب ؟ ·

أو هل وقفت الاسود صفوفاً ، وتناهشت لحوم بعضها بعضاً ، وسالت دماؤها ؟ — أو الحمير فعلت مثل ذلك ؟ كلاّ ثم كلاّ ·

اذاً — فالانسان في مدنيته الحاضرة ، وفي مكتسباته العلمية ، والأدبية ، والعملية ، وفي بذل ثمرات سعيه في سبيل الحروب ، أو استثمار ثروته منها ، وفي مرضاة موقدها ، أو رضائه عنها ، ووقوفه فيها تلك المواقف التي لا تقفها الحيوانات ، ولا الحشرات — فهو احط منها — وليس ثمة مدنية ، ولا علم ، بل جهل ، وتوحش ·

ثم قال :— « قرأت في القرآن أمراً — تغلغلت في فهمه روحي ، وتنبهتُ اليه بكليتي وهو :« وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ··· »

فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ، ولهذه المشيئة الربانية — إذ علمت ان ذلك الخليفة ، سيكون الانسان — وان ذلك الانسان - الخليفة — سيصدر منه موبقات ، وسيئات ، اعظمها ، واهمها انه « يسفك الدماء » .

فقالت بملئ الحرية ، المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الأنوار والارواح — الذي لا يصح ان يكون هناك شيئ من رياء ونفاق « أتجعل فيهـا من يفسد فيها ويسفك الدماء ...» .

ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن في الانسان ولم تذكر باقي السيئات من اعماله — إذ رأتها لغواً بالنسبة لهذين الوصمين — الفساد وسفك الدماء ! — لذلك برزت بهما حجةً ، واتخذتها برهاناً على اعظام جعل الانسان (خليفةً) وفيه ذلك الاستعداد للعمل بالرذيلتين .

وهنا اول ما يتبادر للذهن ان قول الملائكة هـذا اتي اعتراضاً على المشيئة الربانية ، وفيه من عدم التأدب مع الله ما فيه — وهم اولى الخلائق بالتأدب ، ومعرفة عظمة الخـالق — وقد جاء في حقهم انهم « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ومتى صح هذا — كان الأقرب للصواب ان الملائكة ارادت ان تعلم ما اعده الله لصون الانسان (وقد جعله خليفة له في الارض) عن الفساد وسفك الدماء .

يدلنا على ذلك قوله تعالى « اني اعلم غيب السموات والارض الآية»

وبابسط المعاني ان الله تعالى افهم الملائكة - انكم علمتم ما في خليفتي في الارض وهو الانسان من الاستعداد لعمل الفساد ، وسفك الدماء—

وجهلتم ما اعددته لصونه ، وصرفه عن الاتيان بالنقيصتين المذكورتين — الا وهو « العلم » — .

فقال : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني باسماء هؤلاء ان كنتم تعلمون — قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا انك انت علام الغيوب — قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال أَلم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض .. الآية »

فلا تثريب على من يقول ان الله اراد بهذا ان يقول للملائكة : « ايتها الملائكة انني قد علّمت آدم « خليفتي في الارض » علماً جهلتموه انتم .

وان بذلك العلم يصان الانسان ، ويكف عن الفساد ، وسفك الدماء — فلا يحدث من خليفتي ما خشيتموه ، واعظمتم امره (وذلك الصون للانسان حصره (بالعلم ؟) .

وجاء في القرآن تعظيم قدر العلم الصحيح (لا ما نراه من القشور فنسميه علماً) بمثل قوله تعالى «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ومثل « لا يعقلها إلاّ العالمون »

فترى حكم المساواة في القرآن قد جاء عاماً بين الناس — إلاّ في هاتين الآيتين — إذ منع في الأُولى (المساواة بين العالم والجاهل) وفي الثانية (ان يكون غير العالم عاقلاً) .

فما تقدم يفهم ان العلم الصحيح الذي يمكن للآدمي ان يصل اليه هو العلم الذي به ينتهي الانسان عن الفساد في الارض ، وسفك الدماء — .

والعلم الذي لا يصون الانسان عن هذين النقصين ليس هو بالعلم

الذي تعلمه آدم ليدحض حجة الملائكة على انه سيفسد، ويسفك الدماء — بل هو يناقضه ويشهد على ذلك النقيض ما نشاهده اليوم في اوروبا، والعالم المتمدن مما جعل رقيهم النسبي في المكتسبات العلمية؟ نقيضاً للبرهان

ولا بد ان يصل العالم الانساني الى درجة من حقيقة العلم يمتنع بها عن اراقة دماء بعضهم بعضاً — وليس بين القاتل والمقتول لا نزاع، ولا خصام حتى ولا تعارف بالوجوه، بغير صفوف القتال = يساقون للمزاجر لأرادة ملك، مسرف مغرور، أو تهويل افراد يقبضون على زمام الاحكام، ويسوقون الخلق للقتل كالانعام= يغتنمون فرصة الحرب ليكنزون من ورائها الذهب والفضة.

ثم قال: = «ان الانسان لتعروه الدهشة عندما يرى افراد الامة يسوق بعضهم بعضاً للثكنات، فصفوف القتال = وجلّهم غير راضٍ عنها بل نافراً منها = إذ يعلم ان من ورائها يتمَ الأطفال، وموت الشيوخ، وهتك الاعراض.

يهولون عليهم، ويستهوونهم باسم «الوطن».

والوطن بقاع من الارض — ولو انصف الناس بعضهم بعضاً لوسعتهم — وما فضل الارض الا انها تتحمل اثقال البشر يمرحون فوقها، ويقتتلون عليها وهم لها في الاخير تاركون — والى جوفها داخلون — فما أحرى بالانسان ان يعيش مع اخيه فوق اديمها — وهو رفات العباد — بصحيح الاخاء، وشيء من الهناء — ريثما يدرك الجميع الفناء —.

ومما يزيد في الدهشة والحيرة، ان الحروب وويلاتها لا يحتاج في

توقيفها وابطالها إلاَّ توقف الأُمة عن اجابة الداعي اليها ، وطلب الرجوع الى العدل المطلق مع تحكيم الانصاف المحض — فاذا فعلت ذلك كل أُمة (ولو اهاجها ملكها ، أو هوّل عليها اميرها ، أو وزراؤها ، ورؤساؤها) فبمن يقاتلون ؟ والأُمة محجمة عن الحرب ، لا ترضى بالقتال ، وتطلب تحكيم العقل والعدل — وهل يرى المسيطرون غير ترك الطمع مخرجاً من ذلك الموقف الحرج ؟ وهل يستطيعون غير ترك الضعفاء يأخذون حقهم بقوة الحق — بلى = لا ينقذهم غير ذلك .

نعم ان عدم اجابة الامم لداعي الحرب ، واتفاقها على تحكيم العقل والعدل فيما فيه يختلفون — هو الذي يكفي البشر شر الحروب والقتال ، ويجعل الخلق في سلام دائم ، وهناء مقيم .

هناك يصح ان يقال :— ان البشر ، أو بني آدم — قد تعلموا ، وحصل لهم مكتسبات علمية ، أو على اصطلاحكم « تمدنوا ! » ليس بمعنى انهم تركوا القفر ، وعمروا المدن وسكنوها — كلاً — بل بصحيح العلم الذي انما يكون له قدراً على نسبة ما يترتب عليه من الفائدة .

ثم قال : واعظم ما يبعث على الأمل في ابطال الحروب إذا ارتقى العالم الإنساني في حقيقة العلم ، وعم طبقاته — انك لو اخذت اليوم عموم عساكر بريطانيا ، وتخيلتهم حقيقة مثل « نيوتون » و « دروين » وغيرهما ، وفرنسا مثل « باستور » وامثالهم من باقي الامم فهل يقفون صفوفاً للاقتتال — لعدم احترام سفير ، لأن كرسيه وضع في المأدبة الملوكية في غير الموضع الذي يريده — وهل يريقون دماء مئات الألوف من تلك الأنفس الزكية

لذلك، أو لاجل بقعة من الأرض يطمعون بضمها للملكة، أو ليستعمرونها"
قال « لا اظن ! ولا تظنون ذلك، ولا هم يفعلون .

﴿ قوله في دعوة الاسلام وكيفية انتشاره وان الدين لا ينبغي ولا يصح ان يخالف الحقائق العلمية ولزوم الرجوع الى التأويل ﴾

قيل لجمال الدين بعد ان انتهى من إفاضته في بحث الحروب ولزوم ابطالها على نحو ما سبق :

إذاً ما معنى قوله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله ... الآية . »

وآية السيف التي نسخت ثلث القرآن تقريباً ؟—

والأمر الصريح في الجهاد ؟

قال : — « هنا فرق عظيم بين ما نراه من الحروب اليوم وبين الجهاد في سبيل الدعوة الدينية — والقصد منها ارجاع الخلق الى الحق — ذلك الجهاد الذي ما عمل به الاسلام فوراً ، واعتباطاً من غير تدريج .

« جاء محمد (صلعم) بالاسلام والقرآن بعد ان تقدمه موسى (ص. ع) بالتوراة . وعيسى (ص . ع) بالانجيل .

فلم يمض على بني اسرائيل دهر طويل بعد موسى حتى تلاعب الكهنة والكتبة ، والفريسيون باحكام التوراة ، وبكثير من اساسات الناموس الموسوي فجاء عيسى مصلحاً ما اختل ، ومداوياً ما اعتل ، ومتمماً لما انقص.

من ذلك الناموس — وأدلى بالانجيل — وفيه وفي التوراة «الهدى» وما يلزم للخلق من الإرشاد !

ولكن لم يمضِ كذلك حين من الدهر حتى ظهرت الاضطرابات الدينية والفرق — من صائبة ، ويعقوبية وغيرهما — وساء الكثير من الناس فهم اقوال المسيح الروحانية العالية ، والتصوفية المحضة

وظهر في العرب ما هو اشد وطأة إذ استفحل بينهم امر عبادة الاوثان وطمت الضلالة ، والغواية ، وعمّت الاعمال البربرية عموم القبائل العربية حتى لم يستثنَ منها فريق ولا قبيل .

تلك الأعمال التي تقشعر منها الابدان — كوأد «دفن البنات أحياء وما اشبه — وباقي الضلالات من العبادات ، وتعدد الآلهة من هبل اكبر ، وعزّى واللاّت ، ومناة ، وغير ذلك .

فجاء محمد (ص . ع) رسولاً مصدقاً لصحيح التوراة والانجيل — داعياً الى الله ، وتوحيده ، مرشداً للخير أميناً — بشريعة سمحاء تكفلت لعموم الخلق بكل سعادة ، مادية ، ومعنوية — مقبحاً للشرك بألا آله ، والمشركين به ، مظهراً بطلان ما يعبدونه من دون الله — بقرآن معجز ، وحجج بالغة — مثل قوله ، «قل أفتخذتم من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . . الآية»

ثم قال :

« أما آية السيف فقد قلتم انها نسخت على وجه التقريب (ثلث القرآن) وهذا الثلث إنما كان كله لطف ، و يسر ، وأمر بالمعروف ، ودعوة الى وحدانية الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ومباهلة ، وتحدي ، وجدال بالتي هي أحسن ـ ينطوي تحت كل هذا مطلب واحد ـ وهو توحيد الله وعبادته ، وترك عبادة الأوثان ، وقبول الهداية ، واستئصال الضلالة. حتى اذا ما ذهب كل ذلك اللين ، واللطف ، والدعوة بالحكمة ، والمواعظ الحسنة عبثاً — في سبيل قبول الهداية — وفيه نفعٌ شامل.

وبرز المخالف مصراً على الضلالة ، مقاوماً — وفي ذلك ضرر عام للمجموع — عند ذلك وقف الإسلام في وجه المشركين من العرب ، وأنذرهم بانه لا يقبل منهم الاَّ « الايمان » بالله وحده = وتحطيم « الأوثان »

وما أشدّ ما لاقاه محمد (ص.ع) ومن آمن به = من كفَّار قريش ، ومن عشيرته ، ومن عموم العرب — من انواع الاضطهاد ، والإستهزاء ، والعذاب = مما يطول شرحه وما هو معلوم عند العموم.

أما أهل الكتاب (وهم الموسويون والعيسويون) فقد خيرّهم الأسلام أحد أمرين.

أما الاشتراك باداء الجزية وفيه صلاح الأمر الدنيوي للكافة = (والمقصد الأعلى من هذا ـ صون النفوس ، وعدم سفك الدماء ، بقليل من مالٍ يؤخذ فيصرف في المنافع ، والمصالح ، وفي تعزيز قوة المجموع = وكذلك يدخل به مع القوم الى ساحة مساواة حقيقية ـ له ما لهم وعليه ما عليهم ـ (ولا اكراه عليه في دينه بل يكون مصاناً في شعائره ، وأصول.

عباداته ، وعاداته من كل أذى)

وأما ان يختار الاسلام فيشارك القوم في العاجل من دنياهم ، وسلطانهم — وفي كل ما حوته أخراهم من نعيم مقيم ، وجنات تجري من تحتها الأنهار

والغرض الأسمى في الحالتين — كما ترى هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الإلهي من الهدم جذافاً — بل تجسم فيه طلب الهداية لعبادة إله واحد ، وتأسيس العدالة ، وتوزيع الحق بمطلق المعنى.

لذلك ترى ان كل مصرٍ ، أو قطرٍ دان بالاسلام ، أو دخل في حوزته خيمّ فوق ربوعه السلام ، ورتع أهله في بحبوحة من العدل المطلق وساد فيه الأمن والأمان ، وحصلت المساواة على أصح وجوهها ، ونمت الخيرات بينهم ، وفاضت البركات — باعتراف كل منصف غربي مثل اللورد (اسبنسر) و(كارليل وغيرهما — ممن قالوا الحق ونطقوا بالصدق ·

وهذا كله — لا يشبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التي يشب ضرامها لتوسيع نطاق البلاد بالالحاق ، أو بالاستعمار وبالنتيجة استعباد العباد تحت تلك الوسائل ·

يتوهم الكثير ممن لا وقوف لهم على الحقائق — أو من يكابر بالمحسوس — ان انتشار الدين الاسلامي فيما انتشر فيه من الأمصار ، والأقطار إنما تمّ بعامل القهر ، والسيف ، وسطوة الجيوش · ولكن إذا نظرنا الى الحقيقة بعين الإنصاف — رأينا ان من ظهور الإسلام في مكة — الى الهجرة للمدينة « يثرب » الى أن عم الاسلام جزيرة العرب باسرها — لم يحصل بغير غزوات معدودة ، وسريات محدودة — بطش الإسلام بها في الكفّار من

قريش كوقعة بدر ، وأُحد ، وحُنَين ، فذلت اشد القبائل العربيـــة ، ودانت بالاسلام وعمّ الفتح باقي الجزيرة ، وتناول اليمن بدون قتال ، بل بالدعوة والارشاد فقط ·

ثم اذا أخذنا مـــا تجمع للخليفة الاول ابي بكر ، وللخليفة الثاني عمر الفاروق (ر٠ض) — من الجيوش وما بعثوه من المجاهدين — وعلمنا أن مجموع الجيوش الاسلامية في العهدين لم يتجاوز الاربعين الفاً ، وقسنا مـــا دخل من الممالك في حوزة المسلمين ، ومن دان بالاسلام (من قطر الشام ، وفلسطين ، فحلب ، فالعراقين ، فمصر وممالك الفرس ، وغيرهم الى جدران الصين — تبين وتحقق لنا ان عمل الجهاد بالسيف لم يكن ليذكر فـــي جانب الدعوة بالحكمة ، والأخذ بالعدل المطلق ، والمثال الحسن ، والقدوة الصالحة) وما فتح من البلدان ، والامصار صلحاً اكثر بكثير مما فتح عنوةً وحرباً ·

واما قوله تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيـــل الخ ٠٠ الآية » ليس لسفك الدماء كما يظهر من صريح الآية بنهايتها حيث قال « ترهبون بها عدو الله وعدوكم ٠٠ الآية» فالأمر باعداد تلك القوة لم يكن ليقصد منها الاّ «الارهاب» فقط ليتقى بها سفك الدماء ٠ وليخشاها طلاب الحروب ، ويمتنع قتل النفوس ·

فتوفير العدد والعدد ، وارصاد القوة على مطلق المعنى اذا كان القصد منه «الأرهاب» وليس سفك الدماء كما هو الظاهر والواقع — فهي افعل الوسائل لمنع الحروب ·

«فمولتيكي» قائد الالمان قال ما معناه (أبطال الحرب لأبطال الحرب)

والقرآن جاء بذات المعنى قبله بالف وثلاثمائة عام — بدليل ما مرّ من حصر القوة بمطلق معناها للارهاب فقط .

فالقرآن وتعاليمه ، ودين الإسلام ومن دانَ به ، والسيرة المحمدية ومن عمل واقتدى بها من الأصحاب لو أمكن للناس ان يعملوا بها ، لتوفرت لديهم السعادة وانواع الخير ، ولخف عنهم كثير من الويل والشر .

اقول هذا — وعزة الحق ! — وانا غير متحيزٍ ، ولا منتصرٍ للاسلام عن غير هدىً ، ولا يداخلني بمعتقدي هذا ادنى عامل من عوامل التعصب .

لذلك اقول ثم اقول — القرآن ؟ القرآن واني لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه « الكنوز » وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون على الفقر المدقع !

خالفوه في كل ما أمر ، وعملوا عكس ما قال — حتى كأنما القرآن أمرهم بالاختلاف ، وحذرهم من الائتلاف ، وحثهم على انتقاضهم على أنفسهم ، وتشتت كلمتهم ، وان لا يعتصموا بحبل الله جميعاً ، بل يتفرقوا ليفشلوا وتذهب ريحهم ! ! ؟ .

أو كأنه قال — لا تتدبروا معاني القرآن لتفهموا ، وتعملوا بما يؤول لخير دنياكم قبل أخراكم .

وكيف لا أقول واأسفاه ! — واذا نهض احد لتفسير القرآن فلا أراه إلاّ يهيم بباء البسملة ويغوص ! ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوي هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية (مع استكماله الأمرين

على أتم وجوهها .

عمّ الجهـل ، وتفشى الجمود في كثير من المتردّين[1] برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بانه يخالف الحقائق العلمية الثابتـة = والقرآن برىء مما يقولون .

أثبت العلم كروية الارض ، ودورانها ، وثبـات الشمس دائرة على محورها . فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لا بد من ان تتوافق مع القرآن — والقرآن يجب ان يُجلّ عن مخالفتـه للعلم الحقيقي ، خصوصاً في الكليات .

فاذا لم نرَ في القرآن ما يوافق صريح العلم ، والكليات — اكتفينا بما جاء فيه من الاشارة ، ورجعنا الى التـأويل — اذ لا يمكن ان تأتي العلوم ، والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة ، وهي في زمن التنزيل — مجهولة من الخلق ، كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود .

ولو جاء القرآن ، وصرح بالسكة الحديدية ، والبرق ، وما تفعله الكهربائيــة من الغرائب وغير ذلك = لضلّت الناس ، وأعرضت عنه ، وحسبته كذباً .

لذلك نراه قد جاء بالاشارة الى كل ما هو حادث اليوم ، وما هو ممكن أن يحدث في مستقبل الزمن ، مع مراعاات عقول الخلق ، وتقريب الاشياء للأذهان عن طريق نظرهم ، وقابلية فهمهم .

❋ فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير الممالك وأُصول الحكومة ❋ الشورية ووظائف الملوك الخ والإشارات الى مقدمات العلوم والفنون الحديثة

نعم — ان تدبير الممالك وصونها من سلطان أو ملك يطغى بقوته — بالحكمة ، وحسن الرأي — واصول الحكومة الشوروية ، والمشاورة ، ودعوة الأُمة للتداول ، ووظائف الملوك ، ومساويهم ، وما يحدثونه إذا دخلوا بعساكرهم للمدن ، والقرى من المفاسد ، وإذلالهم اعزة القوم ، وصلاحية الملوك في إعلان الحرب بعد اخذ رأي الأُمة ، وأُصول مفاوضة الملوك مع دهاقين المملكة ، والأشكال النافعة من التجسس ، ومعرفة احوال الممالك المجاورة وغيرها — كل ذلك مسطور في القرآن — في صورة النمل — باصرح عبارة ، وبآيات وجيزة ·

واليك البيان :

غضب سليمان (ص ٠ ع) على الهدهد أذ تفقده ولم يجده ، فلما حضر قال « جئتك من سبأ بنبأ يقين = (غير ملفق ، ولا مشوب بكذب كما تفعل اكثر الجواسيس مع الملوك والحكام) = «اني وجدت امرأة تملكهم وأُوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » = دينهم ومعتقدهم = « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ·

فلم يتسرع سليمان بقبول نبأ الهدهد هذا بل قال «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين» · ثم اعطاه كتاباً ليوصله ، واوصاه ان يترقب عن بعد

ما يفعلون ٠

فلما جاء الكتاب الى ملكة سبأ جمعت فوراً مجلس الامـة و « قالت يا ايها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون»

وبعد ان تداول مجلس الامة (الوزراء اليوم مثلاً) واستخرجوا أحصاء من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية ، أعلنوا الملكة وانبأوها انه في امكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة اذا هي وافقت على اعلان الحرب = « قالوا نحن اولي قوة وأولي بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين » ٠

فقالت ما معناه : ان للحرب ويلات فلا ينبغي ان نتسرع باعلانها بل نحاول درأها بما أمكن من التدابير ، والوسائل السلمية والتودد ، واللين الى غير ذلك عسى ان نتخلص ، ونخلص البلاد من رزايا دخول الملوك بعساكرهم وما يحدثه ذلك = « قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها ٠ وجعلوا أعزة اهلها أذلة وكذلك يفعلون » = «واني مرسلة اليهم فناظرة بم يرجع المرسلون» ٠ وكأنها اسرت في نفسها قائلةً ـ اذا قبلوا الهدية ، علمت ان مطمع سليمان بالمال وليس للايمان بالله وتوحيده ٠

فردّ سليمان الهدية ، وتحفّز لأخراج الملكة وقومها اذلة بالحرب واراد ان يريها ما لديه من القوى ، وما تسخّر له من رياح يمتطيهـا وتجري بأمره (طيارات) مثلاً = وسرعة نقل الاخبار والاشياء باسرع من البرق (التلغراف اللاسلكي) مثلاً ٠

وجدنا في ذلك القصص ان بتلك الواسطة التي توفرت لسليمان ، وبها

نقل عرش بلقيس من سبأ الى القدس قبل ان يرتدّ اليه طرفه جاءت صريحة بالعمل مبهمة عن الآلة العـاملة = اذ لم يكن بالامكان للقرآن ان يصرح بشكلها او باسمها لبعد ذلك عن الاذهان في ذلك الحين ·

وكذلك لو جاءنا القرآن بنقـل الاخبار بالفضاء وشرح لنا ما فهمناه اليوم لما صدقنا ذلك لو لم نرَه (باللاسلكي) ·

وهكذا العلم لا يعجز عن احداث ما نظنه اليوم مستحيلاً ، وابرازه مرئياً = فالبشر في الهيكل الترابي قد تحدد له ما يستطيع عمله به ، وانما في قوة روحه ، وبحبوحة عقله ، لا ندري الى اين يصل ، واي المستحيلات اليوم لا يمكنه ان يجعلها ممكنة ، فنراها بسيطة بعد ان كنا نعظم تخيلها ·

وفي قصة الهدهد اشارة دقيقة جداً وهي := عندما اراد سليمان استحضار عرش بلقيس استعرض ما عنده من وسائط النقل السريعة ، وار بابها، واستبرزهم ما عندهم من ذلك — (فقال عفريت من الجن انا آتيك به قبل أن تقوم من مقـامك)· فرأى السيد سليمان (ص·ع) ذلك بطيئاً فلم يرق له· فتقدم عند ذلك غيره و (قال الذي عنده علم الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك)·

فعلمنا من تلك الاشارة ، او الصراحة ان واسطة نقل الاشياء بسرعة لا يتخيلها وهمنا اليوم ، كانت علماً مدوناً بكتاب ، وله ارباب ، وذوي رسوخ فيه ، وتمكنٍ ، وقدرةٍ عليه على غير طريقة الارواح التي يتم لهم بها خاصة التطور ·

وها علماء عصرنا اليوم قد انتبهت الى عمل الروح ، واستخدامها بالتنويم

المغناطيسي (اسپيرتيزم) و (هپنوتيزم) هذا العلم اذا لم يتوقف البحث فيه بل سار متقدماً بالتجارب، والتمحيص لا يبعد ان يأتينا من المدهشات والغرائب بما لم يكن بالحسبان بل ربما يحقق لنا ما سبق القرآن بالاشارة اليه كما ذكرنا

اما كروية الارض وهي من الحقائق العلمية فقد اشار اليهـا القرآن بقوله «والارض ودحاها» — والدحي — بلغة العرب (البيض) او الشكل البيضي — وهو الكروي أو الأقرب اليه ·

فهذه الاشارة تكفي لتتفق الحقيقة العلمية مع القرآن، او نرجع بالتأويل ليتفق القرآن مع الحقيقه العلمية لا ان يختلفا ·

واما ثبات الشمس، وانها تدور على محورها — فقـد اشار الى ذلك بقوله «والشمس تجري لمستقرٍ لها··» والجري والدوران بمعنى واحد، و كذلك المحور والمستقر — فلا تثريب على من يستنتج — ان الشمس تجري على محور لها — هذا اذا كانت الحقيقة العلمية ما ذكرنا (من دوران الشمس على محورها) فالقرآن يكون قد اشار اليها وما خالفها ·

ووصل علماء الفلك بالبحث الى ان الارض والشمس كانتا جرما واحداً ثم انفصلت الارض كرة كما هي اليوم وكان السديم الى آخره :

فان تقرر هذا كحقيقة علمية فانا نرى في القرآن ما لا يخالفها — بقوله «كانتا رتقاً واحداً ففتقناهما» ·

واذا نظرنا مثلاً في علم الثروة رأينا ان كثيراً من المتأخرين قد ادعوا وضع قواعده الكلية، ونوه بذكر افرادهم لبراعتهم بفن الثروة ومن اعظم تلك القواعد — وجوب جباية العشر وقت حصاده، وما ينطوي تحت

ذلك من اموال يؤخذ عنها (رسوم) عند وجودها — وان من فوائد ذلك سهولة اداء الزارع ما عليه من الحق في وقت الحصاد والخ ·

فنرى ان القرآن قد سبق اولئك العلماء في فن الثروة ، وجاء بتلك القاعدة بقوله «وهو الذي انشأ جنات معروشات ، وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً اكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده ··»

وهكذا ترى في القرآن — اما اشارات الى كليات العلوم وقواعدها واما بصراحة — وقد يطول الشرح في تتبعها كلها فاجتزأنا بهذا القليل عن الكثير ، وتركنا لطالب المزيد التتبع ·

ومما اشغل العلماء كيفية فناء العالم ، والصورة التي يتم بها — فتتبعثر الارض ·

وغاية ما وصلوا اليه — ان الفناء الارضي ، وقيامتها — انما يتم باختلال النظام الشمسي ، وبالزلزال ·

وعلى هذا نرى القرآن قد اشار بل صرح بذلك بقوله « يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ··» — وبقوله — «اذا زلزلت الارض زلزالها ، واخرجت الارض اثقالها ··»

اما الاشارة الى اختلال النظام الشمسي فقد قال في بحث الساعة وعلاماتها « وترى الارض بارزة ··» اي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي ، واذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقاً والجنوب شمالاً — وبذلك الخروج عن النظام

الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم — لا شك تتبعثر اجزاء الارض لبعدها عن المركز ، وتنسف الجبال نسفاً ، وتتحول براكين هائلة ، وبالنتيجة تخرب الكرة الارضية ويعمها الفناء بما فيها من حيوان وتقوم القيامة والله اعلم .

❋ فيما سبق اليه العرب من العلوم والفنون ❋

قال جمال الدين : «أخذ المنصفون اليوم من علماء الغرب بالاعتراف للعرب ببعض الفضل بما سبقوا اليه — كالجبر — وهو من موضوعات العرب وواضعه «ابو السمح» .

والجاذبية ، والمركز [1] لم يكن المكتشف لهما (اسحق نيوتون) مع الاعتراف بفضل الرجل .

وكذلك التحليل والتركيب [2] ، واكتشاف الفوسفور [3] واستحضاره

---

(١) اكتشفها ابو بكر بن بشرون من الجيل الثالث للهجرة — وعرفها بقوله عند ذكر مركبات الكيمياء «قوة حاسة قابضة منعكسة الى المركز الارض» !!

(٢) وكذلك التحليل والتركيب من مكتشفات بن بشرون من تلميذ احمد بن مسلمة المجريطي الذي عاش في الجيل الثالث وذكر ذلك في رسالته لابي السمح في الكيمياء الموجودة في مقدمة بن خلدون تحت تعبير «الحل والعقد»

(٣) اكتشفه بن بشرون كذلك في الجيل الثالث للهجرة — والمؤرخ الالماني «هفر» في كتابه تاريخ الكيمياء يقول صراحة انه وجد في المكتبة الملوكية رسالة ترجمت الى اللاتيني لبشير من علماء العرب الموجود قبل اعصر يعرف استحضار الفوسفور من الادرار ويسميه «الياقوت الجري الاصطناعي»

واستحضار الاوكسجين من حجر المغنيسيا [١] ، ووصفهم لغاز الاوكسجين والدلالة عليه بخاصته انه غاز حساس — وكذلك الايدروجين وخاصيته وان الواحد منهما لخاصته يطفئ الاجسام الملتهبة، ويصعد مرتفعاً — والثاني يلهبها وهو احط من الاول ·

وحامض الآزوت [٢] ـ وحامض الكبريت [٣] ـ والكبريتي وغيرها من عمادات مباحث الكيميا ـ كل ذلك من مكتشفات العرب ·

وكان الأساتذة في علم الكيمياء للجيل الثالث للهجرة احمد بن مسلمة المجريطي ، وتلميذه بن بشرون ، وابي السمح وقد تقدمهم مثل جابر بن حيان الحراني ، ومن بعدهم زكريا ابو بكر الرازي وغيرهم

❋ أدلة جمال الدين على أن الكيمياء قد تتم بالصناعة — وتفنيده ❋ لأدلة بن خلدون

قيل لجمال الدين : ان المجريطي ، وتلميذه بن بشرون ، وابي السمح

---

(١) وهو من مكتشفات ابن بشرون وعرفه بخاصته في الرسالة المار ذكرها لابي السمح وتعبيره عنها (بروح حساسة اي غاز)

(٢) حامض الازوت وهو من مكتشفات جابر بن حيان الكوفي ولم يستطع الغربيون انكاره او ادعاءهم اكتشافه · وجابر عاش في الجيل الثاني للهجرة وفي العصر الثامن للميلاد يعني قبل الف ومائة سنة تقريباً

(٣) اكتشفه ابو بكر محمد بن زكريا الرازي المولود في مدينة (الري) في بلاد العجم سنة ٢٤٦ وتوفي سنة ٣٢٩ وعرف استحضاره وذكره في كتابه (الحاوي) في فن الكيمياء باسم (روح الزاج) وانه بتقطير (زاج قبرس) التي هي (كبريتيت الحديد) يستحصل حامض الكبريت الذي هو اهم الحوامض والزمها وانفعها في الصنائع

ورد ذكرهم في مقدمة بن خلدون في بحث الكيمياء — فما رأي الاستاذ في هذه الصناعة ؟

قال : أمَّا احمد بن مسلمة المجريطي — وهو من انتهت اليه الرياسة في مختلف العلوم في الاندلس (في الجيل الثالث للهجرة وما بعده) فما كذب في قوله «ان الكيمياء ثمرة الحكمة» وأنها «تتم بالصناعة» اي يتم عمل المعادن الخسيسة ، وترفيعها للذهب ، او الفضة (صناعةً) .

أقول هذا لا تقليداً للطغرائي ، ولا لأني عانيت هذا الأمر ، أو أُشير على احدٍ ان يعانيه ، أو يُولع به — وليس ذلك لاستحالته كما يتوهمون بل لعدم توفر اسبابه العلمية ، والفنية ، وعدم وجود الأستاذ فيه —وشغف الخلق في معدن الذهب معلوم — الأمر الذي يذهب معه كل عقل ، ودربة .

فيحاول المولع لاقتطاف ثمرة الحكمة بمحض الجهل ، والتخبط بتجارب وامور لا تثمر الاَّ الخيبة .

أما براهين ابن خلدون في أنكاره على المجريطي وابن بشرون قولهما بصحة الكيمياء ، وموافقته لأستاذه — التلفيقي — وحكمهما باستحالة صحتها (الكيمياء) ـــ لم يكن بالاستناد منهما الى علم ـ بل جل برهان بن خلدون واستاذه ـــ ان رسالة بن بشرون في الكيمياء من قبيل الالغاز ، ومعانيها لا تكاد تبين ! ! مع ان الرسالة بكافة الفاظها ، ومعانيها صناعية محضة ، وفنية صرفة .

وعلم الكيمياء له اصطلاحات خاصة يفهمها من يعاني ، ويدرس ذلك العلم .

ولما كانت الكيمياء ثمرة الحكمة والعلم كما صرح به المجريطي ــ كان فهم ما يكتب في شأنها عويصاً ــ يحتاج الى تحقيق في النظر ، وممارسة في العمل ·

ولم يدّع ابن خلدون او استاذه التلفيفي انهما عانيا هذا الفن ولا هما فنّدا ما ورد في الرسالة عن طريق علمية ، أو أتيا بالحجج والبرهان ·

بل غاية ما قالاه كما سبق (أن الرسالة لما كانت من قبيل الألغاز او لا تكاد تبين فهي اذاً لا تتم ــ يعني الكيمياء ــ الاً بالسحر أو بأرفاد مما فوق الطبيعة) ·

مع ان الرسالة كما قدمنا صناعية ، فنية صرفة تنطبق في معانيها على فن الكيمياء الحديث — المأخوذ بدون شك عن جهابذة العرب — اولئك الأعلام الذين وصلوا من كل فن الى الغاية منه خصوصاً فيما نحن في صدده (الكيمياء)

ولا بد ان يأت زمن ــ ان دام الحال على هذا المنوال — من البحث والتنقيب ، والتجربة ، ان يتوصلوا الى فهم حقائق هذا الفن الجليل واقتطاف ثمراته ·

قلنا ان علم الكيمياء قد اخذه الاوروبيون عن العرب بشكل ناقص لغريب اصطلاحاتهم فيه ، والتزامهم التعمية بأكثر مباحثه لانه لم يكن قصدهم منه ترقية الصناعة ، وايجاد الاصباغ ، والاجزاء الكيماوية على نحو ما فعل الاروبيون بعلم الكيمياء ، بل كان غرضهم (العرب) عمل الذهب بالصناعة ومع كون اوروبا لم تعتن، ولم تهتم الا بقشور ذلك العلم وهي مقدمات

لنتيجة – فقد قامت تلك القشور لدى الغربيين مقام تحويل المعادن الخسيسة الى الذهب بدليل ما انتفعوا بها في شعبات الصنائع والتجارة ·

ثم ان ابن بشرون – في رسالته لأبي السمح – قد دل بأشارة ، وبتعبير خاص على المادة التي يمكن بها العمل – وهي ما يسمونه باصطلاحهم (الحجر الفلسفي ، او المكرم ، او حجر الحكمة) – وانصف كل الانصاف بقوله « ان معرفة المادة وحدها لا تفي بالغرض المقصود ، ولا تثمر اذا لم يتمكن طالب ذلك العلم من معرفة عمادات تلك الصنعة – ومنها «التحليل والتركيب » – هذه الصراحة في اساس فن الكيمياء وجدت مسطرة في رسالة ابن بشرون العربي قبل الجيل الثالث للهجرة وبعده – وعلماء اوروبا يدعون بدون محاشاة او مبالاة – ان المعلم لافوازية – هو اول من تنبه فاثبت التحليل ، والتركيب !

نعم ان ابن بشرون لم يذكر بلسانه العربي لفظة «تحليل» و«تركيب» بل قال « الحل» و «العقد» ـ وهو الأصح فناً وفهماً ·

ثم ذكر ابن بشرون بعد التحليل والتركيب – أو بعد الحل والعقد عماداً آخر – وهو « التقليب» وفسره بقوله تقليب الشيء من جوهره الى جوهر غيره ارتقاء – قال « فالتراب يستحيل نباتاً ، والنبات حيواناً ، وأن أرفع مواليد النبات ادنى طبقات الحيوان – سلسلة تنتهي عند الانسان اذ هو آخر الاستحالات الثلاثة ونهايتها الخ» ·

وقد ذكر في معرض التحليل ، والتركيب – أو الحل ، والعقد قائلاً : اننا لو اخذنا مادة مركبة وحللناها ثم اعدنا تركيبها (وهو ما يسمى

اليوم في علم الكيمياء الحديث « اصول سانتاژ » يستحيـل ان ترجع تلك المادة الى ما منه تركبت — لتبادل اجزائهـا الفردية ، واتحادها مع بعضها على القانون الفني — الذي كان بلا ريب معروفاً عند علماء العرب ·

وقد صرح ابن بشرون ايضاً بامكان حصول جسم ، مستقيم ، معتدل ـــ بالتفاعل الكيماوي طبعاً ·

وهذا هو المفهوم اليوم عند من درس مقـدمات الكيمياء ، وعلم — (ان الاساس مثل «البوتاس» مثلاً) اذا تعـامل مع حامض الازوت فعلى التـدريج تذهب خاصة الاساس وخاصة الحامض ـــ ويحصل هناك جسم معتدل ليس هو بالاساس ولا بالحامض ويسمونه « ازوتيت البوتاس » لا يؤثر على الترنسول ، ولا على ما هو اشد منه احساساً ·

هذا نوع من انواع ما يسمونه علماء العرب الاقدمين «التقليب» فمن لم يدرس ذلك الفن ، ويعلم اصوله ـــ يتوهم لا شك كما يتوهم بعض المغاربة الطوافين في الارض ، الذين يموهون على السذج من الخلق (بعلم الكيمياء) ويفهمونهم ان « التقليب » عبارة عن قص أوراق على شكل الدينار ، والدمدمة عليه ، وحرق البخور ، والعزائم ـــ فتنقلب الورقة ديناراً ! !

فاين هذا من اقوال ، ومقاصد ابن بشرون ، واستاذه المجريطي ـــ اللذان وصلا بلا ريب الى الغاية ، والثمرة المطلوبة من هذا الفن ·

ثم ذكر بعد التقليب ـــ عماداً آخر هو « التنشيف » ·

وهذا العماد غاية في الأهمية ـــ ويكفي انه لا يتم الأمر بدونه مع استكمال شروط العمادات الأُخر ·

وقد ثبت في الفن الحاضر ان التنشيف ، أو التجفيف — فعلى انواع .

فمن المواد ما يسمونها صابونية لا يمكن تنشيفها بالهواء ، ولا بالشمس ، ولا بالحرارة — لأنها لو وضعت على حرارة مهما كانت درجتها خفيفة ، او معتدلة ، أو شديدة (وهي تحت تماس الهواء) فلا تجف — لتواصل امتصاصها ما في الهواء من الماء .

فلذلك يراجعون في معالجتها انواعاً كثيرة من اصول التجفيف ، او التنشيف .

منهـا ما يضعونه في ناقوس من زجاج ضمنه حوض فيه حامض الكبريت الصرف — وفوق الحوض او الأناء تلك المادة التي يراد تنشيفها — فتوضع على لوح من زجاج تطلى اطرافه بمادة لزجة يوضع عليها الناقوس لمنع الهواء من الخارج .

وبتلك الطريقة يمتص حامض الكبريت ماء الهواء ورطوبتـه (لشدة حرصه) على الماء ، وبالتالي يمتص ما في المادة من ماء ، ورطوبة — فيحصل تجفيفها .

والنوع الثاني للتجفيف — وهو وضع المادة تحت مخلية الهواء وتوالي استعمالها حتى تجف وتنشف .

والنوع الاخير وهو لم يذكر فيما طالعته من كتب الكيمياء الحديثة ، وانمـا وجدته في كتب القوم (اي علماء العرب) وكان ذكرهم له من قبيل الاشارة اذ قالوا بعد البحث فيما للحرارة والبرودة من التأثير — ذلك البحث

الدقيق — بقولهم « مادة[١] حساسة » استحضارها يكون من برادة النحاس بعد اخراج سواده حتى يصير نحاسياً ، ومعاملته بحامض الكبريت (الزاج) الخ

ولا نرى هذا الوصف ينطبق على غير الحامض الكبريتي الذي يعمل بواسطته الثلج اليوم لشدة برودته بتبخره السريع

ثم ذكر من العمادات « التنقية » لمنع المادة من الفساد وتطهيرها من دنسها ، واخراج آفتها منها ·

وهذا معروف بالفن الحاضر « بالتطهير » ومواد التطهير كثيرة — منها الكحول الصرف — والاوكسجين (مولد الحموضة) وقد رجحوه على الكلور لحفظه المادة العضوية من غير تخريب ، ويفيد بالتبييض اكثر من فائدة الكبريت ايضاً ·

ثم ذكر « التكليس » في عداد العمادات المهمة — فمن التكليس ما يتم بالاحتراق تحت تضييق الهواء النسيمي ومنه ما يحصل بتفاعل الحوامض الخ

فمن هذا كله نعلم — أن علم الكيمياء لا يمكن الحصول عليه الا بالتعلم الصحيح ، والنظر الدقيق ، والتجارب المتمادية عند فقد الاستاذ ، وبالاجمال — فالكيمياء صنعة من ادق الصنائع ، وفن من اجل الفنون — ولا ريب انه ثمرة العلم والحكمة (كما قالوا حقاً)

ان بن مسلمة المجريطي ، وتلميذه ابا بكر بن بشرون قد صرحا بان معرفة الحجر ، او المادة التي يمكن العمل بها غير كاف وحده اذا لم تكن

---

(١) كذلك في رسالة ابي بكر بن بشرون لابي السمح في مقدمة بن خلدون في (علم الكيمياء)

المعرفة تامة بتلك العمادات التي هي روح تلك الصناعة ·

وابن خلدون لم يدع ، ولم يقل انه عثر على المادة، واتقن هذه العمادات «كما سبق القول» بحسب الأصول الفنية ، وانه جربهـا على ما يتطلبه العلم ولم (ينجح) ليصح اذ ذاك انكاره ويكون قوله حجة على ابطالهـا ، واخراجها من عداد الصناعات وأنها لا تتم الاً بالسحر، او بأرفاد بعالم مما فوق الطبيعة أو بالنفوس الخيرّه ، أو الشريرة — وما كانت حجته على هـذا القول الا انه وجد الرسالة من قبيل الالغاز كما مر ذكره وهكذا وافقه استاذه التلفيفي وليس لهما من برهان غير انهما وجدا معانيها «لا تكاد تبين» !!

فيا ترى لو اخذ ابن خلدون أو استاذه التلفيفي كتاب الكيمياء الحديث اليوم ورأى (كُ اً) وان ذلك معنـاه حامض الكبريت او ((ذي كُ) (انه كبريت الزيبق)·

وهو لم يدرسه او يعـاني ذلك الفن ، او يأخذه عن اهله بالتعلم — لا شك كان ينكر ذلك ويقول أنه ليس بعلم ، بل أحاجي، وألغاز ، وأضاليل بحروف مقطعة وأرقام ، — أو كان يقول انها من قبيل السحر لانها لم تبن له واضحة ، ولا لأستاذه التلفيفي كما تظهر بسائط الامور ·

ثم ان ابن خلدون قد صدّق بحالومية احمد ابن مسلمة المجريطي وهي: «طماغس بعد ان يسواد وغداس توفنا غادس» — وقال : ان تلك الكلمات ، والاسماء الاعجمية اذا تلاها الأنسان قبل النوم بعـد رياضة ، وصدق توجه فأنه يرى بها ما يحب ان يراه مما تطوق نفسه لمعرفته ·

وقال ابن خلدون ايضاً «انه رأى بها مراءِ غريبة كانت نفسه تتشوق

للوقوف عليها» ـ وبالنتيجة ـ قد قال بصحتها «وان التجربة قد اثبتتها الخ»

مع ان تلك «الحالومة» لا تنطبق على علم بأصول ، ولا على فن يحصل بالمزاولة ، والممارسة ، أو ما يقوم عليها برهان عقلي ·

من الغريب ان يصدق ابن خلدون مثل هذه الحالومية (وربما يكون تصديقه حقاً) وينكر علماً مثل الكيمياء الذي لم يقف على حقيقتـه او يثبت وقوفه عليه ، ولم يعـان أمره ، واصطلاحاته — مع اعترافه بان الكيمياء صناعة غريبة المنحى ، بعيدة التناول عن جيل البـداوة ، مفتقرة الى صحة النظر ، والتدقيق في علوم من تقدم من اليونان القدماء ، والكلدانيين قبل جابر بن حيان الحرّاني ·

ثم قال جمال الدين : هذا ما رآه ابن خلدون — وهذا ما ارتأيتـه في هذا المطلب ·

ولا يصح ان يرتاب المنصف بأن ابن خلدون من مفاخر الأَمة ، وأنه أغزر العلماء مادةً ، وادقّهم نظراً ، وأصحهم قيـاساً ، وأنفاهم للخرافات عن الدين ، وأسرعهم أخذاً بالمعقول ، وأكثرهم رداً للباطل من القول ، وأبعدهم عن التقيد بالمألوف عن غير علم بالفـائدة — وبالأَجمال — فالعالم عالة على فضل ابن خلدون في حكمة التاريخ اذ هو الواضع لها ولا منازع ·

﴿ انكار جمال الدين على من يقول بسد باب الاجتهاد ﴾

عُرف جمـال الدين باستنكافه ، ونفوره من التقليد من غير تمحيص ـــ فكان يأخذ بالأَحسن من الاقوال ، ويرد الضّعيف منها ، ويجتهد

للاستنباط للأولى ، ويتناول الأقرب للصواب ، وما يقبله العقل ٠

ذكروا يوماً في مجلس جمال الدين قولاً للقاضي عياض ، واتخذوه حجة واشتد تمسكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي بانه لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من امامه ـ فقال جمال الدين : يا سبحان الله ان القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ـ فهل لا يحق لغيره ان يقول ما هو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الائمة ؟

وهل يجب الجمود والوقوف عند اقوال اناس (هم انفسهم لم يقفوا عند حد اقوال من تقدمهم) قد اطلقوا لعقولهم سراحه فاستنبطوا ، وقالوا ، وأدلوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ـ وتتبدل الاحكام بتبدل الزمان ٠

فقيل : ـ يفهم من قول الاستاذ ان القاضي عياض أو من تقدمه من الأئمة إذا قالوا قولاً جاز لمن بعدهم أن يقول ما يتراآى له سواءً أكان مخالفاً أو موافقاً — ولا يخفى ان مثل هـذا القول يحتاج إلى الاجتهاد — وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود ، لتعذر شروطه ٠

فتنفس جمال الدين الصعداء وقال :

« ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ ! وبأيّ نص سدّ باب الاجتهاد ؟! أو ايّ امام قال لا ينبغي لاحد من المسلمين بعدي ان يجتهد ليتفقه بالدين ؟! أو ان يهتدي بهدى القرآن ، وصحيح الحديث ، أو أن يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منها ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم

العصرية ، وحاجيـات الزمان واحكامه ؟ ؟ !! . ولا ينافي جوهر النص

« ان الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه « العربي» ليفهمهم ما يريد إفهامهم — وليفهموا منه ما يقوله لهم « وما ارسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه » وقال :

« إنّا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وفي مكان آخر « إنا جعلناه قرآناً عربياً لقوم يعقلون »

فالقرآن ما أُنزل إلاّ ليفهم ، ولكي يعمل الانسان بعقله لتدبر معانيه وفهم احكامه ، والمراد منها .

فمن كان عالمـاً باللسان العربي ، وعاقلاً غير مجنون ، وعارفاً بسيرة السلف ، وما كان من طرق الإجماع ، وما كان من الأحكام مطبقـاً على النص مباشرةً ، أو على وجه القياس ، وصحيح الحديث — . جاز له النظر في احكام القرآن ، وتمعنها ، والتدقيق فيها ، واستنباط الاحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس .

ثم قال : — « لا أرتاب بانه لو فسح في أجل ابي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، واحمد ابن حنبل وعاشوا الى اليوم — لداموا مجدين ، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن ، والحديث ، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ، ازدادوا فهماً ، وتدقيقاً .

نعم ان اولئك الفحول من الأئمة ، ورجال الأُمة اجتهدوا ، واحسنوا (جزاهم الله عن الأُمـة خيراً) ولكن لا يصح أن نعتقد انهم احاطوا بكل اسرار القرآن ، أو تمكنوا من تدوينها في كتبهم — والحقيقة — انهم مع ما

وصلنا من علمهم الباهر ، وتحقيقهم ، واجتهادهم – إن هــو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم ، والحديث الصحيح من السنن ، والتوضيح إلاَّ كقطرة من بحر ، أو ثانية من دهر « والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » – وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

﷽ نفور جمال الدين من قول سني وشيعي – وان لا موجب لهذه التفرقة التي احدثتها مطامع الملوك لجهل الأُمة

قال : – « ظهر لآل البيت النبويّ في اوقات ، وأزمنة مختلفة احزاب وشيع – فمنهم من ضل (كالمؤلهة) وهم من يقولون بألوهية علي ابن ابي طالب – ومنهم (المفضلة) و(الغلاة) في محبــة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال « يهلك فينا أهــل البيت اثنان – محب غالٍ – وعدو قالٍ –

اما المفضلة من الشيعة وهم يقلدون في المذهب ألإمام جعفر الصادق وهو من أكابر فقهاء أهل البيت – فهذا الجمهور من المسلمين لمجرد تقليدهم للامام جعفر ، ومغالاتهم في حب الآل ، وتفضيلهم للامام عليّ – لا يجب ان نخرجهم من عداد المسلمين ، ونجسم امر هــذه الفروق في الفروع ، ونجعلها واسطة للتفرقة ، وللنزاع ، فللخصام ، فللإقتتال – تلك الامور التي سهل وجودها جهل الأُمة ، وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم .

فالملوك من السنيين هوّلوا ، وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العــوام بأوهام غريبة ، وعزويات عجيبة على شيعة أهــل البيت ليتسنى لهم بذلك

تحزيب الاحزاب وتجييش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً (بحجة الشيعة والسنية)) وجميعهم يؤمنون بالقرآن و برسالة محمدٍ صلّى الله عليه وعلى آله .

أما مسئلة تفضيل الامام عليّ ، والانتصار له يوم قتال معاوية ، وخروجه عليه — فلو سلمنا أنه كان في ذلك الزمن مفيداً — أو ينتظر من ورائه نفعاً لاحقاق حق ، أو إزهاق باطلٍ — فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة ، والتمسك بهذه القضية التي مضى أمرها وانقضى مع أمةٍ قد خلت — ليس فيها إلاّ محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الاسلامية .

ثم قال : — لو أجمع أهل السنة اليـــوم ووافقوا المفضلة من الشيعة (من عرب ، وعجم) واقرّوا ، وسلموا بان عليّ ابن ابي طالب كان أولى بتولي الخلافة قبل ابي بكر — فهل ترتقي بذلك العجم ؟ ! أو تتحسن حال الشيعة ؟ ! .

أو لو وافقت الشيعة أهل السنة — بان أبا بكر تولّى الخلافة قبل الامام علي بحق — فهل ينهض ذلك بالمسلمين ، السنيين ، وينشلهم مما وقعوا فيه اليوم من الذل ، والهوان ، وعدم حفظ الكيان ؟!! .

اما آن للمسلمين ان ينتبهوا من هذه الغفلة ؟! — ومن هذا الموت قبل الموت ؟ ! ! .

يا قوم ! — وعزة الحق — أن امير المؤمنين عليّ ابن ابي طالب لا يرضى عن العجم ، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة ، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر — وجميعهم لا يحسنون امر

دنياهم — « والناس ابناء ما يحسنون »

وكذلك ابو بكر — فلا يرضيه ان تدافع أهل السنة عنه ، وان تقاتل الشيعة لأجل تلك الافضلية التي مرّ زمنها ، والتي تخالف روح القرآن الآمر ان يكونوا « كالبنيان المرصوص » .

اما قضية التفضيل فلو استحقت البحث بعد تلك الاجيال لكفى ان يقال لحل أشكالها « ان أقصر الخلفاء الراشدين عمراً تولى الخلافة قبل أطولهم عمراً »

فلو تولى الخلافة بعد النبي (ص . ع) عليّ ابن ابي طالب — لمات ابو بكر ، وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الاسلام ، والمسلمين بما استطاعوا ان يخدموه به — رضوان الله عليهم اجمعين — حكمة الله في خلقه — وان اكرمكم عند الله اتقاكم — .

﴿ رأيه في مذهب النشو والارتقاء وان العرب سبقوا وقالوا في هذا المذهب ــ وذكره الدكتور شميل استطراداً ، ومذهب درون . ﴾

سئل جمال الدين عن البيت المشهور لأبي العلاء المعرّي :

والذي حارت البرية فيه　　　حيوان مستحدث من جمادِ

هل يقصد المعرّي في هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد ؟ ــ ويوافق مذهب درون في النشو والارتقاء ؟ ــ ذلك المذهب الحديث ــ الذي اوجده درون واقام علماء الارض واقعدهم ؟ ام قصد المعرّي معنىً

آخر ، وتماس اتفاقاً ، او عرضاً مع اهل مذهب النشو والأرتقاء ·

قال : « لا أغالي ، ولا ابالــغ اذا قلت ليس على سطح الارض شيء جديد ــ بالجوهر والأصول ــ ·

تُبتكر في الكون محدثات ، وتحدث امور ، وتقرر علوم ــ يؤخذ ويعمل بها اجيالاً ــ ثم تطرأ عوامل مختلفة ، تندثر بها تلك المحدثات ، وتجهل تلك العلوم اذ يحجبها الخفاء ، وتحفظ احياناً بعض رفات آثارها (طبقات الارض) ــ وكذلك ما يحدث من عظائم الامور ــ قد تذهب مع جيلها وربما يبقى شيء من اثرها في خرائب اهلها ــ وهكذا القول فيما يزهو ، وما يتمحص ويتقرر من العلوم عند اجيال مضت ــ قد تموت مع اربابهــا او تمحى بمحو ما أودعت فيه من الكتب والاسفار ·

فالسعيــد من الخلف من يعثر على اثر من آثار السلف فينتبه بكايته اليه ، ويعمل على بعثه من موته ــ أما باخراجه من الخرائب ، وامــا بنقب طبقات الارض ، واما بمناجات ارواح قائليه وفاعليه · ·

وهــكذا يعيد الانســان الكرة على قديم مبتكرات الأسلاف من المحدثــات ، والأمور العظيمة ، والعلوم والفنون الغريبة (عندنا اليوم) ــ وذلك بسوق غريب ، وعوامل عجيبة تعمل في عقل الانسان في سائر الازمان ·

بينما الانسان اليوم سائر في البحث ، والتجربة يقصــد امراً فاذا هو (عرضاً) يعثر على نتائج لم تــكن بحسبانه ، فينشط لها عقله ، ويصرف اليها همته ــ ولا يزال يكدّ ، ويجرّب ، ويجدّ ، حتى يتيسر له وضع اســاس

الاكتشاف ، أو الاختراع او تقرير قواعد كلية ، لعلم ، أو فن .

اما مقصد ابي العلاء فظاهر واضح ، ليس فيه خفاء — فهو يقصد النشو والأرتقاء — أخذاً بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب وقد مرّ ذكره ولا بأس من اعادته : — اذ قال ابو بكر بن بشرون في رسالته لابي السمح عرضاً في بحث الكيمياء (ان التراب يستحيل نباتاً — والنبات يستحيل حيواناً وان ارفع المواليد هو الانسان « الحيوان » وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها .

«وان ارفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات — وهي ادنى طبقات الحيوان — سلسة تنتهي عند الانسان الخ

فاذا كان بناء مذهب النشو والارتقاء على هذا الاساس — فالسابق فيه علماء العرب وليس « درون » مع الاعتراف بفضل الرجل ، وثباته ، وصبره على تتبعاته ، وخدمته « للتاريخ الطبيعي » من اكثر وجوهه ، وان خالفته ، وخالفت انصاره في مسألة «نسمة الحياة» التي اوجدها الخالق سبحانه وتعالى لا على سبيل الارتقاء من سعدان ، فالانسان ، او من الزوابع المائية . او ان البرغوث سيكون بعد الوف او ملايين من السنين فيلا عظيماً — لاننا نرى اليوم في البرغوث ما يشبه خرطوم الفيل — وغير ذلك من المباحث التي دونتها في رسالة «نفي مذهب الدهريين» رداً على داروين واشياعه وأرى اغراقاً في نسبة الابداع ، والابتكار للنشو والارتقاء ، والانتخاب الطبيعي له .

ولو قال بذلك مثل «بخنر» و «هكسلي» و «سبنسر» وغيرهم من علماء الغرب ممن لو جاز ترك مناقشتهم فلا يسعني ان امرّ على ذكر حكيم شرقي

انخرط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدّوا مذهب «درون» واخذوا بناصره، وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب — فمن حيث الجهر بمعتقد يعتقده الانسان انه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور — فالدكتور شميل له في نشر مذهب «درون» وتحمله اعباء المكفرين له (عن غير علم وتحقيق) يعدّ للشميل فضل ، ولكن لا أرى الدكتور شبلي قد تخلص مع جرأته الادبية، وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب — وبمعنى أوضح — انه اراد ان ينتصر لدورن ، وان ينشر مذهبه رغم أهل الأديان — وفي ذات الوقت عارض استاذه ، وصاحب المذهب المنتصر له ·

إذ لا يخفى ان القصد من مذهب الماديين الوصول الى ان الانسان تدرج من الحيوان ، واعظم دليل لهم ما يرى في السعدان والقرود وأعلى انواعه « الاورانغ اوطان » من الذكاء والحركات وتركيب الاعضاء .

ثم انهم نظروا في اجنة ذوات الفقر ومنها — الانسان — فراوْه يمرّ نموه بدرجات الحيوانات التي دونه حتى الاحفوريه او السابقة لها الخ ·

ولكي يتوصلوا الى جحود خلق الانسان بتقويمه الحسن هذا رأيناهم يركضون وراء الاحافير ، ويغوصون في طبقات الأرض وإمامهم في مذهب النشوء والارتقاء هو « درون » بلا شك — وهذا الحكيم لما وصل الى النقطة الجوهرية وهي (موجد نسمة الحياة) فلم يسعه إلاّ ان قال «إن الخالق هو الذي نفخ نسمة الحياة في الاحياء» وهذا قوله بالنص الواحد: — « اني أرى ان الاحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة ! ! اهـ

ان قول « دورن » هذا ينفي ظهور الحياة على سبيل طبيعي ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين ، وانكروا على « درون » هـذا القول واتّهموه بالخوف من اهل دينه — وقالوا ان قوله هذا يجعل المذهب ناقصاً بل ينقضه من اساسه لأن الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين « انكار الخالق » واسناد الاعمال الى الطبيعة ·

هذا مقام الحيرة لمريديّ مذهب «درون» فإِما ان يكون إِمام مذهبهم « درون » قال قوله السابق عن علم وتحقيق، وفيه كما قالوا نقض لأساس المذهب ، واما ان يكون الخوف الذي اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين ·

وبالنتيجة يريد الدكتور شميل ، والاستاذ «برن» وغيرهما ان يوافقوا « درون » اذا أصر على انكار « الخالق » ويخالفوه اذا اقرّ بوجوده

وبالاختصار ان كلما جاء في مذهب الطبيعيين من حصر الاحياء بانواع قليلة ، وتفرع الكثير منها وعنها كل هذا لا يضرّ التسليم به كما انه لا يفيدهم ان الحياة وظهور الاحياء نتيجة طبيعية لقوىً طبيعية — نعم اذا امكنهم اثبات التولد الذاتي — كان لأقوالهم معنىً ولمذهبهم مستنداً ·

هذا الذي رأيت ما يؤاخذ به الحكيم شبلي الشميل وقد خالف امامه واستاذه «درون» وفيما عدا ذلك فاني اقدر الشميل قدره في دقة بحثه ، وتحقيقه، وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة ، وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم ·

اما جمال الدين فكان يعلم ما بيني وبين الدكتور شميل من الولاء وقد

ظهرت عليَّ علائم المسرة لتقديره الرجل — ولكن ساء ذلك أحد اخواننا المصريين فقـال : يا استاذ انني وجدت في الدكتور شميل «غروراً» فاجابه السيد — ان الذي رأيته في الشميل لم يكن «غروراً» ولكنه «عزة النفس» والذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان ·

وقليل العلم ، السفسطائي ، المدلّس فيجمع عليـه الطيالسة الخضر ، ويخرّون له الى الاذقان ، ويعتـبرونه بظهره العالميّ لا العلميّ ، و يبجّلونه لبذل طعامه ، وعظيم داره ·

والدّجالون كثيرون في كل قطر ومصر ، وفي كل آن وزمان ·

قيل للسيد «اذا لم يـكن لعلماء العرب في مذهب النشو والارتقاء غير تلك الشذرات ، والعبـارات الوجيزة ، فهي لا تفي بالمقصود بل يصح الاستشهاد بها على ان القوم فهموا من هذا المطلب كليات فقط ، ولم يعيروها اهتماماً استحق منهم ان يفردوا لها بحثاً ، أو كتاباً خاصاً يتـكفل باستيعاب ما يلزم ذلك المذهب من الادلة ، واستجماع البراهين !

فقال : « هاتوا مكتبة بغداد ، والاندلس ، والقـيروان — وما ترجم في عصر الخلفاء العباسيين ، وما حقق علماء العرب من المباحث ، وما ألّفوه من الكتب الفلسفية ، والطبيعية ، والكيمياء · — وبعد ذلك طالبوني ، والزموني الحجة بعدم استيفاء اولئك العلماء مواضيع ما نرى من المباحث في العلوم ، والفنون — الوافدة الينا عن طريق الغرب اليوم ·

« ودعوا العصر الجليـدي يستحوذ على قارة اوروبا مرة اخرى — ويدور الدور الفلكي بفعوله ، وتأثيره — ويجعل الحياة في ذلك الاقليم

متعــذراً كما كان اولاً — وأنظروا اذ ذاك الى نهضة الشرق — خصوصاً متى تغير شكل الحكم في اهله — فترون الشرق قد عاد مشرقاً بالعلماء ، زاهراً بحقائق العلوم ، مثبتاً ، مقرراً لكلما هو نافع ويصلح ان يبقى اثراً .
(«وتلك الايام نداولها بين الناس») .

اما الانتخاب الطبيعي — فهو في جيل البداوة — وفي حضارة الاسلام — امر معروف ، ومعمول به سواء أكان في انتخاب الزوجات من النساء ، وتحري النجيبات من الامهات فيخطبون بناتهن ، وفي ذلك اقوال مأثورة — كالقول « خذ لابنك خالاً » — اي زوجة يكون لها من الصفات الطيبة ، وحسن الخَلق والخُلق والمزايا ما لأخوانها — حتى اذا جاء الولد يكون فيه من الوراثة عن طريق امه ما يشبه اخواله من موجبات الفخر — وكذلك عن طريق الاب — فيشبه الاعمام — فيفتخر ، او يمتدح — فيقال فلان — معمٌ ومخول . أو في تحسين نسل الخيل

واما حرص العرب على الانتخاب الطبيعي — في تحسين الحيوان — فامر مشهور — اذ البدوي الى اليوم يطوف البراري ، والامصار ليجدالى فرسه جواداً من جياد الخيل ، ويحرصون على حفظ انساب الخيل ، حرصهم او اكثر من حرصهم على انساب البشر . — قال وبالاختصار — علم قليل مفيد في الصدور يُعمل به — خير من علوم كثيرة في الكتب مسطورة ولكن لا يُعمل بها .

﴿ رأيه في الاشتراكية (السوسياليست) وانها لا تخالف ﴾ الدين بل يقول بها

كان مجلس جمال الدين يجمع اهل المذاهب المختلفة ، والمشارب المتباينة ، فيضطر ان يخاطب كل انسان على حسب عقله ، واستعداده ، و يراعي معتقداتهم ما امكن — و يخوض مع المعطلة ، والماديين وغيرهما من لاهوتيين متعصبين — يأتي على ذكر الفلاسفة وما قالوه في كتبهم مع توضيح مذاهبهم ، وذكر حججهم ، ومنتهى ما وصلوا اليه من البراهين —.

ذلك ما حمل الكثيرون ان يذهبوا بالحكم على جمال الدين مذاهب شتى — تارة ينظرون اليه بنظر المارق من الدين — وطوراً انه ديني متعصب — ومن حال جمال الدين هذه تمكن الحاسدون من نسبة ما اودعته كتب الفلاسفة من الالحاد الى رأيه — واذاعوا ذلك بين العامة وأيدهم اخلاط من الناس من اولي المذاهب المختلفة الذين كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون ، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون ، ويتبجحون بالتلمذة عليه ، وينسبون ما اشربوا من الكفر اليه « كما سبق ذكر ذلك في سيرته ».

على ان المباحث التي كان يدور بها لسانه اثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد من ذكرنا من المعطلين ، والماديين ، انما كان المراد منها اظهار حقائق النحل بمعزل عن الاعتقاد بها ، والجنوح اليها — بل مع تعقيبها بالرد عليها ، واقامة الحجج على بطلانها .

وهكذا اجتهاده في بعض احكام القرآن ، وتفسير بعض الاحاديث ، واستنباط الاحكام من سيرة السلف.

من امثلة ذلك — ان احد كبار الادباء وكتبة الاتراك كان يغشي مجلس جمال الدين ، (وجمال الدين يحترمه لذكائه وحسن أدبه) وكان اشد الناس حرصاً على الاقتباس من آراء السيد من سائر من حضر ، او تلمذ عليه في ذلك المحيط .

اما الرجل فكان شديد الولوع بآداب الامم الغربية ، كثير الاعجاب في نهضتهم الاجتماعية ، وتوزيع اعمالهم ، واعطاء كل فيئة من المجموع قسطاً من الاشتراك في صالح الهيئة .

فقال لجمال الدين يا حضرة السيد — ان خير ما في اوروبا من النهضة هو (السوسياليست) «الاشتراكية» وهذه النهضة هي التي ستؤدي حقاً مهضوماً لأكثرية من الشعب العامل .

فاذا كان الدين الاسلامي «او المشيخة الاسلامية» يقاومان مذهب الاشتراكين — فأرى هناك ثلمة لا تسد بسهولة ، وخللاً يجب ملافاته بالحكمة فما رأيكم ؟؟

فقال جمال الدين : ان ما تراه من الاشتراكية في الغرب، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب ، في شكلة الحاضر ، وأُسسه ، وتخبُّط واضعي مبادئه — كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية ، ويجعلها محض ضرر بعدان كان المنتظر منها كل نفع .

«الاشتراكية الغربية» ما أحدثها ، وأوجدها الاّ حاسة الانتقام من .

جور الحكام ، والاحكام ، وعوامل الحسد في العمال من ارباب الثراء — الذين انما أثروا من وراء كدهم وعملهم ، وادّخروا كنوزهم في الخزائن ، واستعملوا ثروتهم في السفه ، وبذلوها في السرف ، والتبذير ، والترف — على مرأى من منتجها ، والفاعل العامل في استخراجها من بطون الارض ، ومن ترابها و و الخ ..

وبالاختصار ثمرات عمل العمال بكل انواع حاجة العمران .

فكل عمل يكون مرتكزاً على الافراط لا بد ان تكون نتيجته التفريط

افرط الغربيون (الاغنياء) بنبذ حقوق العمال، والفقراء وراء ظهورهم، فافرط العمال بمناهضة اهل الثروة ، وغاصبي حقوق الامة — بالمناصب ومسببات الجاه — فلا قاعدة دينية يرجع اليها ، ولا سلطان وازع يعمل بقهرٍ لصالح المجموع، لذلك اصبح أمرهم في الاشتراكية «فوضى» ولسوف ينعكس امرها .

«امّا الاشتراكية في الاسلام» فهي ملتحمة مع الدين الاسلامي ، ملتصقة في خلق اهله منذ كانوا اهل بداوة ، وجاهلية .

اول من عمل بالاشتراكية بعد التدين بالاسلام هم اكابر الخلفاء من الصحابة — واعظم المحرّضين على العمل بالاشتراكية كذلك من اكابر الصحابة ايضاً — واليك البيان :

امّا ان الاشتراكية من خلق البداوة فالبرهان عليه ما كان من اهل الثراء منهم ، ومواساته لأهل قبيلته وعشيرته ، ولا اعدّ كثيراً من ذلك بل اجتزيء بمن اشتهر منهم — مثل حاتم الطائي في السنين المجدبة و كيف

إنه نحر أعزّ ما لديه (وهو فرسه) ذلك لمجرد مجيء امرأةٍ من اقصى قبيلة طيء اذ قالت له : يا حاتم قيل لنا ان عندك لحماً عبيطاً فأتيت بصبيتي .

فقال «صدقتِ ، ثم نحر فرسه ، واشعل ناره (تلك العلامة التي كانت كدعوة للمجموع يعلمون منها ان هناك طعام) فيأتون لمكان الدخان في النهار ، ولشعلة النار ليلاً ، ويشتركون جميعهم في المأكل دون ادنى منّة لصاحبها ، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور، والمثري ـ كل على نسبته وما لديه من سعة .

هكذا فعل حاتم مع من قصدته واطفالها ، ومن رأى النار ويمم نحوها من اهل جواره وقبيله .

وقد تواتر الخبر بان حاتم لم يذق من ذلك اللحم شيئاً مع كونه قرماً ، سغباً .

وهناك رجل آخر من رجال العرب وهو « طلحة الطلحات » كان شأنه — ان كلّ اعزل ، معدمٍ يأتيه يقول له : «دونك الفرس ، والرمح ، والسيف فعسى ان تكتفي بهم ذل السوءآل ، وان لم تفعل ، ولم تحسن العمل بهم — فلا ارشدك الله ولا أغناك» .

يقال ان ذلك الرجل (طلحة) المثري بالخيل والسلاح جهز على المنوال المذكور الف فارس ولم يبق عنده الاّ ما اعطى لواحد منهم .

فكان كل فارس ممن جهزّهم طلحة اذا اتاه غلام سماه طلحة فلم يمض كثير من الزمن الاّ وكان في تلك القبائل من اسماء ابناء اولئك الآباء ميئات من ذلك الاسم فسمي «طلحة الطلحات» .

هذا مثل من الاشتراكية قبل الاسلام — ومنه يعلم ان الثروة كانت ولاتزال موجودة في الافراد ولكن حسن استعمالها ، وجعل نصيب للآخرين فيها يجعل الاشتراكية امراً مقبولاً ، وصفة ممدوحة — اذ لا أنانية ، ولا أثرة ، ولا استطالة على الفقير بخيول مطهمة يستأثر بها ، ولا بطعام شهي يلتذ به مع لفيفه ، ولا ببناء شاهق يسكن فيه — بينما موجد ، ومسبب ، ومهيء تلك النعم كلها — ذلك العامل الفقير الذي يسكن كوخاً حقيراً نصف اعضائه ، وابنائه في خارجه عرضة لصبارة القر ، وأوارة الحر — لا يملك من القوت خبزاً كافياً ، ولا من الملبس ما يستر به تمام العورة .

هذا ما عليه اليوم اهل الثروة ، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية — وفي نفيرهم روح الانتقام ، والافراط في المطالبة بحقهم — يقابله التفريط في زجرهم ، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق — ولسوف يتفاقم الخطب ، وتعم من جراء ذلك البلوى في الغرب ولا يسلم منها الشرق

«اما الاشتراكية في الاسلام» — فهي خير كافل لجعلها نافعة مفيدة ، ممكناً الأخذ بها لأن الكتاب الديني وهو القرآن اشار اليها بادلة كثيرة منها

ان المسلم اول ما يقرأ من فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين) فيعلم ان للخلق رباً واحداً وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء .

ويرى ، ويعلم ان القرآن اتى على ذكر ارباب القوة ورجال الحرب ، والغزاة ، ومن يتولى أمرتهم ، وقيادتهم ، — يخاطبهم آمراً ، ومعلماً ، ومدافعاً ، ومبيناً حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد ، وتلك المساعي نصيباً —

اذ قال «واعلموا ان ما غنمتم من شيء فلله خمسه وللرسول ولذي القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم أمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير» هذه آية باهرة اوجبت على من يسعى مجاهداً ، ومخاطراً بحياته ان يكون مشتركاً معه بنتيجة غزواته وغنائمه ، — من لم يكن مشتركاً فعلاً — فاعطي اولاً « لله تعالى» نصيباً ومرجع ذلك النصيب لعباده — ثانياً «للرسول» ثالثاً « لذوي القربى » وهم لا شك من المستضعفين الذين انما قعدوا عن الاشتراك في الجهاد ، والسعي وراء الغنائم ، لعلل تختلف اشكالها ، وانواعها — ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيباً من مساعي اولئك الاشداء ، الاقوياء المجاهدين ، الخائضين غمرات الموت الخ .

كل ذلك نراه مبنياً على حكمة الاشتراك ، وأبث حكم هذه الآية جارياً ، وكان الرضاء به شاملاً لمجموع المسلمين ، من مجاهد ، أو قاعد عن الجهاد لعلة ، فبدأ بالدرجة الاولى بعد الله ورسوله بذوي القربى من المجاهدين على درجاتهم (ممن ينظر بحاجات اولاد المجاهدين وعيلتهم عند تغيبهم) وعطف على من دونهم في المرتبة الثانية ممن ليس لهم في المجاهدين اقرباء فقال «واليتامى» ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال «والمساكين» ثم رأى ان يأخذ نطاقاً اوسع فقال « وابن السبيل » اي عابره فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن اوسع منه شكلاً ، ولا انفع .

ثم جاء بموضع اخر من الكتاب مقرعاً لمن يكنزون الذهب والفضة ثم حبذ ، واثنى على الذين يؤثرون على انفسهم بالعطاء والاسعاف ، والاطعام

ولو كان بهم خصاصة

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول في ايات القرآن تترى

فلننظر هل عمل بهذا القانون وما كانت نتائج العمل به

نعم ان الأخاء الذي عقده المصطفى (صلعم) بين المهاجرين والانصار لهو اشرف عمل تجلّى به قبول الاشتراكية قولاً وعملاً.

فالمهاجر من المسلمين انمـا استطاع ان يفرّ بدينه راضياً بهجره بلده، وترك مسقط رأسه، ومفارقة اهـله وذويه، والخروج من ماله ومقتناه ــ مسروراً ان يصل لدار الهجرة سالما.

والانصاريّ ــ وهو في بلده مع آله وذويه، وماله قبل راضياً مسروراً ان يشارك اخاه المهاجر بكل معنى الاشتراك.

حتى لو تطلع الانسان منا اليوم، واشرف على تلك الارواح الطـاهرة لرأى من مجالي الاشتراك روحاً وجسداً ما ينبهر له عقله، ولصح اعتقاده ان عمل الدين وتأثيره في تلطيف الكثافة الجسمانية، لا يضارعه موثر، او عامل آخر على البشرية — ولرجعوا اليه لو كانوا يعقلون

ثم قال: «لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ، لها طرفان (وخير الأمور اوساطها) رأى الشـارع الاعظم ان تنعّم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر في محيط واحد، وبمساعٍ ليس بينها وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت — مما لا يتم به نظام الاجتماع — وكان النبي (صلعم) (بالمؤمنين رحيما) فجـاءه عن طريق الوحي — وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية، وما عسى ان ينجم من المضار او المنافع لها — فوضع

للدين اركاناً خمسة ومن تلك الاركان « فرض الزكاة » في المال، والركاز والانعام الخ .

ثم اضاف اليها كما سبق « غنائم الحروب » فاخذ منها قسطاً بمقدار الخمس — ثم بعد ذلك حرّض على بذل « الصدقات » وحرّم « الربى » بنكتة غاية في الحكمة : وهي — ان لا يوءكل الربى اضعافاً مضاعفة — وهو ما وقع عليه التحريم، ولكي يكون للأمام مخرج اذا قضت المصلحة بالتسامح للحكم بجواز الربى المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ، ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ، ويصير اضعافاً مضاعفة — وفرّق صراحة بين احتيال المرابين ، المتلبسين بالدين ، الذين يتظاهرون بالتجنب عن الربى — بيبعهم سلعة قيمتها الحقيقية مئة درهم يجرون عقد بيعها مع المشتري المضطر بثلاثمائة درهم وحقيقة هذا الفرق ان هو الا نصيب الربى وعينه وانما يجعلونه عن طريق البيع ، ويخدعون انفسهم بانهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربى التي حظرها عليهم الدين .

واليك بعض ما جاء بهذا الشأن بالقرآن : «ان الذين يأكلون الربى لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربى ، وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبى فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحو الله الربى ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار اثيم

وقال : « يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربى اضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» .

اما ما جاء في الحث على الصدقات فكثير — كقوله تعالى «ان تبدوا الصدقات فنعمَّ هي وان تخفوها وتأتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير» .

وقال «انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والعاملين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله» . وقال «ان الحسنات يذهبن السيئات» وامثال ذلك كثير في الكتاب ، والحديث — حثاً ، وتحريضاً على البذل ، ومؤاساة الفقراء ، واهل العوز — دراً لمفاسد اربابِ المطامع ، وسداً لعوامل حسد الحساد لاهل الثروة والنعيم الخ

اما الثروة فتختلف بكميتها من مايةٍ الى الوفٍ ، وملايين من الدنانير ، ولكن لا تختلف بكيفيتها بمعنى — ان رجلاً يملك ماية دينار بين قومٍ لا يملك افرادهم إلا دراهم معدودات ، فيمكن لصاحب تلك المئة ان يظهر بمظهر الثراء ، ويأخذ من التنعم حظًّا نسبياً ، ويلفت انظار قومه ويدعوهم لحسده — هذا اذا تمادى بالأثرة والأنانية ولم ينل قومه منه رشاشة فضل. على حد قول زهير ابن ابي سلمى :

ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستغنى عنه ويذمم

ولقد قلنا عن زمن الجاهلية وعصر البداوة ما فيه الكفاية — ومختصره — ان اعظم مثرٍ كان يتساوى في مسكنه ، ومأكله وملبسه مع افراد قبيله وعشيرته — فلا تتحدث نفس من ذلك المجموع بادنى حاسةٍ من الحسد ، او داعٍ يدعوه الى الانتقام .

ثم جاء الاسلام — فكان اكبرهم منصباً وهو الخليفة لرسول الله يعمل .

بسيرة نبيّه من الاكتفاء بالقليل من العيش ، والكفاف منه ، ومجالسة الفقراء ، ومشاركتهم بكل معنى الاشتراك في مظاهر الحياة الدنيا ونعيمها. لقائل ان يقول ان شظف العيش في زمن النبيّ المصطفى وخلفائه كان يدعو بطبيعة الامر الى عدم التحاسد .

فنقول ان الفتح الاسلامي في زمن ابي بكر الصديق بلغ من الممالك مبلغاً عظيماً ، وجاء بالمغانم الكثيرة ، ومع ذلك لا نرى ان وضعية الخليفة ابو بكر قد تغيّرت ، ولا مظاهر وزرائه ، وقواده تبدّلت ، ولا شكل حياة من اثرى من متّجرة العرب قد ظهر فيهم شيئاً يلفت نظر حاسد ، او يجعل في نفوس غيرهم اقلّ غصة .

ولا ريب ان الفتوحات في زمن الفاروق عمر ابن الخطاب قد امتدت فصارت اوسع نطاقاً ، والمغانم اعظم وفراً . والنفوس البشرية مع هذه العوامل قلّ ما تنجو من تطلع للسرف ، والترف ، ومهيئآت الاستطالة ، والأنانية (وقد توفرت اسبابها) وبالفعل ، ورغماً عن قرب العهد بسيرة الشارع وخليفته ابو بكر ، وتمسك الفاروق بسيرتيهما ـــ فقد اتته الانباء الصادقة ممن بثّه لمراقبة سير ، وسيرة عماله بانه قد فشت لعامل مصر (عمرو بن العاص) وعامله في دمشق (معاوية بن ابي سفيان) وغيرهما من العمال في العراق وغيره هيئة — بذخ ، وسرف ، وثراء — نخشي معه حصول ميزة الأكاسرة لاولئك الافراد من العمال ـــ الخادمين للجموع ، ويصرفون سلطان الحكم ، ونفوذه بغير وجوه الحق فتدب النفرة على سبيل التدريج الى نفوس الامة من حكامها ، وبالأخير ، تنقبض تلك النفوس عن الطاعة

الاختيارية ، وتفقد الثقة ويضعف الايمان ويتزلزل البنيـان ، ويعم البلاء (والعياذ بالله) .

فاسرع الفـاروق لملافاة ذلك الخلل بتقريع عماله باخشن الاقوال — عظةً وتحذيراً، وقتلاً للغرور — فخاطب عامله في مصر بقوله · « الى العاص بن العاصي ، ما اقطعتك مصر طعمة لك ولقومك ·· — وبمثل قوله له « لا تبالي ان تحيا انت ومن معك ، أن اموت انا ومن معي ··· — وبمثل قوله « متى كان بن العاص في مثل ما بلغني عنه من ثراء ودور ، وقصور — وبما معنـاه الخ » .

وهكذا خاطب عامله في الشام معاوية بن ابي سفيان، وهدده بان يجتنب غطرسة هرقل ، وتعاظم الأكاسرة والقياصرة .

ولم يكتف بما قاله بل ارسل معتمداً وبيده امراً مبرماً ان يشاطر كل عامل بمقتناه — من ثروة ومتاع ، حتى ان ذلك المعتمد اخذ فردة نعل العامل وترك له الأخرى .

هذا درس عملي ، وعلني لملأ المسلمين — افهم فيه الفاروق — الحاكم ، والمحكوم عدم سواغية الاثرة، والاستطالة — وعمـل بذلك على محو دواعي الحسد من الصدور فعلاً .

فلننظر ماذا فعل عمر بن الخطاب بما صادره من اموال العمال ؟ وماذا صنع بمغانم كسرى وقيصر ؟ وماذا ظهر على تلك الخليفـة من آثار عظمة الملوك ، والامراء — سواء كان في مسكنه ، أو ملبسه ، أو مأكله ؟

ظهر عليه مع كل ما توفر لديه ، ان لباسه كان احقر ما يلبسه الفقير في

الأمة (ومرقَّعيته مشهورة في تواريخ الامم ، وان فيها مع رقع الاقمشة رقعة من أَدم اي من جلد) .

(واما مسكنه) فكان يقضي سحابة يومه في سقيفة حقيرة يدخل اليها مطأطأ الرأس ، ينظر في شؤون الخلافة ، ويقضي وقت استراحته في البقيع «جبانة الاموات»

(واما مطعمه) فكان خبز الشعير الغالب عليه — بينما كان يطعم الايتام ، والارامل ، والمستضعفين من المهاجرين والانصار — خبز الُبرّ ، والسمن ، والتمر وينيلهم كل ما كان مناله عزيزاً الاّ لأهل الثراء اذ ذاك .

هكذا كان يشاركهم مع نعيم الاغنياء ولا يشترك معهم فيه — فضلاً عن بذل المال للمحتاجين ، وفرض الفروض لهم من بيت المال ، واعطاء الجوائز لمن كان له ، أو لآبائه سابقة في الاسلام ، بعشرات الالوف ، وميئات الالوف كلٌ على حسبه .

فأهل الاسلام مع تمحض سلطان الحرية فيهم ، لم يرُوا في سيرتي الصديق والفاروق (رض) ما يدعوهم الى اقلّ تذمر ، او تململ ، او تفكر بمناهضةٍ لسلطانهما ، او تألُب على قلب اشكال حكمهما ، وأمرتهما ، أو أحداث شغب يعرقل مساعيهما في الفتوحات ، بل كانوا يبذلون النفس والنفيس في طاعة الخلفاء تأييداً لشوكة الاسلام ، وتعميماً لعدل الشريعة السمحاء .

هذا كان موقف الخلفاء ، وحال الامة معهم — ولذلك تجلّى العدل المطلق في الاحكام ، والتزم الحكام للتقيد به قولاً وعملاً .

وهكذا مضى زمن خلافة الفاروق — وجاء زمن خلافة عثمان بن عفان وفي خلالها ظهرت أثرة خاصّة للأمويين — تذمّر منها الهاشميون، واكثر القرشيين، وفي مقدمتهم ابناء الصديق والفاروق، ومن كان على رأيهم الخ ..

في زمن قصير من خلافة عثمان تغيّرت الحالة الروحية في الامة تغيراً محسوساً، واشدّ ما كان منها ظهوراً — في سيرة، وسير العمال، والأمراء وذوي القربي من الخليفة، وارباب الثروة، بصورة صار يمكن معها الحسّ بوجود طبقة تدعى « امراء » وطبقة « اشراف »، واخرى اهل « ثروة، وثراء، وبذخ » — وانفصل عن تلك الطبقات — طبقة العمال، وابناء المجاهدين، ومن كان على شاكلتهم من ارباب الحمية، والسابقة في تأسيس الملك الاسلامي، وفتوحاته، ونشر الدعوة — وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة، والذي احدثته الحضارة الاسلامية — اذ كانوا مع كل جريهم، وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين الى العمال، ورجال الدولة — وقد فشت العزة، والاثرة، والاستطالة، وتوفرت مهيئآت الترف في حاشية الامراء، واهل عصبيتهم، وفي العمال ومن استعملوه، وولوه من الاعمال الخ ...

فنتج من مجموع تلك المظاهر التي احدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين، والمستضعفين في المسلمين — تكوّن طبقة — اخذت تتحسس بشيء من الظلم، وتتحفّز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص، ومن سيرتي الخليفة الاول والثاني ابي بكر وعمر.

كان أول من تنبه لهذا الخطر الذي يتهدد الملك ، والجامعة الاسلامية ــ الصحابي الجليل « ابو ذر الغفاري » فجاء الى معاوية بن ابي سفيان وهو في الشام ،وخاطبه بوجوب الرجوع الى سيرة السلف، وبتقليل دواعي السرف والترف ، وعدم التمادي في مسببات الحسد ، والعمل على نزعها من العاملين من رجال المسلمين ــ وذكر مواعظ كثيرة ، وعدد اخطاراً جمة من وجود طبقة فقيرة ، عاملة مفكرة في المسلمين ــ يكتنفها شظف العيش وقلة ذات اليد بين ظهراني قوم ــ اكثرهم ممن لا سابقة لهم في الاسلام ولا لآبائهم ، ولا من الصفات المحمودة ، ولا من المجهودات او المميزات العلمية والجسدية ، ما يوليهم او يعطيهم حق ما هم فيه من النعيم ، وطيب العيش والرخاء (غير محض الانتماء والادلاء بولاء لآل حرب وعمّالهم) .

فاجابه معاوية بما معناه «يا ابا ذَر ان ما تقوله هو الحق، ولكني ليس في استطاعتي الرجوع ــ لا ألى سيرة الصديق وسيره ــ ولا الى العمل الذي كان يعمله الفاروق .

وغاية ما في امكاني ــ الحث على بذل الصدقات ،والقول اللين ارشاداً وعن طريق الوعظ لتخفيف دواعي الحسد وغير ذلك فلا سبيل اليه

قال يا معاوية ! قد نصحتك والدين النصيحة ــ فاحذر انت والخليفة عثمان مغبّة ما انتما عليه ! ــ وذهب من مجلس معاوية مغاضبا .

واجتمع مع طبقة المتألمين والمتذمّرين من المسلمين وقصّ عليهم من سيرة السلف اشياء ، وأطلعهم على ما قاله عامل الشام معاوية بن ابي سفيان وأردفها باعلانه مشاركته لهم في كل ما يتحسسون به قلباً وقالباً ــ وبمختصر

القول انه شجعهم على النهضة والمطالبة بحق صريح لهم اهتضمه جماعة بغير وجه شرعي ، ولا باجتهاد امام سلف .

فكان من وراء عمل ابي ذر هذا — ان حصل شيء من التهيج ، والانفعال النفسي — ما خشي معه معاوية واعوانه سوء المصير

فجمع معاوية كيده ، واستنجد دهائه ، وبعث لأبي ذَر ليلاً بالف دينار — فقبلها ابو ذرّ — وفي الحال بادر لتفريقها على الفقراء ، والمعوزين من المسلمين .

وفي ثاني يوم ارسل معاوية رسولاً (بتعليم منه في الارسال الاول وفي البعث الثاني) وقال « يا ابا ذر انقذني من عذاب معاوية ، فان الالف دينار لم يرسلها اليك وانما غلطت . .

فقال ابو ذر : والله لم يبق معي من دنانيره ولا دينار — فليمهلني حتى آخذها ممن وزّعتها عليهم من المستحقين في المسلمين — وعلم معاوية صدقه وضاق به ذرعاً ، فكتب الى الخليفة عثمان مستجيراً من القاآت ابي ذر ، وما احدثه من التأثير في النفوس — فاجابه مستسرعاً ارسال ابي ذر اليه — فارسله ، ولما تقابل مع عثمان لم يسمع منه اكثر مما سمع من معاوية — وانه لا يمكنه ان يفعل ما فعله الفاروق مع العمال من مصادرة ما عندهم من الثروة ، ولا ان يرجع ما كان من حالة مجموع المسلمين في عهدي الصديق والفاروق ، الاّ عن طريق الحث على بذل الصدقات والاحسان فقط

فقال ابو ذر : « يا عثمان اما تذكر حديث رسول الله (ومعناه اذا وصل البناء الى سلع . . واستعلى في المدينة . . وفشت الخ) وجبت الهجرة — اوكما

قال في مكان آخر — « يا عثمان ان النبي (ص٠ع) امرني بالخروج منها اذا بلغ البناء سلعاً» ٠ (وهو جبل في المدينة)

فها قداستعلى بناؤك، وبناء قريبك معاوية ، واعوانكما — فاستودعك الله — تاركاً لك ، ولمن استعملت من العمال « اعمالكم » والله من ورائكم محيط ٠

فالح عثمان على ابي ذر — ان لا يفعل — فقال ابو ذر : ان رسول الله اولى ان يتّبع ٠

وبالفعل قد هاجر ابو ذر من المدينة

كان في عمل ابي ذر هذا انه قد اخذ بمحض النصح لخليفة المسلمين اذ ذاك «عثمان» وبنصح «عماله» ، وبالدفاع عن حقوق المسلمين كي لا تكون طبقة اشترا كية — يكون رائدها «الانتقام !» ٠

بل دعاهم الى العمل بنص القرآن ، والاقتداء بمن طبق ذلك النص عملاً من الخلفاء كأبي بكر وعمر ٠

هذا مختصر ما علم به الدين الاسلامي من الاشترا كية المعقولة ، النافعة للمجموع الانساني ، وما عمل به اكبر خلفاء الاسلام ٠

وكل اشترا كية تخالف في روحها واساساتها — اشترا كية الاسلام — التي سبق ذكرها — فلا تكون بنتيجتها الاً ملحمة كبرى ، وسيل الدماء ولا سيل العزم من الابرياء ، ومن تخريب لبناء لا يشاد عليه شيء ينتفع به احد من الخلق ٠

نعم يستفيد من يلوك بلسانه كلمة الاشترا كية ، ويجعلها احبولة صيد —

وهي كلمة حق يراد بها الباطل ·

اكرر القول ان اشتراكية الأسلام هي عين الحق — والحق احق ان يتبع اه ·

✻ قوله حقائق الاشياء ثابتة ، والأحاطة بهـا لفرد متعذر ، ✻
والعلم باسبابها متوزع بين المجموع على نسب متفاوتة

«قال ان كل الحوادث لا بد وان تقترن في آن حدوثها مع سبب لها، ملازم غير مفارق — ويختلف الخلق في معرفة ذلك السبب ، ويتفاوتون على نسبة علمهم بالاسباب ، والمسببات ــ وارجاع كل علة لمعلولها ، وكل سبب لمسببه ، وحادث لمحدثه ·

فالحوادث عند الجاهل منسوبة للصدفة على الغالب ــ وهي اهون المراجع للتعليل عنده ·

فاذا سقطت صاعقـة مثلاً على شجرة كبيرة في خلاء من الفضاء ــ يقول بالصدفة حصل نوء شديد ، ورعد ، وبرق، ومطر غزير ، وبالصدفة التجأ زيد لتحت تلك الشجرة ــ وبالصدفة سقطت عليه تلك الصاعقة ·

هذا ما يقوله ــ من لا يفقه معني لزوم السبب للحوادث ·

واما من يعلم ــ والعلم متفاوت ، ودرجات ــ فيعلم ان مهب الرياح وشكل الكرة الارضية ، وما فيها من معترضات الجبال ، واوضاعها في الشمال ، والجنوب ، والشرق ، والغرب ، والمضايق وتأثيرها عنـد هبوب كل ريح منها ــ والاحراش ، والاشجار ، الخ · · كل هذه الاشياء من

مسببات الامطار بعد ان تجلب السحاب ، وتسوقهـا الارياح ، وتحدث العواصف ــ وهي من مسببات الصواعق ــ لانها لا تحدث الاً من عاصفتين متضادتين يتكون عند اصطدامهما والاحتكاك شرارة كهربائيـة هي «البرق» — ويليها هزيم «الرعد» وهو صوت الصدمة ·

فاذا عرفنا بعض اسباب المطر ، والبرق ، والرعد — ورجعنا الى التجاء الانسان لتحت الشجرة علمنا = ان السبب فيه = محبة الذات = الامر الفطريّ في الحيوان ·

وحب البقاء ، والتذرع بالوقاية ، والمحافظة على الحياة ، اظهر ما يكون في الحيوان الناهق من حينما يدب ويدرج منه في الانسان ·

خذ مثلاً الافعى = والجرز = فقد رأيت اكثر من مرة جرزاً = قابلته افعى = فعمد الجرز فوراً الى عود من الارض، ووضعه في فمه بشكل مستطيل ، بارز عن شدقيه واستقبلها على ذلك الوضع = فكانت كلما دارت لتبتلعه ادار ذلك الواقي له وهو العود فيتعذر عليها بلعه = وكثيراً ما ملّت من مداعبته ويئست من ابتلاعه لما تحراه ، واوجده بسوق الفطرة من اسباب الوقاية = فانسلّت ومضت ·

والانسان في تحري اسباب البقاء في هذا العالم الفاني بصورته = والباقي في جوهره = انما يتحرى ما يتحراه الحيوان من اسباب الوقاية والحياة

فاذا رأيناه يلتجئ عنـد العواصف ، والامطار لتحت الشجرة = فليس ذلك صدفة = بل عن سائق ، وقصد ، وغاية = وكل ذلك يرجع لحب الذات للوقاية ، وحفظ النفس ·

اما الصاعقة = فالقوة الموجودة في الاشجار لجذبها = امر مبسوط مع ما ذكرناه في كتب الحكمة الطبيعية وغيرها مما يدرس في المدارس = فليس في سقوطها شيء من الصدفة ·

وهكذا القول في كلما هو جارٍ ، وفي كل حادث على وجه الارض = له سبب وان خفي ·

فالصدفة — لعدم معرفة الاسباب — عند الجاهل «كثيرة» — وعند العلم ، والعالم — «قليلة» — وعند القدرة الالهية «معدومة» لا وجود لها (وجعلنا لكل شيء سبباً) ·

والعلم ، أو التسلسل بمعرفة تلك الاسباب — فمتوزع بين البشر — يضيق ظرف العمر الانساني عن استيعابها ، واستيفائها — ولولا انه « يرد الى ارزل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئاً» لأمكنه ان يعلم اسباب حوادث كثيرة — ولكن ما فات الفرد بالنسبة الى قصر عمره الطبيعي من التتبع — يتلافى اكمال ذلك النقص النسبي من يأتي بعده من افراد النوع ·

وكلما وصل الينا من العلوم — مع خدمة الوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين — وعلى مدى الاجيال العديدة — لم تزل بالنسبة الى الحقائق الثابتة فيها «علوماً ناقصة» او هي في حقيقتها « قشور » لتلك العلوم في غايتها وحقيقتها ·

فعلم الطب مثلاً — ووجوده ملازم لوجود الانسان لضرورته — مع كثرة من خدمه من فحول الرجال ، في مختلف الاجيال — لم يزل ناقصاً بدليل — ان امراضاً كثيرة وقف علماء الطب عند حد العجز عن وجود

دواء لها شافٍ ـ حتى جاء من الأواخر من وجـد الدواء ومحى من سطور كتب الطب (هذا الدواء لا دواء شاف له ، ولا واق ٠

وما يدرينا ان الدواء الشافي لكل داء موجود اما في النبات ، او في المعادن ، او في قوى الطبيعة واسرارهاـ ولكن نقص العلم وعجز فهوم الرجال جعله مخفياً لعدم الاهتداء اليه اليوم ٠

وهكذا القول في الكهربائية ـ بخواصها ، ومظاهرها ، عرفه الاقدمون بشكل بسيط في العصر « الظرري » وهو عصر الحجر الصواني ٠

فكانوا يستعملون منه سلاحهم ـ اذ يحددونه فيجعلونه ذا حد جارح ويستورونه بالقدح زناداً فيوري

وعلماء اليوم يقولون ان الاصل في المادة الحركة ، ومنها تتولد الحرارة، ومنها يتولد النور ٠

فهـذه الاصول كما قدمنا كانت ولم تزل عند الاقدمين وعنـد اهل البادية اليوم معروفة على ابسط حالاتها ـ فيعالجون حجر الصوان بالاحتكاك فتتولد منه حرارة ، فنور ، فنار ، ويستغنون بذلك عن عيدان الانارة بوضع قطعة صوفان عند القدح وخروج الشرارة من الحجر ، فتلتهب ـ فيضعونها على المشيم فيشتعل ٠

نعم ان هذا العمل ساق البدو ، وأهل الاعصر الخالية اليه (الضرورة) ولم يكن بالعلم المدون لتحصل منه فائدة كبيرة ٠

واهل هذا العصر ـ مع كونهم استفادوا من توليد الكهربائية ، وعلموا مظاهرها ، واستخدموا ، قوتها ولكن كنه الكهربائية وحقيقتها ، وطريقته او

كيفية تجمعها في المادة — لم يزل مجهولاً غير معلوم — وهذا الجهل لا يقدح ولا ينفي ان حقائق الاشياء ثابتة ، والاحاطة بها للفرد متعذر ، حتى ان العلم ببعض سلسلة اسباب الحوادث متوزع بين البشر .

قال : ويعجبني في بحث الحركة والحرارة — ما قاله ابو بكر بن بشرون قبل اكثر من الف عام « ان الحركة هي الاصل في توليد الحرارة وللحرارة خاصة نقل الاشياء وتحركها . والكون بما فيه من رطوبة ويبس ليس لها الا البرودة ، والحرارة ، فالبرودة تيبس الاشياء وتعقد رطوبتها ، والحرارة تظهر رطوبتها وتعقد يبسها . والمرجع الكلي في الاشياء ، الحرارة المنبعثة عن الحركة وهي اصل الحياة — ومتى فقدت حرارة الكون تعذرت الحياة او فقدت » اه

ثم تفكر وقال :

ان في خلق الانسان ، وفي عقله من القوى الغريبة والاسرار العجيبة ما يدهش العقل — ولقد اصاب الشيخ الاكبر بقوله « ايحسب الانسان انه جرم صغير وفيه انطوى العالم الاكبر »

نعم ان الانسان من اكبر اسرار هذا الكون ، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض ، وخفي من اسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعلم وباطلاق سراح العقل — الى تصديق تصوراته فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً وما صوره جموده ، وتوقف عقله عنده بانه « خيالا » قد اصبح « حقيقة

لبث الانسان يقلب طرفه في الفضاء وطبقات الهواء ، يتجادل عقله مع النسور ، والعقبان محلقة ، ويهب لمجاراتها واللحاق بها ثم يقعده الجمود ،

ويريه ذلك مستحيلا فيرجع الى الوراء ·

والعقل وهو معتقل بذلك الجمود يحاول فك قيده ليسير الى الامام

وهكذا كان موقف عقل الانسان مع الحيتان، واسماك البحار ،يناجي نفسه ويقول : ان عندي من القوى وفهم الاسرار ما ليس في الحيتان والعقبان ـــ فلِمَ لا افعل فعلها ، واجري جريهما ؟

وعندي اذا ظفر العقل في هذا العراك والجدال ، وتغلب اقدامه على الاوهام، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، ـــ لا يلبث طويلاً الاً ونراه قد طار باسرع من العقبان ، وغاص في البحار يسابق الحيتان ـــ وسخّر البرق بلا سلك لحمل اخباره ، وتحادث عن بعد اشهر مع غيره كانه عن قاب قوسين او ادنى · وهل يبقى مستحيلاً ايجاد مطية توصله للقمر أو ألاجرام الاخرى وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الانسان في مستقبل الزمان ـــ اذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع اسرار الطبيعة التي ما وجدت الاّ للانسان ، وما وجد الانسان الاّ لها[1] ·

❋ قوله : ان الحق لا يكون مع الاكثرية احياناً ❋

قال : « وجود بعض المجموع الانساني على شيء ، والاعتقاد به ـــ لا يفيد احيانا معنى انه على الحق ـــ خصوصاً اذا كان رائده وقائده مطلق التقيد بالمألوف ـــ والتقليد الاعمى بدون حجة ولا برهان ·

---

(١) وقد تم اليوم اكثر ما قاله جمال الدين وكان العلماء اذ ذاك يحاولون ويجربون في اوروبا تسخير الفضاء للطيارات ، والبحار للغواصات

فالحقائق من دين ومذهب، وقواعد علمية وفنية، ماظهرت واستقرّت وتدوّنت ، وانتشرت ــ الا بواسطة افراد قلائل ، وقد قاومها المجموع باشد ما لديه من قوة ووسائل القهر .

فجو يتار « اله الآلهة » ما تجرأ على الكفر به احد في عصر التعبد له وكانت الكهنة مع مجموع الشعب تنزل على من يكفر به آيات العذاب وانواعه واليوم يعدون من يكفر بجو يتار وألوهيته مؤمناً .

ثم جاء «موسى» و كفر بالوهية فرعون و كان الايمان بالله عند مجموعهم — يعد كفراً — واليوم الامر بالعكس .

ثم جاء عيسى — وليس من يؤمن به غير ذلك النفر القليل من الحواريين ــ ومع تصريحه انه اتي ليتمم الناموس لا لينقصه ــ فكان المجموع من اليهود في اوروشليم من الدّ الخصوم ــ وصلبوا من تبعه ، وتفننوا بانواع عذابهم ــ واليوم ترى تعاليم المسيح في القدس « مكان الاضطهاد » . وفي بيت لحم « محل الولادة » ، وفي اكثر المعمور من الارض ــ يدان بها ويعمل على نشرها .

ثم جاء محمد ــ وكانت شيعته افراد قلائل ــ ومن آمن به يعدّون على الاصابع ــ وهم «طفل» ــ وهو علي بن ابي طالب ــ «وامرأة» ــ وهي خديجه الكبرى بنت خويلد ــ ومن الرجال «ابو بكر» .

وكان المجموع من قومه اشد المقاومين لدعوته وجحد نبوّته ــ وكان من يؤمن « بمحمد صلعم » عرضة لانواع العذاب ، وموضع السخرة والاستهزاء .

واليوم ترى ميئات الملايين من الخلق تدين بدين محمد، وأكثر مجموع العالم يحترم، ويدين بتعاليم الثلاثة ـ «موسى» ـ و «عيسى» ـ و «محمد».

بعد ان كانت اتباع الثلاثة ـ شراذم، بل افراداً قلائل في بدء امرهم.

ولو لم تكن تعاليمهم محض خير، وموافقة لروح البشر، والانسانية، لما أخذ التكاثر من تابعيهم رغم مقاومة المجموع، ورغم الاضطهاد، والقتل، والاستهزاء، والنفي، والصلب، وكل انواع العذاب ـ حتى صاروا امماً، وفتحوا ممالكاً ـ وصار لأولئك الأفراد، والشراذم ـ دولاً ـ وجانباً يخشى، وبأساً يتقى، ومدنيةً، وحضارة لا تفنى.

وهكذا ينبغي ان نعلم ان كل تعليم اذا كان حقاً في ذاته ـ ولو خالف المألوف، وكانت انصاره قلائل ـ فمن الحكمة ـ ان لا يمتهن لقلة الاشياع والنصراء ـ أو لكثرة جماهير المخالفين، والمقاومين له في بادىء الامر = بل يجب ان ينظر اليه بعين البحث، والنقد الصحيحين.

فان تبين منه نور حق، وكان الناظر ضعيف الهمة، لا يجرأ على مناصرته، ومظاهرته ـ فليصبر حتى تكثر الاعوان ـ ولا يسارع لمجاراة الكفران به.

فكم مضطهد للمسيح ـ لم يلبث حتى اعتنق دينه، وجاهر بتعاليمه ـ غير مبالٍ بالقتل، وانواع العذاب.

وكم عربي ناهض محمداً ـ ثم خاض بعد ايمانه غمار الحروب، واستبسل في سبيل دعوته، وطاب له الموت حباً بنصرته.

والدعوة لطلب الحرية في فرنسا ـ وهي دعوة، ومطلب حق ـ كم

صادف اهلوها من المحن ، وكيف استحرّ فيهم القتل ، وسالت الدماء — واليوم فالعالم يقدرهم ، ولسوف يقتدي بهم .

وهكذا دعوى الاشتراكية على ما سبق ذكره وبيانه — وان قلّ نصراؤها اليوم — فلا بد ان تسود في العالم — يوم يعمّ فيه العلم الصحيح ، ويعرف الانسان انه واخاه من طين واحد ، أو نسمة واحدة — وان التفاضل انما يكون بالأنفع من المسعى للمجموع — وليس بتاج ، او نتـاج ، او مال يدّخره ، او كثرة خدم يستعبدها ، او جيوش يحشدها ، وغير ذلك من عمل باطل ، ومجد زائل ، وسيرة تبقى معرة لآخر الدهر .

ثم قال — مخالفة المألوف — امر عظيم — وما يحتـاجه من الجرأة ، وعلوّ الهمة ، اكبر واعظم .

لا تصدق ان احداً من البشر يمكنه تخطيّ المألوف ، ومخالفته بسهولة — فهناك عقبة كؤود ، وهوة هائلة — لا يذللهـا ، ولا يجتازها الاّ فحول الابطال ، ونوابغ الرجال — اما بالأرفاد ، او بالحكمة وعظيم الهمة .

واعظم مزايا الانبياء (صع) — اقتحامهم مخالفة اقوامهم ، وما كانوا فيه من ضلال ، ومساوى احوال بما يعبدونه ، ويتعاملون به ، ويألفونه من قول ، وفعل ، وعادة .

ولو لم يكن لهم الا تلك المزية (وأنصفهم من يجحد ، وينكر ، رسالاتهم ، ونبوّاتهم) — لأعظم من شأنهم ، ولوجد فضلهم كبيراً .

فموسى (وقد بطش بفرعون ، وأخرج بني اسرائيل من مصر على الرغم منه) .

والمسيح وهجومه على هيكل اليهود (والفريسيون في اوج عظمتهم ، وسلطة ناموس موسى في يدهم — وهو في اجلّ تعاليه ·

فسفّه أحلامهم ، ودخل هيكلهم ، وكسّر صناديقهم ، وخرّب ما يتجرون به وقال : «بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة للصوص

وكذلك محمد — فقد كسّر الأصنام وأذلّ اللاّة ، والعزّى ، ومناة — واستأصلهم فعلاً — وابى قبول الملك من قريش ، ونهض لأعلاء كلمة الحق ، واستسهل في سبيلها كل اضطهاد ، وحرب ، وطعن ، وضرب ·

وخالف كل مألوف لقومه غير معقول — وبدأ به بنفسه ، وباشره بذاته ، وطبّقه على الأقربين من عشيرته · مثل نفي التجارة بالربى ، وعدم التعامل بها · لحطّ الربى ، وأنزله من اموال اقاربه — من عمومة ، وخؤولة وكان لهم من ذلك اموالٌ طائلة ·

وهكذا التبني — اذ كان الرجل من العرب يتبنى ابن الآخر «والنبيّ» قد تبنى زيد بن حارثة — فكان يدعى زيد بن محمد — فلما أُوحي اليه (صلعم) ان «ادعوهم الى آبائهم : الاية» — فقد دعاه الى ابيه «حارثة» ·

وهذا من المخالفة للمألوف عند العرب في المكان الاعظم · ففعله بذاته — وكان خير قدوة لترك كل مألوف غير معقول — وامثال ذلك كثير

❋ رأيه في الاديان الثلاثة وانها متفقة في المبدأ والغاية ❋

الناس تجاه الاديان الثلاثة — الموسوية ، والعيسوية ، والمحمدية — وكتبها — لا بد ان يكونوا احدى رجلين — اما رجلٌ يعتقد ان رجال

الاديان الثلاثة قد ارسلهم الله – وأوحى اليهم بالتوراة، والانجيل، والقرآن ـ والقصد من ارسالهم ارشاد الخلق الى الحق، واراءتهم الصراط المستقيم في الامور التعبدية . ومن بيان الحلال، والحرام ، وصون مصالح العباد بما شرعه لهم من الشريعة ، والزامهم العمل بهـا ـ وبالاجمال ـ بيان مشيئة الله بما يريده من خلقه ـ وما يريد ان تكون خليقته عليه .

وعلى هذا فلا يمكن ان يكون قصد الله الا واحداً ، ومشيئته الا واحدة ـ وكتب الوحي ، وما انزله على الرسل ـ لا بدّ وان تكون متفقة في المقصد والغاية ، ولا يصح التباين في جوهرها ، ولا أن تخالف بعضها بعضاً .

فلننظر الى الامر الرئيسي الذي جاء في التوراة من امر العبادة ، وما اراده الله من عباده هناك ـ فنرى ان الله قد نادى موسى من جانب الطور وكلمه قائلاً : « اني انا الله لا رب سواي فاعبدني انت وبني اسرائيل » ـ ومختصر ما ورد فيها ان طاعة الله ، وعبادته ، والعمل بما يبلغه الرسول ـ كل ذلك له في الآخرة ثواباً ، وسعادة سرمدية ـ فضلاً عن عاجلة الدنيا .

والانسان بسوق الحب الذاتي ـ لا يريد ، ولا يحب ان يعتقـد انه سيذهب سدىً بعد الموت ـ لأن الاعتقاد بذلك مزعج للنفس ، مقبض للروح ـ فهو يرجو بعد الفناء الظاهريّ ان يبعث ، ويكون له معاداً ، وان يحيي حياة ابدية .

ثم لننظر ما جاء في الانجيل ـ وما قاله المسيح ـ فنرى انه قال : «بما معناه ـ اعطيتني سلطاناً على كل جسد لأعطي حياة ابدية لكل من اعطيته

وهذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي ارسلته» ٠

فالعيسوية هي ناموس جاء متمماً مكملاً لما قبله من التوراة ـ كما قال المسيح «جئت لاتمم الناموس ـ لا لأنقضه» الخ ٠

ثم اذا نظرنا الى المحمدية — نرى القرآن مشحوناً بتوحيد الله ، ولزوم طاعته وعبادته — بقوله: « ما خلقت الانس والجن الا ليعبدون ، وامرت ان اعبد الله ربي ولا اشرك بربي احدا ٠٠» والحمد لله رب العالمين ٠ ٠٠» واياك نعبد واياك نستعين » و ٠

هكذا ترى الاديان الثلاثة متفقة في الامور التعبدية بلا ادنى تباين او تخالف ٠

ثم ننظر في المعاملات ، وما اجيز منها في تلك الاديان ، وما نهي عنه فيها ٠

نرى ان ما جاء به موسى ، او ما امره الله به من الوصايا ـ قد عمل بها المسيح ،ولم ينقض، او ينقص منها شيئاً ٠

و كذلك — محمد — فانه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل

قلنا — ان الناس تجاه الاديان الثلاثة ، وكتبها — احدى رجلين — رجل يعتقد بالوحي ، ويؤمن بالانبياء والرسل — ورجل يجحد الوحي ولا يؤمن بالانبياء ، ولا بارسالهم من عند الله ٠

اما الرجل المؤمن — فقد بحث ودقق ، وطبق كتب الاديان الثلاثة على بعضها كما مرّ — فلم يجد فيها اقل تباين — بل وجدها متفقة في المقصد

والغــاية ·

واما الرجل الكافر ، ومنكر الوحي — فيقول : ان الكون مع حوادثه من حيث حقيقتهما ليس فيهما شيء جديد ·

وما نراه جديداً — فانما هو في شكل الابراز ، وصورة الالقاء والتلقي فيأتي في قرن من القرون اولي بصيرة ، وآب ، ودهاء — فيعلمون تعليما بشكل خاص ، وصور معلومة عندهم — تأخذ من نفوس الخلق كل مأخذ ، ويتعبد لها اذا وضعت في شكل تعبدي · او يعمل بها اذا افرغت في قالب تعليمي ·

فالتعليم بتوحيد الله وتقديسه معروف عند قدماء المصريين قبل موسى باجيــال ·

والتثليث — من تعاليم الوثنيين وقد قال به فيثاغوروس الفيلسوف اليوناني قبل المسيح بخمسمائة عام · وان موسى وعيسى ومحمداً ، هم رجال عقلاء حكماء امتازوا عن وسطهم ، وجمعوا من معتقدات الاقدمين قواعد واقوالاً — وضعوها في كتب — لا يعقل ان تكون من آله السماء ·

ويقول ذلك المنكر — انه لو سلمنا ان في كتب الاديان شيئاً من النفــع — فهو لا يوازي مضار ما نراه بين اهل الدين نفسه ، والاديان من الاختلاف ، والتنافر ، والمشاحنة ، والبغضاء · ولو كانت من الآله حقيقة — لجعلهم ان يتفقوا عليها ولا يختلفوا — ثم يستحيل ان يكون فيهــا ما يرى من الخرافات الخ ·

قال جمال الدين : هذا غاية ما عند الجاحد ، المنكر من القول والحجاج

والمطلوب منه في موضوعنا هنا — ليس الايمان بالوحي ، وبالانبياء — بل — اذا كانت كتب الاديان الثلاثة متفقة بالتعاليم الجوهرية ، وفي المقصد والغاية — ام لا ؟

اما اتفاقها ، وعدم تخالفها = فقد ثبت = ولا يستطيع احد جحوده ، وانكاره .

واما ما يراه المنكر ، ونراه نحن ايضاً ، من اختلاف اهل الاديان = فليس هو من تعاليمها ، ولا أثر له في كتبها = وانما هو صنع بعض رؤساء اولئك الاديان الذين يتّجرون بالدين ، ويشترون بآياته ثمناً قليلاً ساء ما يفعلون رؤساء الاديان = وما انفعهم اذا صلحوا = وما اضرهم اذا فسدوا .

فالاديان في اصلها وجوهرها = وازع عظيم ، ودواء نافع مفيد لكثير من امراض البشر = هذا اذا أحسن الاطباء = (وهم هنا رؤساء الاديان) عدم خلط ذلك الدواء ، بالضار من الاجزاء ، وراعوا قابليــة العقول قبل الاجسام ، واعطوه منه بقدر معلوم ، بقول مفهوم ، وبيان معقول .

قال : سألني احد نواب الهند عن اشياء يعتبرها شبهات = كادت ان تخل في عقيدته الاسلامية ، وتريبه في انزال الكتاب — اهمها : اذا كان القرآن كلام الله وقوله « ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون » حقاً .

فلمَ الاسلام في هذا العصر في اعظم دركات التقهقر ، والانحطاط ، وعلى خلاف صراحة الآية . — واطال في القول حتى اذا انتهى — قلت له اعلم ان كل دين يجب ان يكون حقاً .

فالاسلام اسم ومسماه الحق . — فلو اتاك رجل اسمه « عالم » وهو في حقيقته جاهل — هل تنكر لمجرد الاسم وعدم انطباقه — فضل المسمى — وتقول لان اسم هذا الرجل « عالم وهو جاهل » — اذاً لا فضيلة للعلم .

ولو اتتك الملايين باسم الاسلام — كما هو الحال في هذا العصر — وهم لم يقوموا بحق المسمى من الحق — هل ينبغي لمجرد مخالفة الاسم — ان ينكر فضل المسمى — وهو حقيقة « الاسلام » كلا .

لذلك قال الله تعالى « ودين الحق ليظهره .. الاية »

ولم يقل — ومن تسمى بدين الاسلام ليظهره . الخ — على ان الاسلام ، ومن دان به من المسلمين لما عملوا بحق الدين — ظهروا ظهوراً طبق الارض نوراً ، وملأها عدلا .

فالظهور للحق وللحقيقة = وليس للاسلام اسماً مجرداً

وما تراه اليوم في المسلمين من التقهقر ليس من حقيقة دين الاسلام بل من جهل المسلمين = «حقيقة الدين »

وفي هذه الاية =«ودين الحق ليظهره على الدين = كله = ما يفهمنا ان هناك « كل من «بعض » .

فالاديان في مجموعها هي « الكل » واجزاؤها « الموسوية» والعيسوية » « والاسلام . فمن كان من هذه الاديان كلها على الحق فهو الذي يتم له « الظهور والغلبة »

لأن الظهور الموعود به الدين انما هو « دين الحق » كما قلنا وليس — دين اليهود ، ولا النصارى ، ولا الاسلام اذا بقوا اسماء مجردة ، ولكن من

عمل من هولاء بالحق فهناك «الدين الخالص» .

قال الله تعالى « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين الا لله الدين الخالص الآية ..»

❋ رده على من اخذ عليه قوله ان اصول الاديان واحدة وانها من المتناقضات — وبحث تصوفي ❋

قال : ان امر التصوف لم يكن في المسلمين فقط — بل رجال اديان الكتب السماوية كانوا على حقيقة من التصوف في المعنى — واختلاف في صور الالفاظ، وشكل الالقاء — أو الفهم الذي يريده « الرئيس » أو المسيطر — أن يحور به المعنى على حسب ما يرتئيه نافعاً ، ومفيداً ، وموافقاً للغرض في حينه .

فآيات التصوف في التوراة اكثر اغلاقاً مما في الانجيل . مثل قوله «اسرائيل ابني البكر» . فاليهود مع وجود هذه الآية في التوراة — ما ذهبت، ولا اعتقدت ان الآله له ابنا — أو يجوز عليه ما يجوز على البشر من اشكال التناسل ، والولادة أو الزوجة ، والولد .

ومثل هذه الكلمات، والاقوال — لا يسعنا الآن نقول انها «تصوف» أو الفاظ لمعان حقيقتها غير ظاهر الفاظها .

وكثيراً ما تأتي اقوال المتصوفة على صورة من الابهام — بالنسبة لبعد ما بين منظورهم بالبصيرة ، والحس الروحي — وبين ما يرى من الاشياء المحسوسه — ولها قوالب الفاظ مألوفة تدل على معناها . بعكس المرئي له

والمشاهد في الحس الروحي ، ومواجد اهل التصوف الذوقية ، التي يقصر ما لدينا من الالفاظ عن تصويرها والدلالة عليها . فالتصوف يجب ان نفهمه — انه مذهب حكماء ، وعقلاء « تريضوا » أي هذّبت ، ولطّفت جسمانهم الرياضة — وكثر منهم النظر في الاشياء ، والتطلع الى حقائقها ، وفهم كنهها عن طريق الحس الروحي ، والانفعال في النفس المتعلقة في الجسم موقتاً . فهم فيما كانوا يرون ، ويقولون في مواجدهم ، ومشاهدهم ، وذوقهم — اما ان يراه من كان من غير طبقتهم — غير معقول وغير مفهوم — وأما ان يسيء فهم معناها اذا أخذه على ظاهر لفظه .

كان بحث جمال الدين — في التصوف — وفي ان الاديان الثلثة متفقة في المقصد والغاية ، وان غرضها تعليم التوحيد ، وان تعمل لخير الانسان — في محفل حافل في بيته — وكان من جملة الحاضرين طبيب السيد «وهو موسوي» — فبعد ان انفضّ المجلس — قال الطبيب : يا استاذ ان النصرانية لا تعلم التوحيد — بل اساسها قائم على التثليث — بعكس الموسوية والاسلام . والانجيل طافح بمثل اقوال المسيح «انا في الآب والآب فيّ » ومثل قوله : ايها الاب مجّد ابنك ليمجدك ابنك ايضاً .

فقال جمال الدين = ان المسيح (ص ع) وضع اساس تعليمه ، والغاية من مجيئه = ان يكمل الناموس لا ان ينقضه ــ وناموس موسى بني على التوحيد ــ فلا يصح نقض ذلك الاساس ــ وان ورد بعض الاقوال ما يخالف في ظاهرها ذلك الاساس ــ وجب الرجوع الى التأويل كما قدمنا = وان لا يرمي اي دين بالضعف والوهن .

واما امثال قول المسيح « انا في الآب والآب فيّ » فقد ورد عنه قوله ابي وابيكم « وكلهم ابناء الله يدعون » . وفي التوراة كما ذكرنا جاء « اسرائيل ابني البكر — وهذه الاقوال كلها تصوف محض

وورد في كلام اهل التصوف من المسلمين اقوال مغلقة — مثل قول الشيخ الاكبر ، محيي الدين بن عربي ، والخواص ، والجنيد ، والحلاج ، والجيلي ، وبن مشيش والسهروردي والبكري وغيرهم — واليك امثلة من ذلك .

يقول الشيخ الاكبر في بعض صلواته « اللهم يا من ليس حجابه الا النور ولا خفاؤه الا شدة الظهور اسألك بك في مرتبة اطلاقك عن كل تقييد ، التي تفعل فيها ما تشاء وتريد وبكشفك عن ذاتك بالعلم النوري ، وتحولك في صور اسمائك وصفاتك بالوجود الصوري .

وقول السيد البكري : نعم العبد الذي به كمال الكمال ، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد ، ولا اتصال ولا انفصال . قال :

ترون من هذه الكلمات المتناقضة ظاهراً — انما اراد نفي الحلول الذاتي فأتى لذلك بنفي الحلول اولاً — والاً كيف يعقل لو بقينا على مفهوم الظاهر من معنى الكلمات = ان المتصل بالوقت ذاته يكون منفصلاً .

فمعاني التصوف — وان كانت مغلقة في الغالب ، لا يفهمها الاّ اصحاب الذوق والمواجد — ويعسر على غيرهم تناول فهمها — فلا بأس من التقريب في التأويل لينتفي غير المعقول .

وخير مثال يقرّب للعقل المفهوم في مثل هذه الحال والاقوال « المرآة »

التي تمثل الشيء تماماً — فيُفتح بهذا المثل بعض مغلقات ما ذكر من كلام المتصوفة — فاذا قابلت المرآة الشمس — رأيتها في المرآة — ولا يعتري الانسان أدنى شبهة انها « الشمس » على غير طريقة الحلول في المرآة ، ولا على صورة الاتحاد أو الاتصال أو الانفصال ·

وحقيقة ذلك المرئي من الشمس انما تجلى في المرآة «لشفافيتها» وبتلك الشفافية حصل ذلك الانطباع على تلك الصوره — على غير حلول ولا ولا الخ·

ومن الامثلة — قول بن مشيش — «وانشلني من اوحال التوحيد واغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ، ولا أسمع ، ولا أجد ، ولا احس الاّ بها ، واجعل الحجاب الاعظم حياة روحي وروحه سر حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الاول يا اول يا آخر يا ظاهر يا باطن ··» الخ ·

وقول الحلاج — «ما في الجبة غير الله !»

ثم قال: اذا علمنا ان تجلي الشمس في المرآة حصل لشفافيتها — هكذا تجلي الذات في خلقه عندما تتلطف الكثافة الترابية ، الجسمانية ، وتشف الروح ، وتتمكن — من اتصالها بعالمها — ترى من الذوق في الشهود — ما لا يسعه الاّ التعبير بالمتناقضات ظاهراً كما تقدم وليس ثمة تناقض ·

وكلام المسيح (ص·ع) — ان هو الاّ غاية في التصوف — ولا يصح حمله ، أو فهمه على صورته الظاهرية · والاّ لانتقض اساس الناموس الموسوي — الذي انما اتى ليتممه فلا يصح ان تنزل التوراة على موسى من عند الله «بالتوحيد» وينزل الانجيل من عند الله على عيسى «بالتثليث»

وصريح اقوال المسيح في جوهر الاعتقاد اكبر دليل على صحة ما نقول من ان الاديان الثلثة متفقة في المقصد والغاية»

❋ المسألة الشرقية ومرئاه في حلها — وتبجيله لفكرة السلطان ❋ محمد الفاتح ، والسلطان سليم باتخاذ اللسان العربي لساناً رسمياً والأخذ بتعميمه

مختصر المسألة الشرقيـة — هي عراك بين الغربي ، والشرقي — وقد لبس كل منهما لصاحبه درعاً من الدين . فالغربي تدرع بالنصرانية — والشرقي بالاسلامية . وأهل الديانتين كالآلة الصماء بايدي محركيهما .

فالقائمون بالنصرانية — يسخّرون الدين لأجل الدنيا — ويحسنون امر دنياهم وما تتطلبه مظاهر الحياة .

والعاملون بالاسلامية — يسخّرون الدنيا لأجل الدين — واذا هم لم يعملوا باحكامه يخسرون الدين والدنيا معاً .

ان فتح القسطنطينية — تلك العاصمة العصماء — من قبـل السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٦ — سنة ٨٥٧ هي التي ولّدت الحقد في الملوك المسيحيين ضد المسلمين واخذت من ذلك الوقت تجمع كيـدها وتحصر همها لمناصبة الدولة العثمانيـة ، وتعمل على اذلالها ، وتضعضعها ، واخراجها من فتوحاتها الاوربيه بكل وسيلة ، وفي كل سانحة وفرصة .

والاكثر في الحروب ، والتغلب ، والانتصار فيهما — انما يكون بالقوة ، وبالعلم — ولو ان الدولة العثمانية راعت من يوم تأسست — او من

يوم ما استقلت به سنة ٦٩٩ وراقبت حركات العالم الغربي — وجرت معه حيثما جرى في مضمار المدنية ، والحضارة ، وقرنت الى فتوحاتها المادية — القوة العلمية — على نحو ما فعلت اليابان اقله ·

نعم لو فعلت ذلك لما كان ثمة مسألة شرقية — او لما ظهر ذلك التباين الذي لا يثبت معه الحكم طويلاً — وهو تحكم الجهل بالعلم — أو «حكومة جهل تحكم حكومات علم» ولا يتسنى اليوم للسيف المجرد ان يحكم بامة يدافع عنها مدافع العلم — وما مسألة الدين الاّ ذريعة — تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية «وهي دفع الجهل ، والحكومة الجاهلة — عن الحكم بأمة عالمه لها تاريخها ولسانها ، واثارها — ولو كانت بالية ·

واذا كان للضغينة الدينيــة شيئاً من الدخل في ايجاد المسئلة الشرقية ، والاحتفاظ بها — فانها ليست هي كل اسبابِ المسئلة — بدليل ان سلاطين آل عثمان فتحوا ، وتوغلوا ، وضموا الممالك — وكانوا يدينون بالاسلام ·

ومن دخل في ملكهم ، وتحت سيطرتهم — كانوا نصارى واشد تمسكاً بالنصرانية مما هم الآن · فلو كان امر الدين هو البــاعث على هذا الحقد ، والمناهضة لكان الاولى ان يظهر اذ ذاك — وعدم ظهوره — بل رضوخ الطوائف ، والامارات النصرانية للحكم العثماني ، الاسلامي — اكبر دليل على ان مسئلة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في امر المسئلة الشرقية — التي امتدت ، وستمتد الى غير تركيا ، وستعم كل قارة وكل حكومة تتفق في شكلها ، وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا

اذا تفحصنا عوامل تغلب الدول الاسلامية على الحكومات النصرانية

لوجدناه منحصراً « في القوة — والعلم »

وهكذا يدول امر الدول - انتصاراً وانكسارا .

والدول المسيحية اليوم انما يغلبون الحكومات الاسلامية بالعلم — مصدر القوة وينغلب المسلمون بالجهل — مصدر الضعف

علم الاتراك يوم تسنّى لهم فتح الممالك «علم الحروب وتعبية الجيش» — وجهل الاوروبيون ذلك ، ولم يضارعوهم فيه — فانتصر الاتراك ، وانكسر الفرنجة .

التزم الاتراك والسلاطين العظام منهم جانب الدين وكان على منصة المشيخة الاسلامية علماء اعلام ، وفقهاء ، واجلاء عالمون ، عاملون بحقيقة ، واحكام الاسلام — يصدر السلطان ، واكابر دولته عن رأيهم ، وينزل على حكمهم ـ فعدلوا في الرعية ، وأمنوا من دخل في ذمتهم ، وسهلوا لهم الصعاب ، وحافظوا على جامعاتهم من دين ، ولسان ، وعادة ـ فرضخ المستعمرون من الطوائف النصرانية لقوة العثمانيين — وعدلهم ، وعلمهم ، بالنسبة لجهل غيرهم في تلك الاعصر .

فظل النصارى في طاعة العثمانيين — وظلوا في كل المعاني رعية لهم — ما دامت تلك المؤهلات والصفات في الفريقين — القوة والعلم في الحاكم . — والضعف والجهل في المحكوم .

حتى اذا انعكس الامر ، وبان الجهل مصدر الضعف في الامة الحاكمة وظهر العلم مصدر القوة في الامم المحكومة — نهضت للتخلص من ربقة الاستعباد لمن دونهم في العلم — واستبسلت في الرجوع لحكم ذاتها بذاتها .

وقد سهل عليهم كل صعب في هذا السبيل — اقرار الدولة لهم على جامعاتهم الكبرى من دين، ولسان وتاريخ ، تلك النعمة التي كانت وتكون على الدولة اكبر نقمة . — ولا مناص لها من تحمل اعباء ذلك — وهي سنة الوجود. لان الامم المحكومة اذا تيسر لها المحافظة على جامعاتها من دين، ولسان وتاريخ - ولم تستحيل، وتنحل في غير عنصرها ـ فهي ارقب الناس للفرص وأعلق الخلق باعادة مجدها ، وتجديد ، واعادة سيرتها الاولى . ولن يثنيها اشد العوامل عن المطالبة بها. وتزداد نشاطاً ،وتستمد قوة معنوية كلما آنست من حاكمها المستهين بها استطالة بغير حق،واستهضاماً لحقها بغير وجه مشروع و بقهر ليس له من الانصاف نصيب ، وبقتل يحيي ميت العزائم .

ثم قال : ومن ينظر الى تاريخ الدولة العثمانية ونشأتها لا يتمالك نفسه من الاعجاب بنشاطها ، و كثرة ما فتحته من الممالك ،واخضعت لسلطانها من الامم .

ويأخذ به الاستغراب كل مأخذ ـ من تفريطها ، وعدم جريها مع احكام الزمن ـ وحرمانها نفسها ، ومن دخل في حكمها من الامم ان تجري وأياهم في ميدان الحضارة ، أو ان يبقى لها اثر من الآثار — في تلك الممالك والامصار .

نشأت في الجيل السابع للهجرة ـ أوآخر القرن الثالث عشر للميلاد باسيا الصغرى . فاستخلص السلطان عثمان الاول ما بيد السلجوقيين من الملك وهو القسم الشرقي ومشوا على ما بيد الروم من القسم الغربي .

وقد حول العثمانيون انظارهم وصرفوا قوتهم ، وهمتهم الى شبه جزيرة

البلقان تلك البقعة الغريبة في وضعها الجغرافي — اذ وقعت في اقصى الجنوب الشرقي من اوروبا — والى جانب اسيا . وبعد انقسام المملكة الرومانية الى شرقية وغربية . — كانت شبه جزيرة البلقان في المملكة الشرقية — وفيها غير تركيا ، — اليونان ، والصرب ، وانبلغار ، ورومانيا ، والجبل الاسود — ولكل من هولاء الامم عنعنات ، ومطامع ، وعروق وانساب ، ونزعات طائفية ، واختلافات مذهبية واميال سياسية = كانت معها البلقان في سائر الاعصر مهد الفتن ، والقلاقل — ولا تزال كذلك ، وسيعم بلاء البلقان اهله — ويتعدى الى ما سواه من الممالك .

لان كل دويلة من هذه الدويلات الصغيرة تطمح في تكبير حوزتها، وهذا الكبر لا يتم الا بتصغير جارتها، او بابتلاعها ومن وراء هذه المطامع في حكومات البلقان وابتلاع بعضهم بعضاً ـ الدول الضخمة كروسيا والنمسا ومن ساعد على استقلالهم ـ واخراجهم من الحكم العثماني وهم بمساعدة البلقانيين على الاستقلال انما يريدون ان يبتلعونه ويملكونه جزءًا بعد جزء ـ وستكون الحجة عنصر السلاوي ، والصقلبي ـ وكانت الحجة من قبل تخليص النصرانية من الحكم الاسلامي ـ والصحيح ـ قويّ يحاول اقتناص ، وابتلاع الضعيف .

ثم قال : هذا بحث يطول . ولنعود الى ما كنا فيه من النظر الى ما ترك العثمانيون من الأثر فيما افتتحوه من الممالك .

افتتح السلطان مراد الثاني بلغاريا سنة ١٣٨٢ م وبقيت تحت حكم العثمانيين وفي حوزتهم نحواً من اربعة اجيال ـ والبلغاريون قوم اشداء

واصلهم من المغول مثل المجر والفنلنديين ، نزحوا من جهات قازان في روسيا اوروبا ونزلوا بلاد البلقان في الجيل السابع للميلاد — وهي من اول نشأتها الفت الاستقلال وحافظت على مكانتها — وكانت دولة البيزانطيين تخشى بأسها — ثم اخذت في التقهقر فافتتحها الروسيون — ثم ناهضتهم واعادت استقلالها في القرن الحادي عشر — ثم دخلت في حوزة الروم وصارت جزءاً من المملكة الرومانية الشرقية ثم استقلت ثالثة — ولم يفقد البلغاريون استقلالهم اربعة اجيال الاً مع العثمانيين — وماذا فعلوا مع البلغار في مدى تلك الاجيال — وأي اثر عثماني تركوا في بلغاريا . لا شيء — بلى — تركوا لهم جامعاتهم الكبرى من دين ، ولسان ، وتاريخ يسيرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين — وحكامهم الاتراك من القاعدين مكتفين بالفخفخة ، والغطرسة ، والفخر بالأسلاف .

هذه اربعة قرون ، وبلغاريا تحت حكم العثمانيين — وهي لا تزداد الاً انحطاطاً حتى اذا ما صارت أيالة ممتازة بموجب معاهدة برلين — نهضت ، وقطعت شوطاً بعيداً في الحضارة ، والعمران ، والترقي — وصار لها جانباً يخشى حتى من الدولة العثمانية .

اما الصرب فهي ايضاً من فتوحات مراد الثاني سنة ١٣٨٩ وبقيت كذلك في حوزة العثمانيين اكثر من اربعة قرون = وقد حاولت التخلص من حكم العثمانيين مراراً = وآخر ثورة قام بها الصربيون دامت اربعةعشر عاماً نال بها الصربيون من الباب العالي نوعاً من الاستقلال . وسنة ١٨٧٨ استقلت تماماً بمقتضى معاهدة باريز — ولحقت بجارتها بلغاريا .

وكذلك اليونان فقد اخضعتها الدولة العثمانية مع من اخضعت من ممالك البلقان وظلت في حوزتها وتحت حكمها الى سنة ١٨٢٩ فاستقلت بمناصرة اوروبا وبعد حروب طويله دامت سبع سنين ، واشتركت فيها العمارة المصرية بقيادة ابراهيم باشا اذ ارسلها محمد علي باشا الكبير الى الموره . الأمر المعروف .

اما رومانيا وكانت في القرن الثاني عشر عبارة عن امارتي فلاخيا ، ومولدافيا وقد خضعوا للعثمانيين وكانوا يؤدون الجزية من سنة ١٣٩٢ الى سنة ١٧١٦ . ثم بعد ذلك دخلوا تحت سلطة الحكم العثماني = ثم احتلت روسيا البلاد واعادت لهم امتيازاتهم التي كانت لهم وخسروها من سنة ١٧١٦ ثم كانت ثورة سنة ١٨٦٦ وانتهت باختيار الرومانيين البرنس شارل دي هوهنزلرن الالماني .

ثم قرر مؤتمر برلين استقلال الولايتين «المعروفتين بالفلاخ والبغدان» استقلالاً تاماً ودعاهما باسم رومانيا — وفي سنة ١٨٨١ جعلت الامارة مملكة ونودي باميرها ملكاً .

اما الجبل الاسود — وله من اسمه نصيب — فهو مقاطعة صغيرة ، جبلية وعرة ، لا تزيد مساحته عن ٣٦٣٠ ميلاً مربعاً وسكانه مايتين وسبعة واربعين الفاً — وهم من العنصر الصقلبي — واكثرهم فلاحون رعاة — على غاية من شقاء العيش — هذه الامارة الحقيرة قديمة العهد بالاستقلال ولم يرضخها ، ويفتتحها من العثمانيين الا ذلك السلطان العظيم سليمان القانوني — الذي وصلت السلطنة العثمانية في عصره الى منتهى المجد والعظمة .

ولما كان الجبل الاسود على ما ذكرنا من الفقر والوعوره — واهله اولي بأس وشدة ، واستبسال في الدفاع عن استقلالهم — فكانت الدولة تعد الجبل من ولاياتها — والجبليون من حين لآخر يجاهرون بالعصيان — حتى اذا حملت عليهم جيوش العثمانيين يتظاهرون بالرضوخ وهكذا من سنة ١٥٢٦ الى زمن البرنس نقولا «وهو ملك الجبل الحالي» ظل معترفاً بسيادة الدولة الى سنة ١٨٦٢ ثم جاهر بالعصيان والتمرد حتى اذا كان مؤتمر برلين» «ذلك القضاء المبرم» على الدولة — فقد اعلن استقلال الجبل الاسود والتحق باخوانه امراء شبه جزيرة البلقان ، وتخلصوا من حكم آل عثمان .

هذه هي شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون — وبقيت في حوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال — فماذا احدثت في تلك الممالك من آثار العمران ؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى ؟ وماذا أعدّت من الحزم والرأي والتدبير لبقاء تلك المقاطعات، والامارات في حوزتها ؟ واذا كان الجواب « لا شيء » . حينئذ يضطرنا الانصاف — الى ان نقول : ان الدولة العثمانية في فتوحاتها ، وما شاهدناه من تفريطها — لم تكن لتحسن الاستعمار بل بقيت سداً منيعاً للأمم المحكومة منها — يحول بينها وبين الأخذ باسباب الحضارة ومجاراة الامم الراقية في مدنيتها وعلومها وصنائعها . شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون عن السبعة عشر مليونا . ولكل امة ومملكة ، جامعات ومميزات ، من تاريخ ، ودين ولسان ، وعادات واخلاق ، وهي في كل هذا — على طرفي نقيض مع العثمانيين الاتراك — فلو اخذت الدولة بالحزم بعد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأي — لعلمت ان بقاء تلك

الممالك في حوزتها يحتاج لايجاد جامعات تجمعها مع شعوبها فتعمد الى وسائل تعميم لسانها — باحداث دور علم وغيرها — حتى اذا استطاعت، وتسنى لها في ظرف جيل، او جيلين ان تعمم لسانها . كان لها احدى العوامل الكبرى للبقاء، ولعدم سرعة الانفصال والتفكك . اذ يكونوا اتراكاً باللسان مثلاً . او بالدعوة الدينية كما يفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين من الانجيليين والرهبان، وبتشييدهم « دور العلم »

فاذا انتشرت الدعوة الدينية، وقبلتها الامة المستعمرة = اشتركوا بجامعة ثانية، وهي اللسان، والدين، فكان الارتباط اشد، واوثق .

وهكذا اذا فازت على مدى اربعة اجيال، ان تعمم الجامعات التي لها بين تلك الشعوب = اشتدت عرى الاتحاد وانتفى التغاير، واسباب النفرة اما والدولة العثمانية لم تفعل في ممالك البلقان ما ذكرنا، ولم تفكر فيه فضلاً عن ان تسعى اليه — فكان خروج تلك الممالك من حوزتها، واستقلالهم، امراً محتماً وقوعه لا مردّ له (سنة الله في خلقه)

ثم لننظر في فتوحات الدولة للممالك الاسلامية من مصر، والشام فحلب فبغداد وتونس وسائر الممالك العربية . فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة، والحروب . وكان لجامعة الدين التأثير العظيم = في قبول الحكم العثماني = ولو ان الدولة قبلت من يوم استقلالها، وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح، أو السلطان سليم = بان يتخذ اللسان العربي، وهو لسان الدين = لساناً رسمياً، وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الاتراك = لكانت في امنع قوة، وآمن حصن من الانتقاض،

والخروج عن سلطانهم . ولكنها فعلت العكس، اذ فكّرت بتتريك العرب وما اسفهها سياسة، واسقمه من رأي، لان تدين الاتراك بالدين الاسلامي = على جهل باللسان العربي = جعل لهم في القلوب منزلة = ساقت وتسوق الامة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين .

فما قولك لو تعربت، وانتفى من بين الامتين، النعرة القومية = وزال داعي النفور والانقسام « بالتركي وبالعربي » = وصاروا امة عربية = بكل ما في اللسان من معنى، وفي الدين الاسلامي من عدل، وفي سيرة افاضل العرب من اخلاق، وفي مكارمهم من عادات .

لا ريب لو تيسر ذلك لكان اعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً ـ وجمع شتات الممالك الاسلامية تحت لواء سلطان عادل، همام مثل الفاتح، أو السلطان سليمان، أو السلطان سليم غير عسير .

ولكن مع الأسف عدم قبول فكرة السلطان الفاتح، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربي ـ خطأٌ بيّنٌ ـ لا يضارعه إلاّ توغل العثمانيين في اوروبا، وشبه جزيرة البلقان، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة .

لأن المستعمرة مهما عظم موقعها، وطاب هوائها ـ لا يصح ان تتخذ قاعدة، أو عاصمة الملك ـ لاسباب اهمها ـ ان المستعمرة « كما سيأتي بيانه » كالثوب العارية قابل للإسترداد ـ والممالك لا تسقط، ولا تتبعثر اجزاؤها إلاّ من ضعف السلطان في عواصمها، وبسقوطها .

ومنها بعد المستعمرة على الغالب عن مجموع القوة ـ واحاطتها باعداء

الملك واعوانه الخ ·

انظر — هل ترى دولة اوربية جعلت عاصمة ملكها في غير قلب مملكتها — وفي غير مكان نشأة تلك الامة ·

فالانكليز لم يجعلوا عاصمتهم — مع سعة ملكهم — الاّ جزيرة بريتانيا وفي قلبها مدينة « لندن » وهي الجزيرة التي سكنها البريتانيون · في دور توحشهم ·

والفرنسيس — في باريس — قلب بلاد الغاليين ·

وهكذا بقية الدول — لانه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها ، وانتقاضها فانه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكاً خاصاً ·

وعلى هذا جرى الخلفاء الراشدون — فمقرهم كان المدينة وهي قلب البلاد العربية ، محاطة بقوة العرب من سائر الجهات ·

ثم الأمويون — ففي الشام ·

ثم العباسيون ففي بغداد ، والعاصمة انشأها المنصور انشاءً وكان في ملكهم من المدن ما هو اطيب هواء ، وامنع موقعاً من بغداد — ومع ذلك فلم يستبدلوا العارية بالملك الصرف ·

نعم ان فتح القسطنطينية فيه من الفخر للفاتح ما لا يمحوه الدهر — خصوصاً بعد ان حاوله الامويون وبعثوا بالجيوش تحت قيادة يزيد — ومعه خالد ابو ايوب الانصاري صاحب المقام المعروف بالسلطان ايوب ولم يظفروا · ثم العباسيون — واكتفى الرشيد ومن بعده بأخذ الجزية من ملكها · وغيرهم من ملوك الاسلام — ولم يظفر بالفتح — وبمعنى الحديث الشريف «لتفتحن

القسطنطينية فنعم الأمير اميرها ونعم الجيش ذلك الجيش» الا ذلك الفاتح العادل الكبير السلطان محمد طيّب الله ثراه ·

ولا ارتاب ان فتح القسطنطينية لو تيسر للأمويين او للعباسيين — لما جعلوها عاصمة ملكهم · بل جعلوها كما جعلوا غيرها من الممالك ، مستعمرة — تتقوى المملكة بجباية الاموال منها — وفوضوا امر ادارة شؤونها لأحد الدهاة منهم كما فوضوا مصر ، والاندلس ، والسند ، وبخارى ، وبلاد الفرس وغيرها للمقتدرين من العمال — وهذا هو الحزم ، وغاية الصواب ·

واما شبه جزيرة البلقان — فأن كان في ظاهر امر فتحها من الاتراك ما يدل على القوة والبأس — فان في حقيقة الامر كانت مصدر بلبال الدولة ، واضعاف قوتها اذ لم تسكن فيها القلاقل ، والفتن ، ولم تفتر الدولة من تجييش الجيوش ، واراقة الدماء في سبيلها — كل ذلك — وبالنتيجة كان البقاء في البلقان غير مضمون — بل كان استقلال ممالك البلقان مجزوماً فيه من كل عاقل ·

قال : ولقد سمعت من المرحوم عالي باشا ذلك الصدر الأعظم — الكبير العقل ، النافذ النظر وهو يعتقد ان داء البلقان سوف يضعف جسم الدولة ، وسوف تضطر مكرهة على التخلي عن البلقان — بعد خسارات مادية ، ومعنوية لا يمكن تعويضها · وانه وجد طريقة للتخلص من البلقان مع حفظ شرف الدولة ، والاستعاضة عنه بمبالغ جسيمة يمكن اصلاح بقية المملكة بها · وتعزيز قوتها في اسيا ، وافريقيا ·

ويا للأسف كيف ان هذا الرجل الكبير لم يتوفق لتحقيق هذا

الفكر السليم ، والعمل الذي فيه كل خير — وكان امر الله مفعولا

فلو فعلت الدولة ، وأخذت برأي عالي باشا ، وغيره من حكماء الوزراء أو بالذي تصورته لها من انها تتخذ بغداد عاصمة ملك — ومقرّ الخلافة . وعندها الدجله ، والفرات ، والخابور ، والبصره وشط العرب . ذلك النيل الذي يفيض كل اربعة وعشرين ساعة مرة . وتلك السهول الخصبه التي على جانبي ، وضفتي ذينيك النهرين العظيمين — والتي مساحتها عشرة اضعاف اراضي مصر ، على اقل تعديل ، واعظم منها خصباً ، واكثر انباتاً

ثم قال : رحم الله محمد علي باشا ذلك الأمي الكبير — نابغة رجال اعصار ، واجيال فقد طوى تحت جبته هماً تدكدك الجبال — وقلباً يقدم به على هائل الاعمال . وتحت عمامته دماغاً فعالاً ، وعقلاً جوالاً ، وبصراً نافذاً ، وفكراً ثاقباً ورأياً صائباً .

بلغ الرجل من حدة الذهن ، وفرط الذكاء ، والدهاء ، وبعد النظر — انه بعد ان حسّن خراب مصر تحسيناً بيناً ، ونظّم ما اختل من امورها ، واستنهر النيل للقناطر الخيريه . ومنها يجري في الجداول والترع .

عرض على الباب العالي والتمس من السلطان ان يعيضه بالبصرة عن مصر . وانه يعد أسعاف هذا المسئول — منةً ، وفضلاً فتأمل ؟؟

هذا الرجل العظيم — لو لم يعلم يقيناً ان البصره خير من مصر — لما طلب ما طلب . هذه هي البصره — واما الموصل «ذات الربيعين» فما شئت عنها فقل .

ثم اذا علمنا ان المسافر من بغداد في عصر الرشيد كان يمشي في ظل الاشجار

حتى يبلغ غوطة دمشق — ومصب نهر «قويق» في حلب . ثم اذا اتجه من هناك للشمال ورأى سيحون وجيحون يجريان في سهول اطنه . وفي الجنوب عند دمياط ، ورشيد ، والاسكندرية يصب النيل المبارك — وان كل تلك الممالك ، والامصار ، والانهار — هي ملك خاص للمسلمين — لا ينازعهم فيه منازع الا اولو القوة من اهل المطامع — ونزاعهم بالختل والخداع ، وبالحيلة والمكر ليس الا .

فلو انصف الاتراك انفسهم ، واخذوا بالحزم — واستعربوا — وترأسوا ذلك الملك ، وعدلوا في اهله — وجروا على سنن الرشيد ، أو المأمون — على الأقل — ولا نقول — على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين . —

فمن كان من دول الارض اغنى منهم مملكة ؟ أو اعز جانباً ؟ ، وأمنع حوزة مَن ؟؟ ولكن مع الأسف — ان اخواننا الاتراك لم يحسنوا من اعمال الدنيا غير « الحرب » وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص في شؤون العمران أقل روية ، وعملاً من سواهم — يسوءني وأنا ممن يحبهم — وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبولهم اللسان العربي ، وأن يستعربوا

وازداد تأثراً إذ اراهم يرتكبون خطأً افضح — وهو جريهم وراء تتريك العرب واستبدال اللسان العربي — لسان الدين الطاهر ، والادب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر — باللسان التركي » !!

وذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية ، والفارسية — لكان افقر لسان على وجه الارض — ولعجزَ عن القيام بحاجيات أُمة بدوية . ولولا انه خليط من ثلثة السنة — لما رأينا للأتراك شعراً يقرأ ، أو منثوراً

يفهم ، أو بياناً يترجم عن جنان · — وهو في حالته هذه ــ اذا وزن مع لسان من الالسنة الحيّة ــ تجده قد خف وزناً ، وانحط معنىً ·

فكيف يعقل تتريك العرب ــ وقد تبارت الاعاجم في الاستعراب ، وتسابقت ــ وكان اللسان العربي لغير المسلمين ــ ولم يزل ــ من اعز الجامعات واكبر المفاخر ــ فالأمة العربية هي ــ « عرب » قبل كل دين ومذهب ــ وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ــ ما لا يحتاج معه الى دليل أو برهان · ثم قال : لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في اكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة ــ فكان يسمع بكل اصغاء ولكنه في النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له ــ وفهمت من اوضاعه ، واسارير وجهه ــ انه لا يعتقد ان قبول اللسان العربي ، وفكرة الفاتح والسلطان سليم بذلك ــ صواباً ــ وكذلك لا يحب ان يعترف ان توغلهم في اوروبا ــ وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأً ــ نعم ان زمن العمل قد مضى ، وانقضى ــ وكان الحزم في اخراج تلك التصورات لحيّز العمل ــ والدولة العثمانية ابّان عزها واستكمال قوتها ، وبأسها ــ أما اليوم فالأمر للقوة ، والطاعة على الضعيف وليس باستطاعة عبد الحميد ان يفعل ما كان بامكان السلطان الفاتح ، أو السلطان سليمان ، أو السلطان سليم ان يفعله · قال : فحولت وجهي عن ما لا يمكن ــ الى ما يمكن وفيه وقاية ما بقي من املاك السلطنة العثمانية في غير اوروبا ·

فقلت للسلطان عبد الحميد ــ اتأذن في تقديم لائحة في تصوراتي ، لتحسين حال المملكة ، والتحوط بصونها من مطامع الاعداء ؟ قال :

لا اريد ان تكتب شيئاً من ذلك · اذ لا احب ان يطلع احد على ما يدور بيننا · بل قل لي ما تشاء ان تكتبه بكل حرية ، وصراحة ــ فانا لك من السامعين ·

قلت : أيعتقد جلالة السلطان ان مصر لو بقيت ولاية ــ ترسل اليها الولاة من الاستانة مثل باكير باشا ، ومحمد باشا اليدكشي ، وامثالهما ــ لجمع الاموال من غير وجهه ، وتوزيعها على رجال الدولة هنا « الاستانه » فقط على ما هو مشهور ، وغير خافٍ على جلالتكم · هل هو خير لمصر ، وأهلها ، وللسلطنة · أم جعلها خديوية كما هي قبل الانكليز ، خاضعة للدولة ، ومن الاجزاء المتممة للسلطنة ــ يأتمر خديويها بأمركم ، والعساكر المصرية عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق مع جيوش السلطان ــ وبكل المعنى رعية ، خاضعة ، طائعة ؟ فتفكر ملياً ، وحول وجهه نحو النافذة عني ــ حتى ظننت ان الحديث قد اساءه ، وانه لا يحب الخوض فيه ، ولا العود اليه · ــ واذا هو بغتة قد التفت ، وتوجه بكليته اليّ ــ وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا وكيف انه كاد ان يستخلص السلطنة العثمانية فتحاً بالقوة » ·

وقال : لو قلنا ان وجودها خديوية احسن من بقاءها ولاية · ــ ثم ماذا ؟

قلت يا مولاي ــ ان السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ومساحة املاكها في اسيا فقط ستماية وواحد وستين الف ميل مربع (ومساحة بريتانيا وايرلاندا ماية وعشرين الف ميل فتأمل ! !) فتبدأ

بالبعيد منها ، والمطموع فيها ـ مثل طرابلس الغرب » « فتجعلها خديوية ـ ثم الى ولايات بغداد ـ فالبصرة ـ فالموصل فتجعلها خديوية . ـ والى بيروت ـ وسورية ـ وحلب ، مع القدس فتجعلها خديوية ، ثم الى جزائر بحر سفيد وكريد مع ادرنه وسلانيك فتجعلها خديوية — و يشترط عليها تعزيز العمارة البحرية قبل كل شيء .

ثم الحجاز فتجعل خديويها ـ الأقدر من الأشراف الهاشميين اليوم ، والأحسن سيرة . ثم اليمن وخديويها يكون الأمام الزيدي .

اما الاناضول وولاياته قونيه ، انقره ، آيدين ، اطنه ، قسطموني ، سيواس ، ديار بكر ، بتليس ، ارضروم ، معموره العزيز ، وآن ، طرابزون ، فتقسم الى ثلاث خديويات ـ يكون لكل خديوية منفذاً بحرياً ـ الواحد على البحر الأسود أما في سيواس ، او صامسوم ـ والثاني في بروسه ، والثالث في ازمير . ـ وبلاد الالبان ـ وهي ولايات قوصوه ، ويانيه ، واشقودره ، ومناستر ، فتجعلها خديوية ايضاً ـ هذه يا مولاي عشر خديويات بل عشرة ممالك كل واحدة منها ـ اعظم موقعاً من اليونان ، واكبر مساحة ، واخصب ارضاً ، وانشط قوماً ، وارجح عقولاً . وما يقعدهم عن اللحاق بمن انفصل عن السلطنة العثمانية ، او التفوق عليهم ـ الاَّ شكل الحكم ، وقيود ، واغلال المركزية القاتلة للهمم ، الموهنة للعزائم .

ومن يرسل لتلك الولايات من الولاة اليوم ـ احد رجلين ـ اما الخامل ، البليد ، المرتكب ـ وهمه جمع المال ، وتوسيع الخراب .

واما الرجل النشيط ، العاقل ـ وليس له من الأمر شيء ـ الاَّ

الاستئذان من الباب العالي لترميم جسر في بغـداد مثلاً سقط منه حجران. أو اكثر — فلا يصدر الأذن الا بعد اشهر ، أو اعوام ، وبعد ان يـكون طغيان النهر قد جرف كامل الجسر

هذه الخديويات يا مولاي — اول من تفوضها اليهم — اهل بيتك من امراء آل عثمان — فتخلصهم من القعود مع النساء ، وتربيـة الخصيان — فيحسّن بالضرورة كل منهم ما تولاه من اجزاء السلطنـة ، ومصير ذلك التحسين ، والخير اليه ولأسرته ويكون مع كل امير — وزيراً فاضلاً ، اميناً

ثم لا أرى مانعاً يمنع من العهد ببعض الخديويات الى من ُعرف من الوزراء ، بالاخلاص ، والهمة ، ورجاحة العقل — ومن غير الوزراء ايضاً — وجلالة السلطان اذا شاء وفتش عنهم — وجدهم في غير حاشيته — الذين يدخلون على بلاطه ، ولحضوره ، ويحشون آذانه بالباطل ، ويمنعون عنه كل حقيقة ، ويقصون عن قربه كل فاضل

ثم قال : وقد رأيت السلطان — وهو على تمام الإصغاء لما اقول — قد تقطب وجهه ، وعلته كآبة امتعاض وحزن . فقلت :

يا مولاي ! وعزة الحق ، وبولائي لأمير المؤمنين ونصحي للمسلمين ان ما ساقني لما قلتـه الا الاخلاص ، والحرص على ملكك ، والغيرة على الدولة والممالك الاسلامية الشرقية. التي ليس لجمع شتاتها ، وتوحيد كلمتها — الا الاعتصام ، والانضواء تحت لواء الخلافـة .

وجلالتك ترى ان اجزاء السلطنة اخذت تتفكك ، الجزء بعد الاخر فصار من الواجب نظم الممالك ، واجزاءها — بسلك من النظام ، أوثق ،

وأشد وأحكم · وما وجدت ذلك السلك الاّ بذلك الشكل الذي قدمته·
ولما انتهيت — هزّ السلطان رأسه ، وتناول لفافةً من التبغ ، أمرع في تدخينها وقال :

ماذا تركت يا حضرة السيد للسلطان، وما ابقيت لتخت آل عثمان؟

قلت : يبقى جلالة مولاي السلطان — ملك اولئك الملوك ، وينضمُ الى العرش العثماني عشرة عروش غير عرش مصر · ثم متى نهضت تلك المقاطعات ، والخديويات ، وأخذت نصيبها من الرقي ، والعمران وصارت «مثلاً» خديوية العراق مثل خديوية مصر ، ثروة ، وانتظاماً — لا شك في ان ايران تسرع لمقام السلطنة العظمى ، للإتحاد معها ، اذ هي في امس الحاجة لشد الأَزر ، ولصون كيانهـا من مطامع الغرب، الموّجه نحو عموم دول الشرق ·

ثم ما اسرع الافغان — للانتظام في ذلك السلك · سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمي، والسلطنة الكبرى

ثم ومتى تم ذلك — وسيتم انشاءالله — هل تقعد اهل الهند، وراجاتها وامراؤها ، والماية وثمانين مليوناً من المسلمين ، عن نصرة الخليفة الاعظم ، واللحاق لشد ساعد اخوانهم ، ليـدفعوا غارة الغرب عن الدول الاسلامية في الشرق ، وعن هندهم ايضاً ، او ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار ، والمستعمرين ، ويرجع الشرق للشرقيين — وما ذلك على الله بعزيز ·

قال : اما السلطان عبد الحميد فكان سيء الظن — لا يأمن احداً —

ويسيء الظن في كل احد . فقال لي :

يا حضرة السيد هل اجتمعتم باسماعيل كمال بك في هذه الايام ؟

فانتقلت بسرعة الى ما يرمي اليه السلطان — وهو ان اسماعيل كمال بك كان قد كُلِّف ، أو تعين لولاية طرابلس الغرب ، وطلب توسيع صلاحيته ، وان يكون له الحق في عقد قرض لتحسين ، واصلاح الولاية وغير ذلك . وقد سمعته من بعض الزائرين ، وليس من نفس الرجل .

اجبت: يا مولاي اعتقد انني لا اسخّر ضميري لجد العرب «اسماعيل بن ابراهيم الخليل» اذاً — فما ابعد اسماعيل كمال — ان يسخّرني ، أو ان أُسخَّر له .

وما اتّبعت فيما عرضته على جلالتكم الا داعي النصح ، والاخلاص

فلم يرد السلطان جواباً على ما ذكرته ، وسردته — بل قال مثلاً تركيا « آت اسكداردن كچتدي » . — ومعناه « ان الجواد اجتاز اسكدار وهو مثل يضربونه الاتراك « لما فات من الأَمر » ولا حيلة فيه .

ثم تنفس جمال الدين الصعداء وقال : هذا ما كان مني في هذا الشأن — ياشيخ بني مخزوم — وهذا ما كان من السلطان عبد الحميد — سلطان العثمانيين ، وخليفة المسلمين — الذي تعنو له وجوه ما يقرب من الثلثماية مليون — ينتظرون من هذه الدولة هبةً ليحيا بها حقهم ، و يموت ، ويهلك باطل غيرهم .

كيف لا تذهب النفس حسرات — واكبر سلطان في المسلمين — هذا موقفه من الجمود عن قبول النصح ، واصلاح الملك ، والمحافظة ، أو

المطالبة بصريح حقه في اجزاء سلطنته — بل روح الممالك الاسلامية «باب الحرمين — مصر» ٠

وفي صون مصر في حوزة الملك الاسلامي — وكشف الانكليز عنها — صون للممالك العثمانية ــ وغلق لكل بلية مهيأة في المسئلة الشرقية ٠

وعزة الحق ! ان ما كتبته عن حق مصر ، وما استنهضت ، من الهمم وما حذرت به من سوء المصير ـ لو تلي على الأموات لتحركت ارواحهم ، ولرفرفت على اجداثهم ٠ ولأحدثت لأعدائهم احلاماً مزعجة ، ومرائي مريعة

كاد ان لا يخلو سطر من «العروة الوثقى» الا وفيه ذكر «مصر» ولا براهين ، وادلة على ظلم الانكليز الا ويتمثل في «مصر» ٠ ولا خوف من شر مستطير يفكك اجزاء السلطنة العثمانية الا ونراه من التهاون في امر «مصر» ٠ ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له في جسم الأمة الاسلامية — والعرب عموماً نغولاً ، وبعروقها اتصالاً ٠

ولا يفوتن أهل الشرق العلم بان كل مدينة ، وكل مقاطعة اسلامية شرقية هي بمنزلة «مصر» وان لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم — فالشراك لها منصوبة والسقوط «والعياذ بالله» قريب ٠ الا اذا نشطت العقول ، وعملت اولو العزائم ، ولمَّت الأمم الشرقية شعثها ، ووحدت كلمتها ـ وطلبت حفظ ملكها باسبابه ، وعزة الحرية ، والاستقلال ، بمؤهلاتها

ما قرعت اذان المسلمين ، والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت استار الطامعين بالبراهين الساطعة ، واظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً ـ الا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، واقصر طيات المسافة

في الذل ، والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية ، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه ، ويلمّ شعثه ، ويمدّ بعضهم لبعض يداً = عسى ان تكون يد الله فوق ايديهم ·

ولكن يا للأسف ! ان مبدأ تدهور ممالك المسلمين في الشرق ـ كان من شاهق عظيم — لا يمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط الانحدار · — أو بقربه من نقطة المركز · — ذلك الشاهق العظيم — شاهق حكمة الدين ؟ واذا كان انحطاط الامم مرضاً — وله سير معلوم — فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير — بل غاية ما يمكنه الأتيان بالملطّفات والمسكّنات — حتى ينتهي السير ويبلّ العليل ، ويدخل في دور النقاهة ـ هذا اذا لم يمت ـ وكان في موته راحة · ولميت مع الاموات — خير من ميت الاحياء ! ولقد احسن من قال

ليس من مات فاستراح بميت انمـا الميت ميت الاحيـاء

ثم سألني السيد — ان كان عندي « العروة الوثقى » متفرقة ، أو مجموعة اجبته — كلاً — وانما قرأت منها قديماً اعداد متفرقة ·

ثم سئل من كان يكثر من زيارته من اخواننا المصريين — مثل عبد السلام بك المويلحي فلم يجدها عنده — بل وجد مجموعتين الواحدة عند ابراهيم بك ادهم ، والثانية عند ابو النصر السلاوي افنـدي — فاخذهما واعطاني نسخة · وبعد ان تصفح صفحات منها — ظهرت على السيد علامات تأثر عميق — وقال :

نعم هو الحق الذي لا مرية فيه — لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما

انحطّ رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوّض سلطان ·

ولكن هو القــدر فلا يغالب — ولو كان لنصح الحكيم تأثير لما اخطأ الجاهل · ثم قال : مصر احب بلاد الله اليّ — وقد تركت لهـا في الشيخ محمد عبـده طوداً من العلم الراسخ ، وعرمرماً من الحكمة والشمم وعلو الهمم — واني ليذهب بي العجب ، ويأخذني كل مأخذ عندما أرى المصريين في جمود ، وأولي الهمة منهم في قعود ·

وكيف لم يتسنّ الى الشيخ في همته ، ونهضته ، وله من تلميذه ، مثل سعد[1] زغلول وأخوانه خير اعوان — ولم تتألف منهم الى اليوم عصبة حق ؟ تصدم باطل الانكليز ، وتجليهم عن الهرمين ، وتصون الحرمين — فلم يبقَ في قوس الصبر منزع ، ولا في معونة الغير مطمع

---

(١) كان لوفاة الوطني الكبير والزعيم الجليل المغفور له سعد باشا زغلول سنة ١٣٤٦ ه سنة ١٩٢٧ م رنة حزن في انحاء وامصار الشرق قاطبة — وقد رثاه المؤلف ونشر ذلك الرثاء في الجرائد هنا وفي مصر — تحت عنوان

❋ حزن الشرق على فقد سعد ❋

كيف لا يحزن الشرق على فقدك ياسعد · وكنت ركنه الركين ، وقائد نهضته العظيم ، ومرشده الحكيم · نعم انبتتك ارض مصر ، و بلغت اشدّك في مصر ، واوتيت الحكمة و بالغ الحجة في مصر ، فناضلت عن حقها بكل ما اوتيته من المواهب وقارعت لاجل حقها الخطوب ، وتحملت في ذلك السبيل انواع المكاره والمعاطب ·

كنت اعلم الناس ان لجراح مصر نغولاً في قلب الامة العربية فمصر للناطقين بالضاد نقطة دائرة الاتصال ، ومحط الرحال ، وكعبة الآمال — اذاً فمصاب الشرق بك عظيم على سعة ارجائه ، والامة العربية المنتشرة جماهير وقبائل حول دائرة مصرك ياسعد ، لا عجب اذا اعظمت فيك المصاب ، واكبرت فيك الرزيئة ، وعلمت بفقدك



الوطني الكبير سعد باشا زغلول

كيف يجل الخطب و يفدح الامر · حقاً اصم بك الناعي وان كان اسمعاً ·

الا فليبنح عز البلاد مدى الدهر   وامُّ العلى تذري من الدمع ما تذري
فقد دهم الخطب الذي راح وقعه   يقلب احشاء الانام على الجمر
فجعنا لعمر الله بالسعد والنهى   و بالعزم والاقدام والنهي والامر
لرزءك رزء طبق الكون مأتماً   وحزنك حزن لا يزال الى الحشر

تساوى في اجلالك والاعجاب بشمائلك القريب والبعيد ، وتسابق عارفوك بالذات وعارفوك بالصفات ، فبلغ السير بالفريقين الى ذروة ركزوا فيها اعلام اعظامك



العلامة الاستاذ الشيخ محمد عبده

وتبجيل خلالك على السؤاء « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »

فآثارك خالدة ياسعد ، وامرك في مصر والشرق متّبع ياسعد ، وارض انبتتك ، وامة كريمة قدّرتك وناصرتك ، وقدرة صالحة اوجدتك ياسعد ، سوف تريننا خير خلف لك يشغل ما تركت من فراغ عظيم ، ويقوم في مقامك الكريم — ولولا هذا الرجاء لعزّ العزاء وفقدنا الصبر ، ولسوف ترفرف بروحك من الملأ الاعلى على من تركت من بعدك ، فتسر فى عالمها الروحاني اذ ترى شخصك الجليل نصب الاعين ، ودرر نصائحك قيد الالسن ، فتعلم اذاً انك بروحك ومعناك ياسعد لم تمت ،

كان جمال الدين كثير الاعجاب بذكاء ، وفضل الاستاذ العلاّمة الشيخ محمد عبده ـ وكان كلما ذكره يقول « صديقي الشيخ » وقلت «للصديق» أو قال لي «الصديق» فنفهم ان المراد بالصديق «المرحوم» الشيخ محمد عبده ـ وكان السيد عبدالله نديم المصري في آخر ايامه يكثر من التردد الى منزل جمال الدين

وكأن الغيرة قد فعلت في نفسه من كثرة الثناء على الشيخ محمدعبده

وان زعم الاقوام انك ميت فحاشا يميت الله مالك من فخر
ولكن دعاك الحق للخلد عالماً بانك في الاخرى على رفوف خضر

مات الاستاذ الحكيم الشرقي جمال الدين الافغاني ، فجزع لفقده صحبه ومقربوه في طليعتهم الامام الشيخ محمد عبده ، وفقيد الشرق سعد ولكن الخطب بالحكيم جمال الدين لم يزلزل الشرق واهله كما فعل فقد سعد .

وكان الفقيد الاول «جمال الدين» يكرر قوله المسطور في هذه الصفحات

وكنت جعلت فاتحة هذا الكتاب — مناجاة من روح جمال الدين الى سعد ، فأبت الاقدار الا ان تكون مناجاةً بين الروحين وهذه هي بالحرف : « ان روح جمال الدين تحييك وتحيي رجل الشرق فيك وتناجيك بقولها — ان كنت وضعت في حياتي ركناً للنهضة الشرقية ، اووصفت لها نفساً ابية — فانت ياسعد قد شيّدت الاركان ، ورفعت البنيان ، وكنت للوصف نعم الموصوف ، فتقبل خاطراتي وازكى تحياتي — المناجي جمال الدين الافغاني —

يرفع هذه المناجاة لمعاليك المعجب بهممك ، والمفتخر بنهضتك وشممك ، وازيد اليوم بعد الفاجعة الحزين «على فقدك»

محمد المخزومي

انتهى رثاء المؤلف الذي نشرته الصحف

فقال : يا سيد ما غفلت مرة عن اضافة لفظة الصديق الى الشيخ ـ كأنه لم يكن لك بين الناس صديق غيره ـ اذ نراك تنعت من سواه «بصاحبنا ، أو فلان من معارفنا» ـ فتبسم عند ذلك جمال الدين وقال : وانت يا عبدالله صديقي ـ ولكن الفرق بينك وبين الشيخ ـ انه كان صديقي على الضراء ـ وانت صديقي على السراء ـ فسكت النديم ، ولم يحر جواباً مع شدة عارضته ، وولوعه في كثرة الكلام — وكان كثيراً ما يدّعي الكفاءة مع جمال الدين ـ فيقول نفي جمال الدين كما نفيت ، وسجن كما سجنت ، وأهدر دمه كما اهدر دمي وهكذا ـ وجمال الدين يقابل كل هذا باعراض وابتسام

ثم قال : يا شيخ بني مخزوم ـ انك ترى بين هذه الوريقات «العروة الوثقى» امثلة تنطق ، وقضايا تصدق على الشرق ، وأهله ـ ما داموا في تلك الغفلة ، وفي ذلك الشقاق ، والنفاق ـ ورضاهم في الذل خوف الذل

فالظلم اذا تغيّر في شكله ـ لا يتغير في نتيجته . وتتغيرُ اسماء البلدان والمقاطعات المظلومة ، وأهلها ـ ولكن اعمال الظالمين لا تتبدّل .

وان كان لها مبدل ـ فقوة الأمة ، واجتماع الكلمة .

وهكذا القول في الصادقين ، الناهضين ، المجاهدين في سبيل اوطانهم وتخليص امتهم . والساقطين ، الخائنين ـ انما تختلف اسماؤهم ، وتتفق صفاتهم (سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا)

فاذا رأيت مثلاً نوبار باشا الأرمني يعمل على نكاية مصر وما يضير المصريين ـ وقد تبواء رياسة النظار فيهم ـ وليس بينه وبينهم اقل جامعة ، حتى أنه لو باع مصر بأبخس الاثمان فهو الرابح ـ ولا يخسر في هذا البيع

ملّةً ، ولا وطناً ، ولا جنساً ·

فلسوف ترى من الدخلاء في غير مصر ـ بغير اسم ـ يعمل ما هو أنكى من عمل نوبار للبلاد ويكون شر آلة للاستعباد ـ وان رأيت نوباراً يعطل جريدة وطنية مثل الاهرام ـ فمن كان على شاكلته في غير اسم من الشرق ربما يصادر الجرائد الوطنية ـ بعد ان يزجّ في اعماق السجون اصحابها وهكذا لا نتبدل من الخائنين الاّ الاسماء ـ ولا من اعمال الظالمين الاّ الأَشكال ·

✻ ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب ✻
باجراء العدل والأَخذ به — وبين ما يأتيه
عن غرور وأتيان العدل اذ ذاك عرضاً

قال : لا ريب ان العدل من اشرف الصفات ، واسمى الفضائل — اذ به حفظ المجتمع الانساني ، وعليه قوام الممالك وعمرانها ·

واذا كان العدل فضيلة — فلا بد ان يكون هيئة متوسطة — بين الجور ، والظلم — وبين الخرق ، والتسيب — فلو تصفحنا ما وصل الينا من اقرب التواريخ تصديقاً — ولو شذرات — عن المؤابين ، والرومانيين والآشوريين ، ومعاصريهم من المصريين ، وما بعدهم من التتار ، وغيرهم — نجد ان الملوك في فتوحاتهم — كانوا احد رجلين · فاتح لا يهمه غير جمع الغنائم ،وسفك الدماء ،وا كتساح البلاد ، يمر على البلاد مرور العاصفة الشديدة ، والاعصار · فيتقلص ظله بعد موته اما لتنازع قواده ، وقومه ،

أو لانتقاض البلاد عليهم

وفاتح تتوفر في حاشيته الحكماء ، واولو الحصافة من الوزراء — منع ميل منه للحكمة فيؤسس ملكه على شيء من العدل — فيدوم ، ويتداوله من بعده — الى ان تضعف تلك القواعد بعدم العمل بها ، أو لتحريف بمضمونها ، فتخرج عن مواضعها ، وتسقط مزيتها ، أو تنعكس النتيجة المنتظرة منها — فيدخل الملك في الهرم ، وتدب فيه عوامل الانقراض — وأفعلها — استفحال الظلم ، وضعف العدل

واذا نظرنا الى اعمال الملوك ، وما فيها من الأثر المحمود — نرى من العدل الذي اتى — وهو مقصود بذاته — هو ذلك العدل الذي بقي اثره ، وعلقت به النفوس وطاب ذكره .

فكسرى انوشروان — وانحراف ايوانه — وذلك العدل ، بذلك الانحراف — الذي لم يدفعه اليه دافع ، ولم يحمله على اجرائه غير الحب للعدل والولوع به فطرةً ، كان افعل ، وأبلغ الأمثلة لمثل الفاروق ان يكتب لعمرو بن العاص « أكسرى أعدل منا » فاستهدمه حائط جامعه بعد ان اخذه من اليهودي بقهر ، وغلب — وبغير الرضا — الأمر المشهور ، المعروف

هذا مثال من العدل الذي بقي قدوةً ومثالاً . لأنه صدر عن حب حقيقي لمجرد العدل . واما ما جاء من العدل في ظاهر اعمال بعض الملوك عفواً عن غير حب في اجراء العدل ذاته — فقد ذهب ، ومضى مع من ذهب ، وقضى من الملوك ، ولم يبقَ له من المحمدة أثر ، وان ذكر فعلى سبيل الاستدلال على التفريط ، والضعف في الحزم .

مثل ما ذكر عن احد اجداد كسرى نفسه — قيل ان ابرويز دخل قرية من اعمال ملكه فرأى فتاة حسناء — اعجبته، وفتن بها — ولكي يتقرب من فؤادها، ويشغفها بحبه — أمر برفع المظالم عن القرية وجوارها — وعفاهم من دفع الخراج، واسبغ على تلك المقاطعة من النعم ما لا يحصى. ولو قيس ما صرف من الأموال في سبيل تلك الفتاة — الى ثمن بيت الارملة التي لم تبعه من كسرى، وعفت لها عنه — كان كنسبة الدانق للمليون، ومع ذلك. فربما كان عمل ابرويز في حينه، وفي نظر اهل القرية، وجوارهم عدلاً، وكرماً — ولكنه لم يثمر ثمراً صالحاً — ولا قدوة حسنة، ولم يكن له في الأخلاف ذلك الذكر الحميد — بل ذهب، وانقضى بانقضاء الغرض، وانطوى مع فاعله. وذلك كله لأنه لم يقصد به العدل المجرد.

واما عمل كسرى — ذلك العمل البسيط بذاته، العظيم بنتيجته. وهو قبوله انحراف ايوانه — ذلك الشين المعيب — لذلك البناء الرحب المهيب دون ان يكره عجوزاً فقيرة على ابتياع بيتها منها — ولو كان، به زخرف الايوان — وسلامته من العيب، والنقصان.

فأثمر عدله، وتحدى به اعدل الخلفاء، وهدد به اكبر العمال.

هذا هو العدل الذي يبقى، وينتج للبشر خيراً، ويكون ابلغ عبرة وذكرى.

يذكر المنصفون من مؤرخي الافرنج، وغيرهم — عدل المسلمين الفاتحين في الرهبان، والولدان، والشيوخ — ويترجمون وصايا الصديق، والفاروق وسيرة الخلفاء من أمويين، وعباسيين — وسير قادة الجيوش

على تلك السنن ، وعدلهم ، ورأفتهم بالاسرى . وما كان يجري من العدل . لم يكن لغرض ، ولا عن غرور ، بل حباً بالعدل ، واعتقاداً انه واجب ، تتطلبه الانسانية ، ويأمر به الشرع . فبقيت لتلك الاعمال ؛ والآثار خير احدوثة ، واقدس مثال ، واحسن ذكرى لا تقوى على ملاشاته الادهار . ولم ينعكس امرها على فاعليها ، ولا اتت بغير النتائج المنتظرة منها .

خذ مثلاً سلاطين آل عثمان ـــ وما عاملوا به الاقوام عند فتح بلادهم ـــ وما تساهلوا به من الامور بسوق الغرور بما لديهم من قوة ، وشدة وبأس واعتقدوه في حينه رحمةً ، وعدلاً . ولم يكن في الحقيقة الاّ من قبيل العدل العرضي ، والرحمة الغير مشفوعة بدعامة منقول ، أو دليل معقول .

من ذلك ـ ان الاجانب لما طرقت بلادهم ـ توسل اولياؤهم للسلاطين العثمانيين بوسائل الخضوع ، والاستعطاف لكي يسمح للتراجم ان تحضر مع رعاياهم الاجانب الغرباء عن اللسان — الى مجالس الحكم ليترجموا اقوالهم فسمحوا لهم بما طلبوا ـــ وكان ذلك السماح من السلاطين للأجانب ، وفي نظرهم ـــ اقل ما منحوه من المراحم في حينه .

فلما مرّ زمن الغلبة ، والقهر والقوة ، والبأس من العثمانيين ـــ وظهرت علامات الضعف في الملك العثماني ـ كما سبق بيانه ـ انقلبت تلك المراحم ، واشكال العدل العرضي المعطى للأجانب ـــ بشكل امتياز ، وتحكم في اهل البلاد ، وحكامهم واستطالت على العباد ـــ وانعكس الامر تماماً واتى بعكس النتيجة المنتظرة .

واستحالت تلك الرحمة نقمة ـــ وصار الوطني بها محكوماً ذليلاً ،

والأجنبي في الوطن حاكماً عزيزاً لا يسأل عما يفعل — والوطنيون يسألون

وما زالت تلك المرحمة يتوسع بها الاجنبي، ويضيّق بها على الوطني — حتى اصبح دماء اهل البلاد «جبار» تقريباً

فاذا قتل يوناني وطنياً مثلاً — أسرع القنصل لانتشال القاتل من يد القضاء وتلقاه بالترحاب من الباب . حتى اذا كانت الجناية فظيعة في شكلها — كان اعظم قصاص ان يرسل الجاني اليوناني معززاً، لأقرب الجزر يقضي بها اياماً معدودات ثم يعود رافعاً رأسه — بقبعته — متبختراً بمشيته، معتزاً بتابعيته

هذا ما فعلته الدولة العثمانية — وأعطته ابّان عزها، ومجدها للأجانب وحسبته رحمةً وعدلاً ولم يكن كذلك.

ولو عمدت للعدل الحقيقي اذ ذاك، وطرحت العزة والغرور جانباً، وسهّلت اسباب المساواة بين العموم — من رعية، واجانب — تجاه العدل العام الاسلامي . لما تورطت باعطاء ذلك الامتياز البسيط للأجانب — الذي اصبح مركباً — وصار من اقوى عوامل المداخلة في امور الدولة، وأقرب الحجج تناولاً لحفظ حقوق الاجانب . وما ضاع في البلاد الا حقوق اهلها . مع تلك الامتيازات .

تلك الامتيازات التي لم يعهد لها مثيل في دولة من الدول — الا في الدولة العثمانية — وهذه لو انها طلبت من الدول وهم في ضعفهم — وهي في اوج مجدها — ان يكون للرعايا العثمانيين حق وجود التراجم في مجالس الحكم عندهم — كما اعطته هي مرحمة للاجانب — لا اظن انها كانت تقبل.

واليوم نرى ان اصغر دولة لا تقبل من اعظم الدول ان يكون لرعاياها اقل امتياز على اهل البلاد ، ولا شبه مداخلة في القضاء ·

فالانكليزي مع غطرسته ، وعجرفته ، واعتداده بنفسه ، وانه من طينة غير طينة الآدميين — لا نراه يجراء ان يكون في بلاد البلجيك ، او سويسرا ، او الدانمارك غير خاضع لقضائهم ، او ان يحضر لمجلس القضاء تراجم يؤثرون على الحكام كما هو الشأن في الممالك الاسلامية · والسبب — كما علمت هو تلك المرحمة الموهومة المعطاة عن عزة ، وغرور من السلاطين — وهي الى الخرق ، والتسيب اقرب منه الى العدل · ولو كان العدل مقصوداً في ذاته ، وحقيقته ويراد العمل به عند طلب تلك المراحم ، واللطف ، والعطف على الاجانب — بحجة عدم معرفتهم اللسان — لكان في الشرع مندوحة عن تخصيصهم ، وميزتهم عن الغير — اذ في الفقه فصل خاص لمن لا يعرف اللسان — ان يؤتى بترجمان — ايّاً كان يحلّفه القاضي اليمين على ان يصدق بالترجمة — وليس من حاجة لترجمان من دولة اجنبية او من رعايا دولة المجرم — تؤول معه حال الرحمة نقمة ، ويتمرد الجناة على القضاء ، والقضاة ·

﴿ رأيه مختصراً في الدول الاسلامية ومحاكمته لما اتوه
من الخطأ والصواب ، واسباب ما نراه في
الاشياع والأتباع من التقهقر والانحطاط ﴾

قال : لا تتكوّن الدول ، ولا يخلص لها السلطان — الاّ بقوتين · قوة الجنس التي تدعو للأتحاد لمغالبة من سواهم — ويكون فيه النعرة

والعصبية والانتصار لجنسه ·

وقوة الدين ـ الذي يقوم مقام الجنسية في جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة ، وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها ·

فاذا اخذنا العرب قبل الاسلام = وجدناهم أمةً فيها النجدة ، والبأس والقوة الجنسية = ولكن ما تيسر لها تكوين دولة ، ولا قام لها سلطان يجمع الكل ·

ذلك لأن قوة الجنس توزعت في القبائل = فكانت كل قبيلة تجمع في نفسها من قوة الجنس كتلة صغيرة = تغالب فيها غيرها من القبائل ·

وعلى هذه الصورة — لم ينتفع العرب كأمة من قوتها الجنسية — بل خسرت لأنها وزعتها — بدلاً من ان تجمعها — ووجهتها لنفسها — عوضاً من ان تغالب بها غيرها فكانت قوة الجنس في العرب على هذه الحال — اشبه شيء بسلاح المنتحر — جاء الاسلام — والامة العربية على هذا الوضع — من شتات قبائل مختلفة الاهواء ، بأسهم بينهم ، كل قبيلة تتعصب لقبيلتها يغيرون ، ويقتلون ، ويسبون حلة بعضهم بعضاً ·

فدعاهم الى دين يجمع الاهواء ، ويوحد الكلمة ، ويمنع الدعوة الى عصبية ، واقام قواعده مقام القوة الجنسية — مع حفظ ما ألفوه ورضعوه من الحرية بكل معناها ، ومساواة باصح مبناها ، وعدل شامل ، وبالاجمال بكلما يطهر الأنفس ، ويلطف الشعور ·

فالعرب بذكائهم ، وحدة ذهنهم لم يطل عليهم الزمن حتى وجدوا من انفسهم ارتياحاً للدعوة ومن قلوبهم ملبياً ، ومجيباً للداعي — فدخلوا في

دين الله افواجاً ، وازداد العرب بالاسلام اقداماً ، وبأساً ، وقوةً . تلك القوى التي كانوا قبل الاسلام — يضعونها بينهم . قد وجههم بها الاسلام — بعد ان اتحدت قلوبهم — الى الممالك ، والامصار — فدانت لدعوة دينهم الأمم ، ودخلت في طاعتهم الملوك ، وذلّت لهم الاكاسرة — فملئوا اكثر معمور الأرض عدلاً وفتحاً من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدران الصين — في أقل من ثمانين سنة .

وهكذا دام مجد الاسلام في تعالٍ ، وملكهم في اتساع — في دور الخلفاء الراشدين فالأمويين ، فالعباسيين الى عصر الرشيد والمأمون وهناك بلغ مجد الدولة الاسلامية الأوج — واخذ من بعدها زمناً في التوقف — ثم بدأ في التقهقر والانحطاط الى دركة لم يبقَ معها من تلك العظمة ، والأجلال — الا رسوم ، والقاب فقد مسماها وانعكس معناها . فهل تم هذا الانحطاط والتقهقر — بدون سبب ؟ — كلاً —

هل حصل — لقلةٍ في عدد المسلمين ؟ — لا — بل ان عدد المسلمين في دور انحطاط دولهم كان اكثر من يوم مجدهم ، وابّان عزهم .

اذاً فالسبب الأعظم ، والفاعل الاكبر في السقوط — هو اهمال ما كان سبباً في النهوض ، والمجد ، وعزة الملك — وهو ترك حكمة الدين ، والعمل بها — وهي التي جمعت الاهواء المختلفة ، والكلمة المتفرقة — وكانت للملك اقوى من عصبية الجنس ، وقوته .

نعم لما فشى الجهل في الخلفاء ، وبعدوا عن العلم بحقيقة الدين ، وحكمته وهن ، وضعف اساس الملك ، وتزلزل اقوى دعامة له . فرجعت القواد ،

والرؤساء – الى توزيع قوى الجنسية ، ومتفرق عصبيات القبائل – من وائلي ، ومضري ، ويمني ولم يعد لسلطان الدين تلك القوة الجامعة ، المانعة من عصبية .

وقد زاد في ضعف الخلفاء – بلية – الاكثار من الاغراب ، وجعلهم قوة استعاضوا بهم عن قوة عصبيتهم ، وجنسهم ، فارتقى كثير من المماليك الى أعلى مراتب القواد ، وترأسوا الدواوين ، ومدوا ايديهم الى الاموال ، واستبدوا بالقرى ، والسواد – وتصرفوا باموال الدولة حسب الهوى .

فوقع الخلفاء – بين فقدان قوة الدين ، وقوة الجنس – ولا يكون مع هذا الا الانحطاط ، وبالتالي الانقراض – كما حصل وا أسفاه – وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون .

وهكذا ترى الممالك في دور تأسيسها معززة الجانب بأهل عصبيتها أولي الغيرة على الملك ، وصونه – لا يدخل في مناصب الدولة الرئيسية غريب عن الجنسية ، ولا تبدو لذلك أقل ضرورة .

بعكس دور التقهقر – فأول ما تبدو طلائعه في استخدام الغريب وهو بخلق التملق ، والتزلف ، والمسكنة – وبالاجمال كلما تأباه نفوس اهل عصبية الملك من الاخلاق – يتمكن من التقرب ، ويتدرج في المراتب – ويقرب من كان على شاكلته من اهل جنسه ، وقبيله – حتى يسقط بآخر الامر – الملك ، والمملكة بأيديهم .

وما اكثر الأمثلة على ذلك في بطون التواريخ – كالقائد افشين – والديلميين – آل بويه وغيرهم .

ثم ان ما جرى لدول الاسلام العربية ـ في دور تأسسها، وانحطاطها جرى للعثمانيين ويجري على غيرهم من الدول

ومتى رأيت الغريب ، المناوئ — قد دبّ ، وتسنمّ ذرى المراتب الهامة في الدولة — فبشرها بسوء المصير ·

هل يمكن لنا اليوم ان نرى مستشار خارجيـة انكلترا — هندياً ، أو مصرياً — أو هل يخطر ذلك ببال انكليزي — كلاّ — ثم كلاّ

ولكنك ترى ذلك في الدولة العثمانية اليوم — وهي في دور الضعف، والتقهقر — فمستشار نظارة الخارجية العثمانية — ارتين باشا — «اورمنياً» ·

وسفيرها لدى انكى دول الارض لها ، واشدها عداءً وهي « انكلترا » موزوروس باشا «رومياً» ·

حاكم جزيرة كريد — قسطاكي باشا · وهكذا مناصب الدولة العثمانية — مشحونة بيورغاكي ، وقسطاكي ، وآغوب ، واوخانس الخ ·

وكل فرد من هؤلاء الرجال — له امة محكومة من الدولة العثمانية — باذلة جهدها للتخلص من الحكم العثماني ، تعمل فيها دسائس الدول الغربية — لتناهض الدولة ، سعياً وراء استقلالها · فمع هذه الآمال ، والأماني ـ هل يعقل ، أو ينتظر من اولئك الرجال اخلاصاً في خدمة الدولة ، أو تعزيز جانبها ، والعمل على صونها ، وتعاليها ؟ ومصلحتهم القومية ، ومصلحة اممهم — في خلاف ذلك ؟!

❋ حديثه عن الهند ومستقبلها وشيء عن سيرة السلطان محمود الغزنوي بفتحه لتلك الاقطار والمقابلة بين حالة مصر في عهد محمد علي باشا وحالتها بعد الاحتلال ❋

قال : ما اغرب ما سقطت به الاقطار الأسلامية من تفكك عرى الاتصال ، وجهل بعضهم اخبار بعض — رغم اقطارها المتصلة ، وامصارها المتجاورة .

فالافغاني قلما يعلم، او يهتم بحال اخيه الايراني — وكلاهما لا يدري من حوادث الهند الا طفيفها ، ويجهلان الخطير من امورها ، وحالاتها — وكم تضيع في هذا الجهل فرص سانحه — وتخسر صفقات ربما كانت رابحه ، لو انتهزت في حينها — واعدّ لها معداتها مثل الثورة التي حدثت في الهند سنة ١٨٦٠ ولم تصل اخبارها للافغان، ولا لأيران الا بعد ان تمكن الانكليز من اطفاء جذوتها .

وهكذا ترى الهندي اجهل من اخوانه المسلمين في اخبارهم ، واحوالهم في مشارق الارض ومغاربها — من جهلهم باحواله .

فالتركي ، والمغربي من تونسي ، وجزائري ، ومراكشي — يعلمون ان في الدنيا مقاطعة تسمى «الهند» وفيها من الملايين «هنود مسلمون»

والهنود يعلمون ان في المعمور ، دولة عثمانية = اسلامية = واذا وصلتهم نتفاً من اخبارها او شيئاً عن قوتها ، خفقت له قلوبهم فرحاً ، وعطفوا على حبها جوارحاً ، وافئدة ، طحنها مظالم حكامهم طحناً ، وعجنتهم

بالكوارث عجناً ·

وهكذا ترى العالم الاسلامي يجهل اهل كل مقاطعة ما المّ بالأخرى من جور ، ورزية — وكل واحد في شأن يلهيه ، وهمّه يكفيه ·

واني في كلما جبته من الاقطار ، وتجولت فيه من الأمصار الاسلامية = قلما رأيت من يعلم شيئاً جوهرياً عن الهند · بل كان اعلم من رأيت = من يدرك ان الهند قد سقطت تحت نير الانكليز = وانها تسوم الهنود سوء الأحكام ·

الهند = هي تلك الدرة الثمينة في عقد القارة الاسيوية = وهي التي كانت من قديم الزمن هدف الفاتحين ، ومطمح انظار الملوك والسلاطين. واليها زحف اسكندر الاكبر ، ودخلها من الشمال.فاتحاً = عن طريق سرخس باب الهند — وعن طريق المحمره «البصره» وبندر عباس فبلوجستان دخل الجيش الاسلامي = الجيش الذي بعثه الحجاج بن يوسف ففتح به السند وبخاري وكابل فالهند ·

ثم في القرون الوسطى زحف السلطان محمود الغزنوي ذلك السلطان الكبير الهمة الذي اقل ما يؤثر عنه في فتحه ، وغزوه بلاد الهند ان الماء نفذ من الجيش ، وكاد ان يهلك في تلك الفيافي والوهاد ، فجاء خادم السلطان بقربة ماء كان خبّاءها وحرص عليها للسلطان خاصة = فاخذها ، واراقها على مرأى من الجيش وخاطبهم بقوله «لا خير في حياته اذا هلك الجيش — ويفضل الموت اذا كان فيه سلامة عسكره» · فتحمس العسكر عند ذلك وجدوا السير ، ونسوا ما هم فيه من الظماء

حتى وصلوا الى مكان المياه فاستقوا ، وبعد ذلك انقضّوا على حصون الهند = وقد ثبت ان ذلك الجيش كان مجهزاً بالمدافع = فدكدكوها ، وافتتحوا مدنها ، وغنم السلطان ما شاء ان يغنم ، وقضى من الهند أربه ·

ثم عقبه تيمورلنك بخيله ، ورجله فسخّر الاقطار الهندية ، وأسس فيها ملكة وتعاقب في اولاده ، واحفاده

وآخر من زحف على الهند وفيها السلطنة التيمورية = نادر شاه الأيراني = فأخذ من خزائن الهند وجواهرها ما لا يحصى ·

ومختصر القول ان الملوك ، والفاتحين طرقوا الهند ، وغنموا منها الغنائم ، ولكن بحروب هائلة ، وتجشم اخطار ، واقتحام مهالك تشيب لها النواصي ·

اما الانكليز — فقد ملكوا نحو ثلث العالم — وما سفكوه في ذلك السبيل من الدماء ، وصرفوه من الاموال — كنسبة القطرة الى البحار ، او الدرهم الى المليار — وانما تملكوا ما ملكوا — بسلاح الخديعة ، والحيلة ·

يدخلون الى الاقطار ، والامصار اسوداً ضارية — في لين ملمس جلود الأفعى — يعرضون انفسهم في صورة خدمة صادقين ، وأمناء ناصحين — لا يهمهم الاّ تقرير الأمن ، واسباب الراحة ، وتقويم النظام ، وتثبيت الامراء ، وتأييد نصوص الفرامين ، وتعزيز شوكة السلطان = وغير ذلك من الحبالات ، والمصائد ، وانواع التغرير ، والمكائد · حتى اذا ارادوا التدخل في شؤون ملك للشرقيين ، ورأوا ان القائم به رجل حكيم ، يقظ ، وبصير حاذق — وان وجوده في الملك يعرقل سعيهم ، ويؤخر سيرهم نحو ما يقصدون — بادروا واخذوا في التشويش عليه — فأمّا ان يفسدوا عليه

قلوب رعيته ، ويأخذوا بيد السفهاء منهم ، ويثيروا عليه الأحقاد

او يغروا احد اعضاء العائلة المالكة بالعصيان ، وطلب الملك ـ ليجدوا في ذلك وسيلة للدخول في الأمر ، او يتفقوا مع الوزراء على خلع السلطان ثم ينصبون بدله اما ضعيفاً احمق ، واما صبياً لم يبلغ الرشد من ابناء الملك ، أو اقاربه ـ ليتمكنوا من بلوغ مآربهم تحت علمه ، ويبلغوا غايتهم باسمه ويقطعوا المسافات الطويلة في مدة قصيره بلا ممانع ، ولا عائق — مع اصابتهم جزيل الأجر ، على ما عملوا في بداية الأمر

أو انهم يفعلون كما فعلوا مع الهنود لما انتشروا في اقطارهم كتجار ، وشركة تجارية واندسوا بينهم ، وصرفوا فيهم كيدهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، واغراء كل نواب ، او راجا بالاستقلال ، والانفصال عن السلطنة التيمورية ، فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة ثم اغروا كل امير بآخر يطلب قهره ، والتغلب على ملكه . فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال واضطر كل نواب ، او راجا الى النقود ، او الجنود ليدافع بها عن حقه ، او يطلب التغلب بها على عدوه .

فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر ، وانبساط النفس ، ومدوا ايديهم لمساعدة كل من المتنازعين و بسطوا لهم احدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالاخرى على سيف الغلب .

بدأوا قبل كل عمل بتنفير اولئك الملوك الصغار من عساكرهم الاهلية ورموها بالضعف ، والجبن ، والخيانة ، والاختلال ـ ثم اخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية ، وقوادها ، وماهم عليه من القوة ، والبسالة ،

والنظام — حتى اقتنع كل نواب ، اوراجا — بان لا ناصر له على مغالبة خصمه — الا بالجنود الانكليزية .

فأقبل الانكليز على اولئك السذج — يضمنون لكل واحد صيانة ملكه ، وفوزه بالانتصار على غيره — بجنود منظمة تحت قيادة قواد من الانكليز — ويكون بعض الجنود من الهنديين ، وبعضهم من البريتانيين ، — وما على الحاكم الا ان يؤدي نفقتها .

ثم خلبوا عقول اولئك الامراء بدهائهم ، وبهرجة وعودهم ، ولين مقالهم — حتى ارضوهم بان يكون على القرب من عاصمة كل حاكم — فرقة من العساكر — لتدفع شر بعضهم عن بعض . وصار بذلك « الانكليز » اولياء المتباغضين . وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي اعدوها لحمايتها — ففرقة الحكومة السنية — سموها «عمريه» وفرقة الحكومة الشيعية « جعفرية » وللوثنيين « سموها » « كشتية » ولما فرغت خزائن الحكام الهنود ، وقصرت بهم الثروة عن اداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائنهم ، وتساهلوا مع اولئك الامراء في القروض ، واظهروا غاية السماحة — فبعضهم يقرضونه بفائدة قليلة ، وبعضهم بدون فائدة ، وينظرون به الميسرة — حتى ظن كل امير ان الله قد امده باعوان من السماء ، وبعد مضي زمان كانوا يومئون الى طلب ديونهم بغاية اللطف ، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية الرفق — فاذا عجز الامير عن الاداء — قالوا — نحن نعلم ان وفاء الديون ، والقيام بنفقات الجنود — يصعب عليكم = واننا ننصحكم ان تفوضوا الينا العمل في قطعة

كذا من الارض نستغلها ، ونستوفي ديوننا ، وننفق من غلاتها على الجيوش التي اقمناها لكم . ثم الارض ارضكم نردها اليكم عند الاستيفاء ، والاستغناء وانما نحن خادمون لكم .

فيضعون ايديهم على اخصب الاراضي ، وانبتها = وفي اثناء استغلالها يؤسسون فيها قلاعاً حصينة ، وحصوناً منيعة = كما يفعلون في ثكن « قشلاقات » عساكرهم على ابواب العواصم الهندية . وفي خلال هذا — يفتحون للامراء ابواباً من الاسراف ، والتبذير ، ويقرضونهم — ويكتفون بمقابل قرضهم — قيامهم على اراض اخرى يضمونها الى الاولى . ثم يحضُّون ويذكون نار العدواة بين الحكام — لتنشب بينهم حروب فيتداخلون في امر الصلح فيجبرون احد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من املاكه — ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من اراضيه — وهم في جميع هذه الاعمال — موسومون ، متصفون — بالخادم ، الصادق ، والناصح الأمين لكل من المتغالبين . وغير هذا — فلهم شؤون لا يهملونها — في ايقاع الشقاق بين سائر الاهالي فتضعف قوة الوحدة الداخلية ، ويخرّب بعضهم بيوت بعض

حتى اذا بلغ السير نهايته ، واضمحلّت جميع القوى من الحاكم ، والمحكوم — وغلّت الأيدي — فلا يستطيع احد حراكاً — ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له ، واقية لبلاده — وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة ، وينفق على صقالتها من ماله . — ثم خلفوه على ملكه في حقيقة الأمر — وفي الظاهر يظاهرون بقوتهم احد اعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك فيخلعون الملك ويولون الطالب — على شريطة ان

يقطعهم ارضاً ، أو يمنحهم امتيازاً — فيحولون الملك من الأب للابن — ومن الاخ لأخيه ، ومن العم لابن اخيه — وفي كل هذا التداول هم الرابحون وأول خطوة خطوها في الهند — كانت في مملكة « اود » وهي من الممالك الواسعة ، واغلب اهلها على مذهب الشيعة — ولها نواب « حاكم » عظيم زينوا له الطمع في لقب شاه لينفصل عن الملك التيموري .

وفي التنازع لنيل هذا المطمع — يصيب كلاً من الطامع ، وصاحب الملك سهم من الضعف ، والوهن — فيتهيأ كل منهما للوقوع في مخالب الانكليز وقد حصل .

وعندما كانت الحرب قائمة بين دوست محمد خان و بين « رانجت سنك » البنجابي — تخوف الانكليز من تسلط الافغانيين — فتداخلوا في الصلح وبذلوا جهدهم في ذلك ، وسحروا قلوب الافغانيين بلين القول ، ولطف الوعد حتى ارضوهم بترك مدينة بيشاور ، وما يليها (لرانجت سنك) .

وانعقد الصلح على ذلك ، وانجلى الافغانيون عن مملكة بنجاب ، ورجعوا الى بلادهم . و بعد عشر سنين من تاريخ الصلح زحف الانكليز الى بنجاب وافتتحوها لانفسهم ، واستولوا على مدينة بيشاور . — فقال بعض امراء الافغان « ان ذلك الصلح كان مقدمة لهذا الفتح ، وان الانكليز في تعيينهم الحدود انما كانوا يحددون بلادهم ولكن كنا عنه غافلين »

ومن افعال الانكليز في الهند — ما فعلوه من زمن غير بعيد مع « راجابرودا » وهو امير عظيم — فلما احسوا فيه البصيرة ، والحزم خلعوه بدعوى باطلة .

واقاموا بدله ولداً صغيراً من عائلته — ثم انتصبوا له اوصياء — فوضعوا أيديهم على جميع خزائنه ، وتولوا ادارة ممالكه ، واستلموا قيادة عساكره .
ولم يبقَ له الاّ الاسم يذكر ولا يشكر .

كل هذا يفعله الانكليز — تحت راية العدالة ، والاصلاح ، وحفظ الراحة ، وتقرير النظام — ويساقون اليه بباعث المحبة ، والاخلاص . ولا يذكر هناك اسم « التملك ، والاستيلاء » نعم ولهم الحق في استبقاء اسم — والسكوت عن آخر .

فان امراء الشرقيين لا يبالون بما دلّت عليه الاسماء — وانما يهمهم طنطنة الالفاظ ، وفخامة الالقاب . اذا سلب الامير الشرقي ملكه ، وماله ، وجرّد من جميع حقوقه — وبقي له لقبه ، ولواحق لقبه — فهو في سكرة من لذة ما بقي له — وفي ذهول عما سلب منه . . هذه خلة عرفها الانكليز في كل امير شرقي ــ لذلك فهم يقرُّون اعينهم بترك هــذه الاسماء محفوظة ــ بعدما جرّدت عن معانيها

ولا يرى الانكليز اقل داع يدعوهم لنزع هذه الالقاب من الامراء ، وازعاجهم بذلك .

واللقب الضخم — حصن حصين يسجن فيه الامير الشرقي — أو جبّ عميق يلقى فيه — وهو يظنه جنة عرضها السموات والارض .

فليعش امراء الشرق متمتعين بنعيم القابهم ، وسعادة اسمائهم ويكفهم من المجد ان يقال لهم بين خدمهم ، وخاصتهم في داخل دوائرهم « نواب صاحب» «راجا صاحب» «خديوي صاحب» «سلطان صاحب»

واخجلتاه ! هذه الالقاب كانت تشير الى ملك فسيح ، ومجد شامخ ، وشوكة قوية ، وسطوة تخضع لها الجبابرة — فكيف طابت نفوس امراء الشرق بقبولها عارية من كل شرف — لم يبق من معناها الاً سلطة على الخدم والحشم — وما هم فيها باحرار — بل لا بد ان يوافقوا فيها رضاء الاجانب

ومن مناقب الانكليز — وغرائب عدالتهم في الهند · ان « جيرت سنك» كان راجا على ممالك «جنبه» الواقعة في جنب « عنبرسر » من طرف حملايا فلما مات هذا الملك تولى ابنه « سوجت سنك » على طبق قانون الوثنيين · فاراد حاكم الهند الانكليزي — وهو اذ ذاك « اللورد نورثبروك » ضم تلك المملكة الى الاملاك الانكليزية ، وادخالها ، واستملاك اراضيها حسب المألوف ، وعادة الانكليز

فطلب من «سوجت سنك» ان يتنازل عن الملك لاخيه «قو بال سنك» وكان وليداً من جارية — ولا يجوز في قوانين الوثنيين ان يتولى الملك ابناء الاماء — ما دام من ابناء الاحرار حيٌّ — فلما تمنع «سوجت سنك» من التنازل اعتماداً على قانون بلاده — أُنزل بحكم اللورد جبراً — بعد ما ضربت زوجته التي كانت ملكة تلك البلاد — لكونها زوجة الملك — ونهب جميع ما كان في بيت الملك من الخزائن ، والتحف ، والجواهر الثمينة ، والمخلفات القديمة «انتيكات» التي كان يتوارثها الملوك من اجيال طويلة ·

فان عائلة الملك كانت من قدماء العائلات الملوكية · ثم نصب بدله «قو بال سنك» — وبعد مدة قصيرة عزل «قو بال سنك» ونصب بدله ولده الصغير «سيام سنك» ليكون الأَمر والنهي — حساً ومعنى بيد امراء الانكليز

وتحت تصرف الذي اقاموه من طرفهم «وصياً على الملك الصغير» ·

ثم ان «سوجت سنك» المخلوع ظن ان اللورد نورثبروك — وحده هو الظالم ، وانه لو رفع امره للحكومة العادلة في لوندرا — يجد لديها عدلاً ويصادف منها انصافاً — فجاء وعرض حاله على الحكومة العادلة !! — فاذا القلوب متشابهة ، والنفوس متوافقة ، والاراء متحدة ، والافكار متألبة على سلب الحقوق والغلو في العدوان · وفي خلال السنين التي صرفها في بث شكواه — انفق كل ما كان عنده في المطالبة بحقه ، والمرافعة مع ظالمه ، والحاكم خصمه — حتى اصبح صفر اليدين لا يملك قوت يومه ، ولا يجد له منصفاً · هذا الملك السيء الحظ — مع ما كان له من رفعة الشأن وارتفاع نسبه في الملك الى اجداده الاقدمين من نحو الف سنة · رأيته وانا في اوروبا يتضور من الجوع ، رث الثياب ، حقيراً ذليلاً ·

قال : ولقد عثرت على منشور انكليزي قديم — نشرته حكومة انكلترا في الهند — ونحن نشرنا ترجمته في «العروة الوثقى» ونصه :

«اذا وجدت في دوائر الحكومة وظيفة لا يقوم بها انكليزي» اي لا تليق لخستها ان تكون «لاحد من الجنس الشريف» — وجب ان يقام فيها احد الفارسيين ، الباقين على دين «زردشت» (المجوس) · فان لم يكن منهم مقتدر على القيام بها — اقيم فيها «وثني» (عابد صنم) · فان لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء من يؤدي عملها — كلف «بها مسلم» ·

فليس للمسلمين في الهند حظ من وظائف الحكومة الا ما يعافه المجوسي ، والوثني — وهذا هو عنوان محبة الانكليز للمسلمين !! وهو برهان

دعواهم انهم اولياء المسلمين !! وانصارهم !! لا اكثر الله من امثال هؤلاء الاولياء ، والانصار

ومن مناقبهم ، وغرائب عدلهم !! انهم جعلوا جزائر « اندومان» منفى لعلماء المسلمين — والجريمة التي يستحق العالم عليها النفي هي — ان يعترف بانه معتقد ببعض آيات القرآن !! (وقد مر ذكر ذلك)

ولو اردنا تعداد مناقب الانكليز ، وقصصنا ما يعاملون به رعاياهم في الهند عموماً والمسلمين خصوصاً — لطال بنا الشرح ، وانتفخت بطون المجلدات ، وضاقت الصدور من كثرة السطور — وما ذكرناه ان هو الا نذر يسير ، وقليل من كثير هذه هي الهند — الذي اذا اشرف السائر على اي بقعة من بقاعها الشاسعة ، الواسعة شخص بصره ، ودهش لبّه بما يراه من آثار عناية الله بتلك البقاع ، وما منحتها من الخصب الطبيعي — حتى ان الأحجار الصلدة لتنشق عن الاشجار الضخمة ، العالية الاغصان ، المورقة الافنان — يفيء ظلها محيطاً واسعاً من الارض — وكأن اديها بما فرش عليه من انواع النباتات — وقد بسط عليه بساط من السندس الاخضر

فيخيل للناظر ان سكنة هذه الاراضي في خفض من العيش ، وسعة من الرزق — بل يظنهم اسعد من على وجه الارض . ولكنه اذا تجاوز المروج ، والأودية الى المدن والقرى — ضاق صدره ، وتفطر قلبه من منظر سكانها — يرى الوفاً مؤلفة يعبرون في الشوارع ، والأزقة — جيئة، وذهابا — حفاة ، عراة ، بادية سوآتهم ، كاسفة احوالهم ، لا يجدون رمقة من العيش .

ثم يتمكن الحزن من الانسان — اذا رأى بام العين ، ووقف على احوال اولاد السلاطين المغوليين ، وما هم فيه من الذلة — واحفاد « تيبو » سلطان وما اصابهم من الفقر ، والمسكنة — وسلالة سلاطين «اوده» وما نزل بهم من الهوان ــ ونوابي « كارناتك» وامراء «السند» وما حل بهم من الصغار ــ و «مرتة» تلك القبيلة العظيمة ، القاطنة ــ في «فونا» و «ستاره» وما حولها وما احاط بها من البلاء المنصب عليهم وعلى غيرهم من سائر الامراء والرجاوات العظام ·

كل تلك الاحوال ، والمشاهدات ــ تسوق المنصف قهراً لأن يحكم حكماً لا ريبة فيه ــ بأن ادارة الحكومة الانكليزية «العادلة !! » هي التي هيئت تلك الرزايا ، والبلاء للهنود ، وهي التي حرمت اولئك المساكين من التمتع بما آتاهم الله من فضله ــ وهي التي جعلت الأعزة ، اذلة ــ وبعد ان كانوا يسكنون القصور العالية اصبحوا اليوم يأوون الى خصاص ، بل اقفاص ؟

اذا خاطب الانكليزي هندياً ــ انما يكلمه بالعصا ــ اذ لا يعدونه من فصيلة الانسان

واذا اراد حكام الانكليز ان يجمعوا اعيان البلاد لألزامهم باداء ضريبة جديدة ــ هيأوا مكانا عليًا ــ يرتفع عن الارض نحو ثلاثة اذرع ــ لتوضع عليه كراسي السادات الانكليز ، ويجلس الهنود مفترشين منخفض الارض ــ اظهاراً للأمتياز ــ مع انهم ما جمعوهم الاّ لسلخ ما بقي من جلودهم ، وامتصاص ثملة دمائهم ــ فهل سمع بمثل هذا في الامم السالفين ــ كلاً ــ

ان جنس الهندو «قوم برهما» لما قدموا من ايران ، وفتحوا الهند — لم يسيئوا معاملة احد من السكان القدماء — مع انهم كانوا يعتقدون انهم سماويون ، وابناء الآلهة — قبلوا جنس «التلنكان» الهندي — في مصافهم ، واشركوه في حقوقهم مع كونه مغلوبا لهم حربا

فتح المسلمون ارض الهند — فعاملوا الوثنيين مثلما عاملوا بني ملتهم — ما حرموهم الوظائف السامية · وما من سلطان مسلم تسلط في الهند الا كان له من الوثنيين عمال ، ووزراء

كان المسلمون يسيرون مع الوثنيين سيرة الاخوة — حتى اوقع الانكليز بينهم الشقاق في بنجاب ، واطراف مدراس

يزعم الانكليز ان المسلمين — بسوق التعصب الديني يجورون ، ولا يعدلون · مع انا نرى الى الآن حكومات صغيرة يحكمها راجوات ، ونوابون من اهل السنة ، والشيعة — ونرى للراجا الوثني وزيراً مسلماً ، وعمالا مسلمين وللنواب المسلم — وزيراً وثنياً ، وعمالا وثنيين ·

وهكذا السنيون مع الشيعة — والشيعة مع السنيين · ولا نرى في الملايين الكثيرة المحكومة بالانكليز — رجلاً هندياً في وظيفة شريفة

رب نعمة — جلبت نقمة · نعم — ان ما انعم الله على ارض الهند من الخصب ، وما اودعه فيها من الثروة الطبيعية — جلبت عليهم الانكليز — وما اكبرها نقمة ، على الهنود ، وعلى من جاورهم من الممالك ، وما اتصل بها من البحار — لأن الانكليز يرون كل مملكة في شمال الهند ، او في جنوبها ، او شرقها ، وشمالها — هي بابا للهند ، ومهداً لملكهم في الهند — ويلزم للامبراطورية

البريتانية ان تدراء الخطر عن الهند بالاستيلاء على تلك الممالك بأي حيلة ، او خديعة كانت . استلبت من الدولة العثمانيـــة جزيرة « قبريس » بحجة المحافظة على املاك الدولة في البحر المتوسط - «وما اصدقها ، وابرّها ، وما أعظم ما حافظت على املاك الدولة العثمانية!؟»

وحقيقة ذلك السلب — انما هو مقدمة لأستلاب ملك مصر ، وفيه ترعة السويس « باب الهند » والسودان وفيه « مصوع » و « سواكن » على البحر الاحمر « باب آخر للهند » و« عدن» و بوغاز « باب المندب »و«جبل طارق» وكلها « ابواب ، أو كوات ، وشبابيك » للهند . والافغان ، وايران وهما البابان الكبيران العظيمان — « اللذان سيدخل منهما « انشاء الله تعالى »الى الهند فتستريح بريتانيا من الهند ، ويستريح الهنود ، والممالك الاسلامية الشرقية من الانـكليز — وتنام في جزيرة بريتانيا العظمى ناعمة البال ، لا يروعها ، ولا يخيفها « ابواب الهند » اذ يعود البيت الى صاحبه ، ويتكفل بحراسة بابه بسيوفه ، واسنة حرابه » .

صرفت كل كيدها ، و بذلت ما عندها من الحيل في الافغان فلم تفلح — حتى طرقتها بستين الفًا من جيوشها المنظمة ، بامضى الاسلحة الجديدة ، ولكن لما كان الافغانيون قوم حرب ، يناطحون الموت — فقد هبُّوا ، ونهضوا نهضة رجل واحد . و كشفوا بلاء الانكليز عن بلادهم — فاضطرت بعد فناء رجالها ، واموالها الى ترك البلاد الافغانية ورجعت الى الملاينة ، والمجاملة — شأن الانكليز اذا رأت من الامة اتحاداً ، ومقاومة — فانها تولي الادبار ، وتترك الديار لأهلها .

وأَما العجم — فانها لم تنج من حبالة شرها ، ومصائد مكرها . فطالما جاملت دولة روسيا على حساب العجم ، وقسّمتها بينها مناطق ، «اقتصاد»! وكانت اذا ضربت ، أو عملت على كيد الافغان — لاطفت ، وتجملت لدولة ايران ، واذا جاء دور ملاطفة الافغان — اشتدّت على ايران — وكلاهما في غفلة عن مصيرهما — ولو علموا « ولا بد ان يعلموا بالقريب انشاء الله » ان ما يصيب الواحد منهم اليوم من المكروه ، والرزايا — لا بد وان يصيب الآخر في الغد .

من الغرائب — وليس من طبيعة الوجود — ان يستمرّ سلاح الخداع والمكر لرقاب الشرقيين قاطعاً ، ولا لجيش الوهم — ان يكون للحقائق غالباً

نعم ان للوهم آثاراً غريبة — خصوصاً في الامم الضعيفة — فطوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات — وطوراً يكون ممثلاً للمسرّات ، حاكياً للمنعشات — وهو في جميع اطواره — حجاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة — ولكن له سلطان على الارادة ، وحكم على العزيمة — فهو مجلبة الشر ، ومبعد الخير .

الوهم يمثل الضعيف قوياً — والقريب بعيداً ، والمأمن ، والمنقذ مهلكاً

الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه . يخيّل الموجود معدوماً ، والمعدوم موجوداً

الوهم — في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود — يخبط فيه خبط المصروع ـ لا يدري ماذا ادركه ، وماذا تركه .

الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل . —

اذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهـام ، وتسلطت على الارادات ـ فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة ـ فيخبطون في مجاهيل لا يهتدون الى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق ·

واذا كان « الوهم » مولوداً ـ فأبواه « الجبن » ـ ومربيه ومنشئه « الجبن » ـ وهو العلة في اخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيات المنازل ، وقصورهم عن الوصول الى معالي الامور ·

و « الجبن » هو الذي يقعد بالنفوس عن العمل ، وينحدر بها في مزالق الزلل · وهو علة العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل ·

« الجبن » هو الذي اوهى دعائم الممالك ـ وهو الذي قطع روابط الامم ـ فحلّ نظامها ـ

وهو الذي اوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، واضعف قلوب العالين فسقطت صروحهم ـ هو الذي يغلق ابواب الخير في وجوه الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن انظار السائرين ـ ويسهّل على النفوس احتمال المذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهوّن عليها حمل نير العبودية الثقيل ـ يوّطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر ـ والتذليل بالجلد ـ ويوطئ الظهور لأحمال من المكاره ، والمصاعب ، اثقل مما يتوهم لو تحلّى بالشجاعة والاقدام ·

« الجبن » يلبس النفس عاراً ـ دون لبسه ـ الموت الاحمر ـ عند كل روح زكية وهمة عالية · ـ يرى الجبان وعر المذلة سهلاً ـ وشظف العيش في المسكنات نعيماً · ـ ومن يهن يسهل الهوان عليه · ما لجرح بميت ايلام

« الجبان » ـ يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ـ ولكنه راض بكل حال ـ وان لم يبق له الا عين تبصر الاعداء ـ وترى الاحياء ، ونفس لا يصعد الا بالزفير ، والصعداء ـ واحساس لا يلم ، الا بألم الحر ، واللأواء ـ هذه حياته ـ اضاع كل شيء ـ في القناعة بلا شيء · — وهو يظن انه ادرك مبتغاه ، وحصل على ما يتمناه ·

الجبن انخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها · وهو مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي — جعلها الله ركناً من اركان الحياة الطبيعية — وله اسباب كثيرة — لو لوحظ جوهر كل منها — لرأينا جميعها يرجع — الى الخوف من الموت —

الموت مآل كل حي ، ومصير كل ذي روح — سبيل الموت غاية كل حي · وداعيه لأهل الأرض داعي — وليس للموت وقت معروف ، ولا ساعة معلومة — ولكنه بين النشأة وارذل العمر — ينتظر في كل آن ، ويرتقب في كل لحظة — ولا يعلمه الا مقدّر الآجال جلّ شأنه ·

يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل « الجبن » فيسبب الغفلة عن حسن المصير ، والذهول عما اعدّه الله للانسان من خير الدنيا ، وسعادة الآخرة — اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله ·

نعم — يتغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة — وهو الشجاعة ، والاقدام — سبباً للفناء ·

يحسب الجاهل ان في كل خطوة — حتفاً — ويتوهم ان في كل

خطرة — خطراً — مع ان نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية ، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم — تكشف له ان تلك المخاوف انما هي اوهام ، واصوات غيلان ، ووساوس شيطان . — غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته . —

« الجبن » فخ تنصبه صروف الدهر ، وغوائل الايام لتغتال به نفوس بني الانسان ، وتلتهم به الامم ، والشعوب . —هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ، ويصدهم عن سبيله . — هو غاية كل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة . — لا شقاء الاّ وهو مبدأه ، ولا فساد الاّ وهو جرثومته ، ولا كفر الاّ وهو باعثه وموجبه —ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ومنكس الأعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى ارض المهانة . — ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ؟ (أليس هو الجبن) ؟

ماذا يبسط ايدي الادنياء لدنيئة الارتشاء ؟ (أليس هو الجبن) ؟

ربما تتوهم بعد المثال ـ فتأمل! فان الخوف من الفقر يرجع في الحقيقة الى الخوف من الموت ـ وهو علة «الجبن» ؟

وبعد ذلك ـ يسهل عليك ان تعتبر هذا ـ في الكذب ، والنفاق ، وسائر انواع الامراض الروحية في الانسان .

«الجبن» عار ، وشنار على كل ذي فطرة انسانية ـ خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ـ ويؤملون ان ينالوا جزاءً لاعمالهم

اجراً حسناً ، ومقاماً كريماً

ان ابناء الملة الاسلامية ينبغي ان يكونوا — بمقتضى اصول دينهم — ابعد الناس عن هذه الصفة المهينة «الجبن» فانها اشد الموانع عن اداء ما يرضي الله — وانهم بما يعملونه انما يبتغون رضاه . يعلم من في القرآن هدايته — ان الله قد جعل حب الموت علامة الايمان —وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين «الم ترَ الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او أشد خشية قالوا ربنا لِمَ كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب» الى اخر الايات

الاقدام في سبيل الحق ، وبذل الاموال ، والارواح في اعلاء كلمته — اول سمة يتسم بها المؤمنون

لم يكتف الكتاب الالهي بان تقام الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتكف الايدي — وعدّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق ،والعدل الالهي بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتدّ بغيره اذا هو فقد .

لا يظن احد انه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي، وبين الجبن في — قلب واحد . كيف يمكن هذا — وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام .

المؤمن من يوقن ان الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء — ولا يفيده التباطؤ عن اداء الفروض زيادة في الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه

المؤمن من ينتظر بنفسه الى احدى الحسنيين — اما ان يعيش سعيداً عزيزاً — واما ان يموت شجاعاً شهيداً = وتصعد روحه الى أعلى عليين ، ويلتحق بالكوروبيم ، والملائكة المقربين ·

من يتوهم انه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد خدع نفسه وغرر بعقله ، ولعب به هوسه = وهو ليس من الايمان في شيء فمتى طهّرت ابناء الملة الاسلامية نفوسها من معرة « الجبن» ونفت عن اذهانها اشباح «الوهم» واعتصموا بحبل الله جميعاً = عادوا = كما كانوا اول نشأتهم ـ اسوداً ـ فاستردوا المفقود، وحفظوا الموجود، وكان لهم بين الامم ، وعند الله المقام المحمود ·

كيف ربح الانكليز بالحيل، والمكر · وكيف خسر الشرقيون بالجبن والوهم ! كان الانكليز امة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد ، مستعدة للفتوحات وذلك في زمان بليت به الامم الشرقية بتفريق الكلمة، واختلاف الأهواء = وحجبت بالجهل عن معرفة احوال الغربيين وصنائعهم، وعوائدهم = فكان الشرقيون يعدُّون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً ، وكرامة = فانتهز الانكليز تلك الفرصة ، واندفعوا الى الشرق ، وبسطوا سلطتهم على غالب ارجائه = وما دهموا سكانه الا ببعض غرائب الصنعة الاوربية ـ التي اثارت فيهم خواطر الاوهام ـ ثم زاد الوهم قوة ـ ما نصبوه من حبائل الحيلة ، والختل — حتى خلبوا قلوب المساكين ، واذهلوهم عما في ايديهم — بل اخذوهم عن عقولهم ، وخطرات قلوبهم — فسلبوا اموالهم ، وانتزعوا منهم اراضيهم ، وأجلوهم عن املاكهم ·—

فاستغنت الأمة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفت بما ملكت

نعم ذهب الانكليز الى الهند في قوى مجتمعة — وتسابقوا مع الفرنساويين ، والهولانديين ، والبورتغاليين — في ميدان الاراضي الهندية الواسعة — فحازوا قصب السبق بما امتازوا به من الدهاء ، والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذاك العهد ، أو طيب قلوبهم — فمالت النفوس الى الانكليز اغتراراً بوعودهم — وتغلبوا على تلك البلاد ، واستقلوا بامرها شيئاً فشيئاً ، وما ابقوا لغيرهم من الدول الاّ مضائق من الارض لا تذكر .

واول ما استمالوا به القلوب السالمة — قولهم — اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة « فرنسا ، وهولاندا ، والبورتغال » فانها تريد التسلط على ممالككم — أما نحن « الانكليز » فلا نريد الاّ تحريركم ، واستقلالكم .—

وهكذا ترى الآن للانكليز — في الهند الاصلية ، والهند الصينية ، والبرمان — سلطة على نحو مايتين وثمانين مليوناً من النفوس — جميعها كارهة لتلك السلطة الانكليزية ، شاخص ببصره متطلع للتخلص منها . يفضّل أية سلطة سواها — ظالمة كانت أو عادلة — كأنما يتصور كل واحد من افراد تلك الامم انه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانكليز — ولا تصل الى ما وصل اليه الانكليز من الكبرياء ، والجبروت .

ولكن مع هذه البغضاء — الآخذة بقلوب اولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم ، وتباعد ارجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة — لا يوجد قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المبغوضة الاّ خمسون

ألف جندي انكليزي !!! تأمل

فانه لا يصيب المليون من النفوس الاَّ أقل من مايتين نفراً من الانكليز .

فلو كان ذلك المليون من الناس ذباباً — لأصم آذان المايتين بطنينه —
أو لو كان غنماً — لبقر بطونهم بصغار قرونه .

مع انه يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال — وتخشى زوال ما بقي لها — ما لو جمعت قواها لبلغت ازيد من ثلثماية الف جندي — هذا فضلاً عمن يمكنه حمل السلاح من اهالي البلاد التي دخلت في حوزة الحكومة الانكليزية ، وزال استقلالها بالمرة .

فلولا « الوهم » الذي استولى على المشاعر ، والحواس ، و« الجبن » الذي أطار النفوس شعاعاً — حتى اذهلها عما بين يديها — بل عما هو موجود فيها — ان هذه النفوس الكثيرة العدد ، الفائقة القوة ، وهم في قبضة قوم ضعاف يسومونهم عذاب الذل ، والهوان . — فلو لمح اولئك المساكين انفسهم لمحة اعتبار ، وادركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية — لانكشف لهم ضعف الانكليز ، وبرز لهم عامل الخلاص متجلياً بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم — وعلموا ان استقلالهم لأنفسهم ، وبلادهم لا يحتاج الى تجشم تعب ، ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو الى بذل اموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة — اكثر مما سفك جورج واشنطون رجل امريكا ومحررها من نير الانكليز !.

يوجد في الدول الاوروبية من يهاب دولة الانكليز — اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة ، والامم العظيمة — مما لم يبلغ عدد رعية دولة ،

أو ثلاث دول من اوروبا ـ ويقيس وضعها ، وقوتها في تلك الاطراف القاصية بما يراه في جزائر بريتانيا « ويغفل عن مقاومة جزيرة ايرلاندا » مع قربها من مجمع القوة الانكليزية » ـ ويظن ان لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك ـ تساوي قدرتها عليه في بريتانيا ، أو تقرب منها . ـ ولم يلتفت الى ان جسم الدولة الانكليزية قد مدّ في الطول ، والعرض الى حدٍ لو حصلت فيه ادنى هزّة لتقطعت أوصاله ، وتبعثرت اجزاؤه .

تفرقت قواهم في بسيط الارض حتى لم يبق لهم في موضع قوة يخشى بأسها ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر ، وتذمرّ ، وتململ لا مزيد عليه = يترقبون في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين

لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترا الى حقيقة الأَمر = لما احتاجت الى دقة الفكر ، وتأخير الأَمر ـ لولا حجاب الوهم !! قاتل الله الوهم !!

والعثمانيون اعظم الدول خطاءً اذ ينظرون الى دولة الانكليز كما ينظرون الى دولة الروس ـ من حيث ان انكلترا تحكم على مايتين وثمانين مليونا من النفوس ـ فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ـ وليتهم مدّوا انظارهم الى ما وراء ذلك ليتبين لهم حقيقة قوتها العسكرية « مجردة عن المستعمرات » وماذا يمكنها ان تسوق من الجنود الى ميادين القتال ـ ليتضح لهم ـ ان هذه الملايين الكثيرة لا ينبغي ان تحسب في قوة انكلترا ـ وانما هي في الحقيقة قوة لاعدائها عليها ـ وهي في ارتقاب الفرص لخلع طاعتها . خصوصاً ثمانين مليونا من المسلمين في حكومة انكلترا ـ يعدون

الدولة العثمانية قبلة لهم ، وملاذاً يلجاؤن اليه وهم اول قوم حربيين في الاقطار الهندية ·

لو علم العثمانيون ان دولة انكلترا انما تستميل المسلمين في الهند — بكونها حليفة الدولة العثمانية — ونصيرة لها ، واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء اولي الحزم — لما صبروا ، وتجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانكليز، وحيفهم في اعمالهم وتعديهم على حقوق السلطان خصوصاً في المسئلة المصرية — التي هي في الحقيقة اهم مسئلة عثمانية ، واسلامية

قال : الأسباب التي هيئت سقوط مصر في مخالب الانكليز غريبة في في بابها — اذ اصبحت وهي من نفس المصريين ، وبقوتهم — يعدُّونها خارجة عنهم

نعم — ان المصريين كانوا ايام «عرابي» على قسمين — قسم يروم حفظ الحالة القديمة ، والوقوف عند ما يرسم به الخديوي — وقسم كان يميل باحدى جانبيه الى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ·

فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره — ولا عزيمة مع الريب · والقسم الأول مخلد الى الخمول ، والفشل — فدخل الانكليز بلا حرب حقيقة · بل بنوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس — صادف قلوباً مستعدة ، فأخذ منها مقاماً — فانحلَّت الرابطة ، وتفرّق الناس عن «عرابي» بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم

ومع ذلك ما كان يعتقد فرد منهم ان الانكليز يبتغون من البلاد شيئاً — سوى انهم يؤيدون «الخديوي توفيق باشا» وينقذونه من

الثائرين عليه ·

فتساهل المصريون في الأمر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز = مع ما جاءتهم به من الحجة القوية القائمة = على ان صاحب السيادة الشرعية «السلطان» في رضاء عن تصرفها !

بهذا فاز الانكليز ، واستقرت اقدامهم · أمّا وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم وسوء نيتهم = فلا اظن انه يوجد من المصريين من يميل اليهم = بل لا يوجد الاّ من يبغضهم ، ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملاً لهلاكهم · ولكن «الوهم» يجسم المخافة ، ويكبح العزيمة · ان اهالي مصر كأنهم ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم

كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية ، وقهرتهم جميعاً

كأن المصريين نسوا ما كان بينهم ، وان الانكليز ما دخلوا بلادهم الاّ بمعونتهم ، ولتأييد خديويهم المنصوب بفرمان من سلطانهم = هذا هو الوهم العجيب !

ان الذين كانوا سبباً في تغلب العساكر الانكليزية ، وحلولها في وادي النيل = وانه لولاهم ما استقرّ لها قدم فيه · يظنون الآن ان تلك العساكر قادرة على قهر الاهالي عموماً ، واخضاعهم لحكومة بريتانيا · كلاّ = ثم كلاّ وان بهذا الظن الباطل ــ يستسلمون لاعدائهم كرهاً ، ويجارونهم في اهوائهم نفاقاً ·

ولا ادل على سوء نوايا الانكليز ، وسوء تدبيرهم ــ وتحويل سعادة ما

يحتلونه من البلاد الى شقاء — من النظر الى مصر بعد ان فوضت الى نابغة الدهر محمد علي باشا ، ثم الى ما حل فيها من البلاء ، والشقاء بفضل الانكليز في سنين قليلة · بعد احتلالهم مصر عقب ثورة « عرابي »



محمد علي باشا الكبير

فالنسبة بين العملين موجودة معكوسة

وذلك ان مصر بعد ما فوضت امورها الى محمد علي باشا — لم يمض

قليل من الزمن — حتى دخلت في طور جديد من اطوار المدنية ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، وتقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء

نعم نالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم ، وعهد خلفاءه من بعده — ما كانت تقف دونه افكار المفكرين — طرقت ابواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدماً غريباً — واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في ارجائها مبادي المعارف الصحيحة ، وتقاربت انحاؤها ، واتصلت اطرافها بما انشيء فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت اهاليها ، وائتلفوا ، وقوي فيهم معنى الأخوة الوطنية ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية — حتى كان لهم زمن احسّ فيه كل واحد بنسبته من الآخر بأنه « وطني مصري » وارتفعت بذلك اصواتهم بعد ما جالت فيه افكارهم .

تفجّرت من ارض مصر ينابيع الثروة ، وعمّت بقاعها ، وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية — بل وصل من نيلها الى اراضي البلاد الغربية — وتوارد اليها الغرباء ، وقصّاد الكسب من كل مكان وما خاب لها قاصد ، ولا اخفق فيها سعي ساعٍ — فاثرى في مغانيها الفقراء وعزّ بها الاذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثيرين من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين — وكل وافد اليها يجد اهلاً خيراً من اهله ، ومسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة حتى حاكت برج بابل يوم تبلبلت الالسن .

. وساد بهاد الأمن ، وعمت الراحة ، وضارعت في كل احوالها نوع ما عليه الممالك الاوربية العظيمة — وكان المتأمل في سيرها هذا ـ يحكم حكما ربما لا يكون بعيداً من الواقع — ان عاصمتها لا بد ان تصير في وقت قريب أو بعيد كرسي مدينة لأعظم الممالك الشرقيـة ـ بل كان ذلك امراً مقرراً في انفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها — وهو املهم الفرد كلما الم خطب ، او عرض خطر .

غير ان الايام كأنها حسدتها على ما منحته — فعثر العاقل ، وفرّط المالك ، واغتر المعجب ، وتهوّر الغبي ، وضعف القوي — فتقرب البعيد ، والحمت ادارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها — وانتقضت منها اصول على وجه غير مألوف ـ ففتحت للدسائس ابواب ، وانساب بين طبقـات الناس دهاة سياسة ، وطلاّب غايات — فتفرّق اتصال ، وتقطعت اوصال فضعفت السلطة الوازعة ، ونبذت الطاعة ، والتهبت نيران الفتن .

قضاء — حلّ في تلك البلاد — كانت أشأم نتائجه — دخول الانكليز الى مصر لتأييد الخديوي ، وقمع الثورة «العرابية» — والاشفاق على طريق «الهند» . احتلت مصر — ورأت ان اعادة الأمن ، وتثبيت الراحة فيها من فرائض ذمتها . — فكان من التحريق ، والتدمير ، والقتل ، والشنق والحبس ، والابعاد ، والتغريم وما شاكل ذلك ممـا يطول شرحه — وعمّ الهون والذعر كل من عرف اسمه في اهل البلاد — ما خلا اشخاصاً قلائل ؟ دخل الانكليز — ولم يمض الاّ زمن قليل — حتى حكموا بطرد الآف من الوطنيين الموظفين في دوائر الحكومة — وما منهم احد الاّ ويتبعه عائلة ،

واولاد — ولا قوت لهم الا من مرتب عائلهم — وما مرن على عمل للكسب سوى ما نشأ فيه من خدمة الحكومة ·

ألم يمس هؤلاء الفقر ، ألم يعضهم ناب الجوع ، ألم يهتك مستورهم ، ألم يضق ذرعهم ، ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة ، عراة من اكسية المسرة ؟ · —[1]

ان لم يكن كل هذا فقد كان جله — وان صدى أنينهم يتلى في صفحات الجرائد الوطنية العربية ، والافرنجية — وسيتبع السابقين اللاحقون حتى لا يجد الوطني من المهن الا ما لا يليق بالانكليز تعاطيه من سفاسف الامور « كما هو الحال في الهند » — اضطرب ميزان السلطة العامة لتعاكس قواها المختلفة — فاشتبه الامر على العمال · وظنوا ان لا تبعة عليهم فيما يعملون فانطلق ما غل من ايديهم ، وحكموا اهوائهم في اداء وظائفهم ، وادخل في الوظائف والدواوين من ليس باهل — فخبطوا وخلطوا ، وصار الحكم في هرج ، ومرج ·

أفعمت السجون بأعيان الرعية ، ورفعت اذناب الكرابيج لتشريح ابدانهم ، واستعملت الآت التعذيب ، وامتدت مخالب الجور لتجريدهم من بقايا أموالهم ، وثمرات كسبهم — وحدث نوع من الحكم المطلق ، وشكل من الاستبداد — أذاقهم الأمرين ، وبعث عليهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ·

---

(١) كل هذه الاحوال يرجع تاريخها الى ما بعد حلول الانكليز في مصر عقب الحوادث العرابية المشهورة سنة ١٨٨٢ م

غلقت ابواب العمل من وجوهه الرسمية في الادارات ، وتعطلت اشغال المحاكم ، وشخصت الابصار لعاقبة هذا التنازع بين القوى الحاكمة — فاتسع نطاق الفوضى ، وارتفع حجاب المنعة — فاذا الفلاّح لا يبالي بعمدته والعمدة لا يبالي بمأمور مركزه ، والمأمور لا يحترم مديره — وسرى التهاون الى الدوائر العليا ، وعمّت الفوضى ، وعاد الامر لقوة الساعد ، وكثرة الاعوان فعاثت اللصوص ، وتشكلت منها عصابات ، وكثر قطع الطرق في اكثر النواحي ، وارتفعت الاصوات بالشكوى منهم في عموم الجرائد الوطنية — فوقفت حركة الاعمال العمومية ، وظهرت الأزمة ، وبدت للناس شؤون قبضت صدورهم ، وعدلت بهم عن ضرورات معاشهم ، وامتنع المدينون من اداء ما عليهم لدائنيهم من التجار والصيارفة — فقبض المقرضون ايديهم ، واحتكروا نقودهم — لفقد ثقتهم ، واشتدت الحاجة ، وارتبكت الاحوال الى حد لم يسمع الاّ في القصص ، وروايات القدماء قبل محمد علي باشا . ومطالب الحكومة ، والزيادة في الضرائب ، والرسوم على أشد الحالات — مع الالحاح في اقتضائها ، وتحصيلها — فعمّ العسر . واحاط الضنك ، وتقوضت الآف من البيوت التجارية ، وأتربت ايدي الجماهير من عمّال الصناعة ، واعدم المزارعون قاطبة — الاّ نزر يسير من حفظة الكنوز ، والمستأثرين باموال الكافة ، نهباً وسلباً .

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والأخذ بالشبه وان ضعفت — واتبّاع بواطل التهم ، وان بعدت ، أو استحالت — حتى اخذ الفزع من القلوب مأخذه ، وبلغ منها مبلغه — فلا ترى ماراً بطريق الاّ وهو يلتفت

وراءه لينظر — هل تعلق باثوابه شرطي يقوده الى السجن ، او يقتضي منه فدأ . وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة ، وفي كل نهضة سقطة ، وله من كل شاخص دهشة ، ومن كل طارق لبابه غشية . اي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا ؟؟

هذا ما تنشق له المرائر من احوال سكان القطر — هذا بعض ما يضيق به الصدر وتنقبض له الانفس مما رزئوا به — وترك الاهالي حيارى في امورهم ، تائهين عن رشادهم . لا يعلمون ماذا يحل ، وينتهي بهم — يذكرون من حكومتهم ، واحوالهم السابقة «وكانت الدول الاوربية تضليلاً وتغريراً» تسميه ضيقاً ، وعناءً ، واستبداداً ، وجوراً — وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه — ويبكون عليه — ويودون لو رجعوا اليه ويحسبونه غاية سعادتهم ، ومنتهى راحتهم — بعد هذه الحالة التي هم فيها — ومختصر القول — ان محمد علي باشا اوصل مصر في زمن قليل الى اوج السعادة والمجد والاثراء مع الامن الشامل ، والعــدل الكامل . والانكليز بفضل احتلالهم اسقطوا مصر الى حضيض الشقاء ، والذل ، والفقر ، وفقد الامن ، ومحض الجور — كل ذلك في اقل من سنتين . فيا لله ما اعظم الفرق بين الزمنين — ونتيجة العملين عمل محمد علي باشا — وعمل السادة العادلين « الانكليز» ؟؟

الا فليعلم الشرقيون — من هنود ، ومصريين ، وغيرهم — ممن سقطوا بين مخالب الانكليز — ان لهذه الدولة خطة تجري عليها ، ودستوراً تعمل به في البلاد — وذلك انها اذا رأت البلاد في قبضة سلطان ، او امير — نازلته وضمنت لنفسها الفوز — اما بقوة الرجال ، أو بقوة المال ، والمكر والاحتيال فلا

تبالي بريتانيـا بافراد ولو كانوا سلاطين ، أو امراء ـ ولا بجيوشهم، وقوادهم وانما الذي تخشاه ، وتفرق منه ـ قيام الامة بوجهها ـ هذا هو السلاح الوحيد القاطع لحول بريتانيا ، وحيلها ـ وهذا الـذي رأيناه يخلص البلاد وينجي العباد من نير الانكليز · وقد سبق فذكرنا دخولها لبـلاد الافغان بستين الفاً من الجنود المنظمة ، وكيف انها توغلت في البلاد ، واستولت على المعاقل ، والحصون ولكن لما هبّ الافغانيون من كل صوب ، وناحية وصدموها بأسم امة الافغان لا بأسم امير او سلطان ـ اضطرت لترك البلاد وولت الادبار بعد ان صرفت ثلاثين مليونا من الجنيهات ، فضلا عن دماء رجالها ونخبة قوادها ·

اي سلطان كان يمكنه ان يكشف الانكليز عن مستعمرة « اميركا » لو لم يصدمها اتحاد الامريكانيين ، وينهضون بأسم الامة الاميريكانية مستميتين في طلب استقلالهم · نعم لما رأت انكلترا ان الأمة هي التي تقاومهـا ، وتخلع طاعتها — اكرهت على العمل بدستورها ، وجرت على خطتها بترك البلاد لاهلها — ودهاة الانكليز — اعقل من ان يتوهموا امكان افناء امة بأسرها تتفق ، وتستبسل ، وتطلب الموت في سبيل استقلالها

هذا الذي علمناه ، وشهدت به الحوادث ، وايّدته الوقائع ·

فاذا اتحد المصريون ، ونهضوا كأمة لا ترى بداً من استقلالهـا ، ولا تقبل به بديلاً ، وثبتوا على شيء من الجور ، والحيف ، والقتـل في بادىء الامر ، وصبروا ، ورابطوا وارتبطوا — فبشر المصريين بحسن المآل ، ونيل الاستقلال انشاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله

اما الهند — فقد بدت طلائع خير تبشّر بقرب نهضتها من كبوتها ، وتيقظها من غفلتها . — وذلك ان الانكليز قد جروا في الهند على قاعدة « فرّق تسد » — وقد تمكنت من تفريق المسلمين والوثنين بعضهم عن بعض ، وغرست في العنصرين بذور البغضاء — بالميل تارة الى جانب المسلمين ، وتارة الى الآخرين — وكان ايثارهـا للوثنيين اظهر ، واعتمادها عليهم بتذليل بعضهم بعضاً اقوى — إذ ليس فيهم من البأس ، والنجدة ما في المسلمين ، ولا ضاع لهم من العزة ، والسلطان ما ضاع للمسلمين . فظل الوثنيون في رضوخ ، واسترضاء للانكليز — يفرحهم ذلك الإيثار الطفيف في سفاسف الامور ، والوظائف — و يبعدهم عن المسلمين حتى جاء دور القهر اليهم — فاخذت تستلب ملك «نواب» الوثنيين ، وراجاتهم — وتذيق امراءهم انواع الذل ، والهوان . — وبالاجمال فقد سقطوا تحت مكبس الضغط والتضييق مع اخوانهم المسلمين — فالتحمت الاجزاء المتفرقة ، وتقاربت القلوب المتنافرة ، واخذت افكارهم تجول في المصير ، وسُبُله الخلاص — ولسوف تعلو به اصواتهم .

آن لنسيم الحياة ، والنشاط ان يهب على الممالك الشرقية واهلها — فتهب من رقدتها ، وتستيقظ من غفلتها ، وسنتها — فتجمع كلمتها ، وتوحّد قوّتها

آن للافغانيين ان يرفعوا ابصارهم ، و يستقبلوا باليقظة حظهم بفكر ثاقب ، وعقل رشيد — و يتقدموا للاتفاق مع اخوانهم الايرانيين — فليس بينهم ما يصح عليه الاختلاف في المصالح العمومية = فالجميع من اصل واحد ، وتجمعهم رابطة واحدة ، وهي اشرف الروابط «رابطة الدين الاسلامي»

وليعلموا ان استمرارهم على التخالف جلب ، ويجلب الضرر عليهم وعلى اخوانهم الفارسيين ، وعلى اخوانهم المسلمين في الهند ، وعموم سكنتها وعلى الفارسيين ، والافغانيين = ان يراعوا الكلمة الجامعة ، والصلة الجنسية = ولا يجعلوا الاختلاف الفرعي في المذهب = سبباً في خفض الكلمة الاسلامية ، وقطع الصلة الحقيقية — فليس من العقل والحزم ان يقام من خلاف جزئي — علة لاضمحلال الكل .

قد علم كل من القبيلين ان الاختلاف بينهما هو الذي جلب على كل منهما ما جلب . — فعلى الافغانيين ان يجوزوا عن هذا الاختلاف الفرعي الى الوحدة الاصلية — ويمدوا سواعدهم لمحالفة اخوانهم — ويجعلوا تلك « الوحدة » سياجاً لأوطانهم ، وعدة لمكافحة اعدائهم ، ومنبعاً فياضاً للخير بلادهم ، وملاذاً لجيرانهم ، ومثالاً تنسج على منواله عموم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها — فينالوا شرفاً رفيعاً ، ويورثوا اعقابهم مجداً مخلداً

وليس ببعيد على همم الايرانيين — وعلو افكارهم — ان يكونوا اول القائمين بتجديد « تلك الوحدة الاسلامية » وتقوية الصلات الدينية — كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه ، وحفظ احكامه ، وكشف اسراره . فلقد عملوا وما قصّروا — بل صرفوا قصارى الجهد في خدمة الشرع الشريف وتوسلوا لذلك باجلّ الوسائل .

نعم — البخاري ، ومسلم ، والنيسابوري ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابو داود ، والبغوي ، وابو جعفر البلخي ، والكليني وغيرهم ممن انبتتهم اراضي ايران .

ابو بكر الرازي الطبيب الشهير ، والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران ٠

ابو حامد الغزالي حجة الاسلام ، وابو اسحق الاسفرايني ، والبيضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي ، والابهري ، وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والاصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس — وهم فخر المسلمين ٠

ابو علي ابن سينا الفيلسوف الشهير —وشهاب الدين المقتول ومن كان على شاكلتهم — ممن جبلوا من تراب فارس ٠

ان اهل فارس كانوا من اول القائمين بخدمة اللسان العربي ، وضبط اصوله ، وتأسيس فنونه = منهم سيبويه ، وابو علي الفارسي ، والرضي ، ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان اعجاز القرآن ، وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية ٠

وصاحب الصحاح الجوهري ، من احدى قراهم ، ومجدالدين الفيروز آبادي من احدى بلدانهم ـ الزمخشري جارالله ، والسكاكي ، وابو الفرج الاصفهاني،وبديع الزمان الهمذاني ، وغيرهم ممن بيّنوا دقائق القرآنوشيدوا الدين كلهم من ارض فارس ٠

الطبري اول المؤرخين ، والاصطخري ، والقزويني ـ اول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس ٠ الشبلي كان من نهاوند ـ وابو يزيد البسطامي من بسطام ـ والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ الاكبر محي الدين بن العربي ـ كان من هراة ـ وكلها بلاد فارس ٠

هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي ، والآمدي ،

والمير غينـاني ، والسرخسي ، والسعد التفتازاني ، والسيـد الشريف ، والابيوردي وكلهم من ابناء فارس ·

القطب الشيرازي ، والصدر الشيرازي ـ ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ـ امير فندر كسي وغيرهم ـ كانوا من بلاد فارس

اي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى — اي مزية منّ الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها· نعم وفيهم جاء قول المصطفى « صلعم » لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس ·

فالفارسيون — اذا تذكروا اياديهم في العلم ، ونظروا الى آثارهم في الاسلام نهضوا ليكونوا للوحدة الدينية دعامة — كما كانوا للنشأة الاسلامية وقاية · فهم بما سبق لهم احق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لهم في فتوة الاسلام — وهم اجدر المسلمين بوضع اساس «للوحدة الاسلامية» وما ذلك يبعيد على طيب عناصرهم ، وقوة عزائمهم

اظن حان وقت ندائهم بالوحدة مع الافغانيين ، والتحالف معهم على مقاومة العادين — ليكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً ، وحرزاً منيعاً تقف دونه اقدام الطامعين

اظنهم لم ينسوا ان استيلاء الانكليز على الممالك الهندية — انما تمّ بوقوع الخلاف بينهم وبين الافغانيين — هل يخفى عليهم ان كل مسلم في الهند شاخص بصره الى طرف بنجاب — ينظر قدومهم اذا اتحدوا مع اخوانهم الافغانيين

حصلت لهم تجارب كثيرة وشهدوا من مظاهر الحوادث ما فيـه اكبر

عبرة — فهل يصح بعد هذا ان يستمروا على التجافي — والتباعد — مع علمهم ان الوحدة منبع الشوكة

هذا آن التآخي ، والتوافق — هذه اوقات التحالف ، والتواثق — احاط الاعداء بلادهم شرقاً ، وغرباً — وكل يشحذ سيفه ، ويسدد سهمه حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على اطراف بلادهم — فلا يضيعوا الفرص وليعلموا ان اتفاق سلطنة الشاه مع امارة الافغان توجد قوة اسلامية جديدة في الشرق تسرع للانضمام اليها والاتحاد معها سائر الطوائف الاسلامية مع امرائها وحكامها ، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة ، وتجدد لهم آمال جليلة ، وتنعش بذلك ارواح المؤمنين · وما اجلّها نعمة ، واهيبها سطوة ، وامنعها قوة — اذا توسط عقد تلك الوحدة الاسلامية — صاحب الخلافة العظمى ، والامامة الكبرى جلالة السلطان — فيستردوا المغصوب من ملكهم ، ويسترجعوا المنهوب من اموالهم ، ويستعيدوا مجدهم ، وما بان من عزهم — ويرجعوا الملك الاسلامي كما كان — مسيطراً ما بين نقطة الغرب الاقصى الى احشاء الصين — في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء — وتعاد السيرة الاولى التي كانت لملوك الاسلام العظام الذين اداروا بشوكتهم اكثر المعمور من الكرة الارضية — اولئك الذين ما كان يهزم لهم جيش ، ولا ينكس لهم علم ، ولا يرد قول على قائلهم — كان الخليفة العباسي اذا نطق بالكلمة — خضع لها فغفور الصين — وارتعدت منها فرائص اعظم الملوك في اوروبا — وكم نبغ في القرون الوسطى من اقيال الملوك ، والسلاطين مثل محمود الغزنوي ،

وماكشاه السلجوقي ، وصلاح الدين الايوبي — وفي المشرق مثل تيمور الكوركان — وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح — والسلطان سليم ، والسلطان سليمان ·

كانت لأساطيل المسلمين سيادة لا تبارى في البحار — الابيض ، والاحمر ، والمحيط الهندي — ولها الكلمة العليا فيها الى زمن غير بعيد — كان مخالفوهم يدينون لملكوت فضلهم — كما يذلون لسلطان غلبهم ·
والمسلمون هم هم يملأون اليوم تلك الاقطار ، والامصار — لا يعوزهم للعود الى ذلك المجد الباذخ ، والعز الشامخ — الاّ وحدة تتم بأذن الله — وفضل يعم بحول الله — وما على الله امر عسير وهو جلّ جلاله على كل شيء قدير نعم المولى ونعم النصير

استغرابه ميل الشرقيين في هذا العصر الى حب التطويل في المقال ، والمماطلة بالافعال — على عكس ما كان عليه السلف ، وامثلته على ذلك

قال : أرى للبلاغة في القول ، والايجاز بالبيان ، والاعجاز فيه — علاقة مع عزة سلطان الامة ، وزمن فتوتها — فكم من خطوب ألمّت وكادت تثير حروباً ، وتحدث شراً مستطيراً — أزالته خطبة ، وحسن بيان بايجاز وكم من جيش سمع من اميره كلمات فاستمات وذلّت عنده الحياة — وكم من امر خطير ، ووعظ ، وتحذير تضمنه كتيب صغير · — دونك وخطبة الصديق بعد بيعته حيث قال :

ايها الناس وليت عليكم ولست بخـيركم — فان احسنت فاعينوني ، وان أسأت فقوّموني — الصدق امانة ، والكذب خيانة

لأغمدنّ سيفي حتى يستلّه الحق — ولأعملنّ بالحلم حتى لا تنفع الاّ الشدة — الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له — والقوي ضعيف حتى آخذ الحق منه — لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الاّ ضربهم الله بالذل — أطيعوني ما اطعت الله ورسوله — فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . الخ

ومن مواعظ الصديق لأسامة بن زيد وهو امير الجيش : لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلو ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً — وسوف تمرون برهبان قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له . . .

ومن بليغ وصاياه ، وموجز حكمه « رضي الله عنه » مما لا يستغني عنه أمير ، ولا قائد جيش ، ولا عامل ، ولا وليُّ امر — مدى الدهر — قوله ليزيد بن ابي سفيان :

« اذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم ، وابدأهم بالخير ، وعدهم اياه واصلح نفسك يصلح لك الناس — وصلِّ الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها ، والتخشع فيها .

واذا قدم عليك رسل عدوك فاكرمهم ، واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به — ولا ترينهم — فيروا خللك — ويعلموا علمك .

وانزلهم في ثروة عسكرك — وامنع من قبلك من محادثتهم — وكن انت المتولي لكلامهم — ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط امرك . واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتي من قبل نفسك — واسمر بالليل في اصحابك تأتك الاخبار . وتنكشف عندك الاستار — واكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ، واكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، — فمن وجدته غفل عن محرسه فاحسن ادبه ، وعاقبه في غير افراط ، واعقب بينهم في الليل ، واجعل النوبة الاولى اطول من الاخيرة فانها ايسرهما ، ولا تخف من عقوبة المستحق ، ولا تلجن فيها ، ولا تسرع اليها ، ولا تخذلها مدفعاً = ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن اسرارهم ، واكتف بعلانيتهم ، ولا تجالس العبّاثين = وجالس أهل الصدق ، والوفاء واصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس — واجتنب الغلول «البخل والشح» . فانه يقرب الفقر ، ويدفع النصر — وستجدون اقواماً حبسوا انفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا انفسهم له : انتهى »

أيُّ خير لم تدل عليه هذه الوصايا ؟ — وأيُّ شرٍ لم تحذر منه ؟ — وهل باستطاعة المجلدات ان تقوم بما قامت به هذه الاسطر القليلة والعبارة الوجيزة ! ! .

مَن ؟ من فحول الفصاحة ، واقطاب البلاغة ، وفطاحل فقهاء الامة ، واعلام المجتهدين ، كان يطمع ان يجمع اصول القضاء ، وأهم فروعه كما جمعه الفاروق في كتابه الصغير المشهور لابي موسى الاشعري حيث قال له :

« اما بعد فان القضاء فريضة محكمَة ، وسنة متبعة ـ فافهم اذا أدّى اليك فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ـ واس في وجهك ، ومجلسك ، وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعي واليمين على من أنكر — والصلح جائز بين المسلمين الاّ صلحاً احلّ حراماً او حرّم حلالا ـ ولا يمنعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك ـ ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم ، الفهم . فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة — ثم اعرف الأمثال والاشباه ، وقس الامور بنظائرها — واجعل لمن ادعى حقاً غائباً ، او بيّنة امداً ينتهي اليه — فان احضر بيّنته أخذت له بحقه ـ والاّ استحللت القضية عليه ـ فان ذلك انفى للشك ، واجلى للعماء ـ واياك والقلق ، والضجر ، والتأفف بالخصوم ـ فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر، ويحسن به الذكر . . انتهى»

ومن موجز ، ومعجز وصايا الفاروق لامراء الجيوش ـ ما قاله لسعد بن مالك بن وهب حينما امّره على حرب العراق

«لا يغرّنك من الله ان قيل خال رسول الله «صلعم» وصاحب رسول الله ـ فان الله لايمحوا السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ـ وليس بين الله وبين احد نسب الاّ طاعة ـ الله ربهم وهم عباده ـ يتفاضلون بالعافية، ويذكرون عنده بالطاعة ـ فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله « صلعم» يلزمه ـ فالزمه ، وعليك بالصبر » .

وقد اوصى عتبة بن غزوان حين وجهه الى البصرة بقوله : « ياعتبة اني قد استعملتك على ارض الهند وهي حومة من حومة العدو ارجو الله ان يكفيك ما حولها ويعينك عليها ... واتق الله فيما وليت ، واياك ان تنازعك نفسك الى كبر مما يفسد عليك اخوتك — وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم — فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف — حتى صرت اميراً مسلطاً ، وملكاً مطاعاً — تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع امرك — فيالها من نعمة ان لم ترفعك فوق قدرك ، وتبطرك على من دونك — واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية — ولهي اخوفهما عندي عليك ان تستدرجك ، وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها الى جهنم — اعيذك بالله ونفسي من ذلك — ان الناس اسرعوا الى الله حتى اذا رفعت لهم الدنيا فارادوها — فأرد الله ولا ترد الدنيا ، واتق مصارع الظالمين » .

نعم تسنى للفاروق ان يأتي على خير نتائج الأحكام، وما ينتظره الناس على اختلاف طبقاتهم من عدل الحكام « باربعة كلمات » حيث قال للمغيرة بن شعبة حينما ولاه : يامغيرة « ليأمنك الابرار ، وليخفك الاشرار » .

ومن معجز الايجاز ذلك الكتاب الذي حوى عزل امير ، وتولية امير ، وعظم الذنب الذي اسند للمعزول ، ولزوم تسليم العمل للخلف والسرعة بالمجيء — وفي كل ذلك لم يتجاوز السطر — واليك نص الكتاب الذي بعثه الى المغيرة .

« اما بعد فانه بلغني نبأ عظيم فبعثت ابا موسى اميراً فسلم اليه ما في يدك — والعجل » .

وهكذا فانك ترى في طيات تلك الكلمات الموجزة قد انطوى العدل المطلق ، ومنها بدأ علم الاخلاق واليها انتهى مع حفظ وصون الشعور — واليك ما قاله لعمرو بن العاص: ان الله خلق الناس احراراً فَلِمَ تستعبدوهم ؟

ومن خطبة له « ايها الناس اني ما ارسل لكم عمالاً ليضربوا ابشاركم ، ولا ليأخذوا اموالكم ، وانما أُرسلهم اليكم ليعلموكم ، ويرشدوكم ، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه اليّ فوالذي نفس عمر بيده لاقصنه منه . . . ألاَ لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم »

« لانه حسب نزول العرب في الغياض يستحلون فيه برد الماء وطيب الهواء وظل الاشجار ، فيسترخون ما وجدوا في العيش رخاء وتذهب منهم النجدة ، ويضعف منهم البأس — هذا ما خشي عليهم منه وحسبه «ر.ض» مضيعة » .

وكان مع الاصحاب « ر.ض » يرمي في نصحه ، ووصاياه ، وبسيط اقواله — الى غرض بعيد من الحزم ، والتيقظ . — من ذلك انهم ذكروا رجلاً عنده فقالوا ياأمير المؤمنين فاضل لا يعرف من الشر شيئاً — قال ذاك اوقع له فيه ! »

« وما زال معين الحكمة، وحسن البيان مع الاعجاز في الايجاز يجريان مع الدولة صعوداً ، وارتقاءً ، وانبساطاً — حتى اذا اتى دور التقهقر ، والانحطاط — اخذ اللسان وحسن البيان ، وتلك البلاغة ، والفصاحة في السقوط ، والسخافة ، وفساد التركيب وسقم المعاني ، وسوء اختيار الالفاظ

— لدرجة يتعذر على الغالب معها فهم المراد — ولا ارى حاجة للاتيان بامثلة — لاننا من المعاصرين لابتلاء اللسان بهذا الداء — قال : خرجت من صلاة الجمعة في المسجد الجامع في البصرة — وفي نفسي حسرة ان اسمع الخطيب اعرب ولو كلمة واحدة في خطبة مكتوبة في يده — نترحمت على سيبويه — وعلمت ان كتابه « البحر » هو الذي اغرق البصريين ، والكوفيين فغاص الاعراب معهم الى القعر — هذا من حيث الأعراب ٠ — واما من حيث المعنى — فالى الله المشتكى ٠

منبر الخطبة في المساجد الجامعة شيده المصطفى «صلعم» ليرتفع منه صوت التعليم للمسلمين ، والايقاظ وتحريك الهمة ، والحث على جمع الكلمة ، وما فيه سعادة الدارين ٠ يصير الى ما صار اليه اليوم ٠ وعلى منابر البصرة ، والكوفة — ارتقى مثل امير المؤمنين علي ابن ابي طالب وغيره من اكابر الصحابة ، والتابعين — بحور البلاغة ، وفحول الفصاحة ، وحسن البيان — يرتقي ذلك المنبر اليوم اجهل الأعراب والعجم ويخطب الناس وقد ركبوا بعضهم احتشاداً ، وغصّ بهم فناء الجامع على رحبه — ولا تكون الخطبة الاّ «ان الورد اللطيف فتح من عرقه الشريف» ٠ وهكذا اكثر خطباء المنابر في الامصار فلا حول ولا قوة الاّ بالله

ومن العبث القيام لعمل قياس مع السلف الصالح — ولو كان القياس مع الفارق فقط لهان الامر ، وخفّ الشر — ولكنه العكس التام ٠

فاذا قلنا — ان السلف كان لا ينقض عهداً ، ولا يخلف وعداً ٠ واردنا ان نعلم ما نحن عليه من هذا القبيل — فما علينا الا ان نعكس الامر —

فيكون نحن الخلف «لا نحفظ عهداً ، ولا نفي وعداً» — وهكذا مضاءهم في العمل ، وتسويفنا — ايجازهم وتطويلنا — صبرهم — وجزعنا . شجاعتهم ، واقدامهم — وجبننا ، واحجامنا . عزة نفسهم ، واباءهم — ذلنا ، واستكانتنا — والى ما هنالك من المحزنات « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم» الآية .

تلك آيات الكتاب الحكيم تهدي الى الحق والى صراط مستقيم ، ولا يرتاب فيها الا القوم الضالون . هل يخلف الله وعده ، ووعيده — وهو اصدق من وعد ، واقدر من اوعد — هل كذب الله رسله ، هل ودع انبياءه ، وقلاهم — هل غش خلقه ، وسلك بهم طريق الضلال «نعوذ بالله». هل انزل الآيات البينات لغواً وعبثاً — هل افترت عليه رسله كذبا — هل اختلقوا عليه افكاً — هل خاطب الله عبيده برموز لا يعلمونها ، واشارات لا يدركونها — هل دعاهم اليه بما لا يعقلون — «نستغفر الله» .

اليس قد انزل قرآنا عربياً غير ذي عوج ، وفصّل فيه كل امر ، وأودعه تبياناً لكل شيء «تقدست صفاته وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً».

هو الصادق في وعده ، ووعيده — ما اتخذ رسولاً كذاباً ، ولا اتى شيئاً عبثاً ، وما هدانا الا سبيل الرشاد — ولا تبديل لآياته تزول السماوات والارض ، ولا يزول حكم من احكام كتابه — الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي

الصالحون» ويقول «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» وقال « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » « وقال ـــ ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » .

هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً — ولا ينال هذه الآيات بالتأويل الاً من ضل عن السبيل، ورام تحريف الكلم عن مواضعه

هذا عهده الى هذه الامة المرحومة ولن يخلف الله عهـده — وعدها بالنصر والعزة ، وعلوّ الكلمة ، ومهّد لها سبيل ما وعدها الى يوم القيامة ـ وما جعل لمجدها امداً ، ولا لعزتها حداً

هذه امة انشأها الله من قلة ، ورفع شأنها الى ذروة العلا — حتى ثبتت اقدامها على قنن الشامخات ، ودكّت بعظمتهـا عوالي الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها اعشار القلوب

هال ظهورها الهائل كل نفس ، وتحيّر في سببه كل عقل ـــ واهتدى الى السبب اهل الحق فقالوا ـــ قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ـــ جماعة قاموا بنصر الله ـــ واسترشدوا بـكتابه فامدهم بنصر من عنده

هذه امة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر، معوزة من الاسلحة ،وعدد القتال — فاخترقت صفوف الامم ، واختطّت ديارها — فلا ابراج المجوس وخنادقهم دفعتها ، ولا قلاع الرومان ، ومعاقلهم صدّتها ، ولا صعوبة المسالك عاقها — ولا اثر في همتها اختلاف الأهوية — ولا تهيبت نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعهـا جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم، ولا سعة دائرة فنونهم، ولا عاق سيرها احكام

القوانين ، ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلُّب غيرها من الامم في فنون السياسة كانت تطرق ديار القوم — فيحقرون امرها ، ويستهينون بهم — وما كان يخطر ببال احد ان هذه الشرذمة القليلة « العرب بعد الاسلام » — تزعزع اركان تلك الدول العظيمة ، وتمحو اسماءهم من لوح المجد — وما كان يختلج بصدرٍ ان هــذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الامم الكبيرة ، وتمكّن في نفوسها عقائد دينها ، وتخضعها لأوامرها ، وعاداتها وشرائعها ·

لكن كان كل ذلك — ونالت تلك الامة المرحومة على ضعفها — ما لم تنله أُمة سواها ·

نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه — فوَفّاهم أُجورهم مجداً في الدنيا وسعادة في الآخرة ·

هذه الامة اليوم يبلغ عددها مايتين وثمانين مليونًا على وجه التقريب — واراضيها كما سبق بيانه آخذة من المحيط الاطلانتيكي الى احشاء بلاد الصين — تربة طيبة — ومنابت خصيبة ، وديار رحبة — ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، واموالها مسلوبة — تتغلب الاجانب على شعوب هذه الامة شعباً شعباً ، ويتقاسمون اراضيها قطعة بعد قطعة ، وممالكها مملكة بعد مملكة ، وولاية بعد أُخرى = ولم يبقَ لها كلمة تسمع ، ولا امر يطاع — حتى ان الباقين من ملوكها — يصبحون كل يوم في ملمّة ، ويمسون في كربة مدلهمّة — ضاقت اوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلمّ بهم — وصار الخوف عليهم اعظم من الرجاء لهم ·

هذه هي الامة التي كانت الدول العظام يؤدون لهـا الجزية استبقاء

لحياتهن — وملوكها في هذه الايام يرون بقاءهم في التزلف الى تلك الدول الاجنبية — يا للمصيبة ! ويا للرزيئة ! — أليس هذا بخطب جلل ؟ أليس هذا بلاء نزل ؟ — ما سبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ، والسقوط ؟ — هل نسيء الظن بالوعود الالهية ؟ « معاذ الله » هل نستيئس من رحمة الله ، ونظن ان قد كذب علينا — « نعوذ بالله » — هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ان اكده لنا ؟ « حاشاه سبحانه » لا كان شيء من ذلك ، ولن يكون — فعلينا اذاً ان ننظر الى انفسنا ولا لومنا الا عليها . ان الله سبحانه وتعالى بحكمته قد وضع لسير الامم سنناً متبعة ثم قال « ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

ارشدنا تعالى في محكم آياته الى ان الامم ما سقطت من عرش عزها ، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود — الا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على اساس الحكمة البالغة .

ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ، ورفاهة ، وخفض عيش ، وامن ، وراحة — حتى يغير اولئك القوم ما بانفسهم — من نور العقل — وصحة الفكر ، واشراف البصيرة ، والاعتبار بافعال الله في الامم السابقة ، والتدبر في احوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا ، وحل بهم الدمار ، ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحزم ، والحكمة .

حادوا عن الاستقامة في العمل ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته .

تركوا الحق ولم يجمعوا هممهم على اعلاء كلمته ، واتبعوا الاهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية ، واتوا عظائم المنكرات ·

خارت عزائمهم — فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة — واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق — فاخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين !! ·

هكذا جعل الله بقاء الامم ، وغناها في التحلي بالفضائل التي اشرنا اليها — وجعل هلاكها ، ودمارها في التخلي عنها · سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ، ولا تتبدل بتبدل الاجيال — كسنته تعالى في الخلق ، والايجاد ، وتقدير الارزاق ، وتحديد الآجال — علينا ان نرجع الى قلوبنا ونمتحن مداركنا ، ونسبر اخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا — لنعلم هل نحن على سير الذين سبقونا بالايمان ؟ هل نحن نقتفي اثر السلف الصالح ؟ هل غيّر الله ما بنا قبل ان نغيّر ما بانفسنا ، وخالف فينا حكمه ، وبدّل في امرنا سنته — « حاشاه وتعالى عما يصفون » · بل صدقنا الله وعده حتى اذا فشلنا ، وتنازعنا في الامر ، وعصيناه من بعدما ارى اسلافنا ما يحبون — واعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً — فبدّل عزنا بالذل ، وسمّونا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية ·

نرى الاجانب عنا يغتصبون ديارنا ، ويستنزلون اهلنا ، ويسفكون دماء الابرياء من اخواننا — ولا نرى في احد منا حراكاً

هذا العدد الوافر ، والسواد الاعظم من هذه الملة وغيرهم من الشرقيين لا يبذلون في الدفاع عن اوطانهم ، وانفسهم شيئاً من فضول اموالهم —

يستحبون الحياة الدنيا ، ويود كل واحد منهم لو يعيش الف سنة وان كان غذاؤه الذلة ، وكساؤه المسكنة ، ومسكنه الهوان.

تفرقت كلمة الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً « وهم اصحاب الملك المسلوب ، والمال المنهوب» شرقاً، وغرباً ـ وكاد يتقطع ما بينهم ـ لا يحن أخ لأخيه، ولا يهتمّ جار بشأن جاره، ولا يرقب احدنا في الآخر ألاً ولا ذمة ـ ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما نبذل من ارواحنا ، واموالنا حسبما امرنا . ايحسب اللابسون لباس المؤمنين ـ ان الله يرضى منهم بما يظهر على الالسنة ـ ولا يمس سواد القلوب ـ هل يرضى الله عنهم بان يعبدوه على حرف ـ فان اصابهم خير اطمأنوا به وان اصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم ـ خسروا الدنيا والآخرة نسأل الله الحماية والهداية الى سواء السبيل فهو حسبنا ونعم الوكيل

❊ رأيه في المستعمرات والمستعمرين ، وان الاستعمار لأي دولة ❊ مهما تعاظمت قوة واقتداراً فمستعمراتها ان هي الا ثوب عارية قابل للاسترداد

قال : لقد برّز الاوربيون بضروب السياسة لتوسيع ممالكهم ، وتفننوا بايجاد الوسائل المؤدية لذلك ـ وكان اسبقهم في الدهاء واكثرهم في الاستيلاء (الانكليز) وهم في مقدمة من رأى من دول الغرب ـ ان فتح البلاد ، وتملكها بالجيوش ، والكفاح ، والقتال من مزعجات الأمور ـ وان الدخول من باب المكر ، واللين، والخديعة ، والختل ـ اوفر ، واسهل، واقرب وافعل.

فاعتمدت هذا الاخير سلاحاً ، ونالت به نجاحاً ، وفلاحاً ـ وتركت الاول وهو (الحرب والقتال) وفتح البلاد غلباً ، وقهراً ـ ورجعت للثاني ـ والبسته من الاسماء طيلساناً لين الملمس ، هين الملبس ـ ودعته (بالاستعمار) وما يؤخذ من الممالك (مستعمرات) ومن يحكم من الناس فيها (بمستعمرين) ـ وجرت في هذا المضمار فكانت (المجلّى) وحازت قصب السبق ـ وتبعها غيرها من الدول فكانوا (السكيت)

ان هذا «الاستعمار» لغة ، واصطلاحاً ، مصدراً ، واشتقاقاً — لا أراه الاّ من قبيل اسماء الاضداد — وهو اقرب الى «الخراب» و «التخريب» والى «الاسترقاق ، والاستعباد» منه الى «العمار ، والعمران ، والاستعمار» . لا تسير دول الاستعمار الاّ الى البلاد الغنية في ثروتها ، ومعادنها ، وخصب تربتها — ومن كان اهلها في الدرك الاسفل من الجهل ، قد خيمّ عليهم الخمول ، لا يبدون حراكاً ، ولا يقربون عراكاً .

واذا صادفت دول الاستعمار « على طريق الشذوذ » في بعض الممالك ، أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو امير ـ فما هي الاّ مناوشة صغيرة حربية ـ مع تلك المعدات الحديثة ـ وقد سقط الملك ، أو الامير اسيراً ، فسيق مع أهل بيته ذليلاً حقيراً ، وحجر عليه في اضيق البلدان ، وابعدها عن العمران ـ وتدخل المملكة ، أو الجزيرة أو المقاطعة ـ وتنتظم في سلك المستعمرات ـ فتصبح اعزة البلاد اذلاء ، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد ، وكمّ الافواه — وينتصب الميزان ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين ، أو يشخص ببصره ، أو يلتفت الى ورائه — ليس لأحد من خيرات بلاده

شيئ وكل الضرائب، والضربات ، والشر والويلات لاهل البلاد ، وعليهم لا يشاركهم بذلك احد ٠

هذا اذا كان الدخول للبلاد « بلعبة حربية » ٠ = واما اذا دخلوا من باب الانتصار للأمير ، أو تثبيت الملك ، أو قمع الثورة = وكانوا في ذلك اللباس لباس الاصدقاء ، الامناء ، المخلصين = أو محبين للشعب ، ورقيه ، وتعليمه دروس الحكم الذاتي ليستغني عنهم ويحكم بلاده بذاته ! !ـ فهناك تبقى مظاهر الامور محفوظة ، وبعض التقاليد التافهة مأمونة ـ يشكلون للاحكام ، وادارة مهام البلاد ـــ هيا كلاً من الناس ـــ ويتركون معهم امير البلاد قبة جوفاء يرجع منهـا صدى الصوت فقط ـــ وليس لهم من الامر الاّ اتباع الأمر لا غير ـ ومختصر القول ـــ ان الاستعمار بمعناه الصحيح ، ومبناها الصريح — هو تسلط دول ، وشعوب اقوياء علماء — على شعوب ضعيفة جهلاء ـــ ولا يخرج عامل الغلب ، والقهر ـــ عما ذكرناه فيما سبق وهو « القوة ، والعلم يحكمان ، ويتحكمان ، « بالضعف والجهل » ٠ = سنة ثابتة ، وقانون متبع في الكون ٠

ولما كان لحياة الامم ، والدول ـــ ادواراً ، وآجالاً ـــ ولحدوثها وتكونها ، وتعاليها ثم توقفها ، وانحطاطها ـــ اسباباً وعوامل ـــ هكذا وجب ان يكون الاستعمار خاضعاً لتلك النواميس الكونية ـــ بمعنى انه يصل الى حد محدود واجل معلوم ـــ وانقضاء اجل الاستعمار انما يتم بزوال الاسباب التي مكنت اهله من التسلط ، واكرهت الشعوب على الخضوع لهم ٠

نعم متى ضعف ما كان سبباً في الصعود ـــ يحصل الهبوط ، والانحطاط ،

ـ ومتى زال ما كان سبباً في السقوط ـ يحصل الصعود ـ دور للحاكم والمحكوم ، وقاعدة هي بحكم اللازم ، والملزوم ·

يحصل للضعيف من صدمة القوي ـ « دهشة ورجفة » ـ ويحدث من آثار العلم على الجاهل « خشية » فيقف بين هاتين القوتين منذهلاً ، حائراً ، ذليلاً ، صاغراً ـ كما هو الحال مع أهل الاستعمار ، والمستعمرين ـ اذ يمر الدور الاول بين تجبر ،وتكبر ،وعسف ، وجور ـ واهل المستعمرات قد ادهشتهم المفاجأة ، واذهلتهم الصدمة ـ فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع ـ فيصادرون بمعنوياتهم ـ من حرية شخصية ، وعزة نفسية ، وحرمة ملية ، أو جامعة قومية ـ ثم يأتي دور القضاء على مادياتهم ـ فيحرمون من خيرات بلادهم ، ومن كسب تجارتهم ، واستثمار مناجمهم ، وبالاجمال الحرمان المطلق من كل خير ، وانزال كل شر وضير — فيرزحون آخر الامر تحت اثقال الضرائب وتتحمل اجسامهم ما لا تطيق — فعند الوصول الى هذا الحد — من ارهاف الحد — تظهر على الامة عندئذٍ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه « الاختلاج » فاذا التقوا افراداً اخذ كل منهم ينظر الى الآخر ـ فيهزُّون رؤوسهم هزاً خفيفاً ، ويفركون ايديهم فركاً غير منتظم ، ويحكُّون رقابهم ، وارباب اللحى منهم يسبِّلون لحاهم ، وينتفون عثنونهم · = هذه هي اول مظاهر الشعور — ثم تجول الافكار ، وبعده يبدأ الهمس ، ثم الهدرمة ثم ، وثم الى ان يعلو الصوت ، ويرتفع السوط ويحكم السيف ويأتي من بعده حكم العادل وهو سبحانه وليُّ المظلومين ·

ولو جاز لدولة ان تشذ فتعامل المستعمرات بشيء من العدل ، ولم

ترهقهم ظلماً ، وتسومهم جوراً ، وعسفاً — لزم ان يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الانكليز لمستعمرة « اميركا » وبينها وبينهم من جامعات اللسان ، والدين ، والمذهب والاخلاق ما يدعو للعطف ، ويحمل على الإقلال من العنف .

ولكن هيهات !! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ — وكلنا يعلم ماعاناه الاميركانيون من جور الحكومة الانكليزية ، وتفننها بانواع المظالم ، وسلب اموالهم باشكال الضرائب — وآخر ضريبة ، أو ضربة نبهت الاميركانيين ودفعتهم لطرح نير انكلترا بقوة السلاح ، ونهوض الامة — ضريبة « ورقة التمغة » وان صكوك البيع ، وكافة العقود ، والعهود اذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها ... وناهيك ما في هذا الحكم من الجور ومن ضياع املاك وحقوق — نعم لجأ الاميريكانيون في بدء أمرهم الى ما يلجأ اليه الضعيف — اذ بعثوا بالشكوى الى عاصمة الانكليز ومجلس اشرافهم — عقب ان عقدوا جمعية عمومية في مدينة نيويورك ، وعقب ان اوسعوا « مأمور بيع ورق التمغة ضرباً » واتفقت كلمة الجميع على الرفض — وهذا اول طلائع القوة — التي لا ترضخ الانكليز لقوة سواها — وهو اجتماع كلمة « الأمة » خدَّرت اعصاب الاميركانيين بابطالها ورقة التمغة — وبالوقت ذاته احدثت ما يمكّنها من سلب مال الولايات المتحدة ، فوضعت رسم الكمرك على ما يدخل اليها من الشاي — وهذا الرسم اكثر سلباً للمال من التمغة — وعمدت للتنفيذ على استعمال القهر ، والقوة — ولما كانت روح الحياة في الاميركانيين قد دبّت — وجازت ، وتخطت دورة « الاختلاج » و« الهمس » ووصلت

الى دور ارتفاع الصوت ، وسل السيف — فرمت بالشاي الوارد الى البحر ووقفت للقوة الانكليزية بقوة الامة الاميركانية — والقت مقاليد امورها ، وادارة حروبها الوطنية الى بطل حريتهم ، واستقلالهم «الجنرال واشنطون» العظيم —

السيف اصدق انباء من الكتب　　في حدّه الحد بين الجد واللعب

قل لي لو ثابر الاميركانيون دهراً على بث الشكوى من ولاة الانكليز الى مجلس وزراء الانكليز ، واستنفدوا المداد ، وسوّدوا ما في الارض من قرطاس تظلماً ، واستغاثة — هل كان يفيدهم في استقلالهم شيئًا ، أو يكشف عنهم بلاء استعمار البريثانيين — لا والذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف ٠

فقوة كل أُمة كامنة في افرادها — لا يظهرها الاّ الاتحاد — ولا يخفيها الاّ التفرق فمن رام من الامم استعادة مجدها ، والتخلص ممن اذلّها فليس غير طريق « الاتحاد » ما يوصل الى الغاية ، وينقذ من البلاء — ولا غير حب الموت ما ينجي من الموت — وينيل المرء احدى الراحتين — فامّا ان يعيش بحريته ، واستقلاله « سعيداً » واما ان يموت دونها (بطلاً شهيداً)

اروني مملكة ، أو أُمة — انغمس ملوكها ، وامراؤها بالسفه ، والسرف وعمّ الجهل طبقات الشعب ، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل ، والهوان — لم تسقط تلك الملوك والامراء عن عروشها ، ولم يستعبدها الاستعمار ، و يحل فيها الدمار !! ٠

وهاتوا ، مملكة أو قارة — اتفقت كلمة اهلها ، وأنفت من الذل ، ورفضت الاستعباد واستلّت السيف ، وطاب لها الحتف — ولم تنل استقلالها

والتمتع بحريتها — ولو كان المستعمر اعظم الدول قوةً واقتداراً ·

هل من حاجة للاتيان بالأدلة، وضرب الامثلة على ان اصغر الأمم ناهضت اعظم الدول = وظفرت بحاجتها ، ونالت حريتها واستقلالها ·

مَن هم اليونان « سكنة ولاية الموره » قبل أقل من عصر عندما ناهضت الدولة العثمانية — تلك الدولة التي كانت تحكم ستين مليوناً من النفوس اذ ذاك — واليونان الى اليوم لم يتجاوزوا في متفرق المعمور مليونان.

كم هو عدد الصربيين ؟ وهل تجاوزوا بعد استقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريباً ؟ ! ·

ما هو جبل الاسود ؟ - ومجموع سكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة « بك اوغلو » في الاستانة — وما هي قوته ، وجيشه — بالنسبة لقوة ، وجيش الدولة العثمانية ! ·

وهكذا القول في بلغاريا ، ورومانيا · · ·

فبعد هذه الادلة المحسوسة ، والامثلة الملموسة — يصح ان يبقى ادنى ريب — ان المستعمرات لأي دولة مهما تعاظمت قوةً ، واقتداراً كالثوب العارية لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة ، والطرق الموصوفة ·

وهل يشك المصريون — وهم يزيدون عن العشرة ملايين [1] وكلهم احفاد الغزاة ، الفاتحين من اعز قبائل العرب — واخوانهم الاقباط — احفاد اولئك الاشداء الذين آثارهم تدل على عظم هممهم — انهم اذا نهضوا لم

---

(١) هذا كان عدد سكان القطر يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠ ﻫ ١٨٩٣ م.

يظفروا بالاستقلال ، والحرية — واعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد. — بلى — وانهم سينهضون انشاء الله ، ويعملون متحدين ، معتصمين بحبل الله ، وينالون ما يتمنون بحول الله — والله على كل شيءٔ قدير .

﴿ قوله : ان المسلم سواء فيه العربي ، والاعجمي انما يعجب بماضيه واسلافه — وهو في اشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب ان يكون ﴾

قال : الكون يشهد ، والآثار تدل ، ولا من ينكر على ان للعرب ، وغيرهم من العجم — آثاراً ، ومفاخر اتت من وراء الهمم ، وصدق العزائم ، — ولكنها ياللأسف دفنت في اجداث الاجداد ، وجاورت عظام اولئك العظام — اعلام المروءة ، عصبة الرحمة ، اولياء الشفقة — أهل النجدة ، اسود الحميـة ، وغوث المضيم يوم الشدة ، شوامخ القوة ، رواسي العدل — تلك بعض صفات السلف — عثر عليها الخلف بالنبش وهو في جبـانة «الجبن» و «الخمول» — وقرأها في سطور كتاب حادثات الدهر ، واوراق سجل رجال العالم — فطفق يفخر ، ويعدد ، ويصول ، ويطول ، ويقول : نحن من لمعت سيوف اجدادهم بالمشرق ، وانقضّت شهبها على المغرب ، فذلّت لهم رقاب القياصرة ، والاكاسرة ، وخضعت لأمرهم الامم — خفقت اعلام فتوحاتهم فوق ممالك الارض — فطهروها من جراثيم الظلم والجور — وملئوها بالرحمة والعدل — وهكذا لا تزال تسمع كلا من العربي ، والفارسي وغيرهما من الشرقيين — يقول نحن احفاد اولئك الاجداد ، ونحن سلالة ،

وذرية اولئك الاقيال الامجاد، ونحن ونحن مما يثير الاشجان، ويزيد الاحزان

نعم اولئك أباؤنا ، واجدادنا قد جاد الزمــان بهم لجاؤا — ولكن واسوأتاه ، وامعرتاه ! ، واخجلتاه ؟ : — اذا هم سألونا عما فعلنا بخلفاتهم ، وما أورثوه لنا ، واستخلفونا عليه من الممالك ، والاقطار — وعظيم المدن ، والامصار .

نعم اين انتم ايها الاجداد ، الامجاد ، الانجاد ، القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة — ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما اتاه خلفكم من بعدكم ، وما اصاب ابناءكم ومن ينتحل نحلتكم — انحرفوا عن سنتكم — وحادوا عن طريقكم — فضلوا عن سبيلكم — استبدلوا كل فضيلة برذيلة ، واتوا على كل امرٍ لله بعكسه ، نبذوا حكمة الدين واتباع شرع سيد المرسلين ، وتفرقوا فرقاً ، واشياعاً — الملوك منهم انزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلماً ، واعزة باتوا اذلّةً ، وأجلاّء اصبحوا حقراء ، واغنياء امسوا فقراء ، واصحاء اصبحوا سقاما ، واسود تحولت نعامــاً — فاصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الاكباد حزناً — اصبحوا فريسة للأمم الغريبة لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعاً عن حوذتهم — ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال الى سواء السبيل — « انا لله وانا اليه راجعون » .

نعم — ان للارواح اشرافاً بهيا كلها الروحانية — على ما تلبس من الاجسام الترابية في هذه الدار الفانية — ومناجاة لمن فيه ذلك الاستعداد

« اذ الامداد لا يكون الاً على قدر الاستعداد » — فاذا اصغينا بالحس الروحي الى ما تريد ان تناجينا به ارواح اجدادنا — لوجدناهم يحرّقون علينا الأُرم ويزعجهم الألم وينادوننا : ايها الاحفاد ؟ تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق — نعم — وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة في اغمادها = فهل تقلدتموها ؟ وهل سللتموها بوجه من اكتسح بلادكم ، وضرب عليكم الذلة والمسكنة - تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك ، وما تحملناه في سبيل ذلك من المخاطر والمهالك — ولا تخجلون ، ولا تحزنون وقد سلبتها منكم الاعداء وانتم من مقاعد جبنكم ، وذاًكم تنظرون — ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى ولا تنطقون ·

تفتخرون بصبرنا ، وثباتنا ، واقدامنا ، وبسالتنا ، واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم « صلعم » وانتم على عكس الامر — من اخلاق ، وصفات = وما ابعدكم بهذا عن الفخر = وأبعد الفخر عنكم — ولأ نتم اولى باطراق الرأس ، وغض الطرف خجلاً ، وحياء من الله ، ومن ارواحنا في الملأ الأعلى — التي تبرأُ الى الله من صنعكم وقلة ايمانكم بالله ، والعمل بما جاء به رسول الله ·

تفتخرون بتمسكنا باصول الدين ، وحسن اليقين — والتزام الكتاب والسنة والعمل باحكامها — وانه قد استحكمت بيننا رابطة الاخوة — فكنا كالبنيان المرصوص — نعم هكذا كنا — امّا انتم فلم يبق من جامعة بينكم الاً العقيدة الدينية «وليس في الجميع» مجردة عما يتبعها من الاعمال — انقطع التعارف بينكم ، وهجر بعضكم بعضاً هجراً غير جميل — علماؤكم وهم

القائمون على حفظ العقائد ، وهداية الناس اليها — لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم — فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني — وهكذا — بل العلماء من اهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم ، ولا صلة الاّ ما يكون بين افراد العامة لدواع خاصة من صداقة ، او قرابة بين احدهم والآخر — امّا في هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم — بل لا انساب بينكم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها — كأنه جزوء منفصل ، او عضو مبتور

تفتخرون بانه غلب على صفاتنا «التعقل» والتروي ، وانطلاق الفكر من الاوهام، والعفة ، والسخاء ، والقناعة ، والدماثة ، ولين الجانب، والوقار والتواضع ، وعظم الهمة ، والصبر، والحلم ، والشجاعة، والايثار ، والنجدة، والسماحة ، والصدق، والوفاء ، والامانة، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو ، والمروءة والحمية ، وحب العدالة ، والشفقة . نعم منّ الله علينا وهكذا كنا . — وانتم ايها الاحفاد ! ماذا غلب على اكثركم غير السفه ، والقحة ، والبذاء ، والبله ، والطيش ، والتهور ، والجبن ، والدناءة والجزع ، والحقد ، والحسد ، والكبرياء ، والعجب ، واللجاج ، والسخرية ، والغدر ، والخيانة ، والكذب ، والنفاق ، والشح . افبهذه الاخلاق تحبون ان تغلبون ، وتعجبون كيف تسلبون املاككم ، وتذلون — ام بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيراً — شيما واخلاقا ؟!

هذا بعض ما تحس به ارواحنا من مناجاة اجدادنا لنا — وما اطبق اقوالهم هذه على الحق ، وما اقربها من الصواب ، والواقع . اي بيّنة لنا على

انا خلف ذلك السلف — وهل يعقل لو ورثنا اخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم ، واقتفينا اثرهم ، ولم نحد عن سيرهم ، وسيرتهم — نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وان يستبد بملكنا غيرنا — ام بقينا نحن الوارثين ؟

ان «دعوى» حق الاحفاد في ميراث الاجداد ـ هي في محكمة «الكون» والبينة التي يصدر من بعدها الحكم — هي اثبات التحلي بفضائل السلف ، والتخلق باخلاقهم ، والنسج على منوالهم ، والتزام ما لزموه من السنن ، وجروا عليه بالقول والعمل — فعسى ان نوفق للادلاء بتلك الحجة — فتستقيم لنا المحجة — اذ كفانا من الذل ما لاقينا ، ومن البلاء ما عانينا

وبعد ان سكت جمال الدين برهة قال : من العجيب الغريب — وما يدعو الى الحيرة ـ ما نراه في المسلمين ـ فهم بحكم شريعتهم ، ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ملكهم ، وولايتهم من البلدان ـ وكلهم مأمور بذلك ـ لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ـ ولا بين المتحدين في الجنس ، ولا المختلفين فيه ـ وهو فرض عين على كل واحد منهم ـ ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم ـ كان على الجميع اعظم الآثام ومن فروضهم في سبيل الحماية ، وحفظ الولاية ـ بذل الارواح ، والاموال وركوب كل صعب ، واقتحام كل خطب ـ ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الاحوال ـ حتى ينالوا الولاية خاصة لهم دون غيرهم . وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم الى حد ـ لو عجز المسلم عن التملص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه ـ

يحس كل مسلم لهاتف يهتف من بين جنبيه ـ يذكّره بما تطالبه به الشريعة وما يفرض عليه الايمان ـ وهو هاتف الحق الذي بقي له من ألهامات دينه ـ ومع كل هذا نرى اهل هذا الدين في هذه الايام ـ بعضهم في غفلة عما يلمّ بالبعض الآخر ـ ولا يألمون لما يألم له بعضهم ـ فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكليز ، وعيشهم في افغانستان ينظرون الى ذلك ـ ولا يجيش لهم جأش ، ولا تبدو لهم نعرة على اخوانهم ـ والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز في بلاد فارس ولا يضّجرون ، ولا يتململون ـ وكلاهما يعلمان ما في الهند ـ من ظلم ، وجور ، وفتك ، وسلب ـ ولا يتحركون ـ وان جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً واياباً ـ تقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري تلك الدماء والناظرين الى تلك المصائب والبلاء

نعم هذا ما يجري من الأمور ، وساء معه المصير ـ وان النفس لتتوق لمعرفة الاسباب وان كان الاتيان على ذكرها مما يطول ـ فلا بأس من الألمام بها على وجه الاجمال . قال :

لا ريب ان الافكار العقلية ، والعقائد الدينية ، وسائر المعلومات والمدركات ، والوجدانات النفسية = وان كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر = ولكن « الاعمال » هي التي تثبتها ، وتقويها ، وتطبعها في الانفس ، وتطبع الانفس عليها = حتى يصير ما يعبر عنه ، « بالملكة » و « الخلق » = وتترتب عليه الآثار التي تلائمها .

نعم ان الانسان = انسان بفكره ، وعقائده = الاّ ان ما ينعكس من

مرايا عقله = من مشاهد نظره ، ومدركات حواسه = يؤثر فيه اشد التأثر — فكل شهود يحدث فكراً — وكل فكر يكون له اثر في داعية يدعوا اليها — وعن كل داعية ينشأ عمل — ثم يعود من العمل الى الفكر — دور يتسلسل ولا ينقطع الانفعال بين الاعمال ، والافكار ما دامت الارواح في الاجساد — وكل قبيل هو للآخر عماد — «آخر الفكر اول العمل» و«اول العمل آخر الفكر» ·

ان للاخوة ، وسائر نسب القرابة — صورة عند العقل — ولا أثر لها في الاعتصاب ، والالتحام — لولا ما تبعث عليه الضرورات ، وتدعو اليه الحاجات — من تعاون الانسباء ، واهل العصبية على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ·

وبعد كرور الايام على المضافرة ، والمناصرة — تأخذ النسبة من القلب مأخذاً — يصرفه في آثارها بقيـة الأجل — ويكون انبساط النفس لعون القريب ، والتأثر لما يصيبه من نكبة ، أو ضيم — جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية — كالاحساس بالجوع ، والعطش ، والشبع وما أشبه — بل اشتبه امره على بعض الناظرين فعدّه «طبيعياً» — فلو اهملت صلة النسب بعد ثبوتها ، والعلم بها — ولم تدع ضرورات الحياة ، والظروف — الى ما يمكّن تلك الصلة ، ويؤكدها — أو وجد صاحب النسب قوة ، ومظاهرة في غير أهل نسبه ، أو الجأته الضرورة الى ذلك — ذهب اثر تلك الرابطة النسبية ولم يبقَ منها الاّ صورة في الذهن تجري مجرى المحفوظات من الروايات ، والمنقولات ·

وعلى هذا المثال من رابطة النسب — وهي اقوى الروابط بين البشر يكون القول ، والامر في — سائر الاعتقادات — التي لها اثر في الاجتماع الانساني ـ من حيث ارتباط بعضه ببعض ٠

ان لم يلازم العقد للرابطة — ضرورة ، أو قوة الداعية — الى عمل ـ تنطبع عليه الجارحة ، وتمرن عليه ، ويعــود اثر تكريره على الفكر ـ حتى يكون هيأةً للروح ، وشكلاً من اشكالها ـ فلن يكون منشأ لآثاره ـ وانما يتهيأ له في الصور العلمية ـ رسم يلوح في الذاكرة عنــد الالتفات كما هو في المحفوظات كما قدمنا ٠

بعد تدبر هذه الاصول ، والنظر فيها بعين الحكمة ـ يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ما هم فيه ـ مع شدتهم في دينهم ، والعلة في تباطؤهم عن نصرة اخوانهم ـ وهم أثبت الناس في عقائدهم ـ لانه لم يبقَ من جامعة بين المسلمين في الاغلب الاَّ « العقيدة الدينية » مجردة عما يتبعها من الاعمال التي من آثارها جلب المنافع ، ودفع المضار وما يستلزم ذلك من تعارف ، وتواصل ، وتبادل بالشعور ، والتحسس ٠

وقد انعكس كل ذلك ولم يبقَ الاَّ تقاطع ، وتدابر ، وجفاء ، الى غير ذلك مما سبق ذكره في حالة الامة ، وعلمائها ٠

وكما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء ـ كانت كذلك بين الملوك ، والسلاطين من المسلمين ٠ ـ أليس بعجيب ان لا يكون سفارة للعثمانيين في مراكش ـ ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ ـ أليس بغريب ان لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الافغانيين وغيرهم من طوائف

المسلمين في المشرق ٠

هذا التدابر ، والتقاطع ، وارسال الحبال على الغوارب ـ عمّ المسلمين ـ حتى صح ان يقال ـ لا علاقة بين قوم منهم وقوم ـ ولا بلد وبلد ـ الاّ ظفيف من الاحساس بان بعض الشعوب على دينهم ، ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون بمواقع ممالكهم ، وامصارهم بالصدفة ـ اذا التقى بعض ببعض في موسم الحج العام ـ وهذا النوع من الاحساس هو الداعي الى الحزن ، وانقباض الصدر ٠

كانت الملة كجسم عظيم ، قوي البنية ـ صحيح المزاج — فنزل به من العوارض ما اضعف الالتئام بين اجزائه — فتداعت للتناثر ، والانحلال — وكاد كل جزء يكون على حدة وبمثل هذه الحال — تضمحل هيأة الجسم ٠

بدأ هذا الانحلال ، والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة — وقتما قنع العباسيون (بعد المأمون) باسم الخلافة دون ان يحوزوا شرف العلم — والتفقه في الدين ، والاجتهاد في اصوله وفروعه — كما كان الراشدون «ر٠ ض» ٠

كثرت بذلك المذاهب ، وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة — حتى بلغ الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الاديان — ثم انثلمت وحدة الخلافة — فانقسمت الى اقسام — خلافة عباسية في بغداد — وخلافة فاطمية في مصر والمغرب — واموية في اطراف الاندلس ٠

تفرقت بهذا كلمة الأمة ، وانشقت عصاها ، وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك فسقطت هيبتها من النفوس — وخرج طلاّب الملك ،

والسلطان يستجمعون لأنفسهم وسائل القوة ، والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة ، وزاد الأختلاف شدة ، وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان واولاده وتيمورلنك واحفاده ، وايقاعهم بالمسلمين قتلا ، وإذلالاً — حتى اذهلوهم عن انفسهم — فتفرق الشمل بالكلية ، وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً ، وانفرد كل بشأنه ، وانصرف الى ما يليه — فتبدد الجمع الى احاد ، وافترق الناس فرقاً — كل فرقة تتبع داعياً اما الى ملك ، او مذهب — فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة وتبعث على اشتباك الوشيجة ، وتقوية الرابطة — وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها الا أسفاً ، وحسرة تأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد ان ينفذ القضاء ، ويبلغ الخبر الى المسامع على طول الزمان — وما هو الاً نوع من الحزن على الفائت — كما يكون على الاموات من الاقارب — لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة ٠

وكان الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع — ان ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ، ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك — بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ، ومدارسهم — حتى يكون كل مسجد ، وكل مدرسة — مهبطاً لروح حياة الوحدة — ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة — اذا اهتزّ احد اطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر .

ويرتبط العلماء ،والخطباء ، والأئمة ، والوعاظ في جميع انحاء الارض بعضهم ببعض ، ويجعلون لهم مراكز في اقطار مختلفة — يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ، ويأخذون بايدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل ، وصحيح الاثر ، ويجمعوا اطراف الوحدة الى مقعد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة — واشرفها « معهد بيت الله الحرام » حتى يتمكنوا بذلك من شد ازر الدين ، وحفظه من قوارع العيون ، والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل ، وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها — ويكون كذلك ادعى لنشر العلوم ، وتنوير الافهام ، وصيانة الدين من البدع المضرة فان إحكام الربط انما يكون بتعيين الدرجات العلمية ، وتحديد الوظائف — فلو ابدع مبدع — امكن بالتواصل بين الطبقات — تدارك الامر ومحو بدعته قبل فشوها بين العامة — وليس يخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الامة ، وعلو كلمتها ،واقتدارها على رفع ما يغشاها من النوازل قال :

واني لآسف غاية الأسف اذ لم تتوجه خواطر العلماء ، والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة وهي اقرب الوسائل — واني لأرجو ان تهبَّ الى هذه الوسيله ارباب العزة ، والحميــة ويوازرهم ملوك المسلمين وعلماؤهم فيؤيدونهم بما يوحّد جمعهم ويجمع شتيتهم — وما هو بالعسير ان يبثوا الدعاة الى ما يبعد عنهم ، ويصافحوا بالاكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا احوال بعضهم فيما يعود على دينهم ودنياهم بالفائدة اومــا يخشى ان يمسهم بضرر — ويكونوا بهذا العمل الجليل قد اذوا فريضة ، وطلبوا سعادة — والرمق باق ، والآمال مقبلة والى الله المصير .

❋ قوله في الناشئة الشرقية استحساناً واستهجاناً ـ وامثلته على ❋ التقليد النافع ، وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية وذكره انجع الوسائل للنهوض من السقوط

قيل للسيد جمال الدين : — ان في الشرق ناشئة ممن تثقفوا ، وتعلموا وكتبوا ، وعلموا مرامي الغرب نحو الشرق — وليس هم بالقليل عددهم — فما بالهم لم يؤثروا في صالح المجموع ، ورقيه ، واصلاح الهيأة الاجتماعية من قومهم ؟

فقال : ان اشد وطأة على الشرق ، وادعي الى تهجم اولى المطامع من الغربين ، وتذليل الصعاب لهم ، وتثبيت اقدامهم — هم اولئك الناشئة الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم ، والتأدب باسفل آدابهم — يعتقدون ان كل الكمال انما هو فيما تعلّموه من اللسان على بسائطه ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة سير ، ومسير من قطع مراحل من الغربيين في سبيل الأخذ في ترقية امته — بدون ان يسبروا من ذلك غوراً أو يفهموا اتدرجهم معنى .

ويعتقد الناشئ الشرقي — ان كل الرذائل ، ودواعي الحطة ، ومقاومات التقدم انما هي في قومه — فيجري مع تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية ، ومن كل مشروع وطني يتصدى له فئة من قومه ، أو أهل بلده ، ويأنف من الاشتراك في أي عمل لم يشارك فيه الاجنبي ولو اسماً — ويسارع لتقديس ، وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب ، ويسهل له كل صعب في

مطلبه ، و يطلعه على هنات قومه وزللهم، وموقع الضعف منهم — و بالاجمال يكون الآلة القاطعة ، الفاعلة للغريب في جسم قومه ، والوسيلة الممكنة من الاستئثار في البلاد ، واستعباد العباد — بدون ان يشعر انه سيلاقي شر ما يصنع قبل امته ، و ينزل في تاريخها مع الادنياء الخائنين — واذا أحس البعض في شنيع فعلته فانما يؤثر مصلحته الخاصة ، ونفعه الخسيس الموقت على صالحه العام مع مجموع من جمعته واياهم الجامعات الكبرى .

وسواء في الامر من علم وارتكب تلك الخطيئات — أو من اتاها جهلاً بغير علم — فالشرق — والشرقيون ابتلاهم الله « بما فرطوا » حتى بهذه العلة — ولا أرى لهم مخرجاً من ضيقهم ، وشقاءً من ادوائهم الا باشتداد الازمة وقوة الضغط — حتى يفقدوا بقية ما ترك لهم من شبه الراحة التي اخلدوا اليها، أو سعة العيش الضيق الذي سوّل لهم الخمول الرضاء به وحتى يزاحموا على ما لا يخطر لهم ببال — من دين لا يتمكنون من التعبد به كما يرومون — ومن تجارة لا يجدون لها مالاً ، أو مجالاً ، ومن حرية شخصية يفقدونها — ومن قهر ، واذلال الاعزاء — وتعزيز الاذلاء السفهاء — وحتى يحيق بالمجموع بلاء يساوي بين الكل ويكون فيه المسلم الشرقي ، واخوه المسيحي سواء — يظهر في بدء الامر للأخير « المسيحي » ميزة تقدم على الاول « المسلم » بشيء من تافه الوظائف تنويهاً بكرامة تدينه بالمسيحية ، ولمعرفته اللسان — وتمكيناً لداعي التنافر — وعدم الاتحاد — وكل ذلك الى حين — ومن ثم يرجع الاثنان الى التساوي في المذلة ، والهوان .

ثم قال - لقد كثر اختلاف الناظرين في وسائل النهوض من السقوط

وتضاربت الاراء فيها ، وحامت ظنون كثيرة حولها — فتفنيداً لباطل الظنون ، ونفياً لريب المرتابين ، والواهمين بقرب الوسائل مع بعدهـا وقلة نفعها — اقول اليوم ما قلته قبل اعوام : أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ثم انشق عنها عماء العدم — فاذا هي بحميَّة كل واحد منها — كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان — عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم — تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بايدي مدبريها عقد المشاكل — نمت فيها افنان العزة بعد ما ثبتت اصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها ، والداني اليهـا ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكملت القوة — فاستعلت آدابها على الآداب — وسادت اخلاقها ، وعاداتها ، واحست مشاعر سواهـا من الامم بان لا سعادة الا في انتهاج منهجها ، وورود شريعتها — وصارت وهي قليلة العدد — كثة الساحات — كانها للعالم روح وهو لها بدن عامل .

وبعـد هذا المجد كله — ترى بنيانها قد وهى ، وانتثر المنظوم منهـا وتفرقت فيها الاهواء ، وانشقت العصى ، وتبدد ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منعقدا ، وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم افرادهـا عما يحفظ وجودها — ودار كل محيط بشخصه المحـدود بنهايات بدنه — لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية — وهو في غيبة عن ان ضروريات حاجاته ومرافق حياته وكمالاته — لا تنال الا على ايدي المتحمين معه بلحمة الامة وانه احوج الى شـد عضدهم من تقوية ساعده ، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه — وكأنه بهذه الغيبة —

في سبات يخيله النـاظر اليه —صحواً — وذبول يظنه المغرور — زهواً — واخذ القنوط بآمال اولئك المدهوشين فابادها = وحدثت لهم قناعة البهم والرضاء بكل ذل ٠

ولئن تنبه خاطر للحق في خيال احدهم ، أو استفزّه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفاً ، او يعيد اليها مجداً — عدّه هوساً وهذياناً ، اصيب به من ضعف في المزاج ، او خلل في البنية ، او حسب انه لو اجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال ، واورده موارد الهلكة ، أو لصار من اقرب الاسباب لزوال نعمته ، ونكد معيشته — وهكذا يحكم لنفسه سلاسل من الجبن ، واغلال من اليأس — فتغل يـداه عن العمل ، وتقف قدماه عن السعي ، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ، ويقصر نظره عن درك ما اتى اسلافه من قبله ، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به اولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا ، وقيماً على ما اورثوه لاعقابهم — ويبلغ هذا المرض من الامة حداً — يشرف بها على الهلاك ، ويطرحها على فراش الموت — فريسة لكل عاد ، وطعمة لكل طاعم ٠

نعم رأيت كثيراً من الامم لم تكن ثم كانت — وارتفعت ثم انحطت وقويت ثم ضعفت — وعزت ثم ذلت — وصحّت ثم مرضت ٠ ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى ! ٠

ما اكثر ما قلت وا أسفاه ! نعم وا أسفـاه ما اصعب الداء — وأعز الدواء — وما اقل العارفين بطرق العلاج — كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها — وهي لم تفترق الاّ لان كلاًّ عـكف على شـأنه !!! استغفر

الله — لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن اخيه وهو اشد اعضائه اتصالاً به — ولكنه انصرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه ·

نعم ربما التفت كل واحد الى ما هو في فطرة كل حي — من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه — وهو لا يدري من اي وجه يحصلها ، ولا باية طريقة يؤمن عليها · كيف تبعث الهمم بعد موتها — وما ماتت الا بعد ان سكنت زماناً طويلا الى ما ليس من معاليها ·

هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد ان الخلاص في سلوك سواه — خصوصاً بعد ما استدبر المقصد — كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المبتهج باحلامه — وفي اذنه وقر ، وفي ملامسه خدر

هل من صيحة تقرع قلوب الاحاد المتفرقة — من امة عظيمة تتباعد انحاؤها ، وتتنائي اطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ، وتتخالف آراؤها — وقد تراكم فوقها الجهل ، وخيل للعقول ان كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر — وعزة الحق ! انه لشيء عسير يعيي في علاجه النطاسي ، ويحار فيه الحكيم البصير !

هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على الداء ، واسبابه الاولى ، والعوارض التي طرأت عليه · ان كان المرض في امة — فكيف يمكن الوصول الى علله واسبابه الا بعد معرفة عمرها ، وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال ، وتنوع الاطوار — أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه ان يختار له نوعاً من العلاج قبل ان يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض — والا فأن كثيراً من الامراض تتولد جراثيمها في

طور من اطوار العمر ثم لا تظهر الا في طور آخر — لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو اثرها — انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد — سنو عمره محدودة ، وعوارض حياته محصورة — فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الاجل ، وافرة العدد — لهذا يندر في اجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء امة ، او ارجاع شرفها ومجدها اليها = وان كان المتشبهون بهم كثيرين = وكما ان المتطبب القاصر في الامراض البدنية لا يزيد علاجه المرض الا شدة — لولا مساعدة الصدفة ، والاتفاق احيانا — بل ربما يفضي بالمريض الى الموت — كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل اخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها ، وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها ، وانواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد في افرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ، ومكانتها الاولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين المنزلتين — فان اخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء ·

فمن له حظ من الكمال الانساني ، ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي - لا يجرأ على القيام بما يسمونه « تربية الامم » واصلاح ما فسد منها — وهو لا يحس من نفسه ادنى قصور في اداء هذا الامر العظيم علماً وعملا = نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة ، وطلاب العيش في الوظائف التي ليسوا من حقوقها في شيء ·

ظن قوم في زماننا ان امراض الامم تعالج بنشر الجرائد = وانها تكفل

انهاضها وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق · كيف يصدق هذا الظن =
وانا لو فرضنا ان كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون الاَّ نجاح الامة مع التنزه عن الاغراض = فبعد ان عم الذهول ، واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون فلا تجد لها قارئًا ولئن وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه = لضيق في التصور ، او ميل مع الهوى فلا يكون منه الا سوء التأثير فيشبه غذاءً لا يلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافًا · على ان الأمة اذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة ، وتدفق سيول الحوادث — ان هذا وحقك لعزيز !

ويظن قوم آخرون ان الامة المنبعثة في اقطار واسعة من الارض مع تفرق اهوائها ، واخلادها الى ما دون رتبتها بدرجات ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها بل لمن كان خاضعًا لسيادتها راضخًا لاحكامها — مع هذا كله انه يتم شفاها من هذه الامراض القتالة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها — وتكون على الطراز الجديد المعروف باوربا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب = ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق ، واتحدت الكلمة ، واجتمعت القوة · وما ابعد ما يظنون = فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوي قاهر ، يحمل الامة على ما تكره ازمانًا حتى تذوق لذته ، وتجني ثمرته = ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبًا عن سلطته ، وقائمًا مقامها في تنفيذ ما اراد من خيرها = ويلزم لهذا الامر

ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة ــ وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه = فهل من الضعف سلطة تقهر ، وثروة تغني ؟ = ولو كان للامة هذان ــ لما عدت من الساقطين = فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات ــ وافقناهم على الامكان لولا ما يكون وما هو كائن من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً لان يستنشقوا نسيم القوة ــ فاين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر .

على انا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الامة مدة من الزمن تكفي لبث تلك العلوم في بعض الافراد ، والاستزادة منها شيئاً فشيئاً ــ فهل يصح الحكم بان هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ، وان ما يصيبه البعض منها يهيئه للكمال اللائق به ، ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من ابناء امته .

واعجباً كيف يكون هذا ــ والامة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها ــ لا تدري كيف بذرت بذورها ، وكيف نبتت ، واستوت على سوقها واثمرت واينعت ، وباي ماء سقيت ، وباية تربة غذيت ــ ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهراً من القول ــ لا نباء عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بان مفاجأة بعض الافراد بتلك العلوم ، وسوقها الى الاذهان المشحونة بغيرها ــ يقوم من افكارهم ، ويعدل من اخلاقهم ، ويهديهم طرق الرشاد ، ويعمل في افادة اخوانهم .

لعل الاقرب ان ناقلي تلك العلوم — وهم من أمة هذا شأنها —

مع ما ينعكس اليهم من الأوهام المألوفة فيها ، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من امر الامة التي تلقوا عنها علومهم — يكونون بين امتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعهم الاّ فساداً .

ماذا يكون من اولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم — ولو صدقوا في خدمة اوطانهم — يكون منهم قذف ما في خزائن خواطرهم — يؤدون ما تعلموه كما سمعوه — لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة، وطباعها ، وما مرّنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه — ولبعدهم عن اصله ، ولهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتيه — يظنونه على شكل ما بلغهم — هو الكمال لكل نفس ، والحيوة لكل روح — فيرومون من الصغير ما لا يرام الاّ من الكبير — وبالعكس — غير ناظرين الاّ الى صور ما تعلّموه ، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم — وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد ، أو يزيدها خبالاً ، وضعفاً — وما هذا الاّ لكونهم ليسوا ارباب تلك العلوم = وانما هم حمَلة ، نقَلة .

فهؤلاء الناشئون — الاّ من وفقه الله منهم بعنايته الالهية — يكون مثلهم كمثل والدة حنون — يلذ لها غذاء — فتفيض منه على طفلها وهو رضيع ليساهمها في اللذة — وسنّه سن اللبان لا يقبل سواه — فيسرع اليه المرض ، وينتهي به التلف — فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة — يشتتون بقية الجمع ، ويبددون اخريات الالتئام — ان كان الفساد ابقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يصدمونهم بما يذهلهم عنها — وربما لا يقصدون الاّ خيراً ان كانوا من المخلصين ، ويوسعون بذلك الخروق

حتى تعود ابواباً ، ويباعدون ما بين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب فيهم تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين ، وطلاّب الاصلاح — ويذهبون بامتهم الى الفناء ، والاضمحلال و بئس المصير .

شيد العثمانيون والمصريون = عدداً من المدارس على النمط الجديد، و بعثوا بطوائف من شبانهم الى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون له من العلوم ، والمعارف والصنائع ، والآداب — و كل ما يسمونه « تمدناً » وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانساني ! .

هل انتفع المصريون ، والعثمانيون بما قدموا لانفسهم من ذلك —وقد مضت عليهم ازمان غير قصيرة ؟ = هل صاروا احسن حالاً مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ .

هل استنقذوا انفسهم من انياب الفقر ، والفاقة ؟ — هل نجوا بها من ورطات ما يلجأهم اليه الاجانب بتصرفاتهم ؟ هل احكموا الحصون ، وسدوا الثغور — هل نالوا بها من المنعة ما يدفع غارة الاعداء عليهم ؟ — هل بلغوا من البصر بالعواقب ، والتصرف في الافكار حدا يزحزح عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وُجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية — التي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة ، وتسعى اليها ، وتطلبها ولو تجاوزت محيط الحياة الدنيا — ولو بادت في سبيلها — خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير ممن عزّ من الامم .

نعم ربما وجد بينهم افراد يتشدقون بالفاظ الحرية ، والوطنية ، والجنسية.

وما شاكلها — ويصوغونها في عبارات متقطعة ، بتراء — لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها — ووسموا انفسهم — زعماء الحرية — أو بسمة اخرى من السمات ووقفوا عند هذا الحد ٠

ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم — فقلبوا اوضاع المباني ، والمساكن — وبدّلوا هيئات المآكل ، والملابس ، والفرش ، والآنية وسائر الماعون — وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية ، وعدُّوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة — فنسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم ، واعتاضوا اعراض الزينة — مما يروق منظره ولا يحمد اثره — فأماتوا ارباب الصنائع من قومهم ، واهلكوا العاملين في المهن — لعدم اقتدارهم ان يقوموا بكل ماتستدعيه تلك العلوم الجديدة ، من الحاجيات الجديدة — وايديهم لم تتعود على الصنع الجديد — وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة — وهذا جدع لأنف الامة — يشوّه وجهها ، ويحط بشأنها — وما كان هذا — الاّ لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير اساسها ، وفاجأتهم قبل اوانها ٠

علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث — بان المقلّدين من كل أمة ، المنتحلين اطوار غيرها — يكونون فيها منافذ ، وكوى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس — بل يكونون بما افعمت افئدتهم من تعظيم الذين قلّدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم — شؤماً على أبناء امتهم يذلونهم ، ويحقرون امرهم ، ويستهينون بجميع اعمالهم — وان جلّت — وان بقي في بعض رجال الامة — بقية من

الشمم ، أو نزوع الى معالي الهمم ـ انصبوا عليه ، وأرغموا من انفه ـ حتى يمحى اثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير اولئك المقلدون ـ طلائع لجيوش الغالبين وارباب الغارات ـ يمهدون لهم السبل ، ويفتحون الابواب ثم يثبتون اقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ـ ذلك بانهم لا يعلمون فضلاً لغيرهم ، ولا يظنون ان قوة تغالب قواهم .

ولا اخشى لوماً اذا قلت — لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب الانكليز على بعض اراضيها — لما بارحوها ابد الآبدين ـ لان نتيجة العلم عند هؤلاء « الناشئة المقلدين » ليست الا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم ، واستقبال مشارق فنونهم — فيبالغون في تطمين النفوس ، وتسكين القلوب ، حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم ـ ولهذا متى طرق الاجانب ارضاً لأية أمة ـ ترى هؤلاء المتعلمين فيها اول ما يقبلون عليهم ويعرضون انفسهم لخدمتهم — بعد الاستبشار بقدومهم ـ ويكونون بطانة لهم ، ومواضع ثقتهم ـ كأنما هم منهم ـ ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم ـ اعظم بركة عليهم وعلى اعقابهم .

فما الحيلة ؟ وما الوسيلة ؟ ـ «فالجرائد» بعيدة الفائدة ، ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها و « العلوم الجديدة » ونقلها « بالناشئة » لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها ـ والوقت ضيق !! والخطب شديد !! ؟.

أي جهوري من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ ؟ ـ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الافكار الخامدة ! ـ أي نفخة

تبعث هذه الارواح في اجسادها ، وتحشرها الى مواقف صلاحها ، وفلاحها الاقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب - المواصلات عسرة بين الشرقي ، والغربي ، والجنوبي ، والشمالي — الرؤوس مطرقة الى ما تحت القدم ، أو منفضّة الى ما فوق السماء — ليس للابصار جولان الى الامام — والخلف ، واليمين ، والشمال — ولا للاسماع اصغاء ، ولا للنفوس رغبات — ولكن للاهواء تحكم ، وللوساوس سلطان ! ! !

ماذا يصنع المشفقون على الامة - والزمن قصير ! - ماذا يحاولون - والاخطار محدقة بهم ! باي سبب يتمسكون — ورسل المنايا على ابوابهم

لا اطيل عليك بحثاً ، ولا اذهب بك في مجالات بعيدة من البيان — ولكني استلفت نظرك الى سبب يجمع الاسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل «وقد مرّ ذكرها معنا فيما سبق» — ارسل فكرك الى نشأة الامة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة ، واطلب اسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل ، وجراثيم العلل — فقد يكون ما جمع كلمتها وانهض همم احادها ، ولحم ما بين افرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الامم وتسوسهم — وهي في مقامها بدقيق حكمتها — انما هو « دين قويم الاصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الالفة ، داعٍ الى المحبة ، مزكٍ للنفوس ، مطهر للقلوب من ادران الخسائس ، منوّر للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ويتأدّى بمتقديه الى جميع فروع المدنية .

فان كانت هذه شرعة تلك الامة ، ولها وردت وعنها صدرت — فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها — انما يكون من طرح تلك الاصول ونبذهـا ظهريا ، وحدوث بدع ليست منها في شيء — اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة ، واعرضوا عما يرشد اليه الدين ، وعما اتى لاجله ، وما اعدته الحكمة الالهية له — حتى لم يبق منه الا اسماء تذكر ، وعبارات تقرأ مجردة — فتكون هذه المحدثات حجاباً بين الامة وبين الحق الذي تشعر بندائه احيانا بين جوانحها.

فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها ، والأخذ باحكامه على ما كان في بدايته ، وارشاد العامة بالمواعظ الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق ، وايقاد نيران الغيرة، وجمع الكلمة ، وبيع الارواح لشرف الامة — ولا سبيل لليأس والقنوط — فان جراثيم الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من احقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه — وفي زواياها نور خفي من محبته — فلا يحتاج القائم باحياء الامة الا الى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الارواح لأقرب وقت. فاذا قاموا لشئونهم، ووضعوا اقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا اصول دينهم الحقة نصب اعينهم — فلا يعجزهم ان يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الانساني — ومن طلب اصلاح امة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه — فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية — ، وانعكست التربية ، وانعكس فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الامة الا نحساً ولا يكسبها الا تعساً.

من يعجب من قولي ان الاصول الدينية الحقة ، المبراة عن محدثات

البدع – تنشيءُ للامم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل ، وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل ، وتوسيع دائرة المعارف ، وتنتهي بها الى اقصى غاية في المدنية – فان عجبي من عجبه اشد – ودونك تاريخ الامة العربية – وما كانت عليه قبل بعثة الدين – من الهمجية ، والشتات واتيان الدنايا ، والمنكرات – حتى جاءها الدين فوحّدها ، وقوّاها ، وهذّبها ونوّر عقلها ، وقوّم اخلاقها ، وسدّد احكامها – فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل ، والانصاف – و بعد ان كانت عقول ابنائها في غفلة عن لوازم المدنية ، ومقتضياتها ، نبهتها شريعتها ، وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة ، والتبحر فيها ونقلوا الى ديارهم طب بقراط ، وجالينوس ، – وهندسة اقليدس وهيأة بطليموس ، وحكمة افلاطون ، وارسطو – وما كانوا قبل الدين في شيءٍ من هذا . ولقائل يقول ها هي دولة اليابان وقد ارتقت بتقليد الغربيين وبدون توسط الدين فالجواب : نعم ان الدولة اليابانية – وهي أُمة شرقية لا تختلف عن اهل الصين في شيءٍ لا في المذهب والاقليم ، ولا في العوائد والاخلاق ، واللسان – وقد عزّت ونمت وارتفعت – وما كان الفاعل في كل ذلك الاَّ اخذها بالاحسن ، والسير في تقليد المرتقين في المدنية على احسن خططهم ، وانتهاج اقوم صرطهم ومناهجهم – تركوا عبادة الاوثان وصحتها أو عدمه جانباً – وجروا وراء العلم الدنيوي فقلدوا اعظم الامم تقليداً صحيحاً ، وادخلوا على بلادهم قواعد المدنية السالمة ، والموافقة لمجموعهم ونبذوا ما كان مأْلوفاً في الغرب ، ولا يوافق طباعهم في شرقهم وتذرعوا في التدريج واتخذوا سنن الارتقاء سلماً

لقومهم ، واهتموا في المولود الحديث ليجعلوه ، وليكون «سواء فيه الانثى والذكر» مخلوقاً يابانياً نافعاً لقومه اولاً — وبالتالي للانسانية — فظفروا ببغيتهم ، ووجدوا ضالّتهم باقرب الاوقات وأقصر الأزمنة .

اما القول بان ارتقاء تلك الامة الشرقية قد تمّ بدون توسط الدين ، وفعله فالجواب : نعم ان اليابان لم ينتفعوا بالوثنية من حيث هي دينهم — ذلك لان الديانة الوثنية وان كانت لا تخلو من آداب واخلاق — فليس في اصولها ما ينفع في احكام امور الدنيا ، وما يحتاجه الانسان من مطالب المدنية — والدين ولو كان في اصوله كل ما يدعوا الى السعادة — وفي قواعده ما ينهض ، ويصعد الى ذرى المجد — اذا بقي عقيدة مجردة عن الاعمال فلا يحدث عنه اثر ولا ينتفع المتّسمون به — بل بتركهم الاعمال بتلك الاصول — يتدهورون من شاهق عزٍ الى حضيض ذلٍ — وفيما سبق من القول في هذا المعنى كفاية .

والدين الذي في اصوله ما ينفع في الامور الدنيوية ايضاً — لا بد وان يكون من جملة اصوله الحث على التحلي بالفضائل ، والاستكثار من مكارم الاخلاق والصفات الحميدة ، والاستزادة من نافع العلوم والفنون — نعم — جاء في القرآن الكريم — حثاً على العلم وبياناً لجليل فضله — ان منع ان يكون غير العالم عاقل — فقال « لا يعقلها الاّ العالمون » ومنع المساواة بين العالم والجاهل — فقال « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقد مرّ ذكر ذلك » وقال المصطفى « صلعم » اطلبوا العلم من المهد الى اللحد وامثال ذلك كثير .

ومما ساعد الامة اليابانية على رقيها ، وخلّص سيرها من العرقلة — موقعها ومجتمع جزائرها في اقصى الشرق — فوجدت من الدهر مسالمة ، وعن انظار اولي المطامع من الغربيين بعداً – ينضم الى ذلك سبب من اكبر الاسباب ، وعامل من اقوى العوامل الا وهو ميل الامبراطور «الميكادو» الى تقييــد حكومته بالدستور ، وقبوله الشورى عن طيب خاطر ، وسعيه باخلاص وراء ذلك — فقد بعث من افراد اسرته ، وعقلاء رعيته بعثات لأوربا لدرس اشكال وقواعد الحكم النيابي الدستوري ، حتى ان امبراطور النمسا فرنسوا جوزەف لم يتمالك نفسه فقــال لأبن عم الميكادو وهو على مائدته في فينا « يا عجباً من امبراطور كم كيف يسعى لايجاد الحكم الدستوري النيابي في مملكته — ونحن في اوربا نود لو امكننا التخلص من تحكم النواب في البلاد . اجابه البرنس الياباني انجلالة الميكادو « معناه العادل » يحب اربعة اشياء « يحب بلاده اولاً ، ورعيته ثانياً ، ويحب العدل ثالثــاً وراحة نفسه رابعاً — وما وجد ما ينيله مايحب الاّ «بالحكم الدستوري النيابي» واشتراك الأمة بانهاض نفسها وصون ملكها .

نعم — ان مصدر الشقاء ، ومنبع البلاء في الشرق وممالكه انما كان من الامتيازات الاجنبية «قايبتولاسيون» تلك الامتيازات التي سبق أفذكرنا كيف كان بدء امرها ، و كيف اخذت في الشرق الاقصى = الصين واليابان = والشرق الادنى — البلاد العثمانية وفارس — و كيف اعطيت على سبيل الرحمة اولاً ثم عادت نقمة أخيراً .

وعلمت اليابان — ان لا قوة مع الجهل ولا ضعف مع العلم . —

فكتمت غيظها وتحملت جور الغربيين وامتيازاتهم ، وانصرفت للأخذ بالتقليد الصحيح ، وثابرت على بعث البعثات العلمية اليابانية لاوروبا « بالمئات » وقسمتهم شعباً على شعب العلوم والفنون من مالية ، وسياسية ، وعلمية ، وزراعية وطب وهندسة الخ .

فلم يمض على سعي اليابان هذا ربع جيل — حتى انتظمت محاكمهم ، وعم العلم الصحيح في ناشئتهم ، وعرف القسم المنوّر فيهم ما يجب ان يعمله ، ويعلمه للطبقات الاخرى من قومه في المدارس الوطنية اليابانية

فتهيأ لهم بذلك المسعى — هيئة اجتماعية ، وقومية صحيحة ، ومدنية لم يترك معها مجال للمكابرين من الغربيين « الافرنج » ان يدّعوا ، أو يفتروا عليهم بانهم « شرقيين » ولا يحسنون امر الادارة ، أو معرفة الحقوق العمومية — أو العدالة المطلقة البشرية . — بل بالعكس ظهر ان محاكم « القونصلاتات ، وتلك الامتيازات الاجنبية — من محاكمة الجاني القاتل الاوروبي تجاه قنصله — والمفلس الاحتيالي الافرنجي تجاه محكمة دولته « القنصلية » أبعد بمراحل عن عدل محاكم اليابان وقصاصاتهم العادلة ، ونزاهة حكام اليابان ، وصدق وجدانهم ، وعدم تسلط أي قوة — من اموال ، أو جاه ، أو نفوذ عليهم — بعكس القناصل ، والمحاكم القنصلية هناك — فاجمع رأي معتمدي دول اوروبا — بطلب عموم الرعايا — ان يطلبوا من الميكادو قبول طلبهم بالغاء الامتيازات «قابيتولاسيون» وان تفصل قضاياهم ، وتجازى مجرموهم في محاكم اليابان — فترددت حكومة الميكادو في قبول مطلب السفراء هذا ولم تقبل فصل قضايا الاجانب في محاكمها

— محتجة ان حكامهم انما يسع وقتهم فصل قضايا اليابانيين فقط ، ولا متسع لهم لأضاعة الاوقات بشؤون الاجانب ، واشارت تشفياً بلزوم احتفاظهم بامتيازاتهم — فاشتدت الدول ، وطال الاخذ والرد حتى قبلت اليابان اخيراً بتشميل عدلها للاجانب — وبلغو امتيازاتهم ·

وقد كان في خدمة اليابان عدة من الاخصائيين الاجانب في شعبات اداراتها لسنين محدودة ، برواتب معينة — وكانت كلما اتم الياباني عمله في شعبة من الشُعَب وعاد لوطنه ارفقوه بذلك الاخصائي — فكان في دقائق تلك الشُعبة وما تحتاجه من علم ، وفهم ، وعمل — يبرّز الياباني على رئيسه الافرنجي - حتى خجل اولئك الرؤساء المأجورين من انفسهم ، وطلبوا اعفاءهم من الخدمة قبل انقضاء الأجل المعقود ، ورضوا بحرمانهم من الراتب باعتراف ان الياباني اقدر منهم على إداء وظائفهم ، وما جلبوا لاجله واستؤجروا له — هكذا — تم لليابان الفوز بالتقليد النافع ، وجلب المفيد اللازم من العلوم والفنون والصنائع — وبرزت بين صفوف الدول العظام دولة شرقية لها من بأسها منعة ، ومن علمها ، واتحادها قوة تخشى ، وحداً يتقى · — والناس ابناء ما يحسنون ولله في خلقه شؤون ·

﴿ قوله ان أضعف ما في هذا العصر حق لضعيف لا قوة له ﴾
﴿ واقوى شيءُ باطل لقوي يجعل بطله حقاً ﴾

قال : خضعت الموجودات في الكائنات الى ناموس عظيم وهو «القوة» فظهرت آثارها في الحيوان ، والنبات ، والجماد وفي الافلاك — وكان لكل

منها حركات اضطرارية، ووظائف تأتيها طوعاً أو كرهاً. فبالقوة يستجلب الانسان المنافع لذاته، و يدفع المضار عنها — و بالقوة — المعبر عنها « بالجاذبية» حفظ نظام هذا الكون العظيم الشاسع الاطراف — وما نشاهده من توالي الليل والنهار، وحركة سائر الاجرام السماوية، وما على وجه الارض من المواد المختلفة كثافة، وثقلاً — وتحول الكثيف الى لطيف وبالعكس — كل ذلك وغيره من دائم النظام — انما هو ناتج عنها « أي القوة » وهي التي لا يمكن تصور المادة مجردة منها ولا تصورها مجردة من المادة، وهي الحافظة لنظام ما بين ايدينا، وما يحيط بنا، ويظللنا من العوالم المستقرة، والسابحة في الفضاء .

ثم إذا اخذنا « النبات » رأينا أثر القوة أشد وضوحاً فيه — فانك اذا غرست نباتات عديدة في بقعة واحدة من الارض — ليس فيها من الغذاء ما يكفي الجميع — ترى تلك الاحياء النامية تتنازع فيما بينها، ولا يمضي زمن حتى يبلغ البعض أشده من النمو — والبعض الآخر قد ادركه الاضمحلال فيبس — ولا ريب ان تلك الناميات — تنازعت على ما كان من الغذاء — ففازت به القوية — فاغتذت، ونمت — وحرمت منه الضعيفة فزادت ضعفاً وتمكن منها حتى قضى عليها — وادركها الفناء قبل القوية .

ومن تأمل باعضاء النبات — يرى بينها ما جعل للدفاع، وما جعل لأستجلاب الاقوات = مجهزاً باسنة من الشوك — تدفع بها عنها اذى المعتدين — ومنها ما هو مجهز باعضاء مخصوصة لافتراس بعض الحشرات

التي تقتات بها — وهي بتلك القوى تجلب النفع ، وتدفع الضر ·

اما عالم الحيوان ولاسيما الانسان — فاثر القوة فيه ، اشد وضوحاً من الجميع لانك لو نظرت في اعضائه عضواً عضواً — بل لو اخذت كرة من كريات دمه لرأيت تنازعاً دائماً ، وتسابقاً الى الغذاء مما بينها — فيغلب القوي منها الضعيف

فالقوة مظهر الحياة والبقاء — والضعف مجلى الخفاء والفناء — فحيثما وجدت القوة في تلك المواليد ظهرت معها ، وبجنبها علامات الضعف والاضمحلال لغيرها ·

ولا تظهر ، وتتعين القوة الا باضعافها الغير ، وتسخيرها لها — وما كان قوة في طبقة بعض الاحيان يكون ضعفاً مع الاقوى منها — وهي والحالة هذه « نسبية » — فالنبات المغروس في بقعة واحدة لا تظهر على البعض منه علامات الضعف « بالذبول والموت والاضمحلال بيبسه » الا بوجود نبات اقوى منه ينازعه اسباب حياته ، ووجوده ، ولا يبالي القوي منه بذبول ، وذهاب نضارة من جاوره من فصائله · وهكذا نرى القوة في كل الطبقات الحية — مظهراً للتبجيل والاعجاب — على علاتها وظلمها لمن هو اضعف منها ·

فاذا دخلت جنة او روضة — ورأيت ازهاراً نضرة وبجنبها حشائش وبقايا ازهار ذابلة — انما تعجب بالزاهي النضر البهج من الازهار — ولا يلفتك ما حواليها من الذابل — الذي انما — اضمحل وذهبت نضرته بالنسبة لغلبة القوي ، ونزاعه له ، وانتزاعه منه اسباب حياته

وهكذا في الجماد — وكذلك بنتيجة البحث في عمل الحيوان — وأرقاه الانسان ·

تأمل ؟ في الامم المهضومة ، والمتنازع في هضمها ، او المهيئة للهضم والازدراد والابتلاع — كم ترى في شؤونها ، وابآن سيرها ، وتدهورها وانجرارها نحو المحو والفناء من المشاهد المؤثرة — اذ تراها كصاحب بيت قبل ضيفاً على الرحب والسعة — ثم ما لبث ذلك الضيف الا وتداخل في شأن بناء البيت ، ثم في اثاثه ، ثم في مصرفه ، فحالته الروحية فعادته ، فلسانه — وباخلاقه ومميزاته حتى يضطره اخيراً لعمل ما لا يحب ، ويكرهه على اتيان ما لا يريد ، ويجبره على غير ما يلائم طباعه وحياته - ومختصر كل ذلك وآخره « الاستعباد » وهو الموت الاحمر لكل حرّ ، والفناء الى كل ذي حياة ، ونفس ابية ·

فاذا رأيت تلك الامم الضعيفة — مع الاقوياء — على تلك الحال من محو وفناء — وليس فيهم غير بقية رمق — ولا ما يدل على آثار اسلافهم العظام فيهم — الا ذلّ عجيب بعد العز ، وفقر مدقع بعد الغنى ، واستباحة بعد المنعة — فربما تأسف وتحزن اسفك وحزنك على زهر رياض ذبلت ، ويبست وكنت تعهدها زاهية زاهرة ·

فيا ليت من يلي من امنا الشرقية بذلك البلاء — ينحطون من مرتبة الحيوان الى عالم النبات « المجهز باسنة من الشوك » فيدفعون عنهم اذى المعتدين ، ويحفظون كيانهم من طمع الطامعين !!

حجة الانكليز — على امتلاك الهند — انها اي الهند غنية وذات ثروة

طبيعية وموقعها في اسيا لا مثيل له — فعلى هذا ولهذه الاسباب — اصبح امتلاك الهند لازماً لبريتانيا ، وابتذاذ اموال الهند وثروتها تحتاجه الامبراطورية ٠

هذا هو الحق الذي تدعيه الانكليز في الهند !! وهل من حاجة للقول انه — « اقبح الاباطيل » وانه ليس لمبطل مطمع في باطل اشنع منه ، وافظع ! — ما الذي صير هذا الباطل حقاً للانكليز ؟ — أليس الا « القوة » ! وما الذي صير حق الهنود الصريح — وحجتهم الدامغة — بانه اذا كانت ثروة بلادنا ، واموالنا لازمة للانكليز — فهي لنا الزم ؟ ! « باطلاً ؟ — أليس هو الا « الضعف » ؟ ! ٠

ولولا الضعف في الهنود — والقوة في الانكليز — لكان الاولى ان يملك الثلثماية مليون هندي ويستعمروا جزيرة بريتانيا العظمى وهم لا يزيدون عن الاربعين مليوناً !

وهكذا القول في المراكشيين وقد اكتسح بلادهم الاسبان بحجة القرب منهم — ولزوم تلك المملكة لاسبانيا — وكان الحق ان يفتتح المراكشيون بلاد الاسبان بنفس الحجة ، وبالحق المكتسب من ابن نصير وطارق ، وآثار أولي الهمم من أعزة العرب في تلك الاقطار القائمة لليوم شاهدة — ولسوف يعيد الله بالرجوع الى احكام كتابه — ما فقد من ملك ، وبان من عز ، ونقوض من مجد وسلطان الى اصحاب الحق من المسلمين اذ قال وقوله الحق « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ٠

﴿ نظرته العامة في الاسلام والمسلمين ، واسباب ما ألمّ بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من دواعي النهوض ، واسباب الرقي — على عكس من نهض وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه ، وفيه من أخذ العدة والنهضة المشهودة فيهم — وفلسفته بذلك ﴾

نعم كان لجمال الدين ساطة على دقائق المعاني ، وتحديدها ، وابرازها في صورها اللائقة بها — وله قوة في حل المشكلات وما يعضل فيها — وما على المستشكل في امرٍ ما الآن يلقيه عليه فاذا هو بمقال وجيز ، بليغ منه قد فكك عقد المشكل ، وكشف ستر الغموض عنه — فظهر المستور واضحاً ، والمشكل منحلاً — من ذلك انه زار جمال الدين ذات يوم جماعة من أهل الفضل في ساعات مختلفة — وكأنهم كانوا على موعدٍ ، أو اتفاق ان يستوضحوا السيد عن مشكلة ما يُرى في الملّتين النصرانية والاسلامية من اعداد الاولى عدة الحرب وطلب الغلب ، على عكس الثانية مما هو مخالف ما في اصول الديانتين — حتى ان الناظر في أهل الملّتين يحكم ان كلاً منهما عمل بما في كتاب الآخر — فالنصارى عملت بما جاء في القرآن » والمسلمون عملوا بما جاء في الانجيل — فكان جواب السيد لآخر من دخل عليه وسأل ما سأله الزائرون السابقون = اكنتم على موعد ، واتفاق؟ اجابوا كلاً — فعجب من توارد خواطرهم وقال :

لقد استوقفني ما استوقفكم ، ودعاني لحل اشكال ما حيّرني قبلكم

واليوم يجيركم — الى تحرير مقال قبل احدى عشر عاماً ومقدمته :

ان الله خلق الانسان عالمـاً صناعياً ، ويسّر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدّر له الرزق من صنع يديه - بل جعله ركن وجوده ودعامة بقائه — فهو على جميع احواله — من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبدٍ وحضارة — صنيعة اعماله — وسرابيله ، وما يقيه الحر والبرد — من عمل يديه نسجاً او خصفاً — واكنانه ، ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره — وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه انما هي صور اعماله ومجالي افكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان ، وبسط اكفه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة — لشحّت به عليه بل دفعتـه الى هاوية العدم — وهو في صنعه وابداعه = محتاج الى استاذ يثقفه ، وهـادٍ يرشده ، فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته ، وحاجات حياته — يعمل ليتعلم ويعلم كيف يعمل ، وليقتدر على ان يعمل — فصنعته ايضاً من صنعه — فهو في جميع شئونه الحيوية «عالم صناعي» كأنه منفصل عن الطبيعة ، بعيد من آثارها — حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دعه في هذه الحـالة — وخذ طريقاً من النظر الى احواله النفسية من الادراك ، والتعقل والاخلاق ، والملكات ، والانفعالات الروحية — تجده فيها ايضاً « عالماً صناعياً » = شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه — وما يشابهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الاولى ، وما يودع في نفسه من

احوال الذين نشأ فيهم — فمرامي افكاره ومناهج تعقله ، ومذاهب ميله ، ومطامح رغباته ، ونزوعه الى الاسرار الالهية او ركونه الى البحث في الخواص الطبيعية ، وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء ، او وقوفه عند بادئ الرأي فيه ، وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية ، انما هي ودائع اختزنها لديه الآباء ، والامهات ، والاقوام ، والعشائر والمخالطون . — اما هواء المولد والمربى ، ونوع المزاج ، وشكل الدماغ ، وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا اثر له في الاعراض النفسية ، والصفات الروحانية — الا ما يكون في الاستعداد والقابلية — على ضعف في ذلك الاثر — فان التربية ، وما ينطبع في النفس من احوال المعاشرين ، وافكار المثقفين = تذهب به كأن لم يكن اودع في الطبع شيء — نعم ان افكاراً تتجدد ، ومعقولات عن اخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهمماً تعلو — حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين — ويظن ان هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب — ولكن الحق فيه — انه ثمرة ما غرس ، ونتيجة ما كسب — فهو مصنوع يتبع مصنوعاً — فالانسان في عقله ، وصفات روحه «عالم صناعي» ؟ كما قلنا .

هذا مما لا يرتاب فيه العقلاء ، والسذج — ولكن هل تذكرت مع هذا ان الاعمال البدنية انما تصدر عن الملكات ، والعزائم الروحية — وان الروح هي السلطان القاهر على البدن — اظنك لا تحتاج فيه الى تذكير — لانه مما لا يغرب عن الاذهان — انما قبل الدخول في موضوعنا اقول كلمة حق في الدين — ولا اظن منكراً يجحدها .

ان الدين وضع الهي — ومعلمه ، والداعي اليه — البشر — تتلقاه العقول .

من المبشرين ، المنذرين — فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي — ومنقول عنهم بالبلاغ ، والدراسة ، والتعليم والتلقين — وهو عند جميع الامم اول ما يمتزج بالقلوب ، ويرسخ في الافئدة ، وتصبغ النفوس بعقائده ، وما يتبعها من الملكات ، والعادات ، وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال — عظيمها ، وحقيرها — فله السلطة الاولى على الافكار ، وما يطاوعها من العزائم ، والارادات — فهو سلطان الروح ، ومرشدها الى ما تدبر به بدنها — وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل — واول ما يخط فيه رسم الدين — ثم ينبعث الى سائر الاعمال بدعوته ، وارشاده — وما يطرأ على النفوس من غيره — فأنما هو نادر شاذ — حتى لو خرج ما رق عن دينه — لم يستطع الخروج عما احدثه فيه من الصفات — بل تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح و« الندبة » في البشرة بعد الاندمال .

وبعد هذا فموضوع بحثنا الآن « الملة المسيحية » و « الملة الاسلامية» — وهو بحث طويل الذيل — وانما نأتي فيه على اجمال ينبئك عن تفصيل .

ان الديانة المسيحية بنيت على المسالمة ، والمياسرة في كل شيء وجاءت برفع القصاص ، واطّراح الملك ، والسلطة ، ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين لها ، وترك اموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية ، والجنسية بل والدينية — ومن وصايا الانجيل : من ضربك على خدك الايمن فادر له الايسر — ومن اخباره ان الملوك انما ولايتهم وحكمهم على الاجساد — وهي فانية — والولاية الحقيقية الباقية — على الارواح وهي لله وحده .

فمن يقف على مباني هذه الديانة ويلاحظ ما قلنا — من ان الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار مع ملاحظة — ان لكل خيال اثراً في الارادة — يتبعه حركة في البدن على حسبه — يعجب كل العجب من اطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم اليه — فانهم يتسابقون في المفاخرة ، والمباهاة بزينة هذه الحياة ، ورفه العيش فيها — ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون الى افتتاح الممالك ، والتغلب على الاقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فناً جديداً من فنون الحرب ، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القتالة ، والمدمرات المهلكة ويستعملها بعضهم في بعض — ويصولون بها على غيرهم — ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم في احكام نظامها — حتى وصلوا غاية — صار الفن العسكري من اوسع الفنون واصعبها — على ان اصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية حتى بحفظ املاكهم فضلاً عن الالتفات الى طلب غيرها ، وقتل الامم لأخذها من ايديهم ؟!

والديانة الاسلامية وضع اساسها على طلب الغلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ احكامها — فالناظر في اصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل — يحكم حكماً لا ريب فيه بان المعتقدين بها لا بد ان يكونوا اول ملة حربية في العالم ، وان يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات الحربية ، واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيها ، وما يلزمها من الفنون الطبيعية والكيمياء ، وجر الاثقال ، والهندسة ،

وغيرها - ومن تأمل في آية « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ايقن ان من صبغ بهــذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلبها ، واتخــاذ كل ما يسهّل له الوصول اليها ، وبذل الجهد والسعي بقدر الطاقة البشرية في سبيلها — فضلاً عن الاعتصام بالمنعة ، والامتناع من تغلب غيره عليه — من لاحظ ان الشرع الاسلامي حرّم المراهنة الاّ في « السباقة والرماية » انكشف له مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من احوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الاوقات اذ يراهم يتهاونون بالقوة ، ويتساهلون في طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ، ولا في اختراع الآلات حتى فاقتهم الامم فيما كان من واجباتهم عمله ، والتخلق به ، واضطروا التقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم ، واستكانوا لها ، ورضخوا لاحكامها — ومن وازن بين الديانتين حار فكره — كيف اخترع مدفع كروب ، والمتراليوز وغيرهما بايدي ابناء الديانة الاولى قبل الثانية ! — وكيف وجدت بندقية مارتين في ديار الاولين قبل وجودها عند الآخرين — وكيف احكمت الحصون ، ودرعت البواخر ، ومخرت كالرواسي واخذت مغالق البحار — بسواعد اهل السلامة ، والسلم — دون اهل الغلبة والحرب .

لِمَ لا يحار الحكيم وان كان نطاسياً — لِمَ لا يقف الخبير ، البصير دون استكناه الحقيقة ، هل القرون الخالية ، والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المتمسكين بعراهما ! — هل نبذت كلُّ ملة من الملتين عقائد دينها ظهرياً من اجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم

على الاخذ بشريعة موسى فقط واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟— هل تخللت آيات الانجيل من حيث يدري ولا يدري بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين — أو القى شيئ منها في اماني معلميهم ، وناشري شريعتهم عندما يتربعون في محافل دروسهم ؟ — هل تبدلت سنة الله في الملتين — هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ — هل استبدت الابدان فيهما على الارواح ، أو انفلتت الافكار من سلطة الدين ، أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته وهو اول حاكم عليها ، واقوى موءثر فيها ؟ . هل تتخلف العلل عن معلولاتها — هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟؟—ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير ، وحل المعميات .

أينسب هذا الى اختلاف الاجناس ــ وكثير من ابناء الملتين يرجعون الى اصول واحدة ، ويتقاربون في الانساب الدانية ـ أينسب الى اختلاف الاقطار ؟ وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان ، ويتجاورون في مواقع الامكنة . ألمْ يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم اعمال بهرت الابصار ، وادهشت الالباب؟ـ ألمْ يكن منهم مثل فارس ، والعرب والترك ــ الذين دوخوا الممالك واستولوا على كرسي السيادة فيها ـ نعم كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية اشباه المدافع ـ ففزع لها المسيحيون ، وغابوا عن معرفة اسبابها .

ذكر ملكام سرجم « الانكليزي » في تاريخ فارس ان السلطان محمود الغزنوي كان يحارب وثني الهند بالمدافع ، وكانت أهم الاسباب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة .

فأي عون من الدهر اخذ بايدي الملة المسيحية ـ فقدمها الى ما لم يكن في قواعد دينها ؟ ـ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين ـ فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو اول مفروض في دينهم ؟ ـ « مقام للحيرة وموضع للعجب ! ـ ولا بد لهذا التخالف من سبب ـ نعم ـ وتفصيله يطول ولكن نجمل على ما شرطنا :

ان الدين المسيحي انما امتد ظله ، وعمّت دعوته في الممالك الاوروبية من ابناء الرومانيين وهم على عقائد ، وآداب ، وملكات ، وعادات ورثوها عن اديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الاولى ـ وجاء الدين المسيحي اليهم مسالمًا لعوائدهم ، ومذاهب عقولهم ـ وداخلهم من طرق الاقناع ، ومسارقة الخواطر ـ لا من مطارق البأس ، والقوة ـ فكان كالطراز على معارفهم ، ولم يسلبهم ما ورثوه عن اسلافهم ـ ومع هذا فان صحف الانجيل ـ الداعية للسلامة والسلم ـ لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ـ بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ـ ثم ان الاحبار الرومانيين لما اقاموا انفسهم في منصب التشريع ، وسنوا محاربة الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ـ التحمت آثارها في النفوس ـ بالعقائد الدينية ، وجرت منها مجرى الاصول ، ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحيين في اوروبا ، وافترقوا شيعاً ، وذهبوا مذاهب ، تنازع الدين في سلطته ـ وعاد وميض ما اودعه اجدادهم في جراثيم وجودهم ضراماً ؛ وتوسعوا في فنون كثيرة ـ وانفسح لهم مجال الفكر « واكثر ما افادهم زحفهم الى الشرق للحرب الصليبي ، واقتباسهم اشياء كثيرة وعودتهم بها الى المغرب » ومن

هناك اخذت براعتهم في الفن العسكري واختراع الآلات الحربية والدفاع تساوق براعتهم في سائر الفنون ٠

اما المسلمون — فبعد ان نالوا في نشأة دينهم ما نالوا ، واخذوا من كل كمال حربي حظًا ، وضربوا في كل نخار عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة ، وعلوم النزال ، والمكافحة — ظهر فيهم اقوام بلباس الدين ، وابدعوا فيه البدع ، وخلطوا باصوله ما ليس منها — فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت في الاذهان — حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى امسكت بعنانها عن الاعمال ٠ هذا ما ادخله الزنادقة فيها بين القرن الثالث والرابع للهجرة ، وما احدثه السوفسطائية الذين انكروا مظاهر الوجود ، وعدُّوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق — وما وضعه كذبة النقل من الاحاديث ، ينسبونها الى صاحب الشرع « ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة — وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفًا في الهمم ، وفتوراً في العزائم ٠ — وتحقق اهل الحق ، وقيامهم ببيان الصحيح والباطل لم يرفع تأثيره عن العامة — خصوصًا بعد حصول النقص في التعليم والتقصير في ارشاد الكافة الى اصول دينهم الحقة ، ومبانيه الثابتة — التي دعا اليها النبي واصحابة — فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة في دوائر مخصوصة ، وبين فئة معينة ٠

لعل هذا هو العلة في وقوفهم — بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه ٠

الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين ، وصرفت قلوب المسلمين ،

عن رعايته — وان كان حجابها كثيفاً — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم ، وتغالب لا ينقطع — والمنازعة بين الحق والباطل ، كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج — وحيث ان الدين الحق هو اول صبغة صبغ بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح في افئدتهم بين تلك الغيوم العارضة — فلا بد يوماً ان يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الغفلة — وما دام القرآن يتلى بين المسلمين ، وهو كتابهم المنزل ، وامامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل ـ لايعين لها وجهاً ، ولا يخصص لها طريقاً ـ فاننا لا نرتاب في عودتهم الى مثل نشأتهم ، ونهوضهم الى مطالبة الزمان ، ومقاضاته ما سلب منهم = فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحمة ، والمنازلة والمصاولة ، حفظاً لحقوقهم ، وضناً بانفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع = والى الله تصير الامور .

✵ ذكره مذهب الجبرية ، والمعتزلة — ورأيه في ✵ القضاء والقدر وافاضته فيه

مرّ معنا فيما سبق من القول في سيرة جمال الدين وصفاته = ان الناس قد تخالفوا في امره ، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله ، وتباينت صوره في مخيلات اللاقفين لخبره = حتى كأنه حقيقة كلية ، تجلت في كل ذهن بما يلائمه ، او قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله ، والرجل في صفاء جوهره ، وزكاء مخبره ، لم يصبه وهم الواهمين ، ولم يمسسه حزر الخرّاصين .

نعم تمكن الحاسدون من نسبة ما اودعته كتب الفلاسفة الى رأيه ، وكذلك المباحث التي كان يدور بها لسانه اثناء مناظراته الجدلية — في بيان عقائد المعطلين — وكان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع ، بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح اليها — بل مع تعقيبها بالرد عليها ، واقامة الحجج على بطلانها — يؤيد هذا قول جمال الدين «في الاستانة» لاحد المتلبسين بلباس العلماء — من عمة كالبرج ، وجبة كالخرج — يا هذا ! اضعتم حقائق الدين بين سوء معقولاتكم ، وعدم تفهم منقولاتكم ! .

وكان السبب في هذا — ان الرجل دخل الى مجلس جمال الدين وجلس في مكان رفيع فيه ، من غير ان يدعى اليه — فتركه السيد اجلالاً لطيلسانه ، وعملاً بعادته باحترام زائريه — ولما كان البحث في ذلك المجلس دائراً على ما قالته المعتزلة ، وما سببه اجتهاد القدرية ، والجبرية — اندفع الشيخ المعمم مقاطعاً لكل بحث وقول — متصدياً لشرح تلك الخلافات والنظريات التي عجزت عندها الفطاحل ، وتجردت لها فحول علماء الكلام فتركه جمال الدين يخوض ، ويهرف بما لا يعرف — مظهراً له ارتياحاً لكي يفرغ جعبته ، ويستنفد ما عنده — فطمع الشيخ واول صولة صالها على جار الله الزمخشري فطعن به ما شاء ان يطعن الى ان قال . هذا الرجل الزمخشري كل من قرأ كتابه الكشاف — يخرج من عداد اهل السنة ويكون من الملحدين .

فتنفس عند ذلك جمال الدين الصعداء ، وظهرت على وجهه علائم لامتعاض ، والتأثر على خلاف المعهود فيه مع زائريه فقال :

يا حضرة الشيخ هل لك ان ترشدنا الى مواقف الزلل التي ارتكبها جار الله الزمخشري فنتجنبها ، والى ما ارتكبه من الشطط الذي ادّى به على زعمك الى الالحاد ؟ ؟ . — قال الشيخ : يكفي انه من المعتزلة ، وانه من المدافعين في تفسيره عن مذهب الجبرية ، ويكفي لتكفيره « ان العلامة بن خلدون : قال في مقدمته يجب ان لا يُقرأ كتاب التفسير للزمخشري — وكل عالم يخالف بن خلدون في اجتهاده هذا يكون مارقاً من الدين ، مضلا ومضللاً للمسلمين .

عند ذلك وقف جمال الدين ، ومشى حتى وقف تجاه الشيخ وقال له :

يا حضرة الشيخ ! اذا اجبتني الآن معنى الاعتزال من حيث الاشتقاق والمذهب — ومعنى الالحاد لغة وفقهاً — ومعنى الجبر ، والجبرية ، والقدر ، والقدرية لغةً وفقهاً — اذا اجبت على ذلك ناقشتك فيمن هو المصيب أأنت ام جار الله الزمخشري .

فاجاب الشيخ بالجرأة المعهودة فيمن يتلقفون بعض جمل من مختلف العلوم ، ويتصدرون في المجالس لسردها فيوهمون السذج ، والبسطاء ان الواحد منهم ارتشف وارتوى من العلم المحيط ، واصبح من المتبحرين اللاادريين ، وجاز مراتب الوارثين المحققين ! ! — فقال : لا يهمني يا حضرة السيد الآ افقه معاني ما سألتني عنه لغةً وفقهاً — ويكفي ان اقول لك تحديثاً بنعمة الله انني من كبار مدرسي السليمانية ، وقد اتممت دراسة كل العلوم العقلية ، والنقلية والخلافيات ، وما قاله علماء الكلام — وعلمت ان الجبرية ، والمعتزلة ، والقدرية يقولون بان كل افعال العبد مسندة الى الله ، وبتقدير منه — ليس

للعبد ادنى تأثير فيها — بل هو بمنزلة الجمادات — حتى ان الكفر، والمعاصي بتقدير الله — نعوذ بالله من الشيطان الرجيم! هذا يا حضرة جمال الدين مذهب من ذكرت وفي مقدمتهم الزمخشري المارق، المضل!.

كان الشيخ عند ايراده ما تقدم من القول على غاية من الحدة — تتحرك يداه، واصابعه — وعيناه فتحاً واغماضاً، وحاجباه ارتفاعاً، وانحناء وجمال الدين يحدق بوجهه، ويرقب حركاته بكمال الهدوء، ومنتهى السكينة — ولما رأى ان جمال الدين أطال السكوت — تبين على وجه الشيخ علائم السرور بالظفر. — عندئذٍ قال جمال الدين — ياحضرة الشيخ؟.

اذا قال لك الزمخشري ان حجتي باسناد افعال العبد الى الله سبحانه مأخوذ من صريح النص «ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الاّ ان يشاء الله» و «ما تشاؤن الاّ ان يشاء الله» و «ان ربك يفعل ما يريد ويختار» و «ليس لك من الامر شيء» و «ومن يضلل الله فليس له من هادٍ». — واذا قال لك الزمخشري — ان الكفر والايمان بتقديره تعالى الواحد الاحد والقاهر فوق عباده — واورد عليك حجة من القرآن بقوله لرسوله المصطفى «انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء».

ماذا عندك ياشيخ من الحجة على الزمخشري في مذهبه هذا ومستنده القرآن الكريم؟

ثم اذا قال لك الزمخشري — ان افعال العبد راجعة الى الله بدليل قول المصطفى «صلعم» الشقي من بطن أُمه والسعيد من بطن أُمه وكل ميسر لما خلق له» وقوله في الحديث الطويل «لو اجتمع اهل السماء والارض على

ان يضروك بشيء لم يضرك الله به ما اضروك ولو اجتمعوا » أو كما قال — ما نفعوك جفت الاقلام وطويت الصحف الخ » ثم يا حضرة الشيخ لو قال لك الزمخشري — ان اعمال التقوى والفجور من العبد مرجعها ايضاً الى الله سبحانه القاهر فوق عباده واورد لك حجة من القرآن ايضاً بقوله تعالى « ونفس وما سوّاها الهمها فجورها وتقواها ٠ — واذا قال لك انه لا يصح ايمانك الاّ ان تؤمن ايضاً — وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ٠ — و« ألا له الخلق والأمر واليه ترجع الامور » و٠ و٠ و٠ مما تكرر وروده في القرآن والحديث ماذا يكون جوابك ، وما عندك من الدفع ؟؟ ٠

ثم قال : يا حضرة الشيخ ! كنت فيما مضى من حياتي ، وفي اول نشأتي اثناء جريي وراء العلماء للاستفادة من منقولاتهم ، ومعقولاتهم ـ امرُّ على مقامات — اغربها وادهشها انني عندما كنت استفيد جملة من شيخي يهجم علي الغرور ، فاتهجم على استاذي بتنقيد كلماته ولو من قبيل الصرف والنحو الذي تعلمته منه وعهدي اذ ذاك فيه حديثاً — فاخطئه احياناً بالعلمية والعجمة ، ووزن الفعل اذا هو لم يراع حقهم في كلامه ـ ثم كانت تأخذني عزة الغرور من الجهل فاستكبر عن سؤاله عما جهلته من مثل — الفرق بين مذهب القدرية ، والجبرية والمعتزلة ـ حتى اذا كنت يوماً في حلقة درسه وكان احد رفاقي يشاكلني اذ ذاك في الغرور ـ نخلط بحضرة استاذنا بين مذهب الخوارج ، والقدرية ، والجبرية ، والمعتزلة — وجعلهم شيئاً واحداً غير مميز بين فرقة وأُخرى — قال الاستاذ بلهجة ناصح : اولادي الاعزاء ! خذوا العلم عمن ادبه العلم فأحنى ظهره إجلالاً

له ، وافضى ببصره بساطع نوره ، وخفف صوته خشية ان يسكته من هو اعلم منه — وفوق كل ذي علم عليم — اما المعتزلة فليس من العدل ان ننظر الى كل مذهبهم بعين السخط — ولا ان نقبل مرتآهم بعين الرضى — اذ فيهم من أجلة العلماء ، والأئمة من يطأطئ الخالف راسه اجلالاً لهم . فواصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس استاذه الحسن وجلس عند اسطوانة من اسطوانات المسجد النبوي ، وعلم بالمنزلتين وقال — ان لكل شكل مبتدأ ومنتهى وبينهما وسط لا محالة — فبين الكفر المطلق والايمان المطلق منزلة متوسطة لا يصح معها الاطلاق — بمعنى ان صاحب الكبيرة « اي الذنب العظيم » لا يصح الحكم عليه لا بالكفر المطلق ولا بالايمان المطلق بل يجب وضعه في المنزلة المتوسطة .

قال الاستاذ : هذا نظر لا يصح نبذه ظهرياً ، او عدم الاعتداد به — وقد قال الشارع الاعظم « صلعم » من مات يشهد ان لا اله الاّ الله دخل الجنة»

اما نظر المعتزلة ، وما قيل عنهم ، او قالوا به انهم اعتزلوا فئتي الضلالة وهما الخوارج واهل السنة — فأرى في هذا شططاً = وهو ما ادى الى تفرغ العلماء لقدح زناد فكرهم بايراد الحجج نفياً او اثباتاً لامور في الفروع كان الاولى الاقتصاد بها والوقوف عند حدود ما تتم معه الفائدة من فهم مقاصد الشارع من نفع الخلق في امور العبادات و المعاملات .

ثم قال : ان مذهب الجبرية — وهي من اكبر الفرق الاسلامية في وقتها واكثرها جدلاً ، لم يكن في كل ما ارتأته محض الحق او ما يجوز الاخذ به للمسلمين كافة — لان في مباحثهم ، واسس مذهبهم باسناد افعال

العبد كلها الى الله تعـالى — وجحودهم الجزء الاختياري والكسبي — مذلة اقدام لضعفاء العقول ، قصار النظر من الأمة — ولا يسلم الاّ الثـابتون في ايمانهم ، الراسخون في عقيدتهم — اذ في تلك المبـاحث عقبات كؤود ، ومقامات تشبه في اجتيازها هول الصراط — وهي الى العلم الروحاني اقرب منها الى العلم الجسماني .

واما ما ورد عن لسان الجبرية ووافقت به المعتزلة في بحثهـم عن قول الانسان « اعوذ بالله من الشيطـان الرجيم » — « هذه الاستعاذة من الشيطان ان كانت كي لا يوسوس للانسان حتى لا يعصي الله ، ويعصمـه منه — فاما ان يكون الباري تعالى عالم بالمحدثات كلها ، وسبق في قضـائه الازلي منع الشيطان او عدم منعه — فان كان الاول وهو المنع للشيطـان بالزجر الالهي ، وقهره « الاّ يفعل والا يوسوس = كان الشيطان احقر من ان يخالف امر الله وكانت الاستعاذة لا معنى لها — وان كان الشيطان مأموراً ان يوسوس للانسان بامر الله — كان الشيطان مسلطاً ، ومدفوعاً بامر لا مردّ له فلا نفع ولا فائدة من الاستعاذة الخ .

وان الله انما يريد اصلاح العبد ، ولا يريد الاّ الخير لعباده وما ربك بظلاّم للعبيد ...

كل مثل هذه الشبهات والخواطر لا يجوز الأخذ بها على ظاهرها = لان لها من المقامات = كما ذكرنا — لا تحصل ، ولا يمكن الوصول اليها الاّ بمجاهدات نفسية وامداد ليدخل وراء الشارع الاعظم الى حضرة « لا اله الاّ الله » ولا فاعل الاّ الله . بدليل قول المصطفى « صلعم » اعوذ برضاك

من سخطك واعوذ بعفوك من غضبك ، واعوذ بك منك ولا احصي ثناءً عليك انت كما انت ، وكما احصيت على نفسك » — هذا المقام الاسمى من المقامات المحمدية — التي علم بها بعالم الشهود لمقام التعينات = ان الله تعالى هو الفاعل المختار لا ربّ سواه ·

= ولسان حال الربوبية ينادي عباداً نفخ في ترابهم نسمة من روحه = فتألهوا بها مع هيكلهم الترابي = فتقولوا على بارئ النسم وقد انشأهم من العدم = وحاموا جهلاً وغروراً حول ادراك تلك القوة = التي تناديهم من فوق عظم يحيط رؤوسهم ، ويضغط على ادمغتهم حتى لا تتعالى فوق قدرها ، ولا تتجاوز الاّ ما كان من القدر المعلوم ·

قال الاستاذ علي منلا خان : = اما القضاء والقدر = فيجب التنبه فيهما الى معنى التعريفات = اذ كثيراً ما يظنون القضاء والقدر شيئاً واحداً بالمعنى والمبنى — وخير التعاريف — ان القضاء هو ما قضي به الخالق سبحانه جملة في اللوح المحفوظ بالتعينات الازلية — والقدر ما تنزل على الارض بالتدريج من ذلك المجموع واحداً فواحداً ، حادثاً فحادث بشخص معلوم ، في زمن محدود ، بسبب معين ـ كموت زيد في المرض الفلاني ، بالعلة الفلانية · ـ هذا ما قاله استاذنا ـ واظن ان كل ذلك ياحضرة الشيخ هو من منسياتك في السليمانية ! فما عندك من الدحض ، والدفع لتقولات الزمخشري ، ومذاهب الجبرية ، والمعتزلة ، والقدرية ؟ فبهت الشيخ بهتة رجل ظهر على وجهه انه لم يفقه كل ما قيل ـ ولم يحب ان يظهر على نفسه العجز ـ فجمع نفسه ، واعتصم بالجرأة وقال : ياحضرة السيد

ان ابن خلدون اعلم مني ومنك وهو الذي حذّر من قراءة تفسير الزمخشري ـ فما قولك انت بتحذير ابن خلدون ·

فطلب جمال الدين مقدمة ابن خلدون وقرأ فصل التفاسير حتى وصل الى ذكر الزمخشري واذا هو يقول بالحرف الواحد « ان خير ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من اهل خوارزم العراق الاّ ان مؤلفه من اهل الاعتزال في العقائد فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفاً على المذاهب السنية ، محسناً للحجاج فيها — فلا جرم انه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه · · ·

هذا ما قاله ابن خلدون ياحضرة الشيخ ومنه يعلم ان الشرط الاعظم الذي وضعه ابن خلدون لمن يحب ان يستفيد من تفسير الزمخشري — ان يكون ذا قدم ثابت في العقائد ، وعلم راسخ في حقائق العبادات ـ عندئذ يستفيد ما شاء ان يستفيد من تفسير الزمخشري لانه « ابدع ما شاء ان يبدع » ·

هذا ما كان يا حضرة الشيخ في شأن ما قاله ابن خلدون ـ فما عندك بما بقي من المطاعن ؟

قال الشيخ يا حضرة السيد جمال الدين ! « انت والزمخشري ومن نحى نحوكم من علماء المنطق يصعب على مثلي مجادلتكم ـ واذا عجزت عن

ايراد الحجة فلا يستفاد من عجزي ثبوت مذهب الجبرية الذي وافق المعتزلة على اهمها ــ تقول الجبرية والمعتزلة ان الاستعاذة من الشيطان لا فائدة منها — كما ذكر ذلك عن لسان الزمخشري وامثاله .

وقد ورد في صريح النص « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » — فهل يصح اجتهاد في مورد النص ؟ وهل لم يثبت من قول ابن خلدون ان تفسير الزمخشري مخوف ، ومحظور على اهل السنة مطالعته ؟ — اجاب جمال الدين يا حضرة الشيخ انني للان ما اعلنت ، ولا صرحت عن مذهبي في هذه الجدليات —ولكن اوردت اقوال اهل تلك البدع والنحل على علاتها ، واحببت البحث معك لكي اسبر غورك ، ومبلغ ما عندك من الحجج التي اعتمدتها اهل السنة وما يدحض حجج اهل الاعتزال والجبرية ــ وهما لم يخرجا في ظاهر اجتهادهما عن العتاب ــ وقد اطلقوا للعقل سراحه معتمدين على قوله تعالى « انا انزلناه قرآناً عربياً لقوم يعقلون » و « انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » والعقل يا حضرة الشيخ يسع التكليف قبل ورود الشرع وهو ، اي العقل اعظم من كل خلق .

الاستعاذة من الشيطان ــ تقول الجبرية وغيرهم انه من الامور التي يحق للعقل الانساني ان يبحث فيه من وجوه ــ اولاً هل فوق الشيطان من هو اقدر منه ؟ ثانياً هل ان القوة القادرة والقاهرة للشيطان محيطة بالمحدثات او غير محيطة ــ عالمة او غير عالمة ؟ .

والجواب يا حضرة الشيخ لا بد ان يكون ــ ان الله سبحانه وتعالى اقدر من الشيطان ــ وانه سبحانه محيط بكل الحوادث أليس كذلك ؟ ــ

قال الشيخ : نعم ·

اذاً - اذا قال الشيطان — يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها — يارب — وسوست لزيد من الناس بأن يفعل الشيء الفلاني وهو من المسطور في لوحك المحفوظ ، وكتابك المسطور الذي سبق قضاؤك به — فأيُّ سلطان لي على محو قضائك؟ وأيُّ حول لي على عدم تنفيذ ارادتك ـ جعلتني مرجوماً — ملعوناً — فان كان ذلك بسبب جرم صدر مني من غير سبق علم لك ، ولا ارادة ، ولا قضاء فيه ·

تعالت عظمتك ، وجلت قدرتك ان يكون لك شريك في الملك — وانت وحدك لك الخلق والامر · وان كان رجمي وجعلي ملعوناً بغير ذنب صدر مني ـ فحكمك اذاً عليّ ايها العادل محض الظلم ـ حالة كوني لم اخرج من عداد عبادك — وقلت وقولك حق « وما ربك بظلام للعبيد ·

وان كنت سلطت عليّ شيطاناً آخر لأكون من جنده لاغواء عبادك ـ فمن غيرك المسلط له ـ وليس لغيرك سلطان مطلق لا في السموات ولا في الارض « قل — اذا استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الاَّ بسلطان · الآيه » ·

= واذا امتنع التسلسل بالشياطين ـ وهو ممتنع لا محالة ـ لانه لا بد ان يصل الى آخر ليس بعده آخر ـ فما تقول ياحضرة الشيخ بقول هؤلاء الجبرية والمعتزلة ؟ ـ قال الشيخ :

يا حضرة السيد ، كل هذه المغالطات ، والسفسطات من المعتزلة ، والجبرية ـ قرأتها اساتذتنا في مطولات التفاسير مثل الفخر الرازي ، وشرح

الكشاف لابن الطيبي ـ وقد دحضت علماء اهل السنة ، وفندت مزاعمهم واثبتت فساد حججهم ـ ومع كوني اعجمياً عن اللسان ، وبعيداً عن الحجاج — يمكنني بسيط العقل ، وقلة النقل ان ارد كل ما جاء من علماء وأئمة المعتزلة ، والجبرية بسؤال واحد وهو :

اما ان الاديان ومنها الاسلام بما ورد فيها من التكليف حقاً ـ وواجب الاتباع ـ وعلى اتباعه يكون الثواب ، وعلى مخالفته يقع العقاب ·

واما اذا صح مذهب الجبرية ، والمعتزلة ـ بان كل افعال العبد من خير ، وشر ، واقرار بوحدانية ، أو شرك ، وفسق ، أو فجور أو سرقة اموال وقتل أنفس ، أو ما هنالك من الموبقات ، والشرور ـ كل ذلك يفعله العبد بأمر من الله ، وعملاً بقضائه وقدره ـ ومتى صح اطاعة العبد لربه بافعاله هذه ـ صح له ان يطلب من الله مثوبة على اطاعته لأمره وقضائه بفعل القتل ، والسرقة ، والكفر الخ · كما يطلب من اطاعه باداء الزكاة والفروض ـ وعمل الخيرات وما هنالك من اعمال الخير والبر التي وعد بالثواب عليها المتقون ·

فياحضرة السيد انت تقول انك من ابناء نبي هذه الامة ـ ولك شهرة طائرة بين المسلمين ـ منهم من يقول عنك انك من خيرة العلماء الواقفين على حقائق ودقائق الشرع واحكامه ـ ومنهم من يقول انك مارق من الدين لا اعتقاد لك بالاديان ، ولا بمن اتى بها من الرسل · وقد حملتني من الاسئلة عن لسان الزمخشري ، وعن واصل بن عطاء المعتزلي ، وعن مذهب الخوارج السبعة من اباضيه ، وصفريه ، وغيرهما اسئلة — ما كنت

قبل وجودي في مجلسك اعلم شيئاً عن مذاهبهم بالتفصيل ــ فالآن اذا شئت ان تفصح لي ــ أولاً عن مذهبك الخاص لأكون ــ اما متبعاً لك اذا وجدته موافقاً لنفسي ــ واما ان اتجنبك ــ لان شبهات اهل الجبر وحججهم، واستنتاجاتهم مما يضل العقل في سبيل ردها ــ خصوصاً اذا كان ضعيفاً مثلي ــ والقرآن والتكليف الشرعي يعارضهم ــ والحجج مع اهل السنة على ما ارى ضعيفة = ومختصر القول يا جمال الدين :

اما دين متبع بكل ما ورد فيه من امر أو نهي = أو جبر = لا لزوم للتكليف معه لا بأمر ولا بنهي. هذا هو الاشكال في سبيل امثالي من الامة = فان استطعت يا حضرة السيد ان تكشف لنا النقاب، وتذلل لنا الصعاب، وترينا حقيقة تزيل من نفوس مرضاء القلوب، قصار النظر ما يعتريها من الارتياب فافعل ولك الشكر، وجزيل الاجر.

قال جمال الدين : ايها الشيخ المحترم — ان موقفك اليوم كان عين موقفي تجاه استادنا على منلا خان — اذ كانت تشد اليه الرحال لحل المشكلات والمعضلات من اقطار الهند، و بلاد الافغان — واني لأذكر لك ما قاله وما اجاد به وافاد في هذا الموضوع الخطير.

قال ايها الاعزاء ! ان دين الاسلام المأخوذ عن القرآن قد اجاز واباح الجدل بالتي هي احسن ومنع المخاشنة به — وما احسن الجدل اذا كان المراد منه استجلاء الحقيقة بعيداً عن التعنت.

تنبهوا ايها الاعزاء لأمر غاية في الخطر، والدقة لفهم كتاب الله وما اتى به من التكليف بنهي أو أمر. — فالتكليف وقع على الانسان دون

سائر الحيوان — وفي اولئك الحيوانات من الصفات ما يضارع الانسان ، ويشاكله اذا لم نقـل يفوقه بعضهم حساً ، وشعوراً ، ووفاءً ، وصبراً الى آخر ما هنالك من الصفات العالية — ولكن لم يقع عليها التكليف — ولماذا ؟ — نعم لماذا جعلهـا مع تلك الصفات مسخرة للحيوان الانساني وهو اضعف من اكثرها بنية ، وأقل صبراً ، واشد منها عتواً ، واكفرها نعماً ، واقربها جزعاً اذا مسه شيءٌ من الضر ·

قدرة سخرت للانسان ما في الأرض جميعاً — وجعلت آلة التسخير لتلك الموجودات « روحانية عقله » ليتصرف بها و يسخر بها من دونه من جماد وحيوان ونبات — خلق ذلك الانسان باحسن تقويم ، وعلى شبهه وامثاله وجعله خليفة عنه في الارض ·

فالله — علم بكل المحـدثات ، وقضى قضاءه ، وقدّر قدره ، واعطى الانسان جزءاً من الوهية ، يسخر بها ما في الارض من حيوان وغيره — ويتصاعد الى ما فوقه من العلويات — واعطى روحه شيئاً من الاحاطة بغيبه في موته الصغير — وهو نومه — ذلك الانسان ! ذلك الجرم الصغير ! الذي انطوى فيه العالم الاكبر ! حقيق ، وجدير ان يفقه اقل مراتب الترجيح ؟

أيُّنا ايها الاعزاء اذا وقف على مال لا صاحب له ـ لا يتردد بين اخذه أو تركه — فاذا ترجح لديه تركه — وقع فعـل الترك — وان ترجح له اخذه — وقع فعل الأخذ لا محالة · فعلى هذا الترجيح الذي يقع به الفعل ، أو الترك · — على ذلك المرجح يقع الثواب أو العقاب ! ! ·

فكل امر يحدث للانسان فكراً « ويقترن فعله مع زمن ويكون

للانسان آن ولو غير منفصل لأعمال الفكر « ولو بسرعة البرق » في الفعل — أو في الترك — وكلما دخل ، ويدخل تحت هذا القيد من افعال الانسان — يكون مؤاخذاً به — وأمور لا دخل لترجيح البشر فيها ، ولا ادنى تأثير في عملها ، أو تركها ففيها نظر — ذلك ما شوش على اهل الخير في فهمها — وعدم التفريق بينها وبين ما للانسان من الترجيح فيها — وهو ما يسمونه بالكسب أو الجزء الاختياري — وضرب لنا المثل الآتي فقال :

القتل المحرم في الشرائع — وهو قتل النفس — على مطلق المعنى « يقتلون النفس التي حرم الله » ولكن اتى التفصيل في الشرع ان القتل على انواع = فقاتل العمد — يُقتل — وقاتل معذور — يعفى — ثم اتى على انواع المعذرة — وجل ما ورد في العمد ان القاتل لا بد ان يسبق فعله التصور والتصمم ، ويكون له فرصة يفتكر فيها بالاقدام على فعل القتل — ويتردد بين ذلك الاقدام ، او الاحجام ثم وهو بين ترجيح الفعل ، او ترجيح الترك — يترجح له جانب العمل فيقع الفعل بترجيحه — وهو فعل القتل — فيقتل بذلك الترجيح — الذي يقولون عنه انه « العمد » .

ورجل يستأجر آخر في منجم من مناجمه فتقع عليه صخرة فتميته ، أو تنطلق رصاصة من بندقية فتصيب ماراً فتقتله — هذا المستأجر ، ومطلق الرصاصة لا يطالبها الشرع لا بدية ، ولا ينظر اليهما بنظر قتلة . ولماذا ؟ والنتيجة من حيث هي قتل لنفس بشرية « واحد » . — ذلك لان في الامر الاول وهو القتل عمداً — وقد ترجح احد طرفي الفعل - أو الترك فرجح الفاعل احدهما — فوجب ان يقع عليه ما يقع من ثواب وعقاب — واما القتل

الثاني فان صاحب المنجم ، ومطلق الرصاصة ليس لهما ادنى دخل — لا في ترجيح القتل ، ولا في عدمه — فكان هنالك محض القدر الذي ليس للبشرية دخل فيه ·

هذا يا حضرة الشيخ ما قاله استاذنا علي منلا خان — واليه انتهت الرياسة في المعقول ، والمنقول — ومع ذلك لم يسلم من تصلف ، وتعنت بعض تلاميذه اذ قال احدهم :— مولانا — اذا سلمنا بالترجيح ، وان المرجح هو الذي يقع عليه بترجيحه العقاب — فهل المرجح هو الانسان بدون ان يكون للاله دخل في الترجيح ، وهل هو الانسان في الظروف التي اشرت اليها هو خالق لافعال نفسه بدون امر الخالق !

وعلى هذا اجاب الاستاذ قائلاً : ان ما سبق من القول في هذا المعنى كفاية ومختصرها ان افعال العبد التي يقع الترجيح فيها — معدودة ، محدودة — وهي التي جاء التكليف بها وحظر الشرع عملها ، واوجب العقاب عليها · فالشارع الاعظم اتى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل — وكان شرعه اوضح ، واصرح ، واقرب تناولاً للفطرة ، ولاستنتاج العقل السليم ·

فالمنهي عنه في الشرائع كلها ما خرج عن : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزنِ والخ ما هو معلوم عند اهل الكتاب وصدقت عليه الحنيفية البيضاء — واوجبت عقاباً لمن خالف النهي فيها ·

وكل تلك المنهيات لم تخرج عن كونها افعال انما يأتيها الانسان بعد التصور والتردد بين فعلها ، أو تركها — والفعل في القتل العمد ، والسرقة لمال الغير مع تحين زمن السرقة ، واعداد المفاتيح ، وآلات السرقة ، لا بد

ان يكون بترجيح الانسان ـ ولا منكر لذلك الاً مكابر، ومتعنت ـ اذا رجع الى نفسه عَلم عِلمَ اليقين انه الموآخذ بما رجح من عمله ٠

وما خرج عن دائرة ترجيح العبد ـ بلا تخرص، ولا سفسطة ـ فانا اقول لكم ان الله سبحانه ـ لا يسئله عنه ، ولا يعاقبه عليه ٠

وكذلك ما اتت به الرسل من التشريع فانها وافقت حكمة الله فيما يستطيع العبد ان يعمله ـ وما هو خارج عن استطاعته فلا عقاب عليه فيه٠

وليس في كل التكليفات الشرعية ـ من أمر أو نهي ـ فيهما ثواب أو عقاب الاّ ولترجيح الانسان فيهما كل الدخل ٠ ـ ثم قال مكرراً ـ السارق بعد ان يعد آلة السرقة ، ويفتح المغلقات ، ويأخذ ما فيها من متاع ونقود ـ اذا وقع في يد القضاء ـ يقول « قدر الله » ـ وهكذا القول في الزاني بعد ان يعمل لاستهواء ، واستغواء المعصومات ـ اذا افتضح امره يقول « قدر الله » والحقيقة في كل تلك الافعال ـ شعور ذلك المرجح وهو الانسان ان ما فعله قبيح ـ ولو عومل بمثل ما عامل به الغير ـ فسرقوا له ماله ، أو فضحوا له عرضه ، أو قتلوا من يهمه ـ لأكبر الامر ، ولطلب تشديد العقوبة على من فعل ـ ولو كان من اكبر الجبريين لرجع عن جبره وقال بالجزء الاختياري ، والكسبي طالباً عقاب المجرم !

ثم اختتم الاستاذ مقاله قائلاً ! ايها الاعزاء ـ ما خلق الله خلقاً اشرف من العقل الذي وهبه لخليفته في الارض وهو « الانسان » فسخّر له، ما في السموات وما في الارض ـ فجدير الاً يجعل لحيوانية قوامها التراب ـ ان تتغلب على تلك « الروح » ذات العلاقة في الملأ الأعلى ـ لأمور كل

نتائجها ندم ـ وملذات حقيقتها دفع ألم ـ وياليت تلك الآلام تزول بعد بعد الموت ـ هيهات !

ولا يرتاب احد منكم ان الشارع الاعظم « صلعم » قد تحرى الأنفع والأصلح للأمة ـ فنهى عما نهى عنه للخير المطلق ـ وامر بما فيه الأليق ـ هذا بقطع النظر عن الثواب الأخروي ، أو العقاب الدنيوي ! !

قال الشيخ : يا حضرة السيد ان اقوال مولانا استاذكم علي منلا خان التي انرت بها عقولنا ، وشرحت بها صدورنا ، لهي خير ما سمعته للآن ، واعظم ما تأثرت به نفسي ـ بقي شيء مهم الا وهو تهجم المتفرنجين من المسلمين وموافقتهم للاعداء في الأخذ على الدين الاسلامي واهله ـ وان سبب انحطاطهم ، وتقهقرهم ، وفقدان ما كان لهم من عزة السلطان ، ونفوذ الكلمة ، وتسخير معظم الارض إن هو إلاً لاعتقادهم « بالقضاء والقدر » واستسلامهم لهذه العقيدة ـ حتى آل امرهم الى ما آل اليه مما نراه من ذل ، واستعباد والخ !! ـ

فما رأي السيد في هذا ؟ اجزل الله ثوابه ونفع بعلومه

فتبسم جمال الدين وقال : اراك ياحضرة الشيخ تحسن النطق بالعربية واظن انك تحسن فهم ما تقرأ = وغداً انشاءالله اعطيك مقالاً مطبوعاً في بحث « القضاء والقدر » طبع ونشر في مدينة باريس قبل احد عشر عاماً = نقرأه سوية حتى اذا اشكل امر تعاونا على حله انشاء الله .

وفي الغد كان الشيخ اول زائر تربع في حجرة الاستقبال ، واستنجز السيد وعده = فلبّاه = والقى علينا وعليه ما يأتي :

قضت سنة الله في خلقه بان للعقائد القلبية سلطاناً على الاعمال البدنية = فما يكون من صلاح ، أو فساد فأنما مرجعه فسادالعقيدة ، وصلاحها = ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات اخرى ثم تظهر على البدن باعمال تلائم اثرها في النفس = ورب اصل من اصول الخير ، وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم ، أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع - فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة ، والاعتقادات الباطلة — فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه — وفي كلا الحالين — يتغير وجهها ، ويختلف اثرها — وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم ، أو على خبث في الاستعداد — فتنشأ عنها اعمال غير صالحة — وذلك على غير علم من المعتقد ، كيف اعتقد ، ولا كيف يصرفه اعتقاده — والمغرور بالظواهر يظن ان تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل ، وتلك القاعدة — ومن مثل هذا الانحراف في الفهم — وقع التحريف والتبديل في بعض اصول الاديان غالباً — بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب — وكثيراً ما كان هذا الانحراف ، وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع ، وقبائح الاعمال — حتى افضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير — وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الاديان ، أو عقيدة من العقائد الحقة استناداً الى اعمال بعض السذج المنتسبين الى ذلك الدين ، أو العقيدة . من ذلك عقيدة « القضاء والقدر » التي تعد من اصول العقائد في الديانة الاسلامية الحقة — كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا

بها الظنون ، وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف ، والضعة — ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا اليهم اطواراً ثم حصروا علتها في الاعتقاد « بالقدر » فقالوا ان المسلمين في فقر ، وفاقة ، وتأخر في القوى الحربية ، والسياسية عن سائر الامم — وقد فشى فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب ، والنفاق ، والخيانة والتحاقد ، والتباغض ، وتفرقت كلمتهم ، وجهلوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون ، وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة — ولكن متى امكن لاحدهم ان يضر اخاه لا يقصر بل يسرع في الحاق الضرر به — فجعلوا بأسهم بينهم والامم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد اخرى ـ رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في كور بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ثم يعودون الى مأواهم ـ الأمراء فيهم يقطعون ازمنتهم في اللهو واللعب ، ومعاطاة الشهوات ـ وعليهم فروض وواجبات تستغرق اعمارهم في ادائها ولا يؤدون منها شيئاً ـ يصرفون اموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافاً وتبذيراً ـ نفقاتهم واسعة ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة ـ يتخاذلون ويتنافرون ، ويبيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ـ فرب تنافر بين اميرين يضيع أمة كاملة ـ كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدي عليه جاره فيجد الاجنبي فيهما قوة فانية ، وضعفاً قاتلاً فينال من بلادهما ما لا يكلفه عدداً ولا عدة ـ شملهم الخوف ، وعمهم الجبن والخور ـ يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللمس ـ قعدوا عن

الحركة الى ما يلحقون به الامم من العزة ، والشوكة ، وخالفوا في ذلك اوامر دينهم — مع رؤيتهم لجيرانهم — بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ، ويباهونهم بما يكسبون — واذا اصاب قوماً من اخوانهم مصيبة ، أو عدت عليهم عادية — لا يسعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ، ولا سرية يكون مقاصدها — الغيرة ، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسلط الغرباء .

هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات ، وتلك الاطوار ، وزعموا ان لا منشأ لها الا اعتقادهم « بالقضاء والقدر » وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية — وحكموا بان المسلمين اذا داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عزاً ، ولن يعيدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تعدياً ، ولا ينهضون بتقوية سلطان ، أو تأييد ملك — ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم حتى يؤدي بهم الى الفناء والزوال « والعياذ بالله » يفني بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة — وما يسلم من ايدي بعضهم يحصده الاجانب .

واعتقد اولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بان الانسان مجبور محض في جميع افعاله ، وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القضاء يرون انفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ، ومتى رسخ في نفوس قوم انه لا اختيار لهم في قول ولا ، عمل ، ولا حركة — ولا سكون — وانما جميع ذلك بقوة جابرة ،

وقدرة قاهرة فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك ، والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعي ، والكسب ، واجدر بهم بعد ذلك ان يتحولوا من عالم الوجود الى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من المتفرنجين وغيرهم من ضعفاء العقول في المشرق — ولست اخشى ان اقول — كذب الظان ، واخطأ الواهم ، وابطل الزاعم — وافتروا على الله والمسلمين كذباً — لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني ، وشيعي ، وزيدي ، واسماعيلي ، ووهابي ، وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة — بل كل هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بان لهم جزءاً اختيارياً في اعمالهم و يسمى «بالكسب» وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم — وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية ، والنواهي الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح — وان هذا النوع من الاختيار — وهو مورد التكاليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى ان الانسان مضطر في جميع افعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار — وزعمت ان لا فرق بين ان يحرك الشخص فكه للاكل ، والمضغ — وبين ان يتحرك بقفقفة البرد عند شدته ، ومذهب هذه الطائفة يعدّه المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة — وقد انقرض ارباب هذا المذهب في اواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم اثر — وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ،

ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه اولئك الواهمون ·

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع – بل ترشد اليه الفطرة – وسهل على من له فكر ان يلتفت الى كل حادث له سبب يقارنه في الزمان – وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها – وان لكل منها مدخلاً فيما بعده – ذلك بتقدير العزيز العليم ·

وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة، وليست الارادة الا اثراً من آثار الادراك – والادراك اثر من انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها وبما اودع في الفطرة من الحاجات – فلظواهر الكون من السلطة على الفكر، والارادة ما لا ينكره ابله فضلاً عن عاقل – وان مبدأ هذه الاسباب التي ترى في مظاهر مؤثرة انما هو تأييد مدبر الكون الاعظم الذي ابدع الاشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له خصوصاً في العالم الانساني ·

ولو فرضنا ان جاهلاً ضل عن الاعتراف بوجود آله صانع للعالم = فليس في امكانه ان يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية، والحوادث الدهرية في الارادات البشرية – فهل يستطيع انسان ان يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه · – هذا امر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين – وان بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء – واطالوا البيان في اثباتها ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بارائهم ·

ان للتاريخ علماً فوق الرواية – عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة –

وهو العلم الباحث عن سير الامم في صعودها ، وهبوطها ، وطبائع الحوادث العظيمة ، وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغيير ، والتبديل في العادات ، والاخلاق ، والافكار — بل في خصائص الاحساس الباطن ، والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم وتكوّن الدول ، أو فناء بعضها واندراس اثره .

هذا الفن الذي عدّوه من اجلّ الفنون الأدبية واجزلها فائدة — بناء البحث فيه على الاعتقاد « بالقضاء والقدر » والاذعان بان قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات ، ومصرف للحادثات — ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوي ، ولا انهدم مجـد ، ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر — يتبعه صفة الجرأة والاقدام ، وخلق الشجاعة ، والبسالة — و يبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور .

هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الاهوال ، ويحليها بحلى الجود ، والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل ما يعزُّ عليها — بل يحملها على بذل الارواح ، والتخلي عن نضرة الحياة — كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بان الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء — كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه ، واعلاء كلمة امته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك — و كيف يخشى الفقر مما

ينفق من ماله في تعزيز الحق ، وتشييد المجد على حسب الاوامر الالهية ، واصول الاجتماعات البشرية ٠

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق «الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو الفضل العظيم » ٠— اندفع المسلمون في اوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ، ويتسلطون عليها — فادهشوا العقول ، وحيروا الالباب بما دوّخوا من الدول ، وقهروا من الامم — وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى جدار الصين كما سبق القول مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الاقطار المتنوعة — ارغموا الملوك ، واذلوا القياصرة ، والاكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة ! ! ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات !

دمروا بلاداً ، ودكدكوا اطواداً ، ورفعوا فوق الارض ارضاً ثانية من القسطل ، وطبقة اخرى من النقع ، ومحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم واقاموا بدلها جبالاً ، وتلالاً من رؤوس النابذين لسلطانهم ، وارجفوا كل قلب ، وارعدوا كل فريصة — وما كان قائدهم ، وسائقهم الى جميع هذا الاّ الاعتقاد « بالقضاء والقدر » ؟

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به اقدام بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش من الاعداء يغصّ بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على اعقابهم ٠

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على المتهجمين للحروب من اهل المغرب — وهو الذي حملهم على بذل اموالهم ، وجميع ما يملكون من رزق في سبيل اعلاء كلمتهم — لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة ؟

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل اولادهم ، ونسائهم ، ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في اقصى بلاد العالم كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم اخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله اماناً من كل غادرة ، واحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ــ وكان نساؤهم ، واولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه — ولا يفرق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ الناس رهبة ، ولا تغشى الاولاد مهابة .

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد افلاذ الاكباد — حتى كانوا يُنصرون بالرعب يقذف به في قلوب اعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة — قبل ان يشيموا بروق سيوفهم ولمعان اسنتهم — بل قبل ان تصل الى تخومهم اطراف جحافلهم !!

أقول ولا أخشى واهماً ينازعني فيما اقول انه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم — ما وُجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت في اوسط الطبقات ثم رقي الى أعلى الدرجات — فذللت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب الا كان معتقداً « بالقضاء والقدر » .

سبحان الله ــ الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى

الفطرة والجبلة — فما الذي يهوّن عليه اقتحام المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا — الاّ الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون قلبه الى ان المقدّر كائن ولا أثر لهول المظاهر !! .

أثبتت لنا التواريخ ان كورش الفارسي « كيخسرو » وهو اول فاتح يُعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة الاّ لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر — فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة — وان اسكندر الكبير المكيدوني كان ممن رسخت في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة — وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من ارباب هذا الاعتقاد وكان نابليون الاول بونابرت الفرنساوي من اشد الناس تمسكاً بعقيدة القضاء وهي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيفة الكثيرة فيتهيأ له الظفر وينال بغيته من النصر . — ويقتحم المهالك ويتعرض للموت ولا يبالي فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن = وهو اول عائق للتدنس به عن بلوغ كماله في طبقة ايّاً كانت — نعم انا لا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر — وربما كان هذا هو السبب في رزيئتهم ببعض المصائب التي اخذتهم بها الحوادث في الاعصر الأخيرة — ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر ان يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة — من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع ، ويذكّروا العامة بسنن السلف الصالح ، وما كانوا يعملون — وينشروا بينهم ما اثبتته الأئمة رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وامثاله — من ان التوكل ، والركون

الى القضاء انما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل — وما امرنا الله ان نهمل فروضنا ، وننبذ ما اوجب علينا بحجة التوكل عليه — فتلك حجة المارقين عن الدين ، الحائدين عن الصراط المستقيم ، ولا يرتاب احد من اهل الدين الاسلامي في ان الدفاع عن الملة في هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف وليس بين المسلمين و بين الالتفات الى عقائدهم الحقة — التي تجمع كلمتهم ، وترد اليهم عزيمتهم ، وتنهض همتهم لاسترداد شأنهم الأول — الا دعوة خير من علمائهم وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم .

اما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط ، والتأخر — فليس منشاؤه هذه العقيدة — ولا غيرها من العقائد الاسلامية — ونسبته اليها كنسبة النقيض الى نقيضه بل اشبه ما يكون بنسبة الحرارة الى الثلج والبرودة الى النار

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر ، وثمل من العز ، والغلب — وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان — صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيز خان واحفاده — وصدمة من جهة الغرب — وهي زحف الأمم الاوروبية باسرها على ديارهم — وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي ، وتوجب الدهشة ، والسبات بحكم الطبيعة — وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ، ووسد الأمر فيهم الى غير اهله ، ووُلّي على امورهم من لا يحسن سياستها — فكان حكامهم ، وامراؤهم من جراثيم الفساد في اخلاقهم ، وطباعهم — وكانوا مجلبة لشقائهم ، وبلائهم — فتمكن الضعف من نفوسهم ، وقصرت انظار الكثير منهم على ملاحظة

الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الآنية – واخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ، ويلتمس له السوء من كل باب — لا لعلة صحيحة ، ولا داع قوي — وجعلوا هذا ثمرة الحياة فآل الأمر بهم الى الضعف ، والقنوط ، وادّى الى ما صاروا اليه ·

ولكني اقول وحق ما اقول — ان هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم ، ورسومها تلوح في اذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم — وكل ما عرض عليهم من الامراض النفسية ، والاعتلال العقلي ، فلا بد ان تدفعه قوة العقائد الحقة ويعود الأمر كما بدا ، وينشطون من عقالهم ، ويذهبون مذاهب الحكمة ، والتبصر في انقاذ بلادهم ، وارهاب الامم الطامعة فيهم ، وايقافها عند حدها

وما ذلك ببعيد والحوادث التاريخية تؤيده — فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية «حروب التتر والحروب الصليبية» وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم واتسعت لهم ميادين الفتوحات ، ودوّخوا البلاد وارغموا انوف الملوك ، ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية — حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول « بالسلطان الاكبر »

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم ، وحركة في طباعهم أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الاخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب — حركة سرت في افكار ذوي البصيرة منهم في اغلب الانحاء شرقاً وغرباً ، وتألفت من خيارهم عصبات للحق — كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع والسعي بغاية الهمة لبث افكارها وجمع الكلمة المفترقة وضم الشتات المتبددة —

وجعلوا من اصغر اعمالهم نشر جريدة عربية لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض ما يضمره الاجانب لهم وانّا نرى عدد (الجمعية الصالحة)[1] يزداد يوماً بعد يوم نسأل الله تعالى نجاح اعمالها ، وتأييد

---

(١) ان الذي عناه جمال الدين « بالجمعية الصالحة » ورجالها في مقاله هذا الذي كتب في باريس سنة ١٣٠١ هـ وسنة ١٨٨٤ م هم رجال تركيا الفتاة » وكان السيد قد اجتمع ببعض رجال تلك الجمعية في باريس واطلعوه على خطتهم وما يحاولونه من اصلاح المملكة العثمانية وجمع كلمة الامة على النهوض بالملك الاسلامي ، ودرأ المخاطر الاوروبية عن الممالك الاسلامية الشرقية ، وتنبيه الخواطر الغافلة لما تنويه انكلترا خصوصاً من الشر ، والكيد للمسلمين — فراق ذلك للسيد واستحسنه ، وشجع القائمين بتلك الفكرة ، والساعين وراء تلك الغاية الشريفة — التي هي من اسمى اغراض جمال الدين وما يسعى في سبيله ، ويعمل على تحقيقه . — ويرجع تاريخ « جمعية تركيا الفتاة » في اقرب العهد الى احرار الاتراك الذين ذهبوا الى اوروبا مهاجرين مغاضبين في عهد سلطنة المرحوم السلطان عبد العزيز وكان على رأسهم ، والآخذ بنصرتهم البرنس مصطفى فاضل باشا المصري ولفيف الاحرار اذ ذاك كان من خيار الفضلاء والمفكرين من العثمانيين الاتراك — منهم ضيا باشا المؤرخ ، والشاعر نامق كمال بك ، ومحمد بك ، ونوري بك ، ورشاد باشا وغيرهم — ولهذه العصبة مجاهدات جليلة في سبيل اصلاح المملكة ، ومقالات مؤثرة ابدعوا في تحريرها ، وتفننوا في وسائل ادخالها حتى كانوا يطبعونها في آخر العهد على اثواب الاقمشة القطنية وغيرها — ثم توسط نابوليون الثالث الامر بين السلطان عبد العزيز والبرنس مصطفى باشا فاضل ومن معه من الاحرار آخذاً موثقاً من جلالة السلطان ان يعمل على مايرومونه من الاصلاح بعد عودتهم الى الاستانة وقد تمنع الاحرار في بادئ الامر ولم يقبلوا بالعودة من غير ضمان وثيق ثم عادوا وكان من امرهم — مما يطول شرحه وما هو معلوم عند بقية قدماء الرجال من العثمانيين الباقين في قيد الحياة اليوم ، وما تركوه في صدور الاخلاف .

مقصدها الحق ورجاؤنا من كرمه ان يترتب على حسن سعيها اثر مفيد للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً . انتهى ؟

ثم قال : هذه عقيدة « القضاء والقدر » التي تعد من اصول العقائد في الدين الاسلامي — كيف انقلبت حقيقتها مع جهلة الافرنج ومن تابعهم من المغفلين ، وضعفاء العقول من المتفرنجين في الشرق — و كيف استنتجوا منها نتيجة لم تكن من لوازمها = بل هي في الحقيقة من نقيضها وبعد ان كانت تلك العقيدة الشريفة مما تحمل معتقدها على التحلي با كمل الصفات من جرأة واقدام ، والتخلق بخلق البسالة والشجاعة واقتحام المهالك ، واحتمال المكاره والجود والسخاء واحتقار الموت في سبيل الحق وطلب المجد رأوا ما في المسلمين اليوم من فقر وفاقة ، وضعف واستكانة الى الذل وغير ذلك من المذام فنسبوها الى اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر — والعقيدة مع المسلمين فيما لو عملوا بها براء مما ينسبونه اليهم — ولكن من سنن الوجود ، ومقتضيات انحطاط الامم ، ولوازم تقهقرها ان ترمى بكل شائنة ، وتسلب من كل فضيلة — فتعود حسناتها سيئآت ، ويعدُّ كل وصف كمالي لها نقصاً ، وبالاختصار تسلب كلما عندها من المحاسن ، وتلبس ما في الغير من المساوي — سواء في ذلك العقائد وجميل الصفات — من ذلك القبيل « التعصب » وهو لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد الشرقية — تلوكه الالسن وترمي به الافواه في المحافل ، والمجامع — حتى صار متكئاً للمتكلمين يلجأ اليه العي ، والجامد البليد . — أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير = فقلما تكون عبارة الا وهو فاتحتها ، أو حشوها ، أو خاتمتها — يعدُّون مسمَّاه علة لكل

بلاء ، ومنبعاً لكل عناء ، و يزعمونه حجاباً كثيفاً ، وسداً منيعاً بين المتصفين به و بين الفوز والنجاح ، و يجعلونه عنواناً على النقص ، وعلماً للرذائل — والمتفرنجون ، الذاهبون في تقليدهم الأعمى مـذاهب الخلط ، والخبط لا يميزون بين حق و باطل — هم احرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد — فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤوس ، ويعبثون باللحى و يبرمون السبال — واذا رموا به شخصاً للحط من كرامته اردفوه للتوضيح بلفظ افرنجي «فناتيك» وان عهدوا بشخص نوعاً من المخالفة لمشربهم عدُّوه متعصباً وهزؤا به ، وغمزوا ، ولمزوا — واذا رأوه عبسوا ، و بسروا ، وشمخوا بأنوفهم كبراً ، وولُّوه دبراً ، ونادوا عليه بالويل والثبور .

ماذا سبق الى افهامهم من هذا اللفظ ، وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدءاً لكل شناعة ، ومصدراً لكل نقيصة — وهل لهم وقوف على شيءٍ من حقيقته .

« التعصب » قيام بالعصبية — والعصبية من المصادر النسبية نسبة الى العصبة — وهي قوم الرجل الذين يعزّزون قوته ، ويدفعون عنه الضيم ، والعداء — فالتعصب وصف للنفس الانسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها ، والذود عن حقه — ووجوه الأتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها .

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب ، واقام بناء الامم وهو عقد الروابط في كل امة — بل هو قوة المزاج الصحيح — يوحـد المتفرق منها تحت اسم واحد ، وينشئها بتقدير الله خلقاً واحداً ، كبدن

تألف من اجزاء وعناصر تدبّره روح واحدة. فتكون كشخص يمتاز في اطواره ، وشؤونه وسعادته وشقائه ، عن الاشخاص .

وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين امة وامة ، وقبيل وقبيل ،ومباهاة كل من الامتين المتقابلتين بما يتوفر لها من اسباب الرفاهة ، وهناء العيش ، وما تجمعه قواهـا من وسائل العزة والمنعة ، وسمو المقام ، ونفاذ الكلمة — والتنافس بين الامم كالتنافس بين الاشخاص — وهو اعظم باعث على بلوغ اقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة

التعصب روح كلي — مهبطه هيأة الامة ، وصورتها — وسائر ارواح الافراد حواسه ومشاعره — فاذا ألمّ باحد المشاعر ما لا يلائمه من اجنبي عنه انفعل الروح الكلي = وجاشت طبيعته لدفعه — فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر النعرة الجنسية ، هذا الذي يرفع نفوس آحاد الامة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الامة بضرر او يؤول بهـا الى سوء العاقبة — وان استقامة الطباع ، ورسوخ الفضيلة في امة — تكون على حسب درجة التعصب فيها ، والالتحام بين افرادها يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم في بدن حيّ = لا يجد الرأس غنى بارتفاعه عن القدم ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطاً في رتبة الوجود ، وانما كل يرى ،ويجد ويعمل وظائفه لحفظ البدن وبقاءه .

كلما ضعفت قوة الربط بين افراد الامة بضعف التعصب فيهم استرخت الاعصاب ،ورثّت الاطنـاب ، ورقّت الاوتار ، وتداعى بناء الامة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفنـاء — بعد هذا يموت الروح

الكلي وتبطل هيأة الامة — وان بقيت آحادها فما هي الا كالاجزاء المتناثرة اما تتصل بابدان اخرى بحكم ضرورة الكون ، واما ان تبقى في قبضة الموت الى ان ينفخ فيها روح النشأة الآخرة ·

سنة الله في خلقه اذا ضعفت العصبية في قوم رماهم بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، واعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر — فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضته روح التعصب في نشأة ثانية

نعم ان التعصب وصف كسائر الاوصاف = له حد اعتدال وطرف افراط وتفريط = واعتداله هو الكمال الذي بيّنا مزاياه — والتفريط فيه هو النقص الذي اشرنا الى رزاياه = والافراط فيه مذمة تبعث على الجور ، والاعتداء — فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق = ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر الى الاجنبي عنه كما ينظر الي الهمل من السوائم لا يعترف له بحق ، ولا يرعى له ذمة - فيخرج بذلك عن جادة العدل فتنقلب منفعة التعصب الي مضرة ، ويذهب بهاء الامة بل يتقوض مجدها — فان العدل قوام الاجتماع الانساني وبه حياة الامم — وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان الشارع « صلعم » في قوله « ليس منا من دعا الي عصبية » الحديث ·

التعصب كما يطلق ويراد منه النعرة على الجنس = ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد = كذلك توسع اهل العرف فيه فاطلقوه

على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً — والمتنطعون، والمغفلون من المتفرنجين يخصُّون هذا النوع من التعصب بالمقت، ويرمونه بالذم = ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل، او يتفق مع الحزم — فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة تنبعث عنها قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات لا يختلف شأنها، ولا فرق اصلاً اذا كان مرجعها الدين او كان مرجعها النسب — وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في اقوام مختلفة من البشر وعن كل منها صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني — وليس يوجد عند العقل ادنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه، ومعاونته على حاجات معيشته — وبين ما يصدر من ذلك، عن المتلاحمين المتصلين بصلة المعتقد ورابطة المشرب ·

فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في اصول العقائد بعضهم لبعضهم اذا وقف عند الاعتدال، ولم يدفع الى جور في المعاملة، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم، او نقض لذمته — فهو فضيلة من اجل الفضائل الانسانية واوفرها نفعاً، واجزلها فائدة، بل هو اقدس رابطة واعلاها، اذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها الى اوج السيادة وذروة المجد — خصوصاً ان كانوا من قوم قوي فيهم سلطان الدين، واشتدت سطوته على الاهواء الجنسية حتى اشرف بها على الزوال — كما في اهل الديانة الاسلامية كما اشرنا اليه في غير مقال سبق ·

ولا يؤخذ علينا في القول بانه من اقدس الروابط = فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين اشخاص وآحاد متعددة — ويصل ما بينهم في المقاصد

والعزائم والاعمال — كذلك يمحو اثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر بل الاجناس المتخالفة في المنابت ، واللغات والعادات — بل المتباعدة في الصور والاشكال ، ويحول اهوائها المتضاربة الى قصد واحد — وهو تأصيل المجد ، وتأييد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم ٠

هذا الأثر الجليل ابرزه قوة التعصب الديني ، وشهد عليه التاريخ بعد ما ارشد اليه العقل الصحيح — وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه ٠

تشدق جماعة من متزندقة هذه الاوقات في بيان مفاسد التعصب الديني — وزعموا ان حمية اهل الدين لكشف ما يغشي اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من عوامل الوهن ، والضعف — هو الذي يصدهم عن السير الى كمال المدنية ، ويحجبهم عن نور العلم ، والمعرفة ، ويرمي بهم في ظلمات الجهل ، و يحملهم على الجور ، والظلم ، والعدوان على من يخالفهم في دينهم — ومن رأي اولئك المتفتقين ان لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو اثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد — وكثيراً ما يرجعون باهل الدين الاسلامي و يخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم ٠

كذب الخرّاصون — ان الدين اول معلم ، وأرشد استاذ ، واهدى قائد للانفس الى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف ، وأرحم مؤدب ، وابصر مروّض ، يطبع الارواح على الآداب الحسنة ، والاخلاق الكريمة ، ويقيمها على جادة العدل ، و ينبّه منها حاسة الشفقة ، والرحمة خصوصاً دين الاسلام — فهو الذي رفع أُمة كانت من اعرق الامم في التوحش ،

والقسوة ، والخشونة وسمى بها الى ارقى مراقي الحكمة ، والمدنية في اقرب مدة وهي « الامة العربية » ·

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والافراط مثلما يعرض على التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم ، وجور ، وربما يؤدي الى قيام اهل الدين لأبادة مخالفيهم ، ومحق وجودهم — كما قامت الامم الغربية واندفعت الى بلاد الشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح ، ولا للدعوة الدينية وذلك في الحرب الهائلة المعروفة بحرب « الصليب » وكما فعل الاسبانيون بسلمي الاندلس — وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي — فان صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس واحرقهم — الا ان هذا العارض لمخالفته لاصول الدين قلما تمتد له مدة ومن ثم يرجع ارباب الدين الى اصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل ·

اما اهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في بعض الاجيال الماضية الا انه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الإبادة واخلاء الارض من مخالفيهم في دينهم — وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب — ولنا الدليل الاقوم على ما نقول — وهو ان وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها، وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وتلك الملل في وهن الضعف

نعم كان للمسلمين ولع بتوسيع الممالك ، وامتداد الفتوحات — وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم — الا انهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من

الملل المختلفة حقه ، ويدفعون عنه غائلة العدوان — ومن العقائد الراسخة في نفوسهم ان من رضي بذمتنا فله ما لنا وعليه ما علينا — ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن امر الله في قوله « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم والوالدين والاقربين الآية » اللهم الا ما لا تخلو عنه الطبائع البشرية — ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا احداً من مخالفيهم عن التقدم الى ما يستحقه من علو الرتبة ، وارتفاع المكانة — ولقد سمى في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من ارباب الاديان المختلفة — وكان ذلك في شبيبتها . وكمال قوتها وكان من يصطنعونه على ما يرام من الاخلاص لا يحاولون كيداً لسلطان المسلمين ولا يعملون الغوائل لملكهم — ولم يزل الامر على ما كان مع تغير اخلاق المصطنعين ، وسوء نواياهم — وفي الظن ان الامم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل والمسامحة الى اليوم « فبعداً لقوم يظنون ان المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم ! ! .

لم يسلك المسلمون مسلك الالزام بدينهم ، والاجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم ، وتغلغلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة — وانما كانت لهم دعوة يبلغونها فان قبلت والا استبدلوها برسم مالي يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي .

هذا على خلاف متنصرة الرومانيين ، واليونانيين ايام شوكتهم الاولى فانهم ما كانوا يطأون ارضاً الا ويلزمون اهلها بخلع اديانهم والتدين بدين

اولئك المتسلطين كما فعلوا في بعض انحاء الشرق — بل وفي البلاد الافرنجية نفسها . ومع المخالفين بالمذهب مثل اتباع « لوتير » في بداية مذهبه البرتستانتي

هذا فصل من الكلام ساق اليــه البيان — وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر — ثم اعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده — هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله ان يعد الاعتدال من التعصب الديني نقيصة ! . وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي — الا بما يكون به التعصب الديني اقدس ، واطهر واعم فائدة ! — لا نخال عاقلاً يرتاب في صحة ما قررنا — فما لاولئك القوم يهذرون بما لا يدرون ؟ — أيّ أصل من اصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من اشرف الفضائل ويعبرون عنه « بمحبة الوطن » ؟ — وايّة قاعدة من قواعد العمران البشرى يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل ، وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها ؟؟ .

نعم ان الافرنج تأكد لديهم ان اقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة الدينية وادركوا ان قوتهم لا تكون الا « بالعصبية الاعتقادية » — ولاولئك الافرنج مطامع في ديار المسلمين ، واوطانهم — فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين ارباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة ، وفصم حبالها لينقضوا بذلك بنــاء الملة الاسلامية ، ويمزقونها شيعاً ، واحزاباً — فانهم علموا كما علمنا وعلم العقلاء اجمعون ان المسلمين لا يعرفون لهم جنسية الا في دينهم واعتقادهم — وتسنّى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية وتبعهم بعض الغافلين من المسلمين جهلاً

وتقليداً فساعدوهم على التنفير من العصبة الدينية بعد ما فقدوها ولم يستبدلوها برابطة الجنس التي يبالغون في تنظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل ان يهيئ لنفسه مسكناً سواه — فاضطر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته؟

من هذا ما سلك الانكليز في الهند لما احسوا بخيال السلطنة يطوف على افكار المسلمين منهم — لقرب عهدهم به — وفي دينهم ما يبعثهم على النهوض الى استرداد ما سلب منهم — وارشدهم البحث في طبائع الملل الى ان حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية ، وما دام الاعتقاد المحمدي ، والعصبة الملية سائدة فيهم — فلا تؤمن بعثتهم الى طلب حقوقهم — فاستهووا طائفة ممن يتّسمون بسمة الاسلام ، ويلبسون لباس المسلمين وفي صدورهم غلّ ، وفي قلوبهم زيغ ، وزندقة — وهم المعروفون في البلاد الهندية « بالنيچرية » اي الدهريين — فاتخذهم الانكليز اعواناً لهم على فساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم ، ويخمدوا نائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم — وساعدوا تلك الطائفة على انشاء مدرسة كبيرة ، ونشر جريدة لبثّ هذه الاباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف في العقائد ، وترث اطناب الصلاة بين المسلمين فيستريح الانكليز في التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم وغرّ اولئك الغفّل المتزندقين ان رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة » تعس من يبيع ملّته بلقمته » — وذمته برذال العيش ·

هذا اسلوب من السياسة الاوروبية اجادت الدول اختباره ، وجنت ثماره فاخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم — فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية من مصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ولم تعدم صيدا من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة .

واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام ان يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكن نعجب من ان بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم ، وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ، ويجهرون في رمي المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ولا يعلم اولئك المسلمون انهم بهذا يشقون عصاهم ، يفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بايديهم وايدي المارقين — يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفي محوه محو الملة ودفعها الى ايدي الاجانب — يستعبدونها ما دامت الارض ارضاً والسماء سماء

والله ما عجبنا من هؤلاء ، وهؤلاء باشد من العجب لأحوال الغربيين من الامم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ولا يخجلون من تشنيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة .

الافرنج اشد الناس في هذا النوع من التعصب ، واحرصهم على القيام بدواعيه الاساسية في حكوماتهم السياسية — الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ، ومساعدتهم على نجاح اعمالهم — واذا عدت عادية مما لا يخلو منه الاجتماع الانساني على واحد منهم ممن هو على دينهم ، ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق الاقصى — سمعت صياحاً ، ونواحاً ، وعويلاً ،

وهيصات ونباءات تتلاقى امواجها في جو بلاد المدنية الغربية — وينادي جميعهم الا قد المّت ملمّة ! وحدثت حادثة مهمة ! فاجمعوا الامر وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة ، والاحتياط من وقوع مثلها حتى لا تنخدش الجامعة الدينية وتراهم على اختلافهم في الأجناس ، وتباغضهم ، وتحاقدهم ، وتنابذهم في السياسات وترقُّب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء — يتقاربون ويتآلفون ، ويتحدون في توجيه قواهم الحربية ، والسياسية لحماية من يشا كلهم في الدين — وان كان في اقصى الصين أو قاصية من الارض ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية .

اما لو فاض طوفان الفتن ، وطمّ وجه الارض ، وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب — فلا ينبض لهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس — بل يتغافلون عنه ، ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية وحدّه النهاية ، ويذهلون عما اودع في الفطرة البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية كأنما يعدّون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة ، والهمل الراعية ، وليس من نوع الانسان الذي يزعم الاوربيون انهم حماته وانصاره — وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ولا يألون جهداً في تقوية عصبتهم — وليتهم يقفون عند الحق ولكن كثيراً ما تجاوزوه .

اما ان شأن الافرنج « واخصهم الانكليز » في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب ! يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية الفكرية حتى يرفعونه الى الرئاسة على الاحزاب « كغلادستون » واضرابه ثم لا نجد كلمة تصدر عنه

الا وفيها نفثة من روح احد القديسين، ولا يقدم على عمل مهم، قبل ان يعمل خيرة « استخارة » في الأنجيل انظر الى كتب غلادستون وخطبه السابقة

فيا ايتها الامة المرحومة ! هذه حياتكم فاحفظوها، ودمائكم فلا تريقوها وارواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت ! هذه هي روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترّهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل — ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي احكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى ان الرجل منهم ليألم لما يصيب اخاه من عاديات الدهر ، وان تناءت دياره ، وتقاصت اقطاره ، هذه صلة من امتن الصلات ساقها الله اليكم ومنها عزتكم ، ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها !

ولكن عليكم في رعايتها ان تخضعوا لسطوة العدل ! العدل ! العدل ! فالعدل اساس الكون وبه قوامه — ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم وعليكم ان تتقوا الله ، وتلزموا أوامره في حفظ الدم ، ومعرفة الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة ، واحكام الألفة في المنافع الوطنية ، وتأكيد الروابط بينكم وبين ابناء وطنكم ، وجيرانكم من ارباب الاديان المختلفة فان مصالحكم لا تقوم الاّ بمصالحهم — كما لا تقوم مصالحهم الاّ بمصالحكم — كونوا في الوطنية اخوانًا تكونوا لبعضكم اعوانًا ، وسدًّا منيعًا في وجه من يطمع فيكم جميعًا — ولا تجعلوا عصبة الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه باشد العقاب . —

هذا ولا تجعلوا عصبتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الامم في القوة ، والمنعة ، والشوكة ، والسلطان ، ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة ، والفضائل ، والكمالات الانسانية — اجعلوا عصبتكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وليأخذ كل منكم بيد اخيه ليرفعه من هوّة النقص الى شاهق الكمال « وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »

ما انتهى السيد جمال الدين من هذا المقال حتى تناول من جنبه كتاباً واخذ يقلب صفحاته فعرفت انه مجموعة « الرياض المصرية » التي كنت قدمتها له قبل حين فقال : يا شيخ بني مخزوم لقد سرّحت نظري في رياضك فما وقع منها الأعلى ما يستحسن في بابه — وأكثر ما أجدت فيه ، وأحسنت عنواناً ومعنى مقالتك « تحرير الأرقاء واسارة الأحرار » فوعزة الحق ! ما عدوت ما في نفسي فيما قلته بل شفيت منها غليلاً إذ جلوت حقيقةً طالما تخوفت على الشرقيين ان تحجب عنهم ، أو ان يجهلونها — ويتلو تلك المقالة « محاورة بين الشرق والغرب » فاذا اسعفك الزمن وسلمت مع تلك الخاطرات من المخاطر وقدمت على طبعها فاضمم المقالتين الى الكتاب ففيهما خير عبرة وذكرى .

ثم قال — اظنك وسمت المجلة باسم الرياض نسبة لوزير مصر « رياض باشا » فقلت نعم إذ كان لدولته عناية خاصة بالمجلة وصاحبها — فقال : نعم الوزير الكبير رياض باشا ونِعمَ الوطني الغيور هو — فكم له في خدمة بلاده من مواقف لا يشبهها في المتانة الأ الهرمان — ومن صائب الرأي ، وثاقب

الفكر ما تنجلي به غياهب المشكلات ، وتحلُّ به عقد المعضلات — منها وقوفه وحيداً بدون مناصرة احد زملائه في وجه نوبار باشا وسياسته وهو على منصة رياسة وزراء مصر ، وإعماله على إحباط مساعيه ومساعي اوليائه « الانكليز » في الكيد لمصر ، وامتلاكها — ومصادمته الى اللورد دوفرين وانظمته التي جرَّت على مصر الويلات ، وسببت فيها تلك الإختلالات — واني لأذكر ما قاله رياض باشا في المجلس الذي انعقد في حينه في سراي الخديوي توفيق باشا بالقاهرة وحضره نظار الحكومة المصرية إذ ذاك ودعي اليه شريف باشا ، ورياض باشا ، وسلطان باشا ، وعمر باشا ، ولطفي باشا ، وخيري باشا ، وثابت باشا — « انه لا يرجى اصلاح ما دام العمل جارياً على ما وضعه اللورد دوفرين مما سماه نظاماً — وانه لا ثقة له.«أي لرياض باشا» بأصل من اصول ذلك النظام ، وليس في الامكان اجراء ولا واحد منها ، وان الاغلاط التي كانت منشاءً للضعف ، والإختلال لم يرتكبها الاّ دولة الانكليز ، وان ما نراه من الفوضوية ، وارتكاب المنكرات ، وكثرة التعدي والسرقات لم تكن له علة الاّ السياسة الانكليزية – فعلى انكلترا ان تعالج هذا الداء « تسكين فتنة المهدي في السودان وارسال عساكر مصرية مع الانكليز أو ترك السودان» وليس ذلك علينا ولقد قلت هذا مراراً و بلغته للورد دوفرين وشريف باشا — ثم قال : « اني لا افهم لفظ « برتكتورا » — حماية — ولا اعلم ماذا يراد منه =ولكني لا أرى وسطاً بين امرين=اما ضم البلاد الى الحكومة الانكليزية فتستلم انكلترا ادارة امورها ، وتتولى شؤونها كلية كانت أم جزئية ـوهذا

الذي افهمه من تلك العبارات = وإما ترك البلاد لأهلها ، فيأخذ بزمام السلطنة فيها رجال من اهلها واليهم الحل والعقد في ادارتها — فانتحلو « يخاطب نو باراً » مذهباً من المذهبين فان القول بوسط بينهما ضرب من الجنون » !.

وليس بعجيب ان يصدر مثل هذا الكلام من رياض باشا — فهو رجل ذو حياة وطنية ، وشعور بما يلزم لحفظ حياته هذه — وهي اشرف انواع الحياة — فان تكلم فانما ينثر الكلام منه ارادة ناشئة عن فكر ثاقب ، يثيره قوة حيوية — وقد اجمعت الجرائد الفرنساوية ، وهي تتبع الحوادث المصرية بالثناء على رياض باشا ، واتت من وصفه على افضل ما يوصف به رجل في امته ، ومما ذكرت من صفاته :

انه اقوم امير في الديار المصرية ، واشدهم حرصاً على الاستقامة وانه ابصر اهل بلاده بعواقب الحوادث التي المت بمصر ، وما تؤول اليه ، وكان يرى من بداية تلك الحوادث انه سيكون مصيرها الى ما لاخير فيه للبلاد ، وسكتت تلك الجرائد عما يتعلق ببقية اعضاء المجلس — وكان الأمل ان يوجد من طراز رياض باشا كثير في الاقطار المصرية يصدعون بما يصدع به خصوصاً بعد ما نازلتهم الحوادث المريعة ، ومثلت لهم مستقبل بلادهم في مرآة حاضرها — ولقد ادّى الرجل حقاً واجباً عليه — والقائم باداء الفريضة قد يشكر اذا اهملها المكلفون بها — وقد صيروها في عداد النوافل — ولكن قد اخذنا العجب في حينه ويأخذنا كلما تذكرنا — من بقية اعضاء ذلك المجلس الموقر كيف احجموا ، او تلكأوا او سكتوا — وكيف وسعتهم

القدرة على امساك السنتهم عن التعبير بما في ضمائرهم .

انا لا نعلم احداً منهم تجنس بالجنسية الانكليزية ، وحاشا جميعهم من ذلك ولا يختلج في صدورنا ان مصرياً ، او تركيا او عراقيا ، ايا كان يميل ميلاً صادقاً الى تسلط الامم الاجنبية على بلاده ، أو يخلص في خدمة الانكليز ومجاراة رغائبهم اخلاصاً صحيحاً ـ خصوصاً اولئك الامراء بل لو كشف الحجاب عن قلب كل واحد منهم لرأيناه ذائباً من الاسف مما حل في بلاده ، وفانياً من الحزن على ما نزل بوطنه — من تردد جيوش الاجانب بين اطرافه ، ومضمحلاً من الكدر ، على ما عقبه حلول القوة الاجنبية من انقباض النفس ، وانقطاع الآمال ، وتعمم الاختلال ، وشمول الفقر والفاقة ، وبطلان حركة الاعمال — بل لو شاء القلم ان يعبر عن حالة الامير منهم عندما يطرق آذانه اخبار التصرف الانكليزي في ادارات حكومته ، وكف ايدي الموظفين من ابناء ملته عن اداء ما يجب عليه لبلادهم ، وبسطة ايدي اولئك الاجانب في انفاق الاموال من ماله ، ومال عياله واقاربه ، واحبائه ، وجميع مواطنيه بدون حق شرعي ، ولا مصلحة وطنية ، او عندما يرى غنياً اعدم ، وعزيزاً ذل ، وكاسياً عري ، وحياً اشرف على الهلاك من ضغط المظالم ، ولو نهضت قوة البيان لشرح ما يظهر على وجهه من الوان الكمودة ، وفي اعضائه من انواع الرعدة ، وما ينبض به قلبه وما يحدثه فكره من هواجس الهموم ، وخواطر الغموم — لما استطاع القلم تعبيراً ، ولوقفت قوة البيان دون الاتيان على قليل من كثير .

هذا هو الذي لا يبرأ منه احد منهم ولو اقام على البراءة الف برهان

كيف لا وهم يعلمون ان عزتهم وسيادتهم وما بلغوا من مراتب الشرف والرفعة انما كان بقيامهم على اعمال البلاد واهليتهم لاستلام مهامها ، واستعدادهم لادارة شؤون الرعية وهم على يقين بانه لو ساد في ديارهم اجنبي فلا داعٍ يبعثه الى حفظ ما لهم من الشرف والسيادة — بل له من البواعث القوية ما يحمله على تذليلهم ، واهباطهم الى احط المنازل ، ليخلفهم على مثل ما كانوا عليه أو اعلى . فما الذي امسك بالسنتهم عن الكلام هل الخوف فمن اي شيء يخافون ؟ وما الذي يخشونه على ارواحهم ، أو على بلادهم إذا قالوا حقاً وثبتوا عليه ؟ — ماذا يصنع بهم الانكليز اذا علموا صدقهم في محبة اوطانهم واتفاق كلمتهم على الرغبة في انقاذها ؟ — هل علموا من عدل الانكليز انهم يؤاخذون الناس على ابداء آرائهم اذا دعوا الى المشورة ! — ان كان هذا فما يبتغون من الحياة ! هل ظنوا ان الانكليز اذا احسوا باتفاق في الآراء على مصلحة من مصالح البلاد وان كانت في خروجهم من مصر يستطيعون تحت اعين اوروبا وسلطان العدل ان يوصلوا ضرراً الى المتفقين وهم امراء البلاد ، واعيانها . ان رياض باشا وحده لم يخشَ من اظهار فكره فماذا كان يضرُّ الامراء الوطنيين لو عززوه او كاتفوه على مثل رأيه ؟؟ — قد علم العقلاء من كل أمة ان اشباه هذه الحوادث تكون سبباً في اجتماع الكلمة ، واتحاد الرأي على مصادمتها — وما نراه اليوم وفي كل زمن من سعادة الامم العظيمة انما كان منشاؤه ملمّات الشقاء التي انستهم وتنسيهم الضغائن ، والاحقاد — وحملتهم على ترك المنافرات الخصوصية واخذ كل بيد اخيه لدفع ما يخشى منه على بناء الامة ان ينصدع ، واساس الملة ان

ينقلع — وما سمعنا من امة اتفقت فخابت — ولا ملة افترقت فنجحت ؟

ألا فليعلم الامراء ان اوروبا واقفة بالمرصاد لانكلترا تترقب لها الزلل وتتمنى لها الغلط وان جميع الاسماع في الممالك الاوروبية مصغيـة لكلمة يتفق عليها وجهاء المصريين — وهي — اننا قادرون على اصلاح شؤوننا ولا نريد قوة اجنبية تحلُّ في ديارنا — امتدت اعناق السياسيين في اوروبا ، وانحنت الى المصريين ليسمعوا منهم كلمـة حتى كلّت رقابهم ، والتوت اعصابها = والمصريون يشحُّون بها عليهم — ماذا يخشى المصريون وامراؤهم من قول الحق ؟ ان الامم اليوم لا تطلب منهـا اشهار السلاح ، ولا بذل الارواح ولكن تطلب منهم قولاً صريحـاً ولا يجلب اليهم ضرراً ولا يقرب منهم خطراً ! ... لا حول ولا قوة الاّ بالله .

« هذا ما اعاد ذكراه السيد جمال الدين وهي من الحوادث التي ترجع في تاريخها الى سنة ١٨٨٤ » .

كان لجمال الدين نظرية بلغت به درجة اليقين انه ما دام الشرق شرقاً واهله على ما هم عليه من الجمود ، والخمول ، والجهل وتفرق الكلمة ، وترك العمل بحكمة الدين — وما دام الغرب غرباً واهله في تلك القوة من العلم ، وضيق المحيط والتشبع من المطامع — فالحوادث — والكوارث تتكرر متشابهة لا تختلف في النتائج وان اختلفت فانما الاختلاف يكون في الامكنة والازمنة ، واسماء الاشخاص — وكان لجمال الدين عناية خاصة في مصر وحوادثها يهتم لأقل حادث يحدث فيها و ينظر الى اصغر رزيئة ترزاء فيها مصر بعين الاعظام ويعتقد ان ما اصاب باب الجرمين « مصر » أو يصيبها سوف

تجرأ الاجانب على تطبيقه في غيرها من الاقاليم الاسلامية الشرقية ·

سمت بجمال الدين الهمة (كما ذكرنا قبلاً) فشخص الى مدينة باريس موئل الاحرار من الامم واستلحق به صديقه الاستاذ الشيخ محمد عبده واخذ يرقب دسائس الانكليز ، ومكايدها لمصر خصوصاً، وللشرقيين عموماً فيكشف الاستار عن خفي المقاصد ويحذر ببليغ القول ، وساطع البرهان من الوقوع في المصائد البريطانية وصنائعهم مثل نوبار باشا الارمني — فكانت لا تفوته حركة عداء ولو خفت الا ويقف في وجهها ويهتك سرها — من ذلك لما بلغه تعطيل نوبار باشا لجريدة الاهرام عام ١٨٨٤ وهو من الامور المألوفة في حكومات الشرق الساقطة تحت اشراف الغربيين واخصهم «الانكليز» ولكن جمال الدين لم ينظر للأمر بنظر الاستخفاف بل سفّه رأي نوبار باشا وافرد لذلك مقالاً تحت عنوان «جريدة الاهرام» و(اشار بنقله) قال : اشتد عليها غضب نوبار باشا فاصدر أمره بتعطيلها شهراً وقفل مطبعتها — قيل في السبب انه نشر رسائل مدير الجريدة وهو في لوندرا على ما فيها من بيان بعض مساوي السياسة الانكليزية على خلاف رغبة الباشا — وقيل ان السبب نشر الشكر الذي قدم الى المدير والمحرر من اعيان البلاد دلالة على استحسان مشرب الجريدة «وهو استقباح سياسة الانكليز» ولكن كتب الينا من مصدر خاص ان هذه المسائل العمومية لا تهم نوبار باشا الا اذا مست مصلحته الخاصة فالسبب الحقيقي هو ان المنهج المستقيم الذي سلكته الاهرام دعا الى ذكر بعض الرجال الوطنيين مثل رياض باشا وشريف باشا مع وصفهما بالوطنية وعلو الهمة ،

وكمال الغيرة — نوبار باشا ساع الى امر مهم وهو ما ذكرناه ونشرته بعدنا جريدة الدبا وسائر الجرائد الانكليزية · ان يكون ولي القاصر «عباس» بعد خلع ابيه فينال بسطة في السلطة ، واطلاقاً في الامر والنهي — وعلم ان هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الانكليزية على تملك مصر وهي محتاجة في ذلك الى كل من ليس له وطن ، ولا دين ، ولا جنس في مصر فهي اذاً في اشد الحاجة لنوبار باشا — وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها الا صدى الاصوات ان قلت لا ، فلا ؟ او قلت نعم فنعم ! — فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقى اليه فعلم نوبار باشا ان خديوياً مثل هذا يمكن ان يكون واسطة في تمكين الانكليز من مصر من حيث لا يشعر — وبتقديم هذه الخدمة لهم يبني لنفسه من العزة قصراً شاهقاً · فكيف يطيب لنوبار مع هذا السعي ان يسمع ذكر رياض باشا وشريف باشا مع وصفي الوطنية وعلو الهمة — يخاف ان الاكثار من ذكر هؤلاء الرجال ربما يحرك الخواطر الوطنية فيندفع منها سيل يهدم كل ما يبنيه · ان صاحب الاهرام اكثر من ذكر الوطن والوطنيين — ونوبار باشا ابعد الناس عنهما لهذا اغضبه ذكرها — كلما ذكر لفظ الوطن — او الملة ، او الجنس او الامة سواء كان في مقال عام او في جانب شخص خاص حسب نوبار باشا ان في الكلام تهكماً به واستهزاءً — ولا عجب من نوبار[1] ان ظن ما ظن او فعل ما فعل فالرجل ليس

---

(١) تكرر ورود هذه العبارة — وامثالها — وذكرنا ذلك في حينه لجمال الدين فاشار بلزوم اثباتها ولو تكررت ويعتبرها من التكرار المفيد — وانها بالاذهان اعلق ، وللاخلاف انفع ·

بمصري ، ولا عربي ، ولا مسلم — فبأي ثمن بخس باع به مصر فهو الرابح اذ لا يخسر ملة ، ولا وطناً ، ولا جنساً كما سبق وذكرنا

قيل ان نوبار يطلب ابعاد الزبير باشا من مصر فان نال مطلبه لم يبعد ان يطلب لشريف باشا ورياض باشا وكل ذي شهامة او فكر في مصر مثل ما طلب للزبير وتكون الحكومة النوبرية حكومة هندية — وهل يبعد مثل هذا على نوبار — ان الذي يؤيد ما روي لنا في سبب قفل الاهرام هو ان نوبار باشا ما تحرك لحجز العروة الوثقى عن دخول مصر الا عندما ذكر فيها رياض باشا مع ذكر بعض اوصافه — والا فان كان السبب ذكر الاسلام والمسلمين ! فيها فذلك ينذرنا بقفل الازهر بامر نوبار باشا

اني اتعجب وكل ذي احساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين ، والاتراك ، والحجازيين ، واليمانيين — الا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده و يتقدم بصدره ، ويخطو خطوة الى هذا الوزير الارمني فيبطل هذه الصفقة ، وينقض هذه البيعة ، ويكشف له وللمغرورين من امثاله حقيقة الوطنية ، ويرفع الحجاب عن واجبات الملية — لا حول ولا قوة الا بالله

ان المولعين بحب الحياة يقضونها في الذل من خوف الذل ، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية ، ويجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفاً من الموت . فلا الدين يسوقهم الى مرضاة الله ، ولا الحمية الوطنية تدفعهم الى ما به فخار بني الانسان

﴿ رأيه في القوة الآلية ، ورده على من زعم امكان استهلاك العدد الكثير بالقليل ، ومرثاه في نتيجة ما يصيب الشرق والشرقيين من المصائب والنوازل ﴾

وبحثه في التعصب الجنسي والتعصب الديني .

وتتبعه سير انكلترا في الحوادث المصرية سنة ١٨٨٤ وموقف الدولة العثمانية والفرنساوية ازاء تلك الحوادث

قال : خفيت مذاهب الطامعين ازماناً ثم ظهرت — وبدأت على طرق ربما لا تنكرها الأنفس ثم التوت — أوغل الاقوياء من الامم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى اذهلوهم عن انفسهم ، وخرجوا بهم عن محيط النظر ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحتمله النفوس البشرية

ذهب اقوام الى ما يسوله الوهم ويغري به شيطان الخيال — فظنوا ان القوة الآلية وان قل عمالها يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت احادها — بل زعموا انه يمكن استهلاك الجم الغفير في النزر اليسير — وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان — فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة ، والقريبة ناطقة بانه ان جاز ان عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد امة عظيمة ، ونسيت تلك العشيرة اسمها ، ونسبتها — فلم يجز في زمن من الازمان امحاء امة ، او ملة كبيرة بقوة امة تماثلها في العدد او تكون منها على نسبة متقاربة وان بلغت القوة اقصى ما يتصوره الخيال ؟

والذي يحكم به العقل السليم ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني — من يوم علم تاريخه الى اليوم — ان الامم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول — ثم صالت عليها قوة اجنبية ازعجتها ، ونبهتها بعض التنبيه — فاذا توالت عليها وخزات الحوادث ، واقلقتها آلامها — فزعت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ولم تجد بداً من طلب النجاة من اي سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية — وهي ما تكون بالتئام افرادها ، والتحام آحادها — وان الالهام الالهي ، والاحساس الفطري ، والتعليم الشرعي — كل ذلك يرشدها الى ان لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو ايسر شيء عليها

ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع ، والعادة ما بلغت — اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم الا الى حد يدخل تحت الطاقة ، ويسعه الامكان — فاذا تجاوز الاستطاعة — كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتنمر ثعلبها ، والتمست خلاصها ولن تعدم عند الطلب رشاداً

ربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة — لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط ، والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب اخرى فيكون لها الظفر والغلبة وان الحركة التي تنبعث لدفع ما لا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها — لا يكفي في توقيف سريانها ، او محو آثارها — قهر ذلك القيم ، واهلاك ذلك المدبر — فان العلة ما دامت

موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها فان ذهب قيِّم خلفه آخر اوسع منه خبرة ، وانفذ بصيرة ، وامضى عزماً

نعم يمكن تخفيف الأثر ، أو ازالته بازالة علته ، ورفع اسبابه

جرت عادة الامم ان تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق ، والعادات ، والمشارب وان لم يكلفها بزائد عما كانت تؤديه لمن هو على شاكلتها — فكيف بها اذا حمَّلها ما لا طاقة لها به — لا ريب انها تستنكره ، وتستكبره — وكلما انكرته بعدت عن الميل اليه — وكلما تباعدت منه لكونه غريباً تقرب بعضها من بعض — فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة — وما كان ذلك بغريب !

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الامم ما بينها من الأختلاف في الجنسية، والمشرب فترى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر الزم من التحزب للجنس ، والمذهب ، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق اشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة

أبعد هـذا يأخذنا العجب اذا احسسنا بحركة فكرية في اغلب انحاء الشرق في هذه الايام[1] ولسوف تقوى تلك الحركة ، ويتسع نطاقها كلما تمادى الطامع ، واستطال بقوته على هضم حقوق الشرقيين في عقر دارهم ، وضيّق عليهم فيطلب كل واحد خلاصاً ، ويبغي نجاة ، وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة ، والسقم —

---

(١) هذا المقال لجمال الدين ردده في الاستانة سنة ١٣١١ هـ وسنة ١٨٩٤ م . وكان سبق وقاله في باريس سنة ١٣٠١ هـ سنة ١٨٨٤ م

وان العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى كان هذا امراً ينتظره المستبصرون — وان عمي عنه الطامع — وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان — على عاداته في ابنائه — بل يجري به القضاء الالهي من سنّة الله في خلقه — سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وادرك المتغلب منهم نكايته خصوصاً في المسلمين منهم — فمنهم ملوك انزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق في الأمرة حرموا حقوقهم ظلماً ، واغنياء امسوا فقراء الخ حتى لم تبق طبقة من الطبقات الاّ وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطماعهم — ها هي الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية بايدي ذوي المطامع فيها — حملوا الى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فخارت البابها ، والزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخفضوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة — ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع — فكانت الحركة العرابية العشواء فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد وظنوا بلوغ الارب ولكن اخطأ الظن وهمّوا بما لم ينالوا

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادىء النظر حتى خلفها حركة اخرى وفتح باب كان مسدوداً وقام قائم بدعوة لها المكانة الاولى في نفوس المسلمين

— دعوة المهدية — والمهدي فان خمدت هذه وستخمد ، سيعقبها من الحركات في مستقبل الايام ما لا يمكن اخمادها وتعميهم الحيرة فيعجزون عن تلافيهـا . نعم انهم غرسوا في مصر غرساً الا انهم سيجنون منه حنظلاً ، ويطعمون منه زقوماً — لا جرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنهـا لمن يغالي في طمعه ، ويتغلغل في حرصه ولو انهم تركوا البلاد لاهلها ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء ، والقادرين عليه ، العـارفين بطرق مدافعته به أو اقتنـاء فائدته — لحفظوا بذلك مصالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة بدون ان تزل بهم القدم

غير انهم ركبوا الشطط ، وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة ، وتشتت الاهواء — وهو انفـذ عواملهم ، وأقتلها ـ وما علموا انه وان كان ذريع الفتك الا انه سريع العطب — وما اسرع ان يتحول عند اشتداد الخطوب الى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتـدين — فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الامة وعوفي منه باقيهـا كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب غفلة للسالمين يحول بينهم وبين الاحساس بمـا اصاب اخوانهم = اما اذا عم الضرر فلا محالة يحيط بهم الضجر ويعزّ عليهم الصبر = فينـدفعون الى ما فيه خيرهم ولا خير فيه لغيرهم

ان الحالة السيئة التي اصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً . ان مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلاميـة ولانها باب الحرمين الشريفين = فان كان هذا الباب اميناً كانت خواطر المسلمين

مطمئنة على تلك البقاع = والاً اضطربت افكارهم ، وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من اركان الديانة الأسلامية = ان الخطر الذي الم بمصر نغرت له احشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين فان رابطتهم الملية مع رابطة اللسان اقوى من روابط الجنسية = وما دام القرآن يتلى بينهم ، ويعمل باحكامه وفي آياته ما لا يذهب على افهام قارئيه = فلن يستطيع الدهر ان يذلهم . ان الفجيعة بمصر حركت اشجاناً كانت كامنة ، وجددت احزاناً لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في ارواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم وهم من تذكار الماضي ، ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن ان يصير التنفس زفيراً = بل نفيراً عاماً = بل يكون صرخة تمزق مسامع من أصمه الطمع

ان اولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب — جيل من الناس — «الانكليز» لا كتائب له في فتوحاته الاً المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ولا اسنة يحفظ بها ما تمتد اليه يده الاً المراضاة — يظهر بصور مختلفة الالوان متقاربة الاشكال . كحافظ عروش الملوك ! والمدافع عن ممالكهم ! ومثبت مراكز الامراء ! ومسكن الفتن ! ومخلص الحكومات ؟ من غوائل العصيان ! وواقي مصالح المغلوبين ومؤمن حقوق الغريبين ! وحامي الاقليات الخ «مما سبق ذكره» فكان اول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا — ان لا يأتي من اعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكسر النظر ، وأن يتحاشى العنف مع

امة يشهد تاريخها بانها اذا حنقت خنقت وليس له ان يغترّ بعـدم مكنتهم وهو يعلم ان الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويًا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته، وان المغيظ لايبالي في الأيقاع بمناويه أسلم او عطب — فهو يضر ليضر وان مسه الضر

الاّ ان غشيـة النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت اسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهنـد الى مكة ومن مكة الى مصر والكرير الممتد من الاقاليم والممالك الاسلامية في الشرق — وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم — المسترسلين في جفوتهم

ان الزرايا التي حلت بأهم مواقع الشرق جدّدت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بحدودها — المتصلة بجامعة الاعتقـاد بين ساكنيها — فايقظت افكار العقلاء وحوّلت انظارهم لما سيكون من عاقبة امرهم مع ملاحظة العلل التي أدّت بهم الى ما هم فيه — فتقاربوا في النظر، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة علل الضعف، راجين ان يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين ان تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسنًا يسلكونه بوقاية الدين ، والشرف وان في الحاضر لنهزة تغتنم واليها بسطوا اكفهم ولا يخالونها تفوتهم ولئن فاتت فكم في الغيب من مثلها والى الله عاقبة الامور

اتى جمال الدين على بيان منهج « العروة الوثقى » واعاد ذكره لي عندما عزمت على اصدار جريدة «البيان»[1] في الاستانة عام (١٣١١هـ و١٨٩٣م)

---

(١) صدرت لنـا الارادة السنية اذ ذاك باصدار جريدة عربيـة في الاستانه فاصدرناها باسم « البيان » وما كادت تنتشر وتصل الى بعض انحاء الشرق مثل

وما احراه ان يكون دستوراً لكل جريدة شرقيـة حيث قال : ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيـان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط ، والضعف — وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت .

ويستتبع ذلك البحث في اصول الاسباب ، ومناشيء العلل التي ذهبت بهم الى جانب التفريط ، والبواعث التي دفعت بهم الى مهامه وعرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخرّيت ، وضل المرشد حتى لا يدري السالكون من اين تفجعهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة ! وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه الـتي شغلت اوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التي اخذت بعقول المنعمين حتى اورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء ادوائهم

الهند وتونس ، ومراكش ، والعراق وسوريا وغيرها حتى انهال طلب الاشتراك فيها من كل صوب وناحيه — مما ادهش المرحوم السلطان عبد الحميد ، وزاد في هواجسه واذا بالارادة السنية السلطانيه تصدر بتعطيل الجريدة لاجل غير مسمى — وقد علمنا اهم أسباب التعطيل وهو :

ان اكبر الجواسيس مع اعوان له — اخذوا يحللون كل كلمة وردت في الجريدة — فعثروا على هذه الجملة « من نوايانا الخدمة العامه والاخلاص الخ . والنية سـابقة العمل » فدسوا على ما قيل لنا لاحد المرتبين في المطبعه — ان يضع عوض كلمة (العمل) اليمن فجاءت العبارة (والنيـة سابقة اليمن) واستخلصوا من ذلك وافهموا السلطان اننا بهذه الجريدة سنسعى اولاً لتحرير اليمن واستقلالها ثم نسعى لاستقلال البلاد العربية الخ ماهنالك من الترّهات — وقد اثرت تلك الوشايه وتعطلت الجريدة فتأمل !

وظنوا ان زمان التدارك قد فات وان الغباية بلغت حدها

وتحاول اشراب الأفهام ان لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة — الى قطع دائرة عظيمة — تصورها يوجب فتور الهمم ، وانحطاط العزائم ، وان تخيّل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، وامام البصر — ويكفي في الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة

وان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الاصول التي كان عليها آباء الشرقيين واسلافهم — وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها — ولا ضرورة في ايجاد المنعة الى اجتماع كل الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى — ولا مرغم للشرقي ان يقف في بدايته موقف الاوربي في نهايته — بل ليس له ان يطلب ذلك ، وفيما مضى اصدق شاهد على ان من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقراً اعجزها واعوزها

وتنبه على ان التكافؤ في القوى الذاتية ، والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية — فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة الاّ وسيلة القوي لابتلاع الضعيف · وتجعل أهاب الوداد المرقش بالوان الملاطفة المدبج باشكال المجاملة — شفافاً — ينم عما وراءه · وتنقّب عن المسالك الدقيقة التي يسري بها الطامعون في دياجر الغفلات

وتهتم بدفع ما يرمي به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لا خبرة لهم بحالهم ، ولا وقوف على حقائق

امورهم ، وابطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على اصولهم التي فاز بها اباؤهم الاولون · ولا نتوانى في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الامم ، وتمكين الالفة في افرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والتنبيه الى السياسات التي تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين

✻ بحثه في التعصب الجنسي والتعصب الديني ✻

قال : ان استقراء حال الافراد من كل أمة ، واستطلاع اهوائها — يثبت لجلي النظر ودقيقه — وجود تعصب للجنس ، ونعرة عليه عند الاغلب منهم — وان المتعصب ليتيه بمفاخر بنيه ، ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب — ولا بحث في علة هذا الوجدان حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة — ان التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية — الاّ انه يبطل ظنهم ما نراه في حال طفل ولد في امة من الامم ثم نقل قبل التمييز الى ارض امة اخرى وربي فيها الى ان عقل — ولم يذكر له مولده فانا لا نرى في طبعه ميلاً اليه بل يكون خالي الذهن من قبله ، ويكون مع سائر الاقطار سواء — بل ربما كان آلف لمرباه واميل اليه — والطبيعي لا يتغير

ولهذا لا نذهب الى انه طبيعي ولكن قد يكون من الملكات العارضة

على الانفس ترسمها على الواحها الضرورات — فان الانسان في اي ارض كان — له حاجات جمة وفي افراده ميل الى الأختصاص، والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية زكية · وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها الى العدوان فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء البعض الآخر — فاضطروا بعد منازلة الشرور احقاباً طوالاً الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا الى الاجناس فتوزعوا امماً كالهندي ، والانكليزي ، والروسي، والتركماني ونحو ذالك ليكون كل قبيل منهم بقوة افراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه ، وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر — ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في اطواره — فذهبوا الى حد ان يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علماً بانه لا بد ان يكون جائراً اذا حكم — ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلاً تحس به النفوس وينفعل له القلب

فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية — تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب وتلجيء الضرورة للاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى ، وتتضائل لعظمته العظماء ، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام — وهو مبدأ الكل، وقهار السموات والارض، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ احكامه — مساهماً ، ومشاركاً للكافة في الاستكانة ، والرضوخ لاحكام احكم الحاكمين — فاذا اذعنت الانفس بوجود الحاكم الاعلى ، وايقنت بمشاركة القائم على احكامه لعامتهم في الرضوخ لما أمر به — اطمأنت الانفس في حفظ الحق ودفع الشر

الى صاحب هذه السلطة المقدسة، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة اليها فيمحى اثرها من النفوس والحكم لله العلي الكبير .

هذا هو السر في اعراض المسلمين على اختلاف اقطارهم عن اعتبار الجنسيات ، ورفضهم اي نوع من انواع العصبيات ما عدا عصبتهم الاسلامية فان المتدين بالدين الاسلامي متى رسخ فيه اعتقاده — يلهو عن جنسه ، وشعبه ، ويلتفت ، ويعرض عن الرابطة الخاصة الى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد . لان الدين الاسلامي لم يكن اصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق فقط ، وملاحظة احوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الادني الى عالم اعلى — بل كما كانت كافلة لهذا — جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئيها ، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، واقامة الحدود ، وتعيين شروطها حتى لا يكون القابض على زمامها الا من اشد الناس خضوعاً لها — ولن ينالها بوراثة ، ولا امتياز في جنس ، او قبيلة ، او قوة بدنية ، او ثروة مالية — وانما ينالها بالوقوف عند احكام الشريعة ، والقدرة على تنفيذها ، ورضاء الامة . فيكون الوازع عند المسلمين في الحقيقة — شريعتهم المقدسة الالهية التي لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الامة -- وليس للوازع ادنى امتياز عنهم الا لكونه احرصهم على حفظ الشريعة والدفع عنها — وكل فخار تكسبه الانساب ، وكل امتياز تفيده الاحساب لم يجعل له الشارع اثراً في وقاية الحقوق ، وحماية الارواح ، والاموال ، والاعراض — بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهي

ممقوتة على لسان الشارع — والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم فقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية» . والاحاديث النبوية ، والآيات المنزلة متضافرة على هذا — ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى «اتباع الشريعة» — ان اكرمكم عند الله اتقاكم

ومن ثم قام بامر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الاجيال من لا شرف له في جنسه ، ولا امتياز له في قبيله ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه ، وما رفعه الى منصة الحكم الا خضوعه للشرع ، وعنايته بالمحافظة عليه

وان بسطة الملك في الوازعين من المسلمين كان الله يسديها اليهم على حسب امتثالهم للاحكام الالهيه ، واهتدائهم بهديها ، وتجردهم عن الاعتلاء الشخصي — وكلما اراد الوازع ان يختص نفسه بما يفوق غيره في ابهة ورفاهية معيشة ، وان يستأثر على المحكومين بحظ زائد — رجعت الاجناس الى تعصبها ، ووقع الاختلاف ، وانقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ما ارشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب ، وعصبات الاجناس وانما ينظرون الى جامعة الدين — لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لرئاسة الافغاني ولا اشمئزاز عند احد منهم ولا انقباض . وان المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من اشكالها ، وانتقالها من قبيل الى قبيل ما دام صاحب الحكم حافظاً

لشأن الشريعة ذاهباً مذهبها . نعم اذا شذّ أو حاد في سيره عنهـا ، وطلب الأ مرة بما ليس من حقه— انصدعت منه القـلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس ، واصبح وان كان وطنياً فيهم اشنع حالاً من الاجنبي عنهم

ان المسلمين اختصوا من بين ارباب الاديان — بالتـأثر ، والاسف عندما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها

ولو ان حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من اي جنس كان اتّبع الاوامر الالهية، وثابر على رعايتها، واخذ الناس بحدودها، وضرب بهم مع المحكومين في الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة — لأ مكنه ان يحوز بسطة في الملك ، وعظمة في السلطان ، وان ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين — ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ، ولا يحتاج الى بذل النفقـات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة اعوان التمدن ، وانصار الحرية ؟ ! ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة — ومن سيره هذا تبعث القوة ، وتتجدد لوازم المنعة

اكرر القول بان السبب هو ان الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الاديان الى الاخرة فقط ولكن مع ذلك اتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم ، وما يكسبهم السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة — وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي «بسعادة الدارين» — وجاء بالمساواة في احكامه

بين الاجناس المتباينة والامم المختلفة

ان بعض المسلمين يعزُّ عليهم الصبر احيــاناً ، ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم، وخروجهم في معاملتهم عن اصول العدالة الشرعية فيلجاؤن للدخول تحت سلطة اجنبية ، ويسعون اليها منوّمين ، مغرورين — على ان الندم يأخذ بارواحهم عند اول خطوة يخطونهــا في هذا الطريق — فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا احس بالألم رجع واسترجع . وان ما يعرض على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشأوه قصور الوازعين ، وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليهــا الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن مناهج اسلافهم الاقدمين فان منــابذة الاصول الثابتة ، والتحول عن المناهج المألوفة اشد ما يكون ضررهما بالسلطة العليا —فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم، وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان الاّ وقد اتاهم الله بسطة في الملك ، الحقهم في العزة بالراشدين ائمة الدين

❋ جمل مختصرة وامثال حكمية (١) ❋

كان يمين جمال الدين اذا شاء ان يقسم قوله: وعزة الحق وسر العدل، ومن اقواله . الحقائق لا تزول بالاوهام . الجبن لا يغني ، والشجاعة لا تفقر . من دواعي الذل المسكنة . والسؤدد مع عزة النفس

---

(١) لكل جملة ، او مثل سبب دعى اليه في حينه — ولو عمدنا الى ذكر الاسباب لتضخم الكتاب جداً ، لذلك ارسلنا اكثرها مجردة عن اسبابها

الامة ارضها الامل وبنيانها العمل · ساقط الهمة من علم موقع الفضيلة ، وصدق الدعوة — ولم يبادر اليهما — بل ينتظر ان يكون تابعاً ومقلداً لغيره فيهما · كثرة النصراء لداع ، أو لدعوة — عن غير علم منهم بصحة الدعوى قلّة ومذلة — وقليل من النصراء لدعوة عن علم — مكانة واستطالة · من سفه الراي ان يعتقد الرجل افضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط · ربما افادت السنون تجاربا · الاقدمية لا تجدي الافضلية غالباً · الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل · اثقل الاعباء محاولة الحسود ستر فضل المحسود · أنمُّ شيء على الانسان فضيلته ، ورذيلته · من توهم الكمال تخونه الاعمال · العاقل من اعتقد بعجزه ثم سعى للعمل · الاعتماد على النفس ، والتوكل من اقوى عوامل الظفر · ليس في الانسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية — فكل حركة يفعلها الانسان لا يعلم غايتها تحكم عليه بالجهل · قضايا الجهل في الانسان اكثر من قضايا علمه · وعمر الانسان اقصر من ان ينله ما يجب ان يعلمه · النظام ما انتظم به شمل عالم متفرق يصرفه لوجهة نافعه · لو لم يتنازع الخلق على الحق لما كان ثمة باطل · القوة صنم مرهوب · والضعف شبح مربوب · لا يؤمن بربوبية القوة الاّ شبح الضعف · احقر الناس من يطلب موت الناس ليحيا · واعظمهم من يستميت ليحيي ولو واحداً من الناس · عظمة الملك لا تكون بالتيجان ووقار العلم لا يكون بالطيلسان · التسفل ايسر من الترفع · ميسور للانسان فعل الاسود وممتنع على الاسود عمل الانسان · الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان · الاكفاء في العصر لا يكونون على الغالب اصدقاء

الفقر عدوُّ الفضيلة.والثراء نصير الرذيلة . لا خير في حق لا تدعمه قوة . وبئس الباطل المنصور . تطويل المقدمات دليل على سقم النتائج . حقيقة الأنفة ، وعزة النفس عدم الاتكال على الناس . الحجر خير من بشر يقعد لغير علة ويحتاج بشراً مثله . من رهب الملوك لغير جريرة فهو الصعلوك . لا تطيب نفس الانسان بالتواضع الاَّ اذا علم بعض العلم . علماء العصر يظهرهم العصر . وقادة الافكار تبرزهم الاخطار . الافراط في التواضع دليل على الادعاء . قلة الكلام لا تكون في الغالب دليلا على الكمال . ليس في كل اختصار بلاغ . صاحب الحق قوي ولو كان ضعيفاً . والمبطل ضعيف ولو كان قوياً . صاحب القلم لا يحتاج الى عصا . الصامت عن حقه محروم . من فتح له الباب ولم يدخل اولى بالطرد . صاحب الحاجة اذا لم ينطق بحاجته اولى بالخرس . قلما ياتي الحق بدون عناء . لذة استرداد الحق لا تضارعها الهيبة والتهيب . الانسان من وفر نفسه وعرف حق غيره من جنسه . لا خير في انسان يفضله الحيوان . بعض الخلق يرضون بالموت خوف الموت ويلبسون لباس الذل خوف الذل . الأُمة بافرادها والشمم بالتجرد عن النفع الذاتي وطلبه في النفع العام . ما مات احد في حب أُمة الاَّ واحيته . من احب الحياة فليمت في سبيل حياة أُمته . لا أُمة بدون اخلاق ولا اخلاق بغير عقيدة ولا عقيدة بغير فهم . خير موازين الامم اخلاقها . سؤدد ألامة معقود بقادتها . خير الاخلاق انكار الذات . اعظم دلائل الانكار على الذات الاعمال . الف قول لا يساوي في الميزان عملا واحداً

طلاب الحكمة كثيرون ولكن ما اقل العاملين . تقل العلماء متى كثر

المتطفلون والمدّعون · اعظم دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المألوف اذا تحقق بطلانه · العلماء والعقلاء لا يصح ان يكونوا اكثرية في محيطهم · حكيمان عاقلان في امة مجموعها مليون خير من الف متعاقل ومدعي حكمة فيها · ما استحكم الجهل الا وتفرقت الكلمة ، ولا كثر الادعاء المجرد بالصلاح والاصلاح الاّ وعم الفساد وشمل · وضيع الحسب يستطيل بالقليل من المال على غيره · الاصل عون والعرق جساس · العلم الصحيح نسب صحيح بل وراثة لنبوة · الراحة بالرضى والنصب بالطموح · اسراف الانسان بصحته اضرّ من اسرافه بثروته · اذا لم تساوِ الطبيعة بين الرجل والمرأة بالتكوين فعبثاً نحاول مساواتها بالاقاويل · لا مانع من السفور اذا لم يتخذ مطية للفجور · قوة المرأة بضعفها · وباء الغرض افتك من وباء المرض خير ما يحتاجه الشرق من الملوك — القوي العادل — ولا خير في العادل الضعيف كما انه لا خير في القوي الظالم · شر ادواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف فقد اتفقوا على ان لا يتفقوا · الاستقلال امل يتبعه عمل — وحمل النفس على المكاره ، واقتحام المهالك والمصاعب خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الابطال · ترك ما كان سبباً للصعود يؤدي الى الهبوط والسقوط · اذا سادت الجهال ساءت الاحوال اذا خلا الميدان من العقلاء تسابقت الجهلاء · العالم الفقير غني بعلمه ، والغني الجاهل فقير بجهله · الاسد لا يعدم فريسة حيثما ذهب · تبلغ المرأة بضعفها ما لا يبلغه الرجل بقوته · الحرية تؤخذ ولا تعطى · والاستقلال لا ينال بالاقوال · طالب الموت في سبيل حياة الوطن اما ان يموت بطلاً شهيداً

واما ان يعيش سيداً عزيزاً . من اعتقد ان لا حياة الاّ هذه الفانية فقد خسر الاولى والثانية . اذا كانت حاجة الكون للرجل مرة فحاجته الى المرأة كرة . عمل واحد تختص وتقوم به النساء تعجز عنه رجال الغبراء التكلف للسجع ينفر منه الطبع ويحسن وقعه اذا جاء عفواً . اشد وطأة على الانسان من غربة اليد والوجه واللسان ان يصبح لحرف الحاء والدهر افرنجي . عدم التشاكل من اعقد المشاكل . لا يتم عمل والتآلف مفقود . ولا يكون فشل والاتحاد موجود : يئس الانسان من ان يجد له صديقاً في الحياة كيئس الغريق من النجاة . من ثابر وكابر على تجربة الضار اولى ان يتخذ عبرة . بالضغط والتضييق تلتحم الاجزاء المبعثرة . الازمة تلد الهمة . انهزام العاقل من امام الجهلاء اولى من الظفر بهم . بائع الدر وبائع الفحم يتساويان بالاسم ويختلفان بقدر المباع . الجاهل الحي ميت والعالم الميت حي . كيف لا يفضل اضعف حيوان ناهق يذكر الله انساناً ناطقاً ينكر وجود الله (١)

كيف يجراء على انكار المعبود واجب الوجود من يأ كله الدود . اذا لم يتعظ الانسان بما فوقه من اجرام فليتعظ بما تحته من رفاة الاجسام . عدَّ

---

(١) جاء لزيارة السيد جمال الدين رجل متحزلق متفلسف — وتناول الحديث قائلا انه قرأ كتب الفلاسفة وثبت عنده ان الله غير موجود ولا يعتقد بوجوده الا الحيوان الى آخر ما هنالك من ضروب الهذيان فضاق صدر السيد ولم يجبه وقال للحاضرين هلموا نذهب الى الحديقة وكان فيها انواع من الطيور والدجاج وبينهم ديك اشقر كبير جميل اخذ يوالي صياحه ويذكر اخيراً (الله الله) بنطق واضح تمام الوضوح عند ذلك قال جمال الدين المثل المحرر : كيف لا يفضل الخ فخجل الرجل وانسل من باب الحديقة من غير ان يودع

الناس معطي الذهب وهو من التراب ثواباً — اسراف في الثواب · التقي ، والورع · والصالح من عبد الله لا خوفاً من جحيمه ولا طمعاً في جنته بل لكونه آله يستحق العبادة والتقديس · مهد جبروتية فرعونية تساق بسياسة بقرونية · أحقر صناعة لنحّات انفع من تقعر النحاة

كان مقر الفقه في الراس والصدر ثم انحدر الى الجبة والسطر · القبة الجوفاء لا ترجع الاّ الصدى · عمامة كالبرج وجبة كالخرج · جمود بعض المتعممين اضر بالاسلام والمسلمين · كان المقصود من النحو [1] ان يكون آلة فصيّره جمود النحاة غاية · ولم يستعض المتأخرون في اغلب مايكتبون بسوى احرف العلة والاجوف والمهموز وفاتهم الجزالة والسلامة · من عجز عن اصلاح نفسه كيف يكون مصلحاً لغيره · العصامي قد يكون لمن يخلفه عظامياً والعظامي فقط يبقى وارثاً للعظام · اعتماد المظلوم على وعود الظالم

---

(١) ذكرت للسيد جمال الدين ما للاستاذ العلامة الفاضل المرحوم الحكيم كرنيليوس فان ديك من الايادي البيضاء على اهل بلادنا بل وعلى الناطقين بالضاد بما الفه من الكتب الفريدة المفيدة باللسان العربي وما ترك من تلاميذه من العلماء في البلاد — واعدت على مسمع جمال الدين ما ذكره لي فان ديك وهو على التقريب قال : ترك لنا الاسلاف واعني جهابذة العرب كنوزاً من العلوم والفنون اودعوها في عمارة كبيرة وأوصدوها وتركوا لنا مفتاحها الصرف والنحو · فأخذنا المفتاح واعتقدنا انه جميع الميراث ولا سواه واخذ كل منا بدوره يبردخ ذلك المفتاح ولم يخطر ببال احدنا ان يفتح به ذلك الباب ولم نزل الى اليوم على هذه الحال حتى انبرى المفتاح وما عاد يصلح ان يفتح به ذلك الباب انتهى — فاستحسن جمال الدين ذلك المثل جد الاستحسان واستمطر للحكيم صيب الرحمة والغفران — وقال عمل فان ديك فنفع وقال فصدق وهذا هو المثل الصالح والقدوة الحسنه

بالكلام اقتل له من المدفع والحسام · أُمة ثبتت في جهادها لاخذ الحق ساعة خير لها من الحياة في الذل الى قيام الساعة · اذا لم تتذرع الأمة بشكواهـا من ظالميها بغير الكلام فاحكم عليها بانها أضلّ من الأنعام · أمة تطعن حاكمها سرًّا وتعبده جهراً لا تستحق الحياة · الايمان واليقين ليس معناهما عبـادة رؤساء الدين · مقبرة العلوم خزانات الكتب · العلم الحي في الصدر الحيّ · شرّ الازمنة ان يتبجح الجاهل ويسكت العاقل · كم من منتصر لمظلوم وقع في شرك الظالم · المظلوم حيٌّ ولو مات والظالم ميت ولو عاش · من تولّى زمام امور الجمهور لا غنى له عن مرآة وكتاب تاريخ صحيح · فكما ان المرآة تريه شخصه على علاته هكذا التاريخ ينقل اعماله في حياته · كثير من الاباء يستميتون ليحيوا ابناءهم وقليل من الابناء من لا يستثقلون طول حيـاتهم ويستعجلون موتهم

مهابة تصدر عن كرسي الحاكم لا عن عدله وفضائله اقرب للسخرية منها للاحترام · اكثر امراء الشرق اذا القي احدهم في اضيق جب من الاستعباد وحفظت له القابه الضخمة مجردةً حسبه جنة عرضها السموات والارض · المرأة اذا اتخذت لفضلها شريكة للحياة نعمت الشركة وطابت الحياة — واذا اتخذت لمحض الشهوات كانت شركاً للمات · حمَّال الحطب للاتجـار انفع من حمَّال الذهب للادخار · عيب الكبير كبير والجبن اقبح عيوب الملوك يحتاج الملك الجبان للصعلوك الشجاع · تحتجب الحقايق عن الملوك بقـدر تحجبهم · العاقل من مثل في نفسه مثال ما استحسن من غيره · اقرب موارد العـدل القياس على النفس · الدين رادع عن رضى في السر ·

والسلطان وازع في الجهر بالقهر · من خبثت نفسه لان ملمسه ، وكثر ختله وخداعه · الشباب جسر من جنون لا غنى للعقلاء من المرور عليه · اعظم دليل على وجود قوة قاهرة فوق ارادة البشر ـ تقوض عروش الملوك قهراً ، وموت نطس الاطباء رغماً ، وعجز الحكماء فعلاً · النعيم والجحيم يتجليان للانسان في صور اعماله فيتنعم بالحسن منها ويتألم من القبيح · كم من غني محسود بمظهره فقير مقهور في حقيقة امره · السعادة في الدنيا ضالة البشر — واذا وجدها احد قلما يدل عليها ، ولا اظنها من موجودات هذا العالم الفاني · ربما تكون القناعة احدى اسباب السعادة ولكن ليس لها حد معروف · ولا شكل موصوف فالانسان مسرف في كل شيء · لذلك كثر بين الناس المفرطون وقلّ المعتدلون · يكفر الانسان في كل شيء لا يرضاه ويعبد كل شيء يهواه · من اعظم مجالي الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة والفضائل بلا شك هيئات متوسطة بين خلتين ناقصتين · الاحزاب السياسية نعم الدواء ولكنها في الشرق تنقلب غالباً الى شر الداء · يتألف الحزب في الشرق ويعلن على الامة غايات ومطالب شريفة فيناصرونه ويكون الكل له اصدقاء في البداية ثم تظهر الاثرة والانانية وحب الذات فينفرط عقد الحزب ويصير الكل له اعداء في النهاية · قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار [1]

---

(١) زار جمال الدين يوماً احد القضاة ويسمى (نائب) كان في عكا واخر قاضي (نائب) في احدى القضوات و كان القانون العثماني اذ ذاك يقضي بان يتولى القاضي الشرعي رياسة محكمة الحقوق مع المحكمة الشرعية ومدة مأموريته سنتان ينفصل عند انقضائها وفي الاقضية كان القاضي يتولى رياسة محكمة الحقوق والجزاء والتجارة والاجراء — واخذ كل منهما يشكو قلة راتبه وهو تقريباً اثني عشر ليرة ونصف عثمانية

اذا لم تنصف الحكومة القضاة احرى بها ان تجعل الذئاب رعاة . اذا كان القاضي يتظلم فكيف بالمظلوم لا يتألم . انصاف القاضي قبل انصاف المتقاضي .

قرقعة السيوف بغير فتك ، والتبختر بلامة الحرب ابّان السلم — من الادلة على الجبن في مواطن القتال . قبول الدخلاء والمتطوعة ، في الجيش مفسدة للنظام ومن عوامل الانهزام . قلما ينهزم جيش يتحلى قائده بالصبر والثبات ،واقتحام الموت قبل الجند . القائد من قاد بافعاله لا بأوامره واقواله . الامير بافعاله خير من الأمير بأمواله . الاديب في الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً . بينما الادباء في حياتهم افقر الفقراء فاذا هم بعد الموت يصيرون بالرثاء وحفلات التأبين اغنى الاغنياء . نهض الغرب بالعلم والعمل وانحط الشرق بالجهل والكسل . التقليد بنافع ثبتت منفعته اولى من التقيد بمألوف ثبتت مضرته . ثمرة العقول لا تجتنى الاّ باطلاقها من قيود الاوهام . من قال ان الدين يأمر بالعسر دون اليسر وبالضّار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف فهو كذاب . عماء البصيرة أضرّ من عماء البصر . كم من اعمى نبغ — حسده ويحسده المبصرون . وكم من ابكم باشاراته افصح من عيّ بكلماته . الهيئات

شهريا ويشكوا من اضطراره في كل سنتين للانتقال مع عياله ومجيئه للاستانة ومكثه فيها حتى ينال نيابة ثانية . واذ دخل رجل محترم حسن الهيئة واللباس فاحتفل به السيد وعرّفه للحاضرين وانه قاضي في محكمة طنطا وسأله عن حالة القضاء ورواتب القضاة فامتدح الرجل سير القضاء الوطني المصري وان الراتب كافٍ وافٍ . فتبسم جمال الدين وقال : قاضٍ في الجنة (واشار الى القاضي المصري) وقاضيان في النار (واشار الى من كان يشكو من قضاة الاتراك

نفي الاجتماع حكومية كانت او غير حكومية انما هي خليط من افراد يجب مراعاة التشاكل فيها ، والتجانس ، والاً فسد الخليط · ولا يجتنى الشهد من الحنظل · المعوّج الظاهر من الناس ، اقل ضرراً من المتلبس بالاستقامة · من ظن انه خدع الناس بالباطل يكون اول مخدوع · الاعمى من يظن ان جميع الناس بدون ابصار · لولا الزرع ، ولولا الضرع لما كان سرف الاغنياء ولا ترف الامراء · موقف الزرّاع والصنّاع من الحضارة انفع من موقف الأمارة · رأينا شعباً يعيش بدون ملك ، ولكن ما رأينا ملكاً يعيش بدون شعب · حاجة الملك الى ألامة اشد من حاجة ألامة الى ملك · للعلم قشور ولباب · فالواقف على القشور يغرق في بحر الغرور · المغرور من لا يرضى الاً عن نفسه ، وعمّا يصدر عنه قولا كان أو عملاً · المبتدي في اوليات العلوم يظن انه تبحّر فيها وانتهى — والراسخ المحقق فيعتقد انه ما زال في الابتدا · محدث النعمة بالمال يستعرضه في كل مكان ومحدث النعمة بالعلم يلقيه على كل انسان · اظهر الاداب واليقها بالعلماء ، والمتعلمين عدم قطع الحديث على المتكلم ، وتركه يتم ما يريد ان يرويه من غير ان يسبقه أليه ولو كان من منسياته · لو يحاسب الانسان نفسه كما يحاسب غيره لقل خطأه وقرب من الكمال · من الغرائب في طبائع الانسان انه اذا رضي استحسن القبيح ، واستسهل الصعب — واذا غضب عكس الامر فيستقبح الحسن ويستصعب السهل فلو مزج الانسان ساعة رضاه في ساعة غضبه لوقع على الهيئة المتوسطة وفاز بالفضيلة · قيد الاغلال اهون من قيد العقول بالاوهام · العقل اشرف مخلوق فهو عالم الصنع والابداع ، ولا معطل له الاً

الوهم ولا يقعده عن عمله الا الجبن وهو الذي يخيل المفقود موجوداً والقريب بعيداً . كل عناصر الوجود في هذا العالم الفاني خاضعة للعقل المطلق الانساني . فكل مستحيل اليوم في الطب والصناعة سوف يكون غداً ممكناً . الشركة شرك فاذا لم يصطاد الشركاء به غيرهم اصطادوا بعضهم

الحقيقة ما ثبتت وتغلبت على الاوهام . المصلح الزعيم من لا يفرّ ولا يتضعضع من أذية اللئام . سجن الظالمين للمصلح « رياضة » ونفيهم له «سياحة » وقتلهم له « الشهادة » وهي اسمى المراتب . الفصل في نزاع نساء البيت ينغص الحياة . اعدل قضاء في الدنيا يعجز عن ارضاء متخاصمتين من النساء على رجل او شيء . اعقل الآباء من لا يساكن اولاده بعد الزواج ويستعيض بالتزاور عن التجاور . الأم تسعى وتتصور من وراء زواج ولدها النعيم ، فان زوجته ترى نفسها في الجحيم . قل من رأيت من الرجال من يعرف الهناءَ بغير النساء . وندر منهم من لا ينسب شقاءه اليهن . والاقرب للصواب ان يقال فيهن ما قيل في الاولاد — وجودهم بلاء وبلاهم بلاء — القوي من الشجر لا يعجل بالثمر . ينعوج الشرقي بانعواج حاكمه ويستقيم اذا هو استقام . لا ينطبق على الشرقيين قول = مثلما تكونوا يولى عليكم = بل حق عليهم قول « مثلما يولى عليكم تكونوا » . الأجرب يعدي السليم ، والمرتكب يعدي المستقيم . من الصعب وضع حد للعفة وحصرها بداية وانتهاءً فالعفيف في المادّيات مثلاً اذا عفّ عن اخذ الف دينار كيف يكون موقفه عند المليون اذا عرض عليه . اول صفة رافقت الانسان الأول « الطمع » وفيه العناء وليس له حد . « والقناعة » وفيها

المناء وحدها وان كان كما قالوا الاكتفاء بالموجود وترك التشوق للمفقود. ولكن لا يعمل لها احد · العربية ومدّعها البدو في البراري والقفار وضيّقها الحضر في المدن والامصار · خذ القياس ودع الناس · لا يحق للسماعي والقياسي ان يمنع احدهما الاخر · اذا جاز بالسماعي ان ينحرف لمَ لا يجوز بالقياس ان « ينعوج » · العلم قد يكون في الاحداث · ولكن التجارب لا تكون الاّ في الشيوخ · بالعدل والمساواة الوفاق والوئام وبالأثرة والانانية النفرة والخصام · ما اقل المجتهدون في السلف وما اكثرهم في الخلف [1] من الادواء والامراض ما هي عند اكثر الناس نعمة — تفوق نعمة العافية [2]

---

(١) قال شارحاً : كان علماء السلف والائمة منهم لا يجرأون على القول بسنة من سنن الرسول (ص·ع) الاّ بعد التدقيق والنظر في الاجماع وتحري الثقـاة من الرواة الخ · — اما الجهلاء من المشايخ المتعممين اليوم فتراهم يتهجمون على التحريم للحلال والتحليل للحرام بغير نص — وقد جهلوا ان مقام التحريم ما جاز لصاحب الشرع الرسول الاعظم (صلعم) الاّ بتنزيل « لقوله تعالى يا ايها النبيّ لم تحرم ما احلّ الله الاية » · قال : وقد رأيت منذ ايام شيخاً بعمامة كالبرج وجبّة كالخرج آخذاً بتلابيب رجل (افندي) قرب جامع السليمانية في الاستانة وهو يهزّه ويقول له : ان لبسك هذا القميص حرام و كفر — لانه صنع الافرنج الكفار — قال جمال الدين : فما وسعني الاّ ان تقدمت الى ذلك الشيخ الجاهل وقلت له : ياشيخ ان عمامتك وجبتك، وعمامتي وجبتي هم من صنع الافرنج — فلماذا لا تخلع عمامتك وترمي بجبتك اولا ثم تعمد الى قميص الرجل فتشلحه اياه — وكم من امثال هذا الشيخ الجاهل في هذه الامـة بهذه الايام لا حول ولا قوة الا بالله

(٢) قال في مقدمة تلك الامراض النفسية — مرض جمع الاموال — اذ يعاني جامعها من المشاق اشدها، ويتحمل من المخاطر والمهالك اصعبها — وكثيراً ما اتخـذ لجمعها اسقط الوسائل واسفلها — حتى اذا تسنّى له جمعها وكنزها — ربما خانته العافية.

﴿ عبرة وذكرى ﴾

كنا ذكرنا في مقال سبق ان السيد جمال الدين بحث عن مجموعة « العروة الوثقى » فوجدها واعطاني نسخة وبعد مدة استرجع ما اعطاني واستبدلها بالتي كان ابقاها عنده وقال :

« يا شيخ بني مخزوم ! انك لتجد في هذه المجموعة وعلى هامشها اشارات فكل مقال اشرت اليه اضممه واثبته في « الخاطرات » فذكرها لا يخلو من العبرة »

فوجدت اكثر ما اشار اليه الاستاذ يتعلق في احوال مصر، والسودان وفتنة المهدي السوداني محمد احمد فقلت : يا استاذ ! ان مسئلة المهدي قد انتهى امرها وتشتت شمل اعوانه ومات الرجل — ورسخ قدم الانكليز في السودان وفي مصر

قال : نعم ووضعت يدها على ملك السودان وجعلت قاعدة الملك « الخرطوم » كل ذلك ثمن دم «غوردن باشا» ودية قتله · وما يدريك انه في الآتي من الزمن سيقتل انكليزي آخر في مصر وتأخذ انكلترا ديته ملكاً

فلا يستطيع تناول غذاء لذيذ او يصرعه الشح فيمنعه من بسيط المأكل والملبس — وهو في كل هذا البلاء يرى في جمعه المال و كنزه نعمة كبرى — و كثيراً ما كان المال سبباً لقتل جامعه — وهكذا القول في البنين (الاولاد) فان الأبوين يذوقان في تربيتهم الامرّين ويستسهلون في سبيل راحتهم كل صعب ويلذّ لهم العراء اذا كسوهم، والجوع اذا اطعموهم، والسهر اذا اناموهم حتى اذا كبروا استثقل بعضهم وجود الابوين واستطولوا حياتهما — فسبحان من أودع في كل قلب ما اشغله ·

آخر وخزائن من المال

فمسئلة السودان ، ومسئلة مصر — هما في الدور الاول من الادوار العديدة التي اعدّتها الانكليز لابتلاع تلك الاصقاع ولسوف تتحول في مصر احوال ، وتظهر اشكال ، وتتلون السياسة البريتانيـة بالوان يندهش منها الانسان ـ وما كان في السياسة من الاصول (خصوصاً في تقاليد الانكليز) وسياستهم فمن الصعب الرجوع عنه بسهولة · هي ترسم اليوم خططاً لأمر سوف تبتدئ فيه بعـد جيل — ودخولها لمصر لم يكن ابن ذاك العام بل هو نتيجة مساعي طويلة ، ودسائس دقيقة ، واعمال افكار من اعوام مديدة — وعملا باشارته بدأت باثبات ما اشار اليه من المقالات ومنها

❋ التهتك في الحيلة ❋

اشتهرت دولة الانكليز بخلابة الشرقيين ، واخذهم بالرويغـة حتى وضحت سبلها من كثرة ما طرقت وانقلب وجه الحيلة فظهر مستورها — من يوم كان اللورد دوفرين في القاهرة لكشف حالة مصر وتقرير نظام لحكومتها «كما يزعمون» — لوّح للحكومة بترك السودان ، ثم جاء من بعده الماجور بارنغ والزم الحكومة بالتنازل عن حقها فيه — لانه ربما يكلفها نفقات وافرة ليس لها عوض من الفـائدة · فامتثلت الحكومة امر غالبيها وهمت باخلائه · وكان اول عملها ان صدرت اوامر الدولة البريطانية بتعيين الجنرال غوردون للقيام بتخلية السودان فتكون المنة على السودانيين في استقلالهم «الموهوم» لدولة بريطانيا — وتكون الصلة بينهم وبينها خاصة —

وما وصل خرطوم الا واقام محمد احمد اميراً على كوردوفان · وأخذ في ارجاع الولايات السودانية لملوكها الاقدمين ، أو ابنائهم · ولم يكن القصد من هذه الزغزغة الاّ ان يكون السودان بعد تنازل المصريين — سيباً ، أو فراطة — لا حق لأحد فيه ، فيأخذه السابق اليه بدون ان تعترض فيه المشاكل السياسية ليتيسر للانكليز عاجلاً او آجلاً ان يستولوا عليه ، وينزعوه من ايدي امرائه الصغار ، ويكون فيه بعض العوض عن مصر لو صدتهم مقاومة الدول عنها ، أو قوة غيرها كما اشرنا الى ذلك · وفي هذه الازمان · (اي سنة ١٨٨٤) اخرجت انكلترا من جرابها العوبة اخرى ، ومثلت من ضيق غوردون سبباً عظيماً لتمهيد طريق يوصل الجيوش لتخليصه · فاصدرت اوامرها الى احد المصانع الكبيرة باعداد الآلات وتعيين المهندسين والصناع ليسيروا الى سواحل البحر الاحمر ، ويباشروا مد سكة حديد من سواكن الى بربر — كما ذكرت ذلك جريدة البال مال كازيت — وتزعم ان لا باعث لها على ذلك — الاّ الرغبة في تخليص كوردون — ان كان كوردون في خطر ، وتحتاج في انقاذه الى ارسال الجيوش — فهل يبقى حياً الى ان تمد سكة حديد ، وتخرق الجبال ، والأودية وتسير عليها العربات حاملة للجيوش — مع ان الاخبار قد اشارت الى وقوعه اسيراً ، أو هلاكه قتيلاً

اذا فرضنا هلاك كوردون (كما هو الغالب) أو خلاصه — فهل يهدم دولة انكلترا طريق الحديد ، وتنقض بناءها بعد انفاق النفقات الواسعة عليها ، أو تتبرع بهبتها للحكومة المصرية سخاءً ، وجوداً — كلا والله · لا

هذا — ولا ذاك — ولكن اخذت اقرب الطريقين للاستيلاء على السودان — فان مد الطريق الحديدية في تلك الجهة — يسهّل لها الولاية على السودان الشرقي . فاذا استقرّ لها الأمر فيه وصلته بالغربي ، ولم تلاق في ذلك صعوبة — على انها في خلال المدة بعد مد السكة تستفيد اعظم فائدة جوهرية من مواصلة البلاد السودانية — فانها تفتح للتجارة الانكليزية باباً ، وتغلق بصفته باب المنفعة عن مصر — فتأتي بضائع البز ، وما يحتاجه السودانيون من انكلترا الى سواكن — ومن سواكن تذهب الى السودان بدون ان تصل الى ايدي المصريين ، وتنقل الاصناف التجارية السودانية من داخل السودان الى بربر ثم تصل الى سواكن — وتصدر الى اوروبا ولا يراها مصري — فاذا تولى الانكليز مصر (لا قدر الله) حرموا الوطنين من الاشتراك معهم في تجارة السودان — وهي من اغزر ينابيع ثروتهم التجارية . واذا الجأتهم الحوادث للجلاء عنها — فقد اختصوا بمادة المنفعة التي يمكن ان تأتي من اقطار السودان . وبذلك تتقوض كثير من بيوت التجارة في الاقطار المصرية ، ويعدم بخرابها الاف مؤلفة من النفوس

بعد ان كتبت هذه المقالة — توقفت عن متابعة نقل كلما اشار اليه جمال الدين من المقالات في «العروة الوثقى» اذ رأيت كلها أو جلّها تأتي على ذكر حوادث مضت — وفيها تفنيد ، وتقبيح لاعمال انكلترا خصوصاً في مصر واحتلالها لذلك القطر ، وما اتاه عمال الانكليز مثل «كلفورد لويد» وغيره ، من الخطيئات ، والاعمال الخ

فاتيت يوماً لجمال الدين وكاشفته بقولي : هذه المقالة نقلتها الى «الخاطرات» حسب اشارتك ، ولكن توقفت عن نقل ما تبقى مما اشرت اليه ، لأنني ما رأيت في نقل حوادث جرت ، ومضت ، وانقضى امرها — وكاد الناس ان ينسوها — ولا فائدة للمصريين ، أو للشرقيين من اعادة ذكرها . ويكفي ان الاستاذ أوقدها جذوة على الانكليز في كل مقال وفي كل مجلس — وحشد لهم في صدور ، وافئدة الشرقيين جيوش الضغينة والبغضاء ، حتى كاد الاستاذ ان يحرم الانكليز من كل مزايا الانسانية ، والعدل والنصفة ، بل الصق فيهم كل شنيعة من ظلم ، وختل ومكر — وذلك على غير عادة الاستاذ — اذ رأيناه يتتبع حسنات الامم وسيآتهم وكذلك الاشخاص — حتى اذا رضي قال فيهم احسن ما علم ، واذا غضب قال اقبح ما فيهم . اما الانكليز فما رأينا الاستاذ ذكرهم بخير ما في كل مقاله وحديثه .

سمع لي جمال الدين باصغاء ، ولما انتهيت قال : يا شيخ بني مخزوم ! وعزة الحق — ان ما تراه اليوم من الفضول بذكر حوادث مضت ، واعمال اتى بها الانكليز في مصر والهند ، وفيما وطأته اقدامهم من البلاد الشرقية . ان مضت اعيانها فستأتي اشكالها وامثالها .

فبريتانيا لاتفتر تحدث فتوقاً في البلاد ــ فتدخل من اضيقها فتوسعه وترقب اصغر حدث فتجسمه ، وتعمل على شق عصا القوم ، وتقسمهم احزاباً وتكون نصير المتباغضين . سنة جرت عليها دولة بريتانيا ورجالها فلا يحيدون عنها . اما القول في نفرتي من الانكليز او بغضي لهم وتعريضي

بسوء اعمالهم فلا يفوتنك العلم انني ما تناولت الانكليز وحكومتهم الا من وجهة استعمارهم ، وتدخلهم في الممالك الشرقية ، كالهند ومصر — وسومهم اهلها سوء التصرف ، ومنتهى العسف والجور ، فكيف يمكن ان يكون للانكليز هناك اثر من العدل — ولو انصفت او عدلت لما دخلت واستعمرت الاقطار والامصار — واتت فيها منكر الاعمال

الانكليز كأمة ليس من ينكر انها من ارقى الامم — تعرف معاني العدل وتعمل بها ولكن في بلادها ومع الانكليز انفسهم — وتنصف المظلوم اذا كان من الانكليز — تعلم ان للانسان حقاً في الحياة — وهذا الانسان في عرفهم هو الانكليزي ، وغيره من البشر ليس بانسان — شعار كل انكليزي وشعار دولة الانكليز ، انه ليس في الوجود الا الآله ، وحق الانكليزي Dieu et mon droit

فما زال الطمع الهائل مشبوع به رأس كل انكليزي — ويرى كل اقعة غنية كالهند احق بها الانكليز من اهلها . وكل قطر خصب كالقطر المصري — الانكليز اولى به من اهله ومن ارباب الحق فيه — متى كان الامر كذلك وهو الواقع — فلا يمكن ان يصدر عن اعمال الانكليز الا كل ظلم ، ولا يمكن ان تكون وسائلهم غير المكر ، والختل ، والخديعة — ومن سفه الرأي ومنتهى البله — ان يطلب الشرقيون من الانكليز عدلاً فيهم ، او انصافاً لهم — اذ معنى المطالبة بهذا — تخلي الانكليز عن البلاد وتركها لأهلها وما ابعده منالاً — وهيهات ان تفعله او تفكر به دون قوة واتحاد — ومختصر القول — ان قصدي في كل ما قلت وتحدثت ان هو الا كشف ما تدعيه

هذه الدولة العظيمة من العدالة ، وما تختص به نفسها من الوصاية على نوع الانسان ، فلك بعد هذا الخيار — اما ان تكتب بقية ما اشرت اليه — او تجتزئ بما كتبت وعسى ان ينفع الله به وهو الهادي الى سواء السبيل

تمت مواضيع كتاب « الخاطرات » التي كتبت في الاستانة ما بين سنة ١٣١٠ هـ وسنة ١٨٩٢ م الى سنة ١٣١٤ هـ وسنة ١٨٩٧ م وقد بذلنا كل الجهد ، وحرصنا جد الحرص — كما يرى المطالع — لحفظ ، وتدوين كل خاطرة ، وكل قول لذلك الامام الحكيم ، والاستاذ الكامل المرحوم المبرور السيد جمال الدين الحسيني الافغاني فجاء بعونه تعالى سفراً جامعاً لشتات الحكم ، وصائب الاراء في ادواء الشرق وما يعانيه اهله من العلل الاجتماعية — نرجو الله ان ينفعنا جميعاً بعلوم من صدرت عنه تلك « الخاطرات » وما حوته من جليل الاقوال ، وبالغ النصيحة . وان يسكنه فسيح جنانه ، ويعامله بجزيل فضله واحسانه

وقد سبق لنا القول بان فقيد الشرق وحكيمه على الاطلاق على بعد شهرته ، وغزارة فضله وعلمه لم يكن له من الآثار غير رسالة في ابطال مذهب الدهريين كتبها بالفارسية في البلاد الهندية عام ١٢٩٨ هـ وقد عني بنقلها الى العربية العلامة الفهامة المرحوم الشيخ محمد عبده وهو اعلم مريدي الاستاذ الحكيم ، واوفى من صحبه الى ان وافى الاستانه كما مر ذكر ذلك — فرأينا في بادىء الامر من تمام الفائدة ، والرسالة وهي من بليغ نفثاته ، ومرآة لصحيح عقيدته ان نضمها الى هذا الكتاب « الخاطرات » ولكن لما وجدنا ان الرسالة مطبوعة ، وموجودة في اكثر المكاتب في بيروت ومن

السهل على الطالب تناولها — فقد صرفنا النظر عن اعادة طبعها والحاقهـا ، واكتفينابذكر مقدمة ناقلها للعربية والأتيان على مختصر الرسالة التي وضعت لابطال مذهب الدهريين ، وبيان مفاسدهم ، واثبات ان الدين اساس المدنية — والكفر فساد العمران .

﴿ مقدمة الاستاذ المحقق المرحوم الشيخ محمد عبده على الرسالة ﴾

نحمد الله على الهدايـة ونعوذ به من الغواية · ونصلي ونسلم على خاتم رسله وآله وصحبه هداة سبله · وبعد اتيح لي الاطلاع على رسالة فارسية في نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل · محيط المعرفة الشامل الشيخ جمال الدين الحسيني الافغاني · اما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر ما لا يحتاج معه الى الوصف ، واما الرسالة فعلى ايجازها قد جمعت لارغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين ما لم يجمعه مطول في طوله ، وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله — دعاه الى تصنيفها حميّة جاشت بنفسه ايام كان في البلاد الهندية عندما رأى حكومة الهنـد الانكليزية تمد في الغي جماعة من سكان تلك البلاد اغراء لهم بنبـذ الاديان وحل عقود الايمان وان كثيراً من العامة فتنوا بآرائهم ، وخدعوا عن عقائدهم وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالّة وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولاي محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الاعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند فاجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بانشاء رسالة في بيان ما كثر السوءال عنه وقـد حداني علو

الموضوع ،وسمو منزلة الرسالة منه الى الاجتهاد في نقلها من لغتها الى اللغة العربية ٠ فتم لى ذلك بمساعدة عارف افندي الافغاني تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة انشاء الله ٠

﴿ مختصر الرسالة ﴾

بنى الاستاذ الحكيم المرحوم السيد جمال الدين الرسالة على ان الدين اكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، واودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الامم ، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية

«العقيدة الاولى» التصديق بان الانسان ملك ارضي وانه اشرف المخلوقات «والثانية» يقين كل ذي دين ان امته اشرف الامم — وكل مخالف له فعلى ضلال باطل «والثالثة» جزمه بان الانسان انما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج الى عالم ارفع، واوسع من هذا العالم الدنيوي، والانتقال من دار ضيقة الساحات ، كثيرة المكروهات جديرة بان تسمى بيت الاحزان، وقرار الآلام الى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات لا تنقضي سعادتها ، ولا تنتهي مدتها؛

والخصال الثلاث ١ «الحياء» و٢ «الامانة» و٣ «الصدق»

اما الدهريون «الطبيعيون» فقد وضعوا مذهبهم على اساس بطلان الاديان كافة ، وعدها اوهاماً باطلة ، ومجعولات وضعية ، ووجوب ازالة العقائد الثلاث ، ومحو الخصال الثلاث من الانسان — وبنوا على هذا ان لا حق لملة من الملل ان تدعي لنفسها شرفاً على سائر الملل، ولا ان تعتقد انها

اولى من غيرهــا بفضيلة ولا اجدر بمزية — وقالوا — ان الانسان في المنزلة كسائر الحيوانات وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم — بل هو اخس منها خلقة ، وادنى فطرة

وقالوا — وبئس القول — ان الحياء من ضعف النفس ، ونقصها — فاذا قويت النفوس ، وتم لها كمالها — لم يغلبهــا الحياء في عمل ما — كائناً ما كان — فيجب « على زعمهم » ان يسعى الانسان في معالجة هذا الضعف ومقاومته — ليفوز بكمال القوة « وهو — قلة الحياء »

ثم قالوا — وفي مقدمتهم « ابيقور الدهري » ، واتبــاعه الدهر يين — «رداً على القول ان الانسان اشرف المخلوقات» ما بال الانسان معجب بنفسه مغرور بشأنه — يظن ان الكون العظيم انما خلق لوجوده الناقص ، ويزعم انه اشرف المخلوقات ، وانه العلّة الغائية لجميع المكونات · وان الانسان من جنونه « على زعمهم » اعتقاده ان له عوالم روحانية ، نورانية ومعاهد قدسية ينقل اليها بعد الموت ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبهــا شقاء ، ولذة لا يخالطا كدر — ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف ، مخالفاً نظام الطبيعة العادل ، وسدّ في وجه رغبته ابواب اللذائذ الطبيعيــة وحرم حسه كثير من الحظوظ الفطرية — مع انه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا ، ولا في شأن من الشئون — بل هو ادني واسفل من جميعهــا في جبلّته ، وانقص من كلها في فطرته — وما يفتخر به من الصنائع — فانما اخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات — فالنسج «مثلاً» نقله عن العنكبوت ، «والبناء» استنّ فيه بسنة النحل ، ورفع القصور ، وانشاء الصوامع — اخذ

فيه مأخذ النمل الابيض — وادّخار الاقوات حذا فيه حذو جنس النمل وتعلم الموسيقى من البلبل ، وعلى ذلك بقية الصنايع — الى ان يقولوا — اذا كان هذا شأن الانسان من النقص عن الحيوانات ، فالاولى ان لا يغترّ بان في الاخرة ثواباً وعقابا — ويحرم نفسه في هذه الدنيا من حظوظ اللذة ، ويقيد نفسه باوهام — الحلال والحرام ، واللائق وغير اللائق ، والحياء ، والصدق والامانة ، وغيرها من الامور الوضعية التي تقيد بها الناس جهلا ، — ولم يتقيد بها الحيوان ، والبهم الى آخر ما هناك من الاضاليل والاباطيل التي تجعل بمقتضى اصول مذهبهم — ادنى البهم من الحيوانات افضل من الانسان ·

وقد افاض الحكيم المرحوم السيد جمال الدين بتفنيد جميع تلك الاباطيل بمقدمات صادقة ، وبراهين ساطعة — منها وجوب الاعتقاد بالله وبالثواب والعقاب ـ ومنافع ذلك للبشر قال: ان كل فرد من نوع الانسان قد اودع بحسب فطرته ، وبناء بنيته شرور كثيرة · وشهوات عديدة تميل به الى مشتهيات — فاذا قام كل فرد لدفع الشر عنه بقوة ساعده او سلاحه او الاقران بدفع شرور اقرانهم — فني عمر الجميع بالدفاع ، وما كان لهم من الوقت متسع لغير عمل — وان قيل ان قوة الحكومة بقوانينها تعمل لصون الافراد قلنا ان قوة الحكومة انما تأتي على كف العدوان الظاهر ورفع الظلم البيّن = اما القتل في الخفاء والاختلاس ، والزور المموّه وغير ذلك من الجرائم التي يرتكبها ارباب الشرور والشهوات ، فمن اين للحكومة ان تستطيع دفعه ، وانّى يكون لها الاطلاع على خفيّات الحيل ، وكامنات

الدسائس ، ومطويات الخيانة ، ومستورات الغدر حتى نقوم بدفع ضرره وهل يرتاب عاقل ان الدهري الذي ينكر وجود الخالق ولا يؤمن بثواب او عقاب — اذا ظفر برجل معه مال وليس من يراه من اهل السلطة — هل يتردد بقتل ذلك الرجل واخذ ما معه ؟ كلاً ثم كلا — اما اذا كان ذلك الرجل ممن يعتقد ، و يؤمن بان للعالم خالقاً ، قادراً ، عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الانفس ، واسع الحول سامي القدرة ، وانه قدر للخير والشر ، جزاء يوفاه مستحقه — لا شك ان ذلك المؤمن لا يقدم على قتل النفس ولو بعُدَ عن انظار اهل السلطان الزمني — اذاً فسلطان الدين اقوى ، وانفع من السلطان الزمني ، وصرامة القوانين . هذا ابسط قياس بين من يؤمن بالله وبين من ينكر وجوده جلّ جلاله . ثم لو اخذنا بقية اباطيل الدهريين وفرضنا تمكنهم من ازالة العقائد الثلاث ، والخصال الثلاث ، وتسنىّ لهم ان يستبدلوا الحياء بقلة الحياء ، والصدق بالكذب ، والامانة بالخيانة وصون الاعراض بالهتك والاباحة والاشتراك — فبأي نظام تصان الحقوق وتحفظ هيئة الاجتماع ، و كيف تأمن الأم من ابنها ان لا يهتك عرضها ، أو البنت من ابيها ، ان لا يفضحها وغير ذلك من مقوّضات اساس العمران

نكتفي بهذا القدر من مواضيع الرسالة — وعلى طالب المزيد ان يتناولها فهي مطبوعة كما قلنا — وموجودة في اكثر المكاتب — نسأل الله الحماية من الضلال والغواية . انه سميع مجيب

سبق القول ان جمال الدين لما اطلع على مجموعة مجلة «الرياض المصرية» تلك المجلة التي انشأناها ونشرناها نصف شهرية في مصر يوم كنت في عنفوان الشباب ، لم اتجاوز العقد الثاني من العمر وذلك سنة ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م — قد استحسن «المحاورة بين الشرق والغرب» ومقالة «تحرير الأرقاء وأسارة الاحرار» — وقد اوصى ان نلحقها بكتاب «الخاطرات» — وها نحن عملاً باشارته نثبتها بحرفيتها

﴿ محاورة بين الشرق والغرب ﴾

بالنظر لما للمحاورات الأدبية من الوقع الحسن في القلوب نحن ندرج هذه المحاورة على سبيل التفكه فنقول:

ذهب الشرق بآثاره القديمة ، وهياكله العظيمة لزيارة زميله الغرب — فجاب البلاد وقطع السباسب حتى وصل لمقر الغرب فتقابل الطرفان وجلسا بعد السلام فأخذ الشرق يهش ويبش ويظهر ما عهد فيه من الأنس وحوله تلك الآثار التي ترد الطرف وهو كليل وكانت على سمو مكانته أقوى دليل . أما الغرب فلم يأت من التكريم غير رد السلام وتقطيب الحاجب بعد ذلك معما له من الآثار الواقفة بين يديه تجاه آثار الشرق وقد طال الصمت ساعات ولم يسمع من الكلام لا همساً ولا هدرمةً حتى علم الشرق انه اذا لم يفتتح الكلام فزميله يثابر على الصمت اعواماً — فقال: من غيظ لم يستطع كتمانه اننا وجدنا في سفرنا هذا نصباً ، ولم نجد عوضاً عن تلك المشقة التي قاسيناها — فالسماء هنا مظلمة ، والريح عاصفة ، والوجوه

كالحة وما الغرب بعد المشاهدة الاّ :

شبيه الطبل يدوي من بعيدٍ وداخله من الخيرات خالي

فلو تدبرنا في الأمر لأرحنا النفس من عذاب السفر ، وارتكاب الخطر غير ان الواقع لا يخلو من حكمة — فها قد برح الخفاء وانكشف الغطاء ، وازحنا الستار وعلمنا بعض المكنون من الاسرار واخترقنا ما أسبله البعد من حجاب المهابة ، وما ألبسه الطنين من ثياب العظمة وهذه الفائدة ليست بقليلة . فقام الغرب وقعد ، وعلا وجهه علامات الغضب ، ولم يتمالك نفسه عن اظهار الحنق من الشرق وعباراته وزيادة عجبه وترّهاته . فقال: عادة الغريب ان يكون اديباً وانت على خلاف العوائد غرورك زائد ، واعجابك متزايد ابتدأت بالذم قبل الاختبار وفاجأت بشدة الاحتقار . فمن انت بحق عظمتك وما عندك مما يوجب لك الفخر ، وتشمخ به على الدهر . فقال الشرق على رسلك فلا تشطح بالكلام ، ولا تبدل مقال المقام ولا تدّعي المناظرة وتبادل بالمهاترة — فأنا معدن الفضل والفضائل ، ملجأ الأواخر والاوائل ادبي مشهود وخيري ممدود — بنا عرفت المكارم ومنا الاماجد والأكارم لا نخلف بالوعود ونجود بأكثر من الموجود

ان أسيافنا القصار الدوامي صيّرت ملكنا طويل الدوام

نحن قوم لنا سداد أمور واصطلام الاعداء من وسط لام

واقتسام الاموال من وقت سام واقتحام الاهوال من وقت حام

بنا ظهر العلم من الخفاء . وبفضلنا أبصرت عين العماء . منا العلماء الأعلام والفلاسفة العظام . منا اسود الطعان ونخبة الشجعان

سوابقنـــا والنقع والسمرُ والظبا   واحسابنا والحلم والبـــأس والبر
هبوب الصبا والليل والبرق والقضا   وشمس الضحى والطود والنار والبحر

بنا اهتديتم في الظلماء وتسندتم العلياء · لنـــا الذكاء المشهور وبيت الفضل المعمور · شجركم بنا مورق · وعلمكم منـــا مشرق · قمت في الزمن الأخير من ظلمة القهقرة والتقصير فالتقطت مني بعض المعارف وادَّعيت الك الكامل العارف · وما اخذت الارشفة من بحر أو ثانية من دهر وهذا حال الفقير يدهشه النزر اليسير ولا أرى اعجب من هذا كله الاَّ استعلامك عني وانت بعض مني

" فواعجبـــاً وافى اليَّ بقحة   ليدرك كلي من يقصر عن بعضي
ويقصدني من لو تمثل شخصه   بعيني قذى ماعاق جفني عن الغمض

أين آثارك المشهورة · واعمالك المبرورة · هل باتقانك الهندام حسبت نفسك من العلماء الأعلام ؟ هل بزخرفتك البناء صرت من النبلاء الفضلاء ؟ أين مكارم الاخلاق · أين طيبة الأعراق · أين وفاء الذمم · أين الأغاثة من النقم · أين الشهامـــة الشرقية · أين النفوس الأبيَّة · أين الكرم والجود · والظل الممدود · أين العلم والعمل · وترك الخديعة والحيل · أين الشرف الرفيع والعز المنيع · أين البأس الشديد والرأي السديد · أين الشرائع العادلة والاسود الباسلة · أين الرحمة للشاكي والرأفة بالملهوف الباكي · أين توقير العلماء وكبراء القـــوم الفضلاء ؟ أتطاولني مطاولة الارض السماء · أم تفاخرني بلبس ثوب بلاء مع الادعاء انه ثوب بهاء · رأيناك قمت تحدث في الارض كل يوم داء تعجز عنه الاطبـــاء ·

عممت في الناس بلوى الخمور واخللت من البعض الشعور · وأولدت كل مختال فخور — جبلت من طمع ذميم خلافاً للذوق السليم · أحدثت الافلاس وأطرت من العين النعاس واخذت توسوس في صدور الناس · اذا دخلت في اقليم تعرج عن الصراط المستقيم · وتشق عصابة الأهل وتقوي الحديث على الكهل · تبيح لهم المنكرات ، وتفتح لهم ابواب الحانات — كل هذه العادات احدثتها فيما لك من المستعمرات ، وشددت النكير على من استعملها في بلادك كبيراً كان أم حقيراً · ولقد قلّبتك على جهاتك الأربع علّي أجد فيك محسنات تكفر عنك السيئات فلم اجد فقل لي · — هل لك من لسان تقول به ذلك ما كان · أو ما قررته لك لا يكفيك حتى اكشف لك عن كل ما فيك · فما كان اغناك عن هذا الجدال اما علمت انك بأسوأ حال أم كنت تظن أن الشرق بلا عيون غير عالم بما كان من امرك وما سيكون — فرد قولي اذا كان باستطاعتك الرد باجلى بيان فان الدعوى قائمة على الحجة والبرهان ·

كل ذلك والغرب ثابت الجنان وحواسه الخمس آذان ينظر الى الشرق شذراً تارة يتململ وطوراً يتألم حتى انتهى الشرق من مقاله وخيّل له انه فاز على مناظره بقواطع الحجج وساطع البرهان فقال الغرب :

ايها الضيف الكثير الاعجاب المسهب بمدح ذاته · لقد أثرت عواطف الحنو لا الغيظ عليك لكثرة خبطك وعجبك فياليتك لم تفرغ هذه البضاعه قبل الوقوف على العادات · أتيت بخواص أعوانك وعظيم آثارك — فلو علمت شيئاً عما لدينا من عظيم الاحجار لكفيت نفسك مشقة حمل هذه

الآثار على ان الفكرة تمانعني في اجهادها لفساد اقوالك ودحض حجتك وبرهانك فلو كان فيك من الحزم اثر ما قدمت لتفاخر الغرب في الجيل التاسع عشر فهل تظن ان من قول كان وكان ارتقاء نوع الانسان اما سمعت قول القائل :

لعمرك ما الانسان الاّ ابن يومه على ما تأتّى يومه لا ابن أمسه
ومـا الفخر بالعظم الرميم وانما فخار الذي يأتي الفخار بنفسه

من كشف لك الاسرار عن آلة البخار · من سيّرك في البحار في أمان من الاخطار · من سيرك في البر كأنك على جوانح الطير · من طوّق لك الارض بالحديد وجاءك بالخبر البعيد · من شيّد لك البنيان على ابدع اتقان · من أتاك بآلة الطباعة التي هي اشرف صناعة · هل تستطيع الاّ ان تقول الغرب أم تحجني بالشتم والسب · تهافتّ على الازياء الجديدة وتغاضيت عن الامور المفيدة · نعم انا مبتـدع الازياء ولي ذيل يجرُّ عن اكتفاء ولن اجرّه على العفاء وجيبي ليست من الدراهم خالية ولا قلوبنا لاهية ، ولا عيوننا ساهية ولا الحان بنا معمورة · ولا بيوت العلم منا مهجورة · فتأمل تأمل البصير ، وأدر بحالك رأي خبير — ترى عروتك منفصمة ، وكلمتك منقسمة · ففائدة الآثار بتحسين الدار ·· سيرت ابنـائي اليك شفقة مني عليك — وكلفتهم حمل مشقة الغربة ، والصبر على العناء والكربة · فوجدوك قسماً غير معمور ، وقسماً تراباً مجهوراً ، وقسماً جبالاً وصخوراً فعمروا الخراب وحسّنوا لك التراب ، وادخلوا اليك التجارة ، وسهلوا دواعي الحضارة ، واجزلوا لك الاحسان ، وباشروا لك اسباب العمران ، وأحبوا

فيك العلوم الدوارس وفتحوا لأبنائك ابواب المدارس — فعلّموهم بلا عوض . وهذّبوهم دون غرض فأنا عضدك في الضراء ، وصفيك بالسراء مرجع شكواك ، وكاشف بلواك — طالما امددتك بالمال واسعفتك بالرجال غير راغب بالانتفاع منك ، ولا الطمع فيك ، فتبصر بحقيقة الأمر تجدني نفعاً بلا ضر فانا اصل النجاح و ينبوع الأصلاح . تحاول اطفاء نور اعمالي وجحود صالح افعالي . ابتدأت بما لا يرضي من الكلام وعنّفت قبل رد السلام . فعد بنا الى الصفاء ، ودع اسباب القطيعة والجفا فما انا الا صديق حميم ، وخليل على الود مقيم — فتبسم الشرق من هذه العبارات الاخيرة لعلمه بما تكنه السريرة فقال :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

اعلم ايها الغرب اللين العريكة عند المآرب . الشديدة الوطأة عند المصائب المنتقم عند سنوح الفرص ، والممسك بالخناق عند الغصص — لقد جلبت في تملقك لنا البين ولدغتنا من جحر واحد اكثر من مرتين . طالما خدعتني بقول الصديق . وجلبت عليّ الضيق من كل فج عميق

كالصل يظهر ليناً عند ملمسه حتى يصادف في الاعضاء تمكينا

فيا ايها الصديق الخاضع ، والخل الصفي المتواضع ، أترغب بختلك ، وتسكينك ان نؤخذ طول الابد كما تؤخذ أم عامر من الغاب ، وتعللنا في الظماء بالسراب . أتعدد ما لك من الاحسان وتطلب منا ابداء الشكر والامتنان . فوالله ما طرقت بلادي الا لعلم تقتبسه أو أثر ثمين تختلسه ومال تحتسبه ، وما ادخلت التجارة لخطتي الا لتلاشي ثروتي وتعدم تجارتي .

الكافية لحالتي أَدخلت الربا فكان الداهية الدهماء والمصيبة العظمى ، والطامة الكبرى . هدم اركان الاغنياء وكشف الستر عن المتوسطين وأَمات الفقراء وزعزع اركان الممالك ، والقى الاملاك في شر المهالك . كنت في غاية الأمان من طوارق الحدثان . خليَّ البال من القيل والقال المال موجود وظل الخير ممدود ، ابنائي بائتلاف لا يعرفون التباين والاختلاف يحرثون فيأكلون وينسجون فيلبسون ويتوسدون حجراً فينامون . لا يعرفون الحسد ولا يحقدون على احد — الكل في هناء وسرور . وصفاء وحبور . التآليف عديدة وكلها في بابها مفيدة — تشِّب الأطفال على محبة الناس ، والملاطفة والايناس — ما منهم الاَّ متَّق لله وقلبه عن عبادته غير لاهٍ . فدخلت كالنعاس واين منك الوسواس — نعم فتحت المدارس وهي اول الاشباك ، وباكورة الارتباك لتزرع ما لك من الاغراض وتستبدل الجواهر بالاعراض فزخرفت البناء واستحضرت بعض الابناء في جديد الازياء فمنعت تدريس تآليف افاضلي المفيدة واهملت تلك المجلدات العديدة واستبدلتها بجيولوجيا واخرى فسيولوجيا وأَتيتنا باسماء ما انزل الله بها من سلطان ، وعلوم يستغني عنها الانسان فقلبت العقول ، وادخلت العرض بالطول وصحت . ياللتمدن الحسن . ياللدفع الغباوة والاحن ! دعوا هذا اللباس البسيط - وخذوا لباس التحزيم والتزييط انفدوا الثروة في الاواني والتنجيد ، اذهبوا فريسة التقليد . اتركوا الزيت وخذوا غازاً ينير ؟ البيت . اعتزلوا منسوجاتكم القوية وعليكم بهذه الأقمشة الوضية التي يمزّقها الهواء ، ويلاشيها الهباء كونوا من المتمدنين أي غير متمسكين في الدين

وسيروا سير المتفرنجين

فاولدت فينا الانشقاق، وافسدت منا مكارم الاخلاق ، ولم تكتف باضمحلال الثروة حتى طلبت ان تكون قلوبنا على بعضنا كالحجارة أو أشد قسوة تمتص منا الخيرات وتتحفنا بالمضرات .

فقال الغرب وقد استولى عليه الأنذهال واخذته الدهشة من هذا المقال ايها الزميل الناكر الجميل هلاّ افصحت عن مرامك في بدء امرك وابنت انك قاصد المقارعة لا الزيارة لنعلم كيف نسوق لك الكلام ونوافيك بما يناسب المقام . ما هذه العبارات الكاشرة وما هذه الالفاظ الباسرة . لقد جعلت الغالب مغلوب وجئت في الكلام المقلوب وقلت ان ما اتيت به من الحسنات ان هو الاّ محض سيئات فما حجتي بعد هذا عليك . وبأي الاحسان أتقدم اليك . فتحت المدارس فقلت لغرس الوساوس . ارسلت بضاعتي قلت لاثبت ثروتي — نشرت فيك لواء العلوم فقلت اثمرت الهموم والغموم — تقدمت اليك باسباب الرفاه والنعيم فقلت هذه اقصى درجات الجحيم — اظهرت لك أني صديق فقلت دع التمليق — فيا ايها المغرور الولوع في العدوان والشرور لقد ابرقتَ وارعدت ولم توقع فاليك الآن أُوجه الخطاب . ماذا كنت عليه غير ما قلت من ضنك العيش ورث الثياب . وسكن الكهوف . وبسيط العلم وعظيم الوهم . فتأمل ما صرت اليه من العظمة ورفعة الشأن . فبعنايتي لباسك الخلق تبدل ، وسوء حالك تحول وبسببي تفتحت منك الاذهان ، وعلمت احوال الممالك والبلدان ، وانا الذي عممت فيك معرفة اللغات وصيّرت من ابنائك

الانسانية دعاة فانظر اليهم الان بعد حالهم المكرب وما كان من امرهم المتعب تجدهم في اللغات عالمين وباحوال السياسة خبيرين ، وللمناصب والامور مدبرين عرفوا مالهم فاخذوه ، وما عليهم فأدّوه ، ونبذوا الارتياح للعوائد القديمة وانصبّوا على قواعد التمدن العظيمة فهل هذا الذي اثار فيك الغضب وسبَّب لك الكرب والتعب وهل صنيعي الجميل أُوجب كل هذا القيل أما كان الواجب عليك ان تسرّ بما لديك من ابناء حسنت كياستهم احرزوا غاية التهذيب فلا يمشون الاّ على الترتيب ·

كن من المنصفين ، وسر طريق العادلين وقل بماذا خرقت العوائد حتى استوجبت حنقك الزائد فانا كلما اتضعت اليك تعاظمت نفسك عليك · فاعدل بنا عن هذا الجدال وبدل لنا المقام والمقال وخذني صديقاً مدى الزمان وكافىء الاحسان بالاحسان فاني لو تجرّدت من موالاتك لتعسر عليك القيام بضرورياتك لكنني لا احب ايقاع المضرة فيك ولا اقابلك على صدك وتجافيك بل أجاريك على هواك رغبة في حصول رضاك

ان الصديق اذا رآك مخالفاً لهواه بدل ودّه بعقوق
فاخفض جناحك للصديق متابعاً لهوائه أو عش بغير صديق

فقال الشرق: بالله يا ابا قلمون يا من في كل لون يكون — كم قلبت لنا ظهر المجن ، وألقيتنا في مهاوي الأحن · تظهر اللين واللطافة وتكمن الدعارة والكثافة تقول مقصدي الخير وابعاد الشر والضير · غايتي تعميم المعارف ، وأسداء العوارف : بغيتي تهذيب الأخلاق ونزع الانشقاق — فيامحب الاحسان يا من يكمن في الضمير غير ما ينطق باللسان — من دعاك بالله لحمل اثقالى

والتغيير في عوائدي وافعالي! ماذا يهمك وانت بعيد عني ان تكون احسن مني، هذا اذا كنت محسناً كما تقول، ومحباً لعمران المعاهد والطلول على انك لم تأت شيئاً الاَّ فرياً . ولم تجعلني بعنايتك الاَّ شقيّا . علّمت اللغات فبلبلت السن ابنائي وبلجتهم بلغاتهم الأصلية فأضاعوا القديم ولم يحسنوا الجديد اخترعت الأزياء فكانت اكبر بلاء . طنطنت بالحرية، فكانت اكبر بلية أبعدت الخلايق وقطّعت بينهم العلائق، وجعلتهم في ربقة تلوناتك أسارى تجدهم سكارى وما هم بسكارى — ما اتضعت الاَّ كالمخل لتقلع ، وما قمت الاَّ كالتنين لتبلع . ما فرضت قياساً الاَّ لهضم مال الناس ، وما أتيت من حركة الاَّ لتلقي في الهلكة ، وما ارشدت احداً الطريق الاَّ وحاق به الضيق — فقل لي أي احسان اتيت فيه أو اي بلاء تود أن تخفيه . اكثرت من انواع اللباس فاحدثت بين الناس الأفلاس ، بالغت في الترف وقلت في التمدن لا سرف . احترمت الطيلسان والغيت المرء تحت طي اللسان اوقدت بالصغير نار الكبر واطفأت من الكبير نور الفكر ، تترنم بحصول الأختلاف ، وتنقبض عند الأتلاف ، تقول بدلت ثوبي الخلق بجديد ، وأصلحت احوالي برأيك السديد — فوالله ان القديم ثوب جود وكرم ، وزداء يسعف بالنهوض للأغاثة من النقم قد بدلته بثوب يجلب الكسل ، ويورث الملل . وأما الحال فلم تبدله الاَّ بأوحال ومصايب ووبال، واضطراب وبلبال — تسلطت على ما تسلطت فلم يكفك حتى طمعت ان تجعل الكون مضغة تدخلها في فيك . وتكثر بعد هذا من الجدال وتطلب التغلب في القول المحال فانا ان عددت احساني اليك أجد الف شاهد منك عليك

فعلمك مأخوذ عني ، وخيرك مستمد مني ، طالما امددتك في المجاعات بصنوف الخيرات نتائجي تساق اليك ، لتعود بالنفع العميم عليك ، تستطلع آثاري ومكنون صنائعي واسراري فتأخذ منها اللوازمات وتقول أنا رب الاختراعات — على انني سر النجاح ومعدن الأصلاح والفلاح ، لا أتجاوز الحدود ، ولا أخلف بالوعود ، نوالي جزيل وظلي ظليل — لا أطمع في مال الغير ، ولا اغتال السوى بالشر والضير . ولا انصب الأشراك ولا أسعى لإيقاع الإرتباك . لم تأخذني في الحق لومة لائم ولم أغبر نعلي بغير السعي وراء المكارم . فأنت ان شئت الوفاق وزوال الانشقاق — سر الصراط المستقيم و كن في الامور حكيم واعتزل البغضاء وابتعد عن الكبرياء ، ولا تطمع في مال الغير ولا تأتِ الخلق الاّ بالخير ، ولا تسع وراء تغيير العوائد الحميدة وتستبدلها في سبيل مرامك بعوائد جديدة غير مفيدة . واجزل ما استطعت من الإحسان فطالما استعبد الاحسان انسانا — هذا ما أراه من النصيحة أبديته اليك وما تقدم من عمل فيعود امره عليك

فقال الغرب اننا ذهبنا في جدلنا وهما ، ولم يحسن احدنا من مرام الآخر فهما فانا لا انكر مالك من الفوائد ولا أجحد مالك من حسان العوائد فالان قد حصحص الحق وعلمت ان نصحك هو الوجه الأحق فلا تؤاخذني على ما فرط اذ لا يخلو احد من الشطط

فقال الشرق لا تثريب عليك فما منا الاّ صديق صادق وخل موافق لا يغير ما بيننا من الوداد شرارة من الحمق والعناد

وهكذا بعد ان تبادلا عبارات الصفا واعتزلا دواعي الجفا ودّع كل

. منها صاحبه والسرور مصاحبه مضى الشرق باعوانه قاصداً مقرّه وأوطانه

﴿ تحرير الأرقاء وإسارة الاحرار ﴾

نحن في زمن أصبح الكون فيه كميدان تتسابق فيه الخلائق بقوات تختلف باختلاف الغرض المطلوب من حيث اهميته وما يناسب الوصول اليه من اتخاذ الطرق والوسائل لا يرون في الاختلاق عاراً ولا في الاحتيال شناراً يصورون شبح الزور والبهتان و يحاولون بث الروح فيه وهم عن ذلك عاجزون حتى تأكد لنا من مرور تلك المظاهر الغريبة ان الليالي من الزمان حبالى مثقلات تلدن كل عجيبة · فليتأمل العاقل الحازم في ضجيج الخطباء ورنة اقلام الكتباء في البلاد الغربية ويغلغل دقائق فكره في مقاصد الامور ويرجع من ثم لتطبيقها على ظواهرها ليظهر له عظم الدهاء ومنبع البلاء وكيف تختفي الحقائق تحت اباطيل الاقوال وتلتف برداء التمويه نقول ذلك ولنا عليه اكبر شاهد وهي مسألة (الرقيق) التي شحنت فيها أعمدة الجرائد وتسوّدت فيها المجلدات واختبط لاجلها رجال العالم السياسي، جميعهم يحاولون في ظواهر اقوالهم أبطال التجارة في الرقيق حباً في الانسانية ورأفة في بني البشر وعلى هذا وهو منتهى ما لديهم من الحجة قد اندفعوا الى تجييش الجيوش، واعداد العدد وتهيئة الاسلحة، وتسيير البوارج الحربية في الابحار فاين الغاية من هذا العمل وأين الباطن من الظاهر وقد صرخت الدماء المراقة اصواتاً يأبى الله ذهابها سدى، واستجارت الاحرار من استعبادها وتحميلها حملاً ثقيلاً يؤود الجبال حمله — ولكن ما العمل وقد قضى الله ان

يكون هذا البلاء صادراً من قلوب هي كالحجارة أو أشد قسوة يظهرون من اقوالهم ليناً و يعربون في مجالسهم عن رأفة هي منهم مقام الطبع الغريزي الذي لا يقبل التغيير والتطبع حتى يتخيل السامع عن بعد شاسع ان اولئك الاقوام هم مصدر الحنو، وهم بكور العائلة البشرية وقد تكفلوا بصيانة اخوانهم من كل اذى فاذا علم ما طوت تلك الاقوال اللينة من الخشونة وما جلبت تلك الرأفة من المظالم الفجيعة لتيقّن ان حب الذات افضى بتلك الاقوام الى التمسك بتلك التمويهات ليستروا بها وجه ما عزموا عليه من الفظائع التي تقشعر منها الابدان وكأن الحقيقة اذا كان ما يقصدونه في عملهم هذا (وهو منع الاتجار في الرقيق) هو ان يمنعوا اتجار الآحاد بالافراد ويجيزوا لأنفسهم استعباد الخلق في الملايين · والاَّ بماذا يفسرون اخذ بلاد ومن عليها مقابلة لدَين أَو غرامة أَليس انهم اشتروا في دراهمهم احراراً يستغيثون من جورهم فلا مجير ويرفضون الرضوخ لاحكامهم ولا نصير أُما هذه الاحوال هي عين الاسارة أو هل تفيد الاسارة أو (الرقيق) معنى غير اكراه المرء على اجراء ما لا يحب عمله واجباره على السير ضد ارادته وارضاخه الى ما ينافي اهوائه وما يبتغيه ·

فان صح ذلك فنحن نجد الاسارة شاملة كل الخلائق الذين تفضي امورهم لمثل اولئك الاقوام القائمين بهذا الزمن بتلك النغمات ثم اذا قال المناضل عن هؤلاء الجائرين ان الحرب انما شب ضرامها وطيساً لقطع دابر النخاسين · نقول ان القنابل قد وجهت وجهتها للعموم ونراها تلتهبهم بانفجارها الكبير والصغير والامير والحقير ولم تميز بين النخاس وغيره · اهل حجة بعد

هذا ؟ كلاّ . الاّ اذا قالوا ان اهل تلك الديار بوجه العموم نخاسين فلا يكون حينئذٍ أَرقاء يتاجرون فيهم . وان قالوا ان القصد من اراقة الدماء ارهاب الذين تعودوا على بيع البشر المتفق على منعه من ملوك الارض قلنا ان السبب في هذا المنع انما كان الرأفة في الخلق وطلب المساواة بين النوع الانساني غير ان الآن وقد أدت الشفقة الى جعل الارقاء والاحرار عرضة للقنابل تذهب بجماجمهم الى كبد الفضاء تنثرها نثر الحبوب من السنبل لا شك يفضلون بقائهم عبيداً احياء من ذهابهم عبيداً مضرّجين بالدماء ثم اننا نجد هذه الشفقة او (القضاء المبرم وهو الاصح) موجهة الى أمة مخصوصة وبلاد معينة لا نراها تتعدى الى غيرها من الامم مع اننا نرى كثيراً من الاحوال في نقطة المركز من بلادهم المتمدنة وحول قصورهم المشيدة وامام مجالسهم العالية تستحق الشفقة — وخلقاً لا يحصيهم العد يتضورون جوعاً ، ويموتون مقبوضاً على اعناقهم من الظلم والبغي اما هذه كلها أحوال تستلزم الرحمة والرأفة ثما بالهم لا يجرونها معهم والاقربون أولى بالمعروف

اما كان الاجدر ان ينزعوا عنهم الطنطنة والتمويه بالاقوال البهتانية والادعاء بانهم يجرون ما يجرونه حباً في البشر — وينطقون الصدق بان عوامل الطمع حركتهم لوضع مثل هؤلاء الضعفاء مضغة في افواههم على اننا لو بحثنا في هذه المسئلة بحثاً توسعنا فيه وتقهقرنا الى الوراء في سلسلة اسبابها لعلمنا انها من المسائل التي ألفها البشر منذ القديم وهي لم تزل مألوفة لدى العالم المتمدن وجارية بينهم على سننها القديمة انما تسترت برهل السحاب تأميناً لادراك الاغراض الكمينــة في النفوس وها نحن نرى اشد الامم ضناً

بالمحاماة عن الرفيق قولاً لا فعلاً واعظمها اندفاعاً على ذلك لا تختلف في نظامها ومطامعها وخطة سيرها نحو الاستملاك والاستعمار وما أشبه ذلك عن الامة الرومانية بل كلما جال في خلد مديرين تلك المملكة العظيمة في سالف الاحقاب من السعي والاهتمام لتعزيز شوكتها وتفردها في السلطة العظيمة على أغاب المعمور من الارض نراه في هــذا الزمن يذكر بالقول ويجري بالفعــل كأن ارواح تلك الامة الخاليــة قد تقمصت فيهم أو انهم وضعوا نصب اعينهم كيفية سيرهم واعتمدوه أجل اعتماد وصار مرجعهم الوحيــد فيما يبتغون من سد عوز المطامع والتهام مــا تصل اليه قوتهم أو دسائسهم فالرقيق في زمن دولة الرومان كان غاية في الاستفحال والانتشار حتى كانت الجنود والاحرار من العوام يستخدمون بغير اجرة ينالونها على اتعــابهم وخداماتهم ولذلك كانوا يحتاجون احياناً الى استقراض مــال من الشرفاء ورهن اراضيهم واملاكهم عليها حتى اذا ما تكاثر الدين واشتدت وطأته عليهم لسبب الرباء الفــاحش بادر الدائن (الشريف) الى القبض عليهم واستعبادهم أو بيعهم فضلاً عن استخلاصه تلك الاموال المرهونة لخاصته بقيمة لا تعادل بعض الرباء وقد دام الامر كذلك حتى اشفق العوام على انفسهم من هذا الجور والاعتساف فعرضوا امرهم للمجلس الاعلى وشــكوا استعباد الاشراف لهم بعد سلب ما تملكه ايديهم وأنّوا من العسر المحيق بهم متظلمين بقولهم « انهم بعد مــا ذاقوا غمرات الموت ســفي محاربة الطاركونيين والذب عن حرية العموم قد اصبحوا عبيــداً لمواطنيهم فلم يجب المجلس نداءهم ولم يصغ الى صوت شكواهم وانين بلواهم وكان اللاتينيون

قد نهضوا سنة ٤٩٧ ق . م . لقتال الرومانيين انتصاراً للطاركونيين فأبى حينئذ ولا سيما المستغرقون في دين الاشراف الانضمام في الجندية محتجين انهم قد سئموا الحياة بخدمة موالي طمعين وقساة لا يكتفون في الاستعباد وحده وانهم غير مجبورين على الدفاع عن وطن لا يملكون من ارضه قيدباع بل قد صمموا اذا لم يسامحوا بما عليهم من الديون ان يغادروا المدينة فراراً من ظلم دائنيهم » هذا بعض ما كانت عليه اشراف امة الرومان من استعباد الاحرار فضلاً عن معاملتهم للارقاء الذين نجد في عصرنا من هم على شاكلتهم طبقاً اذا لم نقل يتطرفون فيما نحن بصدده اكثر من اولئك الاقوام ونظن ان هذه الفقرة « لو تذكرها المؤرخون عن الرومانيين لظنها القارئ شذرة من شكوى الايرلنديين لانها لم تختلف عنها لا بالكم ولا بالكيف وقد تقدم ان دولة الرومانيين هي اعظم دولة قامت في الزمن الغابر على سطح الارض وانتشرت سلطتها على العوالم والعواصم وكان امر الرقيق فيها كما هو معلوم ولكننا لم نرَ في صحف اخبارها ان ثورة قامت في الرؤس اوهيجان او مجاهرة في العصيان ونبذ الطاعة تمحض سلطانها في النفوس من جرى بيع الرقيق او من الارقاء نفسهم تنصلاً من ربقة العبودية مع كل ما كان عليه الشريف من الطباع الفظة والمعاملة الخشنة نحو عبيده بل نجد ان سائر الفتن التي حدثت في داخلية المملكة الرومانية وذهبت بها الى تضعضع الحال وضعف الشوكة وتقوية عزائم أعداء المملكة للوثوب عليها انما هي منبعثة عن شغب العوام المديونين لعظماء المملكة الأمر الذي نراه جارياً في زماننا تماماً . وعلى سبيل الاستطراد نذكر ما حدث في الشرفاء من مجاهرة

العوام وعواقب الظلم التي هي عين الاستعباد ليكون ذلك دليلاً على ان تحمل النفوس ما لا تطيق يفضي لنزع النير ولو كان واضعه شديد البأس وان ظلم الشعب أضر بدولة الرومان ويضر بكل مملكة أكثر من الاتجار بالرقيق بل لا نسبة بين عواقب هذا وذاك وعليه نقول ان الرومانيين بعد موت طاركوينس أمنوا طوارق الحدثان وتوهموا انهم أصبحوا في غنى عن الشعب فعادوا الى الجور القديم في معاملة العوام وخصوصاً المديونين منهم ناسين شرائع الانسانية والعدل الآمرة بالمعروف والاحسان فملّ العوام من الظلم والعذاب وباتوا في قلق عظيم وبينما كانوا ملتئمين في محل الاجتماع اقبل عليهم رجل مكبل بالسلاسل ورمى بنفسه بينهم مستجيراً وكان هذا الرجل طويل القامة مهزولاً وثيابه رثة بالية ، وشعره اشعث طويل فعرفوه لأنهم رأوه مراراً عديدة يخوض عجاج الحرب كالاسد الرئبال غير مبال بالصوارم الا أنهم جهلوا امره وعجبوا من استحالة حاله فقال لهم ذلك الشيخ يا قوم انني قد فقدت حريتي وكل ما أملكه في سبيل الدفاع عن حرية الوطن وقد وقعت الآن في قبضة دائني الذي لا تأخذه شفقة ولا ترجعه عن القسوة رأفة بل عاملني بطبعه وأودعني وابني السجن وأسلمني الى عبيده ليوسعوني ضرباً ثم خلع ثيابه ورأى الجمهور ظهره مخضباً بالدماء وصدره مخدوشاً بطعنات رماح الاعداء ، وضربات سيوفهم فلم يتمالك احد نفسه عن الغيظ بل علا الضجيج وزاد الحنق وتراكض الشعب من كل جهة وهو يشتم الشرفاء كأن روح الثورة قد دبّت في جميع الصدور الا ان القنصل سرفيوس استطاع اخماد نار الفتنة وصرف المتجمعين واعدهم بمنع

الدائنين عن اهانة مديونيهم واستعبادهم الى ان يصدر المجلس امراً بهذا الشأن وكان الشرفاء عند اقتراب عدو ودنو خطر منه يتملقون الشعب ويعدونه وعوداً كاذبة ليحملوه على الحرب والدفاع حتى اذا مـا انجلى الخطب او تقشعت سحب الاخطار وبدا جو السياسية صافياً نـكثوا عهودهم ونقضوا وعودهم وعادوا الى ما كانوا عليه من اهانة مديونيهم وظلمهم وعرف العوام دهاء العظماء ومكرهم فاجتمعوا خارج المدينة وجاهروا بالعصيان وكم سمعنا بمثل هذه الثورات التي اثارتها المظالم في المملكة الرومانيـة ولم نسمع بأقل شغب آثاره الأرقاء من جرآء مبيعهم وشرائهم أو انبعث ادنى قلقلة عن تجارة الرقيق وهـكذا نجد في عصرنا ان البلاد التي كان اهلها يتاجرون في الرقيق قبل ظهور « دعاة الانسانية ومحبيها » كان ظل الامان ممدود والخير موجود لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً حتى تصاعد روح الطمع في رؤوس من لم تفارقهم نشوة الانتصار والتغلب فالتمسوا لابتـلاع الامم عذراً ظفروا فيه من تصفح كتب الدهاء وهو « ابطال التجارة في الرقيق » ومساواة البشر في الحرية فما كان أجدر في الدولة البريطانية التي جيشت جيوشها « لهذه الغاية الشريفة » أن تطلق ما هو تحت سلطانها من الولايات المحكومة قسراً عن ارادة الاهلين الذين يترقبون الفرص ويستغيثون اناء الليـل واطراف النهار للتخلص من حكمها وهم لديها اسوأ حالاً من الأرقاء لا يملكون لأنفسهم حرية ولا تجول افكارهم بارادة — فهل تتخيل استعبادا اكثر من هذا. وما بال هذه الدولة الفاغرة فاها لم تملئه البحار لم تحرر شعبها المستعبد وهو اليها اقرب من حبل الوريد وتغيثه وهو على شفا جرف

الهلاك مما يحمله على كاهله من العبء الثقيل وتترك بلاداً لا جامعة بينها وبين اهلها لا ديناً ولا خلقاً ولا لغة ولا جنسية ، أَهل يتوهمون ان الخلق محتجبون في حجاب الغفلة عما تجري به في مستعمراتها أَو يخفاهم ما لاقاه العالم الاسلامي وغيره في الديار الهندية وغيرها من الاستعباد العجيب وكيف ان الافراد المستكبرة تكره المسلم وغيره ممن دخلوا تحت سلطتهم على مطأطأة الرأس وبسط العنق ليدوسوا بأرجلهم استطالة لمطاياهم فياليتهم قبلوا في الاستعباد فقط ولم يقيموا ذلك العالم المحكوم مقام الصم من الجماد والآن نجد البلاغة تتناثر من افواه الخطباء تحرّض على تحرير الرقيق وابطال التجارة فيه في السودان وسائر الانحاء الافريقية «لانهم لم يكونوا مستعبدين اليهم» فليعلم اذاً كل شرقي ان المناداة في المحبة الانسانية من هذه الامم لم يكن الا اغراءً وضرباً من ضروب الدهاء ليكون ابتلاع تلك الامم سهلاً وقابلاً للهضم بسرعة لا تسطو على معدهم تخمة ، فنحن نقول لكل أُمة زينت لها اهواؤها اهتضام حقوق الممالك الشرقية ان المسلمين ليس كما يزعمون من انهم خلواً من معرفة ما يرمون اليه من سهام الاغراض وما هو جار مع اخوانهم الذين قضي عليهم في الدخول تحت نير « محبتهم الانسانية » وذاقوا العذاب المهين فلا يؤمل بعد هذا انهم يرتضون في تمكين أُولي المطامع من خناقهم على حين يسمعون الائمة في المساجد والخطباء على المنابر ينادون باعلياء الكلمة بتأييد شوكة صاحب الخلافة امير المؤمنين المعظم وتخليد امارة نائب جلالته سمو اميرنا المفخم هذا وان الحقيقه انما هي استعباد أُمة مخصوصة وقارة معينة لا يشوب ذلك وهم ولا يخالطه ريب لان الانظار انما اتجهت لأفريقية

فقط دون سائر الممالك نعم اننا الان نتازعهم ولكن على قوالب الالفاظ وليس على النتيجة المقصودة بل كل ما نضيعه من الوقت في ايراد الحجج على ان دعواهم في تحرير الرقيق لا تنطبق على الحقيقة ولا على المنظور والمشاهد من الاعمال والافعال ذاهباً سدى لانهم اعلم الناس في بطل دعواهم وانها اشبه بحجة الذئب على الشاة — انما يحسن بنا ان نذكر لاي أُمة غربية تطمع في ضرب قباب سلطتها على الاملاك الاسلامية في افريقية وخلافها ان ذلك ولو تيسر لها باختلاقها انواع الاحتيال لا يلبث زمناً طويلاً حتى تتحول القلوب التي لم ترضخ الا قسراً بتخريب الديار وهرق الدماء فضلاً عن ان المسلم مكلف شرعاً بالهجرة من بلاد يحكمها سلطان غير مسلم ولا يجوز للمسلم ان يقيم في بلاد حرب على المسلمين بل يجب عليه الهجرة الا اذا تعذر عليه ذلك لمرض أَو عدم نفقة فيكون من المستضعفين المعفو عنهم · هذه هي النقطة التي يجب الالتفات اليها ليعلموا ان كلما يهيئونه من درهم وضاح وذخائر وسلاح لا يكون امام الفريضة الشرعية الا كسحابة صيف عن قريب تنقشع والله سبحانه وتعالى لم يغفل من فيض احسانه وكرمه امر أُمة يجار عليها ولا تجور على احد ان تذهب فريسة البغي والعدوان ينادون في جنح الظلام وما ربك بظلاّم للعبيد ·

— تم —

والحمد لله اولاً وآخراً

تنبيه — وقع اغلاط مطبعية مثل كلمة « تصوف » طبعت « تصرف » · وكر النظر — كسر النظر وامثال ذلك مما لا يخفى على القارىء

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

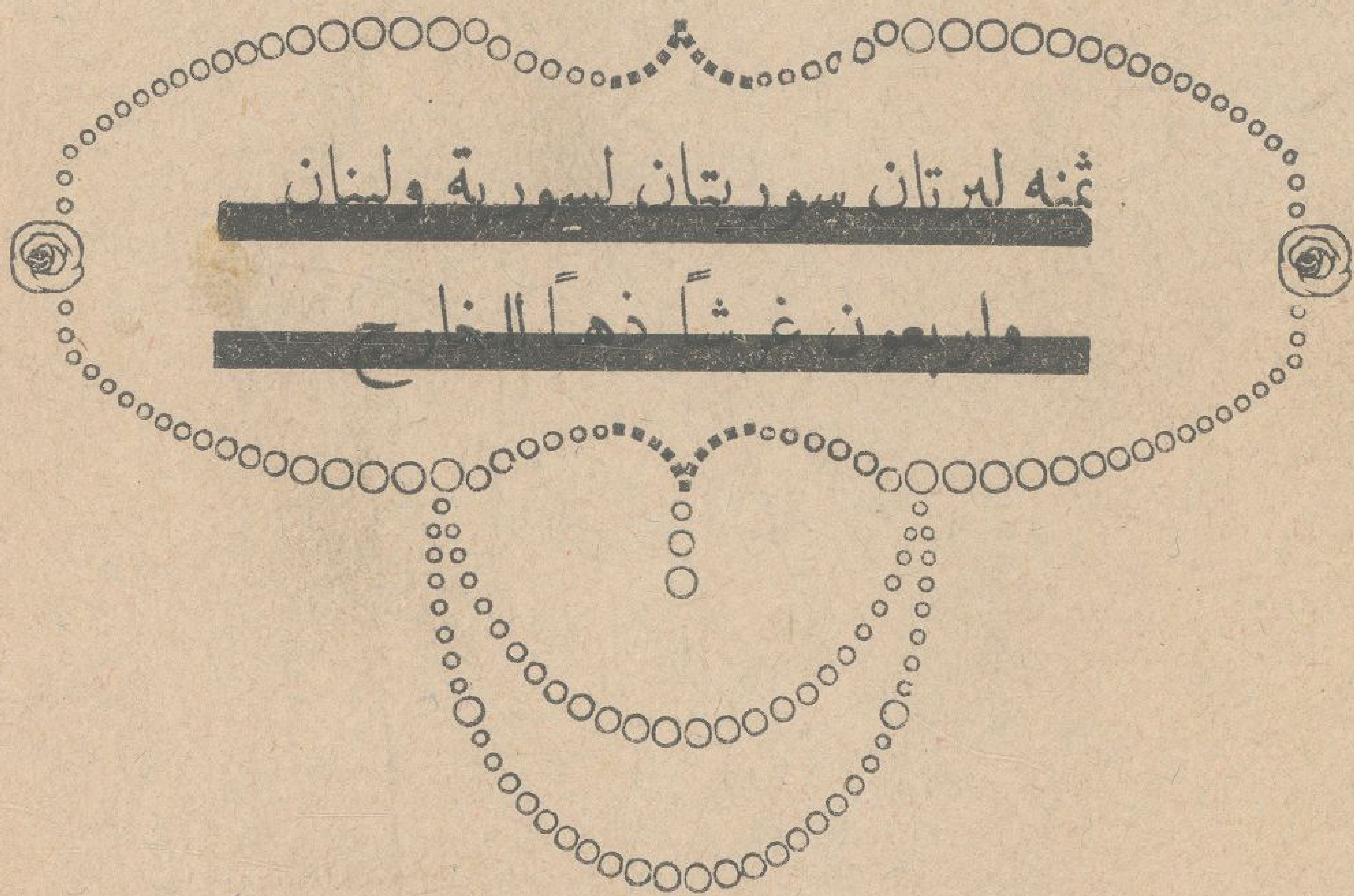
صفحة

صفحة

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٠٦٩	٢٠	ولا هم يستقدمون	ولا يستقدمون
٠٨٩	١٧	استخف قومه	فاستخف قومه
٠٩٥	١٠	سنة الله في خلقه	سنة الله في الذين خلوا من قبل
١٣٢	٠٢	فاصبروا وصابروا	اصبروا وصابروا
١٤٦	١٨	إنا خلقناه	إنا خلقناهم
١٤٦	١٨	أو لم يروا كيف يبدىء	او لم يروا كيف يبدىء الله
١٥٢	٠٤	أن كنتم تعلمون	ان كنتم صادقين
〃	٠٥	انت علام الغيوب	انت العليم الحكيم
〃	١٤	لا يعقلها	وما يعقلها
١٥٦	١٦	افتحذتم من دون الله اولياء	أفاتخذتم من دونه اولياء
١٥٩	١٤	ترهبون بها	ترهبون به
١٦٣	٠٧	نحن اولي قوة واولي بأس	نحن اولو قوة واولو بأس
١٦٣	١٣	مرسلة اليهم فناظرة	مرسلة اليهم بهدية فناظرة
١٦٤	١٢	فقال عفريت	قال عفريت
١٦٤	١٤	علم الكتاب	علم من الكتاب
١٦٥	٠٥	والارض ودحاها	والارض بعد ذلك دحاها
١٦٥	١٧	كانتا رتقا واحداً ففتقناهما	كانتا رتقا ففتقناهما
١٧٨	٠٦	لقوم يعقلون	لعلكم تعقلون
١٩٣	٠١	فلله خمسة	فأن لله خمسه
١٩٥	١٤	إن الذين يأكلون	الذين يأكلون
١٩٥	١٨	يمحوا الله الربى	يمحق الله الربا
١٩٦	٠٢	فنعمّ هي وإن تخفوها وتأتوها	فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٩٦	٠٥	والعاملين فى	والغارمين وفى
٢٠٦	٠٨	وجعلنا لكل شيء سببا	وآتيناه من كل شيء سببا
٢٠٦	١١	ارزل العمر حتى لا يعلم	ارذل العمر لكيلا يعلم
٢١٣	١٤	ادعوهم الى آباءهم	ادعوهم لآباءهم
٢١٥	٠٦	ما خلقت الانس والجن	وما خلقت الجن والانس
٢١٥	٦و٧	امرت ان اعبد ربي ولا اشرك بربي احداً	قل إنما امرت ان اعبد الله ولا اشرك به
٢١٥	٠٨	وإياك نعبد	إياك نعبد
٢١٧	١٧	الكافرون	المشركون
٢٢٧	١٣	ان يبتلعونه ويمتلكونه	ان يبتلعوه ويمتلكوه
٢٣١	١٣	سنة الله في خلقه	سنة الله في الذين خلوا من قبل
٢٤٩	١٧	سنة الله في خلقه ولن تجد	سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد
٢٧٨	٠٧	وآتوا الذكاة	وآتوا الزكاة
٢٧٨	٠٨	قالوا ربنا	وقالوا ربنا
٢٧٩	٠٣	بالكوروبيم	بالكروبيين
٣٤٢	١٧	لا يعقلها	وما يعقلها
٣٦٢	١١	إن ربك يفعل ما يريد ويختار	ولكن الله يفعل ما يريد
٣٦٢	١٢	فليس له من هاد	فما له من هاد
٣٦٣	٠٥	ألهمها	فألهمها
٣٦٣	٠٧	واليه ترجع الامور	والى الله ترجع الامور
٣٦٨	١٢	عربيا لقوم يعقلون	عربيا لعلكم تعقلون
٣٦٩	١٤	قل — اذا استطعتم	إن استطعتم
٣٨٣	٠٦	ذو الفضل العظيم	ذو فضل عظيم
٣٩٦	٠٤	والوالدين	او الوالدين



[redacted]

صح ، ثمن النسخة ليرة سورية في الداخل

و ٢٠ غ ٠ذ٠ في الخـارج

